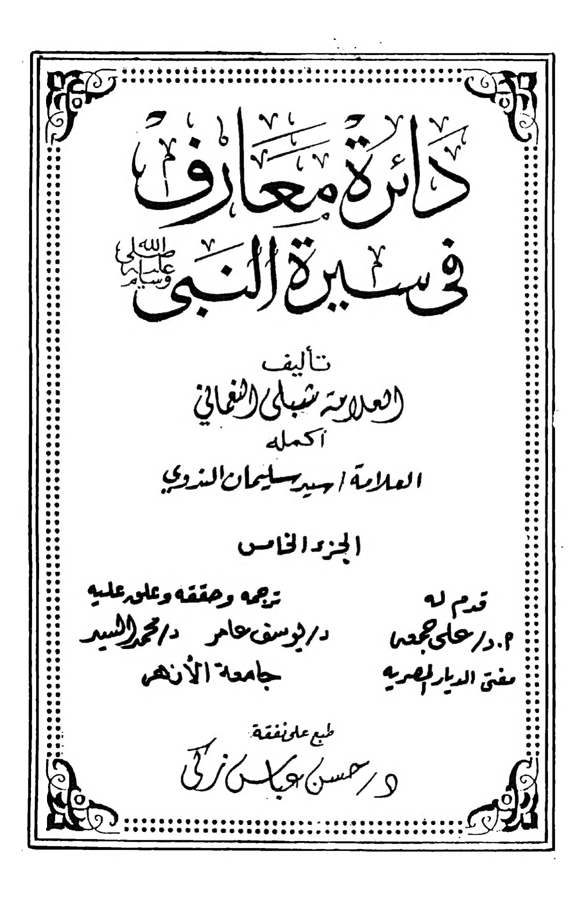


دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / سيد سليمان الندوي

الجزء الخامس

قدم له

أ.د/ علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه وحققه وعلق عليه

د/ يوسف عامر   د/ محمد السيد

جامعة الأزهر

طبع على نفقة

د/ حسن عباس زكي

تقديم المترجم

هذه هي ترجمة الجزء الخامس من كتاب «**دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ**». وقد سبق أن ذكرنا – في تقديم ترجمة الجزء الأول – أن مؤلفه **مولانا شبلي النعماني** كتبه في سبعة أجزاء. وتفضل السيد الأستاذ الدكتور **على جمعة مفتي الديار المصرية** بكتابة مقدمة وافية عن " **السيرة النبوية**" نشرت ضمن ترجمة الجزء الأول.

ورغم أن موضوع الكتاب" **السيرة النبوية**"؛ إلاّ أنه يضم بين دفتيه أجزاءً لا تتعلق بالمغازى ووقائع وأحداث السيرة النبوية فقط، والتي يُطلق عليها عامة "**السيرة**"؛ وإنما تتعلق برسالة الإسلام، وبمن بلغ هذه الرسالة. فالكتاب في مجمل أجزائه يُجيب على سؤالين: الأول: **من نبي الإسلام ؟** والثاني: **ما دعوته ورسالته؟** وتجيب الأجزاء الثلاثة الأولى على السؤال الأول، أما بقية الأجزاء، فتجيب على السؤال الثاني.

والجزء الخامس يتحدث عن الفروض الخمسة [1]، وحقيقتها، وفوائدها، والحكمة منها.

بدأ المؤلف هذا الجزء بمقدمة وافية عن العمل الصالح والعبادات، وذكر أن الهداية والتعليم اللذان جاء بهما محمد رسول الله ﷺ يقومان على أن نجاة الإنسان تقتصر وتنحصر في شيئين اثنين فقط: **الإيمان، والعمل الصالح**. وقد سبق أن تحدث تفصيلاً عن الإيمان في الجزء الرابع، لذا تحدث عنه في مقدمته هذه بإيجاز، وفصّل الحديث عن **العمل الصالح**. **فكتب أن الإيمان هو اليقين الكامل بالأركان الأساسية**، أما **العمل الصالح فهو العمل**

---

[1] الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والزكاة. (يوسف عامر).

طبقا لهذه الأركان؛ أي أن العلم أو اليقين بأي أمر بمفرده ليس كافيا للنجاح والفلاح مادام ليس هناك عمل يوافق ويطابق هذا العلم وهذا اليقين.

وعلى الرغم من أن الإسلام قد حصر نجاة الإنسان وفلاحه في الإيمان والعمل الصالح؛ إلا أن الإيمان يحظى بأهمية لدى عامة الناس تفوق الأهمية بالعمل الصالح. في حين أن لهما أهمية متساوية من الناحية العملية، والفرق بينهما فقط هو أن الإيمان أساس، والعمل الصالح جدار يقوم عليه.

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تثبت أن فلاح وخير الإنسان مرهون بالإيمان والعمل الصالح، وفي كل آية أُعطي الإيمانُ الدرجة الأولى، والعمل الصالح الدرجة الثانية. يقول الله تعالى: **﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** (العصر: ١-٣). ويقول تعالى: **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(التين: ١-٨)**.

بيّن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أن الإنسان مُنح كفاءة ومقدرة فطرية فائقة، ولكن تدنت هذه الكفاءة والصلاحية إلى أسفل سافلين بيد الإنسان نفسه، ولم ينج أحد من هذه الدرجة إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

زعم اليهودُ أن الجنة لهم، لذا رد الله عليهم بقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٢)**. أي أن الفوز بالجنة ليس مقصوراً على أي نسل أو قوم. ولك أن تقول بأسلوب آخر أن الفوز بالفلاح والنجاح لا يقتصر على أي نسل أو

قوم، ولا على أي دين أو ملة؛ وإنما يقتصر على من يؤمن بالأحكام الإلهية، ويعمل طبقا لها.

ذكر المؤلف أن العمل الصالح ذو مفهوم واسع، تدخل فيه كل فروع الأعمال الخيرية الإنسانية، وقسمه إلى ثلاثة أقسام هي: **العبادات، والأخلاق، والمعاملات**. وكتب إن لفظ العبادات في الإسلام له معانٍ ودلالاتٍ كثيرة، فيندرج تحته كل عمل يُبتغى به رضا الله تعالى، ومن ثم إذا تمت الأخلاقُ والمعاملاتُ بهذه النية الطيبة فإنهما تدخلان أيضا في العبادات.

وفي باب العبادات كتب المؤلف يقول: يُعتقدُ أن العبادات تعني بصفة عامة بعض الأعمال الخاصة التي يقوم بها الإنسان لله تعالى. ولكن هذا المفهوم لمعنى العبادة ضيق جداً، فلم يرسل الله تعالى رسوله محمد (ﷺ) إلى الناس ليعلمهم طرقا أخرى للعبادة في الإسلام بدلا من طرق عبادة الأديان السابقة، وإنما أرسله ليخبر الناس بحقيقة العبادة وغايتها، إضافة إلى تكميل طرق العبادات السابقة، وتفسير المبهم منها، وتفصيل المجمل من التعاليم.

كان العرب – على سبيل المثال – جاهلين حقيقة الأديان السماوية وبعيدين عم مفهوم العبادة وغايتها، جاهلين طريقها الصحيح. ولم يستطع يهود العرب ومسيحيوه أن يقدموا لهم أية حقيقة واضحة لها عن طريق أعمالهم وتعاليمهم. وكان أكبر عمل في العقائد للفرق المسيحية في بلاد العرب في تلك الفترة هو أنهم كانوا يؤمنون بإلوهية المسيح عليه السلام، وفي مجال العبادات حرموا على أنفسهم متعة الحياة الدنيا، وبنوا دور عبادتهم وصوامع في صحاري بلاد العرب وجبالها، واستقروا بها تاركين السعي والتعب في الدنيا، ويقضون حياة متقشفة مجردة.

أما عن اليهود فقد عُرِفوا في بلاد العرب بسوء أخلاقهم وبأعمالهم السيئة. صور القرآن الكريم حالة هذين الفريقين، وذكر أن اليهود عصاة ويأكلون الحرام، ويعبدون الطاغوت. أما المسيحيون فهم مغالون في الدين.

قال تعالى: ﴿ **لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ (النساء: ١٧١)، ﴿**وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » (المائدة: ٦٢)، وقوله تعالى: « **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** » (الحديد: ٢٧). وقال تعالى: ﴿ **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ** ﴾ (البقرة: ٦١)، وقال تعالى: ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ** ﴾ (المائدة: ٦٠).

ويذكر المؤلف أنه لم تكن هناك عبادة لله الواحد القهار خارج بلاد العرب، فكان اليونانيون يعبدون تماثيل ملوكهم وأبطالهم إضافة إلى أشكال النجوم. وكان المسيحيون في الروم وآسيا وأوربا وأفريقيا ومصر وبلاد البربر والحبشة وغيرها من بلاد المسيحيين يعبدون تماثيل السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام، فضلا عن عبادتهم لأصنام وعظام الآثار المزيفة للمئات من أوليائهم. وكانت النار تُعبد في بلاد فارس، وكانت أصنام بوذا تُعبد في بلاد الهند والصين والتركستان وغيرها، كما كان كنفوشيو الصين يسجدون أمام تماثيل آبائهم وأجدادهم، كما كانت الشمس تُعبد في الهند خاصة وكذلك نهر الكنج، وكان صائبو العراق مبتلين بعبادة السبع السيارة، وكانت بقية دول العالم تعبد الأشجار والأحجار والحيوانات وغيرها.

خلاصة القول هو أنه في نفس الوقت الذي كان فيه العالم أجمع قد ترك عبادة الله الواحد، وعبد كل المخلوقات في السماء والأرض جاء نداء من أرض خاوية من الماء والكلأ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾(البقرة: ٢١). لذا كان القضاء على عبادة الباطل هو أول عمل قام به النبي محمد (ﷺ) من أجل إتمام الدين الحق،

والدعوة بوضوح إلى سجود كل المخلوقات وعبادتها لله الواحد القهار. يقول الله تعالى:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ (مريم: ٩٣).

كتب المؤلف عن مميزات وخصائص العبادة في الإسلام، فبيّن أن الإنسان لا يحتاج إلى أي شيء خارجي وقت عبادته لله تعالى سوى للجسم والروح؛ أي لا حاجة من شمس تشرق وينظر إليها، ولا حاجة إلى نهر يذهب إليه ويقفز فيه، ولا حاجة من إشعال النيران، ولا شرط لارتداء أي نوع من اللباس وغيرها من الأشياء والوسائل الخارجية؛ فالعبادة في الإسلام بعيدة ومنزهة عن القيود والشروط الخارجية كلها، بل تحتاج فقط إلى لباس طاهر، وقلب وبدن صافيين. ولو أن هناك أي مانع من طهارة البدن واللباس (أحيانا) فلا حرج. كما أن العبادة في الإسلام ليست في حاجة إلى وساطة أسرة معينة أو شخص معين؛ فلا حاجة في الإسلام إلى البراهمة، أو القس أو المعابد كالهندوسية، ولا إلى كاهن، أو الحاخام، أو الرب، ولا إلى وساطة نسل هارون عليه السلام كاليهود، ولا إلى رجل الدين كما في الباريسية؛ وذلك لأن كل عبد في عبادة الإسلام يخاطب ربه سبحانه وتعالى، ويعرض عليه حاله وشكواه. يقول تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠). والعبادة في الإسلام لا تتقيد بمكان؛ فالأرض جُعلت لأمة محمد (ﷺ) مسجداً وطهوراً. والعبادة في الإسلام تقوم على الوسطية دون تكليف الإنسان بما لا يطيق.

وبعد حديث مفصلٍ عن العبادة في الإسلام: حقيقتها والغرض منها كتب المؤلف عن أركان الإسلام أي الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، والحج. كتب عن وجود الصلاة في الأديان السابقة، وفصل الحديث عن مكانتها في الإسلام وحقيقتها، والهدف منها وغايتها، وبعض الآداب

والشروط الواجبة لها، كما كتب عن أساس نظـام الاتحـاد فـي الـصلاة، والحركات البدنية فيها، وأركان الصلاة، وترتـب هـذه الأركـان، ودعـاء الصلاة، كما قارن هذا الدعاء بالأدعية المنصوص عليها لبقية الأنبياء عليهم السلام، وكتب عن ضرورة تحديد أوقات الصلاة، وأوقاتهـا فـي الأديـان الأخرى، وكتب عن حكمة مواقيت الصلاة، وعن القبلة، وعن عدد الركعات في صلاة كل فرض، وعن القنوت وغيرها من الأمور التي تتعلق بالصلاة.

كتب عن الزكاة: حقيقتها ومفهومها، وأهميتها في الإسلام، وتطبيقهـا التدريجي، ومقدارها، وتحديد مدتها، ومصارفها، وأهدافها وفوائـدها، وكـل أمر يتعلق بهذه الفريضة. كتب عن الصيام: مفهومه وبدايته بين البشر، كمـا كتب عن التاريخ الديني للصوم، وحقيقته، وحقيقة وصوم رمضان، وتحديـد أيام الصوم، كما كتب تفصيلا عن كل أمر يرتبط بالصوم.

كتب عن الحج، وبيت الله الحرام، والأضحية، ومكة والكعبة، وحقيقة الحج وشعائره، وإصلاحات الإسلام في الحج، وأركان الحج، وكل أمر يتعلق بالحج وآدابه وفوائده ومنافعة ومركزيته.

بعد ذلك تحدث الكاتب عن فرض خامس في الإسلام ألا وهو الجهاد، فتحدث عن مفهومه وأنواعه.

ثم ختم هذا الجزء بحديث مفصلٍ عن العبادات القلبية، والتي من بينها التقوى، والإخلاص، والتوكل على الله، والصبر، والشكر لله تعالى.

ويحرص المؤلف في كل ما كتب على الرجوع إلى ما جاء في القرآن الكريم، والصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة.

ويتسم أسلوبه بالحوار مع الأديان الأخرى مقتبـساً مـن نـصوصها وكتبها معلقاً عليها مستدلاً بما جاء في الكتاب والسنة على صحة ما يقول.

كما يُورد المؤلف أحيانا بعض الأشعار الفارسية المتضمنة لمثل عليا وحكم جليلة، وهذا يدل على ثقافته الشرقية والإسلامية الواسعة، وحرصه على تواصله بها.

أما عن الترجمة، فإن أكبر مشكلة واجهتني هي أن النسخة التي اعتمدت عليها في الترجمة كانت بها بعض الأخطاء الخاصة بالحواشي، فتوجد حواشي أسفل الصفحة دون وجود رقم لها في المتن والعكس صحيح؛ لذا حرصت على تدارك هذا الخطأ بالرجوع إلى النصوص الأصلية التي رجع إليها المؤلف.

اقتبس المؤلف آيات قرآنية كثيرة ولكن دون تخريج، وهو ما حرصت عليه في كل آية كريمة استدل بها المؤلف.

رجع المؤلف إلى أحاديث نبوية كثيرة، ولم يكتب نصها العربي، واكتفى بترجمة معانيها إلى اللغة الأردية؛ لذا حرصت على تحقيق هذه الأحاديث، وكتابة نصها العربي من خلال كتب الصحاح. وهناك أحاديث أشار إلى معناها فقط ولم يترجمها، لذا قمت بكتابة نصها كاملا في الحاشية؛ حتى يتعرف القارئ عليها بسهولة. أما بعض الأحاديث التي أوردها المؤلف بنصها العربي في المتن، حرصت على تحقيقها من كتب الصحاح وأدرجتها بتخريجها في الحاشية.

اقتبس المؤلف كثيراً من الكتب والمصادر العربية وهو ما حرصت على تحقيقه والرجوع إلى نصه الأصلي.

استشهد المؤلف بكثير من فقرات التوراة والأناجيل المختلفة مكتفيا بترجمة معانيها إلى اللغة الأردية دون إدراج نصها العربي؛ لذا حرصت على توثيق هذه الاقتباسات وإدراج نصها العربي كما وردت في التوراة والأناجيل العربية.

استخدم المؤلف مصطلح "المحمدي" فى بعض المواضـــع مـــن مثـــل التعاليم المحمدية، والشريعة المحمدية. لذا حرصت على ترجمتها إلى التعاليم الإسلامية والشريعة الإسلامية؛ حتى لا ينـــسب بعـــض المغرضـــين الـــدين الإسلامي إلى النبي محمد ﷺ وقومه فقط. والحقيقة هي أن المستشرقين هـــم أول من استخدم مثل هذه المصطلحات حتى يأتي زمان ويعتقد فيه المسلمون أنفسهم أن الإسلام دين محمد ﷺ وقومه، ولـــيس الـــدين الخـــاتم والـــشارح والمكمل للأديان السابقة.

استشهد المؤلف بأشعار فارسية وأردية؛ لذا حرصت على ترجمتهـــا إلى اللغة العربية.

وفي النهاية لابد أن أشير إلى أن الأخ محمد السيد عبد الخـــالق قـــد شاركني في ترجمة هذا الجزء (الخامس)، فقد ترجم نصفه كاملا. وقمت أنـــا بمراجعة الترجمة، كما قمت بتخريج الآيات القرآنيـــة، وتحقيـــق الأحاديـــث النبوية، والنصوص العربية، وتوثيق نصوص التوراة والأناجيل في الجـــزء الخامس بأكمله؛ لذا حرصت على كتابة اسمي (يوسف عامر) بعد أي تـــدخل مني في الحاشية؛ حتى إذا كان هناك أي خطأ في التخـــريج أو التحقيـــق أو التوثيق يرجع إليّ أنا وليس إلى الأخ محمد أو المؤلف.

أتقدم بخالص الشكر لأسرتي الكريمة التي منحتني الوقت الكافي للقيام بهذا العمل. جزاهم الله تعالى عني خير الجزاء.

يوسف عامر

قسم اللغة الأردية، كلية اللغات والترجمة،

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الصافات:١٨٠-١٨٢)

مقدمة

نُشر الجزء الرابع من كتاب سيرة النبي ﷺ في ربيع الأول سنة ١٣٥١هـ، واليوم ــ بعد ثلاث سنين ــ نُقدم لكم الجزء الخامس. وبفضل الله تعالى يتحقق هذا العمل خدمة لدين الله تعالى عن طريقي أنا العبد المذنب، وأرجو أن يلقى قبولا واستحسانًا لدى عباد الله تعالى.

الموضوع:

إن موضوع هذا الجزء هو العبادة، ففيه حديث عن حقيقة العبادة وماهيتها، وعن أقسامها وأنواعها في الإسلام، وحكمة كل قسم ونوع. كما يتضمن – أيضًا – الحديث عن إتمام دروس الأديان السابقة، والتي اتضحت عن طريق ذات محمد(ﷺ). وأشير إلى أن ما دونته وفسرته من أمور؛ فهي محاولات مني أنا؛ لذا أدعو الله تعالى ألاّ تزل قدمي عن الصراط المستقيم، وألاّ أبتعد عن الهدف الأصلي، والذي هو العروة الوثقى لكل مسلم. وأكرر ما قاله بعض الصحابة والسلف الصالح(ﷺ):" هذا وإن كان من توفيق فمن الله تعالى، وإن كان فيه خطأ فمني ومن الشيطان والله منه براء".

صلة هذه الأجزاء بالسيرة النبوية:

ورد كثيرا بين دفتي هذا الكتاب أجزاء لا تتعلق بالمغازي وأحداث السيرة فقط، والتي يُطلقُ عليها عامةً "السيرة"، وإنما تتعلق برسالة

الإسلام، وبمن بلّغ هذه الرسالة. أو قل تتعلق بالدعوة الإسلامية ونبيهـا ﷺ. ويمكن أن نقول بعبارة أخرى أن أجزاء هذا الكتاب تُجيبُ كلها على سؤالين: الأول: من نبي الإسلام؟ الثاني: ما دعوته ورسالته؟ والأجزاء الثلاثة الأولى من هذا الكتاب تجيب على السؤال الأول، أما بقية الأجزاء فهي إجابة علـى السؤال الثاني.

وفي إعدادي وتكميلي لأجزاء هذا الكتاب حاولت الالتزام بكـل مـا أستطيع بالخطة التي كان قد أعدها أستاذي العلامة شبلي النعمانى رحمه الله تعالى، إضافة إلى الأمور الشفهية، التي كان يتفضل بها - رحمه الله تعـالى - في أحاديثه مع الآخرين. يكتب العلامة شبلي بنفسه في رسـالة إخوانيـة له:-

" أريد أن أتحدث عن أشياء كثيرة فى كتاب السيرة النبوية هذا، مثـل إلقاء إطلالة على القرآن الكريم، وتعليق على أهم المسائل. خلاصة القول هو أنني أريد أن يكون هذا الكتاب موسوعة فى السيرة النبوية. وأرى أن مسمى " دائرة المعارف النبوية " سيكون مناسباً له رغم أنه عنوان طويل. على أي حال لم أفصل فى هذا الأمر حتى الآن" (من رسالة له إلـى مولانـا حبيـب الرحمن خان شروانى ص١٠٤)

وضع المؤلف فى مقدمة المجلد الأول من كتاب السيرة عنوانًا لهـذه الموضوعات وهو " مقام النبوة "، وكتب يقول: " يدور الجزء الثـاني حـول مقام النبوة، أي فرض تعليم النبوة، والعقائد، والأمـر والنهـي، وإصـلاح الأعمال والأخلاق، ومن ثم كُتب تفصيلا فى هذا الجزء عـن أعمـال مقـام النبوة. أما فى هذا الجزء (الخامس) كتب عن الفروض الخمـسة، وتـاريخ مفصل عن بداية وتدرج الأوامـر والنـواهي كلهـا وأحكامهـا وفوائـدها ومناظرتها بالأديان الأخرى. كما كُتب فيه أيضًا بتفصيل عن عقائد العـرب وأخلاقهم وعاداتهم فى القديم قبل الإسلام، وما حدث فيها مـن إصـلاحات

وتعديل، وما قدمه الإسلام من دستور ومنهج للعالم أجمع، وكيف يمكـــن أن يكون هذا الدستور وافيا للعالم أجمع". (المجلد الأول، الطبعـــة الأولـــى، ص ٧٤، والثانية ص ٩٧).

حقيقة الأمر هى أن الجزأين الرابع والخامس والجزأين التاليين -أيضاً - يتحدثان بتفصيل عن مباحث مقام النبوة. كُتب فى الجـــزء الرابـــع عـــن موضوع مقام النبوة، وأحوال العرب قبل الإسلام، وتعليم العقائد. أما فى هذا الجزء الخامس، فيقتصر الحديث عن الفروض الخمسة، وفوائدها، والحكمـــة منها. وخُصّصَ الجزء السادس للحديث عن الأخلاق والمجتمع. أما الجـــزء السابع، فسوف يكون عن بقية الأوامر والنواهي، التي لها علاقة بالمعاملات. وفى الحديث عن كل موضوع من هذه الموضوعات أُعتمد اعتماداً كليا على القرآن الكريم حسبما أشار المؤلف الأول مولانا شـــبلي، كمـــا وُضـــع فـــى الاعتبار تاريخ تدرجها، وأُزيح الستار عن فوائدها والحكمة منها. كما عُقدت مناظرة مع الأديان الأخرى، وكُتِبَ عمَّا حث عليه الإسلامُ من تعليمات فـــى كل بحث من المباحث فى هذا الأمر، ولِمَ يكون الإسلامُ كافيا للعالم أجمع. يقول الشاعر: عرفوا حالي من الببغاء، فإني أقول ما قاله أستاذي.

حسن القبول:

الشكر كله لله تعالى، الذي أنعم على هـــذا الكتـــاب بحـــسن القبـــول والشهرة. يقول الشاعر:

أعلم أن قبول خاطر القلوب نعمة من الله.

حين نشر الجزء الأول من هذا الكتاب قال لي شخص فاضل ــ أثـــق فيه، وما خرج من فمه إلا الصدق ــ " سيلقى هذا الكتاب حـــسن القبـــول ". وبالفعل صدّقت الأيامُ على رأيه هذا، فقد نشر كل جزء من أجزائه أكثر من

مرة، وتعلق به المسلمون ببلاد الهند وخارجها تعلقًا صادقا، ليس هذا فحسب، بل تُرجمت ثلاثة أجزاء منه إلى اللغة التركية، ونُشرت في القسطنطينية، كما تُرجمت أجزاءٌ منه إلى اللغة الفارسية فى كابل، وهى حتى الآن تحت الطبع، والأفضل من هذا كله هو أنه تولدت فكرة ترجمته إلى اللغة العربية فى مكة المكرمة(١).

وأكبر دليل على حسن قبوله وشهرته، هو أنه منذ نشره للمرة الأولى وحتى اليوم أُلفت مئات الكتب فى موضوعه باللغة الأردية، بعد أن كانت خاوية من كتاب نفيس في هذا الموضوع، وبهذا وجدت ثروة عظيمة بفضل الله في لغتنا الأردية عن السيرة النبوية، ليس هذا فحسب، بل أخذ المسلمون يقبلون إقبالا شديداً على دراسة السيرة النبوية ومطالعتها.

مساعدة أمراء المسلمين

إن من أدلة حسن قبول هذا الكتاب أن المؤلف مولانا شبلى رحمه الله تعالى حين أعلن عن خطة تأليفه له، كانت السيدة "نواب سلطان جهان بيكم" حاكمة إقليم "بهوبال" السابقة، هي أول من لبت دعوة الإنفاق على هذا المشروع؛ وهذا بفضل تعلق قلبها بعشق (الرسول ﷺ)، وتتصف بحب خدمتها للأمة المحمدية (داعين الله تعالى أن يمطر عليها زهور الرحمة).

---

(١) وأفخر بأن الله تعالى قد وفقني ونلتُ شرف ترجمة خمسة أجزاء كاملة من أجزائه السبعة وتحقيق أحاديثها ونصوصها. وقام أستاذان فاضلان بترجمة الجزأين الآخرين. وقد تمت هذه الترجمة بكنانة الله فى الأرض مصر تحت رعاية وإشراف أ.د. على جمعة مفتي الديار المصرية، والدكتور. حسن عباس زكى. وقد قام الدكتور حسن عباس زكى بطبع الأجزاء كاملة على نفقته الخاصة. داعين الله تعالى أن يجعله فى ميزان حسناته، ويبارك له فى العمر والصحة وكل شيء.(يوسف عامر).

وحين توفي مولانا شبلي – المؤلف – في نوفمبر ١٩١٤م، ظننتُ أن كرمها وسخاءها هذا لن يدوما، ولكنها قالت: "إن هذا العمل لم يكن من أجل المؤلف الذي توفاه الله تعالى، وإنما كان لربه سبحانه وتعالى فهو حي لا يموت".

لهذا ظلت باقية على مساعدتها المالية الشهرية كما هي. وكان المؤلف شبلي رحمه الله قد كتب أشعاراً عن تأليف كتاب السيرة هذا يقول فيها ما ترجمته:

مطمئن أنا تماما من ناحية الإنفاق (على الكتاب)

بسبب سحاب كرم وسخاء سلطانه جهان بيكم

بقي فقط التأليف والدراسة

وأنا مستعد له بالقلب والروح

خلاصة القول هو أن هناك يدين تنجزان هذا العمل

إحداهما يد هذا الفقير إلى الله، والثانية يد السلطانة

وحين توفي مولانا شبلي قالت السلطانة: "أما الفقير إلى الله فقد رحل، والآن جاء دوري أنا". ثم رحلت هذه الفقيرة إلى الله هي الأخرى، ومن ثم كان هناك شعور بخطر عدم إتمام هذا الكتاب، ولكنها خلفت مكانها أفضل من يجلس على العرش، واستطاع " سكندر صولت افتخار الملك نواب حاجي حميد الله خان بهادر" حاكم "بهوبال" أن يتحمل أعباء ما تركته، وحرص على مساعدة مشروع تأليف هذا الكتاب. داعين الله أن يعطه البركة في كل شيء، فهو يحقق الكثير والكثير من رغبات الأمة بفضل رعايته واهتمامه؛ لذا ندعو الله تعالى بتخليد ملكه.

في سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م نُشر الجزء الأول من كتاب سيرة النبي، وحين قُدّمت نسخة منه لسلطان الدكن السيد أصفجه السابع وظفر الملك والممالك نظام الدولة خلد الله ملكه، سعد كثيراً بهذا العمل؛ إذ كان من

العاشقين لخاتم النبيين وسيد المرسلين وحبيب رب العــالمين محمــد عليــه الصلاة والسلام، قرأها وأعرب عن مدى سعادته بهذا العمل، ومن ثم تبــرع بمبلغ شهري من أجل طباعة الأجزاء الأخرى من الكتاب، ومن ثــم حُلّــت المشكلة الاقتصادية الخطيرة التي كنا قد عانينا منها في السنوات الأخيرة.

ندعو الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى تكميل بقيــة أجــزاء الكتــاب، خاصة وأنه قد مضى من العمر ٥٠ سنة؛ لذا ندعو الله ســبحانه وتعــالى أن يوفقنا في إتمام بقية هذا العمل فيما تبقى من العمر، حتى نسعد فــي النهايــة بقول سعدى الشيرازي: لقد تم المنزل ووصل العمر إلى النهاية، كمــا بقينــا نحن أيضا فى بداية وصفك.

سيد سليمان الندوى

شبلى منزل، اعظم كرهــ ٢٣ رجب ١٣٤٥هــ.

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل الصالح

"الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"(البقرة:٢٥)

إن الهداية والتعليم اللذين جاء بهما محمد رسول الله (ﷺ) يقومان على أن نجاة الإنسان تقتصر وتنحصر فى شيئين فقط:

الأول: الإيمان

والثاني: العمل الصالح

تحدثنا في الجزء الرابع من هذا الكتاب عن شرح الإيمان وتوضيحه، والآن نتحدث في هذا الجزء الذي بين أيدينا عن توضيح العمل الصالح وبيانه. والإيمان هو اليقين الكامل بالأركان الأساسية، أما العمل الصالح فهو العمل طبقاً لهذه الأصول والأركان الأساسية؛ أي أن العلم أو اليقين بأي أمر بمفرده ليس كافيا للنجاح والفلاح طالما ليس هناك عمل يوافق ويطابق هذا العلم وهذا اليقين.

أَقَرَّ الإسلامُ بأن نجاة الإنسان وفلاحه ينحصران فى هذين الشيئين؛ أي الإيمان والعمل الصالح. ولكن ما يدعو للأسف هو أن الإيمان يحظى بأهمية لدى عامة الناس تفوق الأهمية بالعمل الصالح، في حين أن كليهما له حيثية ومكانة اللازم والملزوم للآخر، ولهما أهمية متساوية من الناحية العملية، والفرق بينهما فقط هو أن الإيمان أساس، والعمل الصالح جدار أو عمود يقوم عليه، فكما أنه لا يمكن أن يقوم المبني بدون أساس، لا يمكن أيضًا أن يقوم

بدون عمود. وأفضل مثال لهذا قواعد إقليدس وأشكاله، فحيثية الإيمان هي حيثية الأصول أو القواعد الموضوعة والأصول المتعارف عليها، والتي تستحيل بدون التسليم الصحيح بها أصول وأشكال إقليدس. ولكن إذا سُلِّم بالأصول الموضوعة والأصول المتعارف عليها فقط، ولم يُعمل طبقاً للأشكال، فلا تتحقق أي فائدة من فن إقليدس في فن العمارة والهندسة والمساحة، ولن تتحقق للإنسان الفائدة المرجوة منه، والتي هي الهدف الأصلي من هذا الفن.

ولإزالة سوء الفهم هذا من أذهان عامة الناس لابد من تقديم تعليم القرآن الكريم وهدايته تفصيلا لهذا الأمر. بَيَّن القرآن الكريم طريقة فلاح الإنسان ونجاحه في عشرات الآيات الكريمة، ولكنه في كل موضع دون استثناء حصره في كل من الإيمان والعمل الصالح، وفي كل موضع أعطى الإيمان الدرجة الأولى، والعمل الصالح الدرجة الثانية. قال تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١: ٣).

إن التاريخ الإنساني شاهد عدل على هذه الحقيقة، وهي أن أبواب الفوز والفلاح والتفوق مفتوحة أمام هؤلاء الأفراد والشعوب الذين كانوا على يقين بالحقائق الربانية، وكان عملهم طيبًا أيضا وفق هذا اليقين. يقول الله تعالى في سورة أخرى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين: ٤–٦)

بيَّن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة الكفاءة والمقدرة الهائلة الفطرية لدى الإنسان، ثم تدني هذه الكفاءة والصلاحية إلى أسفل سافلين بيد الإنسان نفسه، ولكن من هم هؤلاء الناس الذين نجوا من هذه الدرجة، التي هي في أسفل سافلين؟ هم أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال الله تعالى لليهود

الذين زعموا أن الجنة لهم فقط: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ (البقرة:٨٢).

أي أن الفوز بالجنة ليس محصوراً على أي نسل أو أي قوم، وإنما يقتصر على الإيمان والعمل الصالح؛ فأي شخص يؤدي قيمة الجنة يمتلكها. قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المادة: ٦٩)

والهدف من هذه الآية أيضا هو أن الفوز بالفلاح والنجاح لا يقتصر على أي نسل أو قوم، ولا على أي دين أو ملة، وإنما يقتصر على من يؤمن بالأحكام الإلهية، ويعمل طبقا لها. إن نتيجة عدم الإيمان والعمل السيئ هي الهلاك في الدنيا والآخرة، أما نتيجة الإيمان والعمل الصالح هي خير الدنيا والدين. وهذا هو قانون الله الطبيعي، والذي لا يوجد فيه فرق مقدار شعرة أبدا، ولن يكون؛ لذا قال تعالى على لسان ذي القرنين.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ (الكهف: ٨٧، ٨٨).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾(الأنبياء: ٩٤).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياً (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (مريم: ٥٩-٦٠).

يثبت من هذه الآيات وغيرها في هذا الموضوع أن أحقية الجنة لمن يتصفون بالإيمان، ويعملون طبقاً له، أما من لا يعملون – طبقا للإيمان – فهم محرومون من هذه الأحقية، إلا من ينعم الله عليهم. يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشورى: ٢٢، ٢٣).

وقال في آية أخرى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ (الكهف: ١٠٧).

ثم يقول تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: ١١٠).

والحقيقة هي أن عدم الالتزام بالعمل الصالح فى وجود الإيمان ما هو إلا أمر فرضي؛ إذ إنه إذا كان هناك نقص في العمل، يكون هناك نقص في الإيمان؛ وذلك لأن العمل خلافا لأي شيء يؤمن ويُسلمُ به يخالف الطبيعة الإنسانية. فإن من يؤمن ويصدق بأن النار محرقة كيف يجرؤ على إلقاء يده فيها؟ ولكن الطفل غير الواعي مازال لا يعرف تماماً أن النار محرقة؛ لذا فهو يكون مستعدا لإلقاء يده فيها. ومن ثم فالتقصير في العمل يكشف سر ضعف إيماننا ويقيننا.

كان هذا هو السبب في أن الإيمان وحده أو العمل وحده ليس طريقا ووسيلة للنجاة والفوز، وإنما اجتماعهما معا يحقق النجاح والفلاح. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ (الحج: ٥٦).

ومن ثم ورد هذا القول الإلهي في القرآن الكريم في خمسة وأربعين موضعا مع شيء من التغيير البسيط، ومنه قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة:٢٥)

يثبت من هذا – قطعاً– أن الإيمان والعمل في نظر الإسلام يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطا لا يمكن فصله، وإليهما يرجع النجاح والفوز، وليس بينهما أي فرق في هذا، سوى أن الإيمان مقدم في الدرجة عن العمل. إن من وعدهم الله تعالى بالحكومة والسلطنة الدنيوية والنفوذ هم المتصفون بالعمل الصالح جنبا إلى جنب مع الإيمان. يقول تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(النور: ٥٥).

وبسبب الإيمان والعمل الصالح معا وعد الله تعالى بالمغفرة في الآخرة والأجر العظيم (الرزق) في الدنيا. يقول تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(المائدة: ٩).

في بعض آيات القرآن الكريم عُبِّر بالإسلام عن الإيمان، وبالإحسان عن العمل الصالح. فعلى سبيل المثال قال الله تعالى ــ يرد على زعم اليهود والنصارى في أن الجنة من نصيبهم هم فقط ــ :

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١٢).

يثبت من هذه الآيات الكريمة كلها هذه القاعدة، وهي أن النجاة والفلاح منوطان بالإيمان والعمل الصالح معاً، وهذا دليل على عظمة الإسلام، ففي كثير من الأديان والمعتقدات يتضح الغلو والمبالغة، ففي المسيحية – حسبما ورد في شريعة مكاتيب بولس—[1] أن النجاة موقوفة على الإيمان فقط، وفي

---

[1] إلى الرومان ٣، ٤. ورد في هاتين الفقرتين: "حاشا، بل ليكن الله صادقا وكل إنسان كاذبًا كما هو مكتوب لكي تبرر في كلامك وتغلب متى حوكمت" رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح ٣، فقرة ٤، ص ٢٤٩. (يوسف عامر).

شريعة البوذية يحصل الإنسان على النجاة بالعمل الصالح، كما ذكر فيها أيضاً أن التأمل فقط طريق النجاة، ولكن رسالة نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام تؤكد أن نجاة الإنسان وفلاحه مقرونان بكل من الأعمال الذهنية (الإيمان) والبدنية (العمل الصالح) معاً؛ أي أن الشيء الأول هو إيماننا ويقيننا الصحيح بالأركان الأساسية، وهو ما يُطلَقُ عليه الإيمان، ثم يجب أن يكون عملنا صحيحاً وسليماً طبقاً لهذه الأركان والأسس، وهو ما يسمى بالعمل الصالح، وأي نجاة أو فلاح يقوم على هذين الشيئين، فلا يمكن لأي مريض أن ينجو من الأمراض بإيمانه وتسليمه الصحيح بالتعاليم الطبية فقط، طالما لا يعمل وفق هذه التعاليم والأصول الطبية. وهكذا فالتسليم بأسس الإيمان وأركانه فقط، ليس كافياً للنجاح والفلاح الإنساني، مادام ليس هناك عمل مطابق لهذه الأسس والأصول. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون: ١ – ١٠).

جعل الله تعالى كل شيء في هذا العالم تابعًا لعللنا وأسبابنا المادية، وهنا أيضا لا يمكن الحصول على النجاح والفلاح بالعقيدة والإيمان الذهني والعقلي فقط، مادام لا يُعمل وفق هذه العقيدة، فاليقين بأن الخبز علاج قطعي لجوعان لا يدفع الجوع؛ إذ لابد لنا أن نسعى ونجتهد ونحصل على الخبز، ونقضمه ونبلعه في بطوننا. نؤمن بأن أقدامنا تأخذنا، ولكن لا يمكن لنا أن نصل من أي مكان إلى آخر، مادمنا لا نحرك أقدامنا بصفة خاصة بجانب هذا الإيمان. وهذا هو الحال في أعمالنا الدنيوية الأخرى، فالإيمان وحده دون

العمل لا فائدة له في الفوز بالنجاح في هذه الدنيا، وهناك قدر من الصحة في أن من يؤمن فقط بهذه الأصول والأسس أفضل حالا ممن لا يؤمن بها تماما، إذ إنه يمكن أن يكون هناك أمل في أول الذكر، بأن يأتي أحباؤنا إلى الطريق المستقيم، ويعملوا العمل الصالح، أما الثاني فيبقى في منزلته الأولى كما هو، ومن ثم فالأول ربما يكون مستحقا لفضل الله تعالى وكرمه في الآخرة مقارنة بذلك المنكر (الثاني)؛ لأنه كان على الأقل يؤمن بأوامره سبحانه وتعالى إيمانا صحيحا.

أقسام الأعمال الصالحة

إن العمل الصالح ذو مفهوم واسع، تدخل فيه كل فروع الأعمال الخيرية الإنسانية، ولكننا نقسمه إلى أقسام جلية، وهي: **العبادات، والأخلاق، والمعاملات.**

إن لفظ "**العبادات**" في الإسلام يتسم بسعة معانيه، فيندرج تحته كل عمل يُبتغى به رضا الله تعالى، ومن ثم إذا تمت "الأخلاق" و"المعاملات" بهذه النية الطيبة فإنها تدخل أيضاً في "العبادات". ولكن الفقهاء أقروا بأن هذه مصطلحات ثلاثة مستقلة، يمكن بيانها كالآتي:

أولاً: الأعمال الصالحة على قسمين: أحدهما خاص بالله تعالى، وهو ما يطلق عليه "العبادات". والثاني خاص بالعباد. وهو على نوعين. الأول يتعلق بالغرض الإنساني، وهو ما يسمى بالأخلاق. والثاني يتعلق بالمسئولية القانونية. وهو ما يسمى بالمعاملات.

وهذا الجزء من الكتاب والأجزاء البقية الأخرى تتناول تفصيل أقسام الأعمال الصالحة الثالثة (العبادات، والأخلاق، والمعاملات) وشرحها.

العبادات

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(البقرة: ٢١).

يُعتقد أن العبادة تعني بصفة عامة بعض الأعمال الخاصة التي يقوم بها الإنسان لله سبحانه وتعالى، ولكن هذا المفهوم لمعنى العبادة ضيق جداً. إن الحقيقة التي كشفها الله تعالى بواسطة رسوله محمد (ﷺ) على الناس، ليس أصل جوهرها أنه أقر طرقا أخرى للعبادة في الإسلام بدلاً من طرق عبادة الأديان السابقة، وإنما أخبر الناس بحقيقة العبادة وغايتها. بالإضافة إلى تكميل طرق العبادات السابقة الناقصة، وتفسير المبهم منها، وتفصيل المجمل من التعاليم.

كان العرب جاهلين حقيقة الأديان السماوية، كما كانوا بعيدين عن مفهوم العبادة ومعناها، جاهلين طريقها الصحيح، ولم يستطع العرب يهود ومسيحيوه أيضاً أن يقدموا لهم أية حقيقة واضحة لها عن طريق أعمالهم وتعليمهم. كان أكبر عمل في العقائد للفرق المسيحية في بلاد العرب في تلك الفترة هو أنهم كانوا يؤمنون بإلوهية المسيح ﷺ، وفي مجال العبادات حرموا على أنفسهم متعة الحياة الدنيا، وبنوا دور عبادتهم وصوامع في صحاري بلاد العرب وجبالها، واستقروا بها تاركين التعب والسعي في الدنيا، ويقضون حياة متقشفة مجردة، وكان هذا هو السبب في أن تخيل المسيحية في الشعر العربي يعني "الراهب المتبتل"؛ يقول امرؤ القيس شاعر العرب الكبير: **منارة مسمى راهب متبتل.**

أما عن اليهود فقد اشتهروا ــ تماماً ــ في بلاد العرب بسوء أخلاقهم وبأعمالهم الدينية السيئة، ولم يتبق فيهم أي أثر للإخلاص الروحاني وعبادة

الله، وكانوا يعتقدون في أن جعل يوم السبت – طبقا لحكم التوراة – عطلـــة، وعدم القيام بأي عمل فيه عبادة. صور القرآن الكريم حالة هذين الفـــريقين، وذكر أن اليهود عصاة، ويأكلون الحرام، ويعبدون الطاغوت، أما المسيحيون فهم مغالون في الدين.[1]

كان اليهود أسرى خرافات السحر، والتعاويذ، والطقوس والرقى، كما كانوا يسجدون أمام أصنام الآخرين كلما تحين لهم الفرصة. أما المــسيحيون فكانوا يعبدون صور وتماثيل ومآثر مريم وعيسى عليهما الــسلام وأوليـــاء المسيحيين وشهدائهم، وأوجدوا طرقا جديدة للعبادة والرهبانية تؤذي الجــسم، وتكلفه بما لا يطيق، وأطلقوا عليها مسمى "التدين". قال القرآن الكـــريم فـــي سورة الحديد إن اليهود والنصارى فاسقون، ويوجد فرق طفيف وبسيط بـــين فسق كل منهما، ففسق اليهود هو الكسل والتقصير والنقص في الـــدين، أمـــا فسق النصارى فهو المغالاة في الدين، والـــنقص والمغـــالاة فـــي ديـــن الله المشروع كلاهما ذنب وإثم؛ لذا أقر القرآن الكريم بأن كليهما فاســـق. قـــال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْـــنِ

---

[1] انظر سورة المائدة، ركوع ٩، ١١، وسورة الحديد ركوع ٤.

المقصود بالركوع هو قدر ما يقرأه الإنسان في صلاته في الركعة الواحـــدة، وهـــذا خاص بمسلمي شبه القارة. (يوسف عامر). يشير المؤلف هنا إلى قوله تعالى: «وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُـــونَ » (المائدة: ٦٢)، وقوله تعالى: « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَـــا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّـــذِينَ آمَنُـــوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » (الحديد: ٢٧). (يوسف عامر)

مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد: ٢٦-٢٧).

يثبت من هذه الآيات أن المسيحيين ارتكبوا المغالاة في الدين؛ لذا قال عنهم القرآن الكريم مراراً:

﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (النساء: ١٧١).

﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (المائدة: ٧٧).

وكان من أبرز مغالاتهم أنهم أخذوا يؤمنون بأن سيدنا عيسى عليه السلام – الذي أمروا بأن يؤمنوا بأنه ـ ﷺ ـ رسول الله فقط – ابن الله. وكان هذا هو حال اليهود أيضاً؛ إذ كانوا لا يريدون الإيمان بأن رسل الله تعالى رسل، بل كانوا يقتلونهم. قال تعالى:

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: ٦١) .

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ (آل عمران: ٢١).

هذا إضافة إلى أنهم – اليهود – كانوا قد بدءوا يتركون عبادة الله الواحد الحق، ويعبدون أصنام جيرانهم عبدة الأصنام؛ لذا ورد كثيرًا في التوراة عن عبادة اليهود للأصنام، وسجودهم لغير الله تعالى، وجاء عنهم في القرآن الكريم:

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: ٦٠).

بَلَّغَ النبي محمد (ﷺ) المسيحيين بأن: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٥-٧٦).

وكان حالهم هو أنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(التوبة: ٣١).

كانت كنائس المسيحيين ودور عبادتهم في تلك الفترة في بلاد العرب، وخاصة في الحبشة منصوب بها تماثيل وصور لسيدنا عيسى، والسيدة مريم عليهما السلام، والحواريين والرهبان والشهداء، وكان العبّاد يسجدون لها في تأمل وخشوع. رأى الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة هذه التماثيل والصور، وربما رأتها أيضاً بعض المسلمات، ففي مرض موته (ﷺ) ذكرت له بعض أمهات المؤمنين هذا الأمر، وتحدثت عن جمال وحسن تلك الصور والتماثيل. فقال النبي (ﷺ): «إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[1]

إن ما دونه "ادوارد كبن" في أبواب خاصة من أجزاء متعددة من كتابه "تاريخ تطور وانحطاط الروم" عن حال عبادات الدين المسيحي يصدق ويؤيد تماما ما ورد في هذا الحديث النبوي، خاصة ما دونه في الجزأين الثالث والخامس عن كيفية عبادة السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام و"سينت بولس" وعدد من الأولياء والشهداء، وهو ما يوافق هذا الحديث، ليس هذا فحسب، بل ما زالت هناك حتى اليوم أصوات تصديق القرآن الكريم تصدر من أبواب وجدران دور عبادة كاثوليك الروم والفرق المسيحية القديمة، واليوم ــ أيضاً ــ يتوارى المتدينون من المسيحيين ليل

---

[1] صحيح مسلم، كتاب المساجد. وهذا نص الحديث كاملا: (١١٣٣) وحدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ : حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ : حَدَّثَنَا هِشَامٌ : أَخْبَرَنَا أَبِي عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ، فِيهَا تَصَاوِيرُ، لِرَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (يوسف عامر).

نهار يسجدون أمامهم، ويسبحون في خشوع وتدبر في ضوء الشموع. ولقد رأيت أنا بعيني هذا المشهد في كنائس إيطاليا التاريخية، وقتها تراءى لي شرح حديث النبي محمد (ﷺ) هذا ومعناه.

ناهيك عن اليهود والمسيحيين لابد أن العرب كانوا يعلمون أن هناك اسم الله الخالق، ولكنهم كانوا جاهلين مفهوم العبادة، ومن ثم كانوا يعتقدون في أن اللات والعزى وهبل وأصنام قبائلهم تستحق العبادة، وكانوا يقدمون لها القرابين من الحيوانات، ويهبون لها أولادهم، ويشاركون في مهرجانات المعابد في أوقات مختلفة من السنة، ويقومون بأداء بعض الشعائر أمام أشكال حجرية، وكانت الكعبة ــ أي مكان الخليل محطم الأصنام – مركزًا لثلاثمائة وستين صنماً، وكانت صلاتهم عبارة عن اجتماعهم في صحن الكعبة، يصفرون ويصفقون لإسعاد الأصنام وإرضائها. كان الموحد في قريش – أي زيد بن عمرو، الذي أقلع عن عبادة الأصنام قبل بعثة النبي (ﷺ) – يقول: "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه"[1]

كان الصحابي الشاعر عامر بن الأكوع، يُنشد هذا البيت في السفر إلى خيبر، ويستمع إليه النبي (ﷺ)[2].

---

[1] سيرة ابن هشام، ذكر زيد بن عمرو. (ص ١٤٢، سيرة ابن هشام، تحقيق محمد بيومي، ط ١، ١٩٩٥م) (يوسف عامر).

[2] صحيح مسلم، باب خيبر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم:(٤٦٢٣) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ مُحَمَّدُ بْن عَبَّادٍ وَاللَّفْظُ لابْنِ عَبَّادٍ. قَالاَ: حَدَّثَنَا حَاتِمٌ وَهُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَىٰ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ إِلَىٰ خَيْبَرَ. فَتَسَيَّرْنَا لَيْلاً. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ: أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيَّاتِكَ؟ وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِراً. فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا فَاغْفِرْ، فِدَاءً لَكَ، مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ :

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

يوضح هذا البيت أن رسالة محمد (ﷺ) هي التي عرفت العرب بطرق العبادة الصحيحة.

لم تكن هناك عبادة لله الواحد خارج بلاد العرب، فكان عبدة الأصنام اليونانيون يعبدون تماثيل ملوكهم وأبطالهم إضافة إلى أشكال النجوم. وكان المسيحيون في الروم وآسيا وأوربا وأفريقيا ومصر وبلاد البربر والحبشة وغيرها من بلاد المسيحيين يعبدون تماثيل السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام، فضلا عن عبادتهم لأصنام وعظام الآثار المزيفة للمئات من أوليائهم وشهدائهم. وكانت النار تُعبد في بلاد زرادشت(1)، أما من بلاد

«مَنْ هَـذَا السَّائِقُ؟» قَالُوا: عَامِرٌ. قَالَ: «يَرْحَمُهُ اللَّهُ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجَبَـتْ. يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْلاَ أَمْتَعْتَنَا بِهِ. قَالَ: فَأَتَيْنَا خَيْبَرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ، حَتَّىٰ أَصَابَتْنَا مَخْمَـصَةٌ شَدِيدَةٌ. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَتَحَهَا عَلَيْكُمْ» قَالَ: فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ، أَوْقَدُوا نِيرَاناً كَثِيرَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «مَا هَـذِهِ النِّيـرَانُ؟ عَلَـىٰ أَيِّ شَـيْءٍ تُوقِدُونَ؟» فَقَالُوا: عَلَىٰ لَحْمٍ. قَالَ: «أَيُّ لَحْمٍ؟» قَالُوا: لَحْمُ حُمُرِ الإِنْسِيَّةِ. فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ: «أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ يُهَرِيقُوهَا وَيَغْسِلُوهَا؟ فَقَالَ: «أَوْ ذَاكَ» قَالَ: فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ فِيهِ قِصَرٌ. فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُـودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ. وَيَرْجِـعُ ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ رُكْبَةَ عَامِرٍ، فَمَاتَ مِنْهُ. قَالَ: فَلَمَّا قَفَلُوا قَـالَ سَلَمَةُ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي، قَالَ: فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ سَاكِتاً قَالَ: «مَا لَكَ؟» قُلْتُ لَهُ: فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِراً حَبِطَ عَمَلُهُ.(يوسف عامر). وورد اللفظ الأول من البيت في روايات عديدة بصور مختلفة.

(1) كان زرادشت مصلحًا مشهورًا فى إيران، أسس الديانة البارسية، وألف كتابين بعنوان "زند" و "استاد". (يوسف عامر).

الهند إلى كابل والتركستان والصين وجزر الهند، فكانت تُعبد أصـــنام بـــوذا، والمحارق وتراب عظامها، وكان كنفوشيو الصين يسجدون أمام تماثيل آبائهم وأجدادهم. كما كانت الشمس تُعبد في الهند خاصة، وكذلك نهـــر الكـــنج[1]، وولاة الهندوس. وكان صائبو العراق مبتلين بظلمة عبادة السبع السيارة؛ أي الكواكب السبع[2]. وكانت بقيـــة دول العـــالم تعبـــد الأشـــجار والأحجـــار والحيوانات والأغوال وغيرها. خلاصة القول هو أنه في نفس الوقت الـــذي كان فيه العالم أجمع قد ترك عبادة الله الواحد، وعبد كـــل المخلوقـــات فـــي السماء والأرض، جاء نداء من أرض خاوية من الماء والكلأ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ (البقرة: ٢١).

وقال لمؤمني الكتب السماوية السابقة:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَـــوَاءٍ بَيْنَنَـــا وَبَيْـــنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُـــدَ إِلاَّ اللّهَ﴾(آل عمران ٦٤).

ولكن لم يستجب أحد لهذا النداء سوى بعض ممن يؤمنون بالحق مـــن صحراء العرب وقالوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّـــا رَبَّنَـــا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾(آل عمران: ١٩٣).

ضع هذه الأحداث في الاعتبار، وتذكر تصديق دعاء رسول الله (ﷺ) عليها، هذا الدعاء الذي توجه به (ﷺ) إلى الله تعالى في غزوة بدر:

---

[1] نهر مشهور بالهند، ويلقى الهندوس به عظام وتراب أجسام موتاهم بعـــد الحـــرق، اعتقاداً بأن هذا ينجيهم من العذاب، ويخلصهم مـــن الـــذنوب التـــي اقترفوهـــا فـــي الدين.(يوسف عامر)

[2] هي المريخ، والمشتري، وزحل، والزهرة، وعطارد، ونجم الشمس، والقمر.

" اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العِصَابَةُ مِنْ أهلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدُ في الأَرْضِ» [١]

سمع الله تعالى دعاء نبيه (ﷺ) واستجاب له، لأنه بعد خاتم الأنبياء لن يُــؤتَى

---

[١] صحيح مسلم، وجامع الترمذي، عزوة بدر. وورد في صحيح ابن حبـــان: (٤٧٠٢) أخبرنا أحمدُ بنُ علي بن المُثنَّى، قال: حدثنا أبو خَيْثَمَة، قال: حدثنا عُمَرُ بنُ يــونس، قال: أخبرنا عِكْرِمَةُ بنُ عَمَّار، قال: حدثنا أبو زُمَيْل، قال: حَدَّثني عبدُ الله بنُ عبــاس قال: حدثني عُمَرُ بنُ الخطاب قال : لَمَّا كانَ يومُ بدرٍ نَظَرَ رسولُ اللَّهِ إلى المُشركينَ وَهُمْ ألفٌ وأصحابُه ثلاثُ مئة وبضعةَ عَشَرَ رَجُلًا، فاستقبلَ نبيُّ اللَّهِ القِبْلَةَ، ثم مدَّ يَدَيه، فَجَعَلَ يَهْتِفُ ربَّهُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني، اللَّهُمَّ آتني ما وَعدْتَني، اللَّهُمَّ إنْ تَهلِـكْ هذه العِصَابَةُ مِنْ أهلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدُ في الأَرْضِ»، فما زالَ يَهتِفُ ربَّهُ جَـلَّ وعــلا مادّاً يَدَيْهِ مُستَقبِلَ القِبلةِ حتى سَقَط رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبِه، فأتاهُ أبو بكرٍ، فَأَخَذَ رِداءَهُ، وألقاهُ على مَنْكِبِه، ثُمَّ التزَمَهُ مِنْ ورائه، فقال: يا نبيَّ اللَّه، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّهُ سيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِذْ تَستَغيثُونَ رَبَّكُمْ فاستَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِــدُّكم بــأَلْفٍ مِــنَ المَلَائكةِ مُرْدِفينَ} (الأنفال: ٩)، فأمدَّهُ اللَّهُ بالملائكةِ. قال أبو زُمَيْل: حَدَّثني ابنُ عباس قال: بينما رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ يومَئذٍ يَشُدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ من المُشركينَ أمامَهُ، إذْ سَــمِعَ ضربةً بالسَّوْطِ فوقَهُ وصوتَ الفارسِ فَوقَهُ يقولُ: أَقْدِم حَيْزُومُ، إذْ نَظَرَ إلى المُــشرِكِ أمامَهُ خَرَّ مُستلقياً، فَنَظَرَ إليه، فإذ هُوَ قَدْ خُطِمَ أنفُهُ، وشُقَّ وَجْهُــهُ كَــضَرْبَةِ ســوطٍ، فاخْضَرَّ ذاكَ أَجْمَعُ، فجاءَ الأنصاريُّ فحَدَّثَ ذلكَ رسولَ اللَّه، فقالَ : «صَدَقْتَ، ذلــكَ مِنْ مَدَدِ السماءِ الثالثة »، فقتلوا يومَئذٍ سبعين وأَسَرُوا سبعينَ.

قالَ ابن عباس: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسارى، قالَ رسولُ اللَّهِ لأبي بَكْرٍ وعلي وعُمَــرَ: «ما تَرَوْنَ في هؤلاءِ الأُسارى» قالَ أبو بكرٍ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو العَمِّ والعَشيرةِ، أرَى أنْ نَأْخُذَ منهمْ فديةً تكونُ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، وَعَسَى اللَّهُ أنْ يَهْدِيَهُمْ إلى الإسلامِ، فقالَ رسولُ اللَّه : «ما تَرَى يا ابنَ الخَطَّابِ؟» قلتُ: لا واللَّهِ يا رسولَ اللَّه، ما أرى الــذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرَى أنْ تُمَكِّنَنا، فَنَضرِبَ أعناقَهُمْ، فتُمَكِّنَ علِيــاً مِــنْ عَقِيــلٍ، فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمكنَني مِنْ فُلانٍ، فأضرِبَ عُنُقَهُ – نَسيب كانَ لعُمَرَ – فإنَّ هــؤلاء أئمةُ الكُفرِ وصناديدُها، فَهَوِيَ رسولُ اللَّهِ ما قالَ أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فَلَمَّا كــانَ الغدُ جئتُ، فإذا رسولُ اللَّهِ وأبو بكرٍ قاعدانِ يَبكيانِ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أَخْبِرني مِنْ

بنبي يُذَكِّر العالم الغافل بطاعة الله تعالى وعبادته، ويعلمهم العبادة الصادقة والخالصة له سبحانه وتعالى.

عبادة الله الواحد فقط

إن أول عمل قام به النبي محمد (ﷺ) من أجل إتمام الدين الحق وتكميله وإصلاحه هو القضاء على عبادة الباطل، والدعوة بوضوح إلى سجود المخلوقات كلها وعبادتها لله الواحد القهار. يقول الله تعالى:

﴿إِن كُلُّ مَن فِيَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ (مريم: ٩٣).

لا يوجد أي شيء في السموات ولا في الأرض يستحق سجود وركوع وقيام الإنسان سوى الله تبارك وتعالى، ولا يضحَّى لأي شيء سواه سبحانه وتعالى، ولا يُرفع أي جدار لبيت يُعبد فيه إلا له عز وجل، ولا ينذر إلا له، ولا يُطلب إلا منه سبحانه، فكل عبادة له سبحانه فقط، وكل طاعة له عز وجل. يقول سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

مُنع الكفار بطرق عديدة من عبادة الأصنام والنجوم وغيرها من المخلوقات، ووُضحَ لهم هذا الأمر بكل الأدلة والبراهين؛ لأنه لا يوجد أي شيء يستحق العبادة والطاعة سوى الله الحق تبارك وتعالى، ولكن حين لم يؤثر فيهم هذا التوضيح والتفهيم، أُمِرَ نبي الإسلام (ﷺ) بإعلان هذه القطيعة.

أيَّ شَيْءٍ تَبْكي أنتَ وصاحِبُكَ، فإنْ وَجدتُ بُكاءً بَكَيْتُ، وإنْ لمْ أجِدْ بُكاءً تَباكيتُ لبُكائكما، فقالَ رسولُ اللَّهِ : «أبْكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُكَ منْ أَخْذِهِم الفِداءَ»، وأنزلَ اللَّهُ: {ما كانَ لنبيَ أن يكونَ لَه أسرَى حتى يُثْخنَ في الأرْضِ} إلى قوله: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلالًا طَيِّباً} (الأنفال:٦٩) فأَحَلَّ اللَّهُ الغَنيمَةَ.(٥:٩) (يوسف عامر)

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ولا أنتم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ١ – ٦).

لا حاجة من وجود الأشياء والوسائل الخارجية

لا حاجة لأي شيء خارجي وقت عبادة الله تعالى سوى للجسم والروح؛ أي لا حاجة من شروق الشمس والنظر إليها، ولا حاجة من الذهاب إلى النهر والقفز في الماء[١]، ولا حاجة من إشعال النيران[٢]، ولا إباحة الاهتمام بتماثيل الأولياء والعظماء والملاك وغيرها[٣]، ولا الأمر بإضاءة الشموع ووضعها في الأمام[٤]، ولا حاجة للناقوس والأجراس، ولا حاجة لإشعال اللوبان والبخور، ولا حاجة لطريقة وضع أواني خاصة ومعينة من أواني الذهب والفضة، ولا شرط ارتداء أي نوع من اللباس[٥]؛ فالعبادة في الإسلام بعيدة ومنزهة عن هذه القيود والشروط الخارجية كلها، بل تحتاج فقط إلى لباس طاهر، وقلب وبدن صافيين. ولو أن هناك مانعًا من طهارة البدن واللباس (أحيانا) فلا حرج.

عدم الحاجة إلى إنسان وسيط

---

(١) كما يفعل الهنادكة.

(٢) كما يفعل البارسيون.

(٣) كما هو الحال عند الهنادكة وكاثوليك الروم.

(٤) كما يفعل الكاثوليك في بلاد الروم.

(٥) كما هو الحال عند اليهود، وعند الباريسيين الذين يفضلون ارتداء اللباس الأبيض.

العبادة في الإسلام ليست في حاجة إلى وساطة أسرة معينة أو شخص معين، فلا حاجة في الإسلام إلى البراهمة، أو القس، أو المعابد كالهندوسية، ولا إلى كاهن، أو الحاخام، أو الرب، ولا إلى وساطة نسل هارون عليه السلام كاليهود، ولا إلى رجل الدين كما في الباريسية عبادة النار؛ وذلك لأن كل عبد في عبادة الإسلام يخاطب ربه سبحانه وتعالى، ويعرض عليه سبحانه حاله وشكواه، وكل مسلم في ذاته برهمي، وكاهن، وقس، وكل رجال الدين، وكل مسلم مأمور بالالتجاء إلى الله تعالى مباشرة، كي يجيبه سبحانه. يقول تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

عدم الحاجة إلى الجذب الخارجي

اتخذت أكثر الأديان كثيراً من المؤثرات الخارجية من أجل الجذب إلى عباداتها، وجعلها مؤثرة وراهبة، ففي دين كان يوجد الناقوس والقرن بأصواتهما المرعبة، وفي دين كانت توجد أصوات الموسيقى والغناء المؤثرة، وفي دين كانت توجد صنجة الأجراس، ولكن ببساطة ويسر دين الإسلام تجنبت هذه الأشياء كلها، ولم يستفد من أي صنيع خارجي سوى بنداء الروح والقلب؛ ليؤثر في القلب الإنساني، حتى يتضح السر بين الله والعبد بفطرته وجوهره، وتظهر مناظر الإخلاص والتأثير.

عدم التقيد بالمكان

حددت الأديان الأخرى مكانا معينا لأداء عباداتها؛ فلا يمكن أن تؤدى العبادة خارج المعابد أو الكنائس أو الأديرة أو الصوامع والبيع، ولكن الدين الإسلامي لا يحتاج في عبادته إلى جدار أو محراب أو منبر أو دير أو معبد

أو صومعة أو كنيسة أو مسجد؛ فكل الأرض مكان لعبادته. قال رسـول الله (ﷺ):«أُعطيتُ خَمساً لم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنبياءِ قبلي" منها " وَجُعِلَـتْ لِـيَ الأرضُ مَسجداً وَطَهوراً ".[١]

إذن يمكنك أن تعبد الله تعالى في السلم أو الحرب، في البر أو البحر، في السماء أو على الأرض، في الطائرة أو القطار، ففي كل مكان على وجه الأرض يمكنك أن تعبد الله، وتسجد له سبحانه حتى ولو كنت في معبـد لأي دين آخر يمكنك أن تؤدي عباداتك الإسلامية فيه مادمتَ لا تتوجـه إلـى أي صنم أو تمثال.[٢]

أضف إلى هذا أنه في كل دين لابد من الاتجاه إلـى أشـياء مختلفـة وجهات متعددة وقت أداء عبادات معينة، ولكن المسلمين عامة يتجهون إلـى قبلة واحدة حتى تتضح وحدتهم. وكان المسلمون في حاجة إلى قبلـة وجهـة معينة، ومن أجل هذا حُدد لهم في الإسلام المسجد الإبراهيمي، فهو أول مقام

---

[١] البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مـسجداً وطهـوراً. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٣٣) حدَّثَنا محمدُ بنُ سِنانٍ قال: حدَّثَنا هُشَيمٌ قال: حدَّثَنا سَيّارٌ ــ هوَ أبو الحَكَمِ ــ قال: حدَّثَنا يَزيدُ الفَقيرُ قال: حـدَّثَنا جابرُ بن عبدِ اللَّهِ قال: قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أُعطِيـتُ خَمـساً لـم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنبياءِ قبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وَجُعِلَـتْ لِـيَ الأرضُ مَسجداً وَطَهوراً، وَأَيُّما رَجُلٍ من أُمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ فلْيُصلِّ، وَأُحِلَّتْ لِـيَ الغَنـائمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً وَبُعِثتُ إلى الناسِ كافَّـةً، وَأُعْطِيـتُ الـشَّفاعةَ». (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: وقال عُمرُ رضيَ اللَّهُ عنه: إنا لا ندخُلُ كنائـسَكم مـن أجـلِ التماثيل التي فيها الصُّوَرِ وكان ابنُ عبَّاسٍ يُصلِّي في البِيعةِ إلاّ بِيعةً فيهـا تماثيـلُ. (يوسف عامر).

يعبد فيه الله الواحد في الدنيا. ولكن قبلة الإسلام هذه تختلف عن جهات الأديان الأخرى، فهي منزهة عن حدود الشمال والجنوب والشرق والغرب، كما أنها منزهة أيضاً عن الاتجاه إلى النجوم أو مواجهة القمر والشمس، فكل المسلمين على وجه المعمورة يتجهون إلى قبلتهم هذه من كل صوب وحدب. من الغرب ومن الشرق، من الشمال ومن الجنوب، فلا يوجد تخصيص أو تحديد لأي جهة بعينها. وفي صحن البيت الحرام نفسه يُتجه إليه من كل جانب في وقت واحد. ولو صعب التعرف على جهة القبلة لأي سبب من الأسباب، فيمكن لك أن تتجه إلى أي جهة؛ إذ إن الله تعالى موجود في كل مكان، ومن ثم ليس هناك تخصيص للقبلة للمسافر في حالة ركوبه في الصلاة المفروضة أو النافلة. وحيثما يتجه الركب يمكن السجود، ويمكن الصلاة تجاه أي جهة في الحروب والمعارك، كما أنه يمكن الوقوف تجاه الكعبة فقط في حالة عدم بقائها (لا قدر الله)، وإذا وقفت داخل الكعبة ذاتها، يمكنك إذن أن تسجد تجاه أي جانب.

منع القربان البشري:

يُعتقد في بعض الأديان أن أفضل عبادة عند الإله؛ هي أن الإنسان إما أن يشنق نفسه أو ابنه، أو يلقي بنفسه أو بابنه في اليم، أو يحرق نفسه أو ابنه، أو يقدم نفسه قربانا للإله بأية طريقة، ولكن الإسلام جاء واستأصل هذه العبادة استئصالا، وأعلن أن تقديم النفس قربانا في طريق الله تعالى تعني في الحقيقة التضحية بالنفس من أجل مساندة الحق والدعوة إليه، أو من أجل مساعدة الضعفاء، وليس قطع الإنسان لرقبته بيده، أو إغراق نفسه في

الحرب أو إحراق نفسه في النار. قال النبي (ﷺ): "... ومن قتل نفسه بشيء عُذب به في نار جهنم... "[1]

الإصلاح في القربان الحيواني

كان يَروج في أغلب الأديان أن تقديم أي حيوان قرباناً لله تعالى طريقة للحصول على رضا الله، وكانت طريقة العرب هي أنهم يذبحون الحيوان، ويتقربون به إلى الأصنام، كما كانوا يقومون أحياناً بإحضار حيوان وربطه على قبر الميت، ولا يقدمون له الطعام أو الشراب، ويتركونه هكذا يتضور من شدة الجوع والعطش حتى يموت. وكانوا يعتقدون في أن الإله يسعد بنثر الدماء (القربان)؛ لذا كانوا يذبحون القربان، ويلطخون جدار المعبد بدمائه. وكانت طريقة اليهود هي أنهم يذبحون الحيوان، ثم يحرقون لحمه. والحديث عن عاداتهم هذه طويل لا تكفيه صفحات. وكانوا يعتقدون أن القربان غذاء الإله. وفي بعض الأديان كان الناس يُطعمون لحمه ـ القربان ـ للغربان والحدآت. جاءت الرسالة المحمدية على صاحبها السلام والتحية، وقضت على هذه الطرق كلها، وبادئ ذي بدء وضحت أن المقصود من هذا القربان ليس الدم أو اللحم بل هو غذاء مطلوب للقلوب. يقول الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج: ٣٧).

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب، باب من كفّر أخاه بغير تأويل. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٩٦٣) حدثنا موسىٰ بن إسماعيلَ حدثنا وُهَيبٌ حدثنا أيوبُ عن أبي قِلابةَ عن ثابت بن الضحّاك عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «من حَلَفَ بملةٍ غيرِ الإسلام كاذباً فهو كما قال. ومن قتل نفسهُ بشيءٍ عُذِّبَ به في نار جهنم ولَعْنَ المؤمن كقتلهِ. ومَن رمىٰ مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله». (يوسف عامر)

فرض الإسلام الأضحية في الحج فقط من بين سائر العبادات، كما جعلها سنة على القادرين، الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى الحج، وذلك تذكرًا لمناسك الحج ومقامه، لكي يتذكر الناس تلك الواقعة التي حدثت لداعي الدين الحنيفي الأول إبراهيم عليه السلام، حين أراد أن يذبح ابنه البكر لله تعالى تصديقا لرؤياه، ورآه الله سبحانه وتعالى قد نجح في امتحانه؛ لذا فدى ابنه (إسماعيل عليه السلام) بذبح عظيم، ويتذكر أتباعه هذه الواقعة العظيمة في كل سنة.

بيّنت الرسالة المحمدية أن الهدف من التضحية ليس إسعاد الأرواح، أو إبعاد المصائب، أو فداء النفس، أو إراقة الدماء، أو قطع الرقبة، وإنما المقصود منها أمران اثنان: الأول هو الشكر لله تعالى على أنه سبحانه سخر لنا الحيوانات، وجعلها في خدمتنا، وأحل لنا طعامها. والثاني تقسيم لحومها على الفقراء والمساكين، والطمع في رضا الله تعالى. يقول رب العزة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج: ٣٤).

ويقول أيضا:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الحج: ٣٦).

وكان هذا هو السبب في أن ذبح أي حيوان لأحد غير الله تعالى شرك في شريعة محمد (ﷺ)، وطعام لحم مثل هذا الحيوان حرام. قال تعالى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾.

كان العرب يتقدمون بالقرابين في شهر رجب على وجه الخصوص، ولما جاء الإسلام سأل المسلمون رسول الله (ﷺ) عن هذا الأمر، فقال لهم:

"اذْبَحُوا لله في أيِّ شَهْرٍ كَانَ وَبَرُّوا الله وَأَطْعَمُوا "[1]. خلاصة القول هو أن هذين الأمرين هما الهدف من الأضحية؛ فإسالة الدم فقط من أجل إسالة الدم ليس هو هدف الأضحية، كما أن إسالة هذا الدم لا يسعد الله تعالى كما يزعم المشركون وغيرهم.

تحريم القرابين المشركة

ومن ثم حرم الإسلام كل تلك القرابين المشركة، التي كانت رائجة بين العرب، إذ كان لدى العرب طرق مختلفة للأضحية بالحيوانات وتقديمها للأصنام، فكانوا بصفة عامة يتقربون بالمولود البكر للناقة إلى الأصنام، ويعلقون جلده على الشجرة، وكانوا يطلقون على مثل هذا المولود "فرع"، كما كانوا يقومون بنوع من القربان في العشر الأول من شهر رجب، وهو ما يسمى بالعتيرة، وحرم الإسلام كليهما، كما أبطل تخصيص شهر رجب بالأضحية. قال رسول الله: "لا فرع ولا عتيرة" [2]

---

[1] أبو داود، كتاب الضحايا، باب في العتيره. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود:(٢٨٣١) حدثنا مُسَدَّدٌ ح. وحدثنا نَصْرُ بنُ عَلِيٍّ عن بِشْرِ بنِ المُفَضَّلِ المعنَى قال حدثنا خَالِدٌ الْحَذَّاءُ عن أبي قِلاَبَةَ عن أبي المَلِيحِ، قال قال نُبَيْشَةُ: « نَادَى رَجُلٌ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أنَّا كُنَّا نَعْتِرُ عَتِيرَةً في الْجَاهِلِيَّةِ في رَجَبَ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَال: اذْبَحُوا لله في أيِّ شَهْرٍ كَانَ وَبَرُّوا الله وَأَطْعَمُوا، قال: إنَّا كُنَّا نُفْرِعُ فَرَعاً في الْجَاهِلِيَّةِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قال: في كُلِّ سَائِمَةٍ فَرَعٌ تَغْذُوهُ مَاشِيَتُكَ حَتَّى إذَا اسْتَحْمَلَ، قَال نَصْرٌ اسْتَحْمَلَ لِلحَجِيجِ، ذَبَحْتَهُ فَتَصَدَّقْتَ بِلَحْمِه، قال خَالِدٌ أحْسِبُهُ قَالَ عَلَى ابنِ السَّبِيلِ فَإنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ، قال خَالِدٌ قُلْتُ لأبي قِلاَبَةَ: كَمْ السَّائِمَةُ، قال: مَائَةٌ». (يوسف عامر).

[2] قال رسول الله ﷺ: "لا فرع ولا عتيرة" سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب العتيرة. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٢٨٣٢) حدثنا أحْمَدُ بنُ عَبْدَ ةَ قَال

وكانوا يتركون حيوانات حية بأسماء مختلفة تقرباً للأصنام، ولا يحق لأي أحد أن يستخدمها في أي عمل؛ لذا أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة في القرآن الكريم عن هذه الطريقة:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾ (المائدة: ١٠٣).

كان العرب يذبحون الأبقار والماعز عند مقابر الموتى، ولكن الإسلام حرم هذا ضمن إصلاحاته المتعلقة بعادات المأتم ومراسمه. قال رسول الله **"لا عقر في الإسلام"**[١].

كان معروف لدى العرب في الجاهلية أيضاً أن الناس يتظاهرون بكرمهم ووجودهم، ومن أمثلة هذا أن يتنافس الرجلان فيمن يذبح حيوانات أكثر من الآخر، فيذبح الواحد منهم جمله، ثم يأتي منافسه، ويذبح هو الآخر، ويظلان يذبحان حتى يتقاعس أحدهم عن الذبح، أو ينفد ما عنده من إبل،

أخبرنا سُفْيَانُ عن الزُّهْرِيِّ عن سَعِيدٍ عن أبي هُرَيْرَةَ، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ: « لاَ فَرَعَ وَلاَ عَتِيرَةَ». (يوسف عامر).

[١] سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب كراهية الذبح عند القبر. وورود في عون المعبود لا عقر في الإسلام. وهذا نصه في كتاب عون المعبود: (لا عقر في الإسلام): قال الخطابي: كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل على قبر الرجل الجواد يقولون نجازيه على فعله لأنه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف فنعقرها عند قبره فتأكلها السباع والطير فتكون مطعماً بعد مماته كما كان مطعماً في حياته، ومنهم من كان يذهب في ذلك إلى أنه إذا عقرت راحلته حشر يوم القيامة راكباً، ومن لم يعقر عنه حشر راجلا، وكان هذا على مذهب من يرى منهم البعث بعد الموت انتهى.

وقال في النهاية: كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي ينحرونها ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته وأصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم انتهى. والحديث سكت عنه المنذري. (يوسف عامر).

وهنا يخسر السباق؛ فجاء الإسلام ومنع إتلاف المال والروح[1] والذي ليست له أي علاقة بالعبادة.

التجرد، وترك الملذات، والتريض، وتكليف النفس بما لا تطيق

كان هناك اعتقاد سائد، وهو أنه كلما كلف العبد نفسه بعبادات كثيرة رضي عنه الإله، وكان هذا يعد أكبر عبادة له؛ لذا كان الناس يكلفون أنفسهم بعبادات وأشياء كثيرة، ويعتقدون أنه كلما يكلف الجسم بالآلام والمشاق، تصفو الروح وتطهر. ونتج عن هذا اعتقاد الرهبانية في المسيحية، والإشراقية عند فلاسفة اليونان، والعزلة وترك الدنيا عند الهندوس. فكان هناك من يتعهد مع نفسه أنه لن يأكل اللحم، ومن كان يتعاهد على أنه لا يأكل الطعام في الأسبوع أو الأربعين يوما سوى مرة واحدة، ومن كان يتجرد من كل الثياب ويفضل العري، ومن كان يترك جسمه عاريا في الشتاء لمدة أربعين يوما، ومن كان يتعهد مع نفسه بأن يبقى واقفا طوال حياته أو طوال سنة كاملة، أو يبقى جالساً طوال عمره أو حول كامل،ومن كان يزهد النوم تماما، ومن كان يُوقف يده تماما حتى تجف، ومن كان يجلس طوال عمره في الظلمات والمغارات يبحث عن نور الله، ومن كان يتجرد من الدنيا، ويترك ملذاتها وأهله وعياله، ويدعي خطأً محبة الله. جاءت النبوة المحمدية، وكشفت عن هذا السر، وهو أن أي شيء من هذه الأشياء لا يُعد عبادة، فلا يسعد الله تعالى بترك العبد الدنيا وملذاتها، ولا يكون حزنه وألمه

---

[1] أبو داود، كتاب الأضاحي. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٢٨٢١) حدثنا هَارُونُ بنُ عَبْدِ الله قال أخبرنا حَمَّادُ بنُ مُسْعَدَةَ عن عَوْفٍ عن أبِي رَيْحَانَةَ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: « نَهَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَنْ مُعَاقَرَةِ الأعْرَابِ». قَالَ أبُو دَاوُدَ: اسْمُ أبِي رَيْحَانَةَ عَبْدُ الله بنُ مَطَرٍ. (يوسف عامر) .

سببا لرضا الله تعالى، ولا ينال الله الراحة بسبب تكليف العباد أنفسهم بما لا يطيقون، ولا يحب الله العبد بسبب زهده لزوجه وعياله، ولا يرتقي الدين بترك الدنيا؛ فدين الله تعالى هو ما يطيق العبد فعله. قال الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

الصوم أحد أركان الإسلام، ولكنه ربما لا يقدر عليه البعض أحيانا، ومن ثم يَسَّرَ الإسلام فيه كثيراً. قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

الحج عبادة صعبة على عامة الناس؛ لذا قال الله تعالى:

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧).

وقال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج: ٧٨).

وقال (ﷺ):

«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَه "[1].

كما قال (ﷺ):

"إنما أنا بعثت بالملة السمحة والسهلة الحنيفية البيضاء"[2].

---

[1] جمع الفوائد، طبعة ميرت صـ ١، ٢، باب الاقتصاد في الأعمال، نقلا عن صحيح البخاري وسنن النسائي. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٣٩) حدَّثنا عبدُ السَّلامِ بنُ مُطَهَّرٍ قال: حدثنا عُمَرُ بنُ عَلِيٍّ عنْ مَعْنِ بنِ محمدٍ الغِفاريِّ عنْ سَعيدِ بنِ أبي سَعيدٍ المَقْبُريِّ عنْ أبي هُرَيرةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلاّ غَلَبَه، فسَدِّدوا وقاربوا، وأبْشِروا، واسْتَعِينوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ منَ الدُّلْجة» (يوسف عامر).

[2] مسند ابن حنبل، ج ٥، صـ ٢٦٦.

إن منهج الرهبانية في الدين والعزلة عن الحياة وترك ملذاتها، ليست منهجاً وتعليما أصليا للدين الحق، حتى وإن كانت قد وجدت بحسن النية، ومن ثم عبر القرآن الكريم عنه بالبدعة حيث قال الحق تعالى:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد ٢٧).

ويطلب الله تعالى في الآية الكريمة من رسوله الكريم أن يسأل هؤلاء الناس الذين حرموا على أنفسهم الطعام والزينة: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** (الأعراف: ٣٢).

شدد الإسلام في تحريم ما أحله الله، فذات مرة ورد عن النبي (ﷺ) أنه أقسم ألا يأكل العسل إرضاء لبعض أمهات المؤمنين؛ فعاتبه الله تعالى بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التحريم: ١).

ذات مرة أراد بعض الصحابة – تأثراً بالرهبانية المسيحية، أو بطبيعتهم – أن يعيشوا حياة شاقة، ويتجردوا من ملذات الدنيا، ولكن النبي (ﷺ) منعهم من هذا وقال: "ما جئت بهذه الشريعة". وجاء قدامة بن مظعون وصاحب له إلى النبي (ﷺ) وقال: "يا رسول الله ! أراد أحدنا ألا يتزوج النساء، وآخر أراد ألاّ يأكل اللحم. قال النبي (ﷺ):«مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [1] سمع كلاهما هذا ورجعا عن قصدهما.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الصوم. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٣٣٥٧) وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ نَافِعٍ الْعَبْدِيُّ: حَدَّثَنَا بَهْزٌ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا آكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي

كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما صحابيا جليلا، وزاهداً وعابداً كبيراً، قد عهد بأنه يصوم النهار دائما، ويقضي ليله في العبادة، وحين علم النبي (ﷺ) بهذا فقال له: "يا عبد الله ! فإنَّ لجسدكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَينكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ بحَسْبِكَ أن تصُومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ "[1]، كما نصح ﷺ صحابيًا آخر يحب التقشف وهو سيدنا عثمان بن مظعون ﷺ بهذه النصيحة، فقد علم ﷺ أنه ﷺ يقضي الليل والنهار في العبادة، ولا يعطي الزوجة حقها، يصوم النهار، ويقضي الليل في العبادة فاستدعاه النبي ﷺ وسأله: يَا عُثْمَانُ أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟ قال: قَالَ لاَ وَاللهِ يا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قال ﷺ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ

وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».(يوسف عامر)

[1] المرجع السابق. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٩٥٢) حدَّثنا ابن مُقاتلٍ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا الأوزاعيُّ قال: حدَّثني يحيى بن أبي كثير قال: حدَّثني أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمنِ قال: حدَّثني عبدُ الله بنُ عمرو بن العاصِ رضيَ الله عنهما «قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ياعبدَ الله، ألم أُخْبَرْ أَنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ فقلتُ: بلى يارسولَ الله. قال: فلا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوركَ عليكَ حقاً، وإنَّ بحَسْبِكَ أن تَصُومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ. فإنَّ لكَ بكلِّ حسنةٍ عَشرَ أمثالِها، فإذن ذلكَ صيامُ الدَّهرِ كلِّه. فشَدَّدتُ فشُدِّدَ عليَّ. قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي أجدُ قُوَّةً، قال: فصُمْ صيامَ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السلامُ ولا تَزِدْ عليه. قلتُ: وما كان صيامُ نبيِّ الله داود عليه السلامُ؟ قال: نِصفَ الدَّهرِ. فكانَ عبدُ الله يقولُ بعدَ ماكَبِرَ: يا ليتَني قَبِلْتُ رُخصةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم».(يوسف عامر)

الله يَا عُثْمانَ، فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُم وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ». "[1]

وحين اعتنق صاحبي من قبيلة باهلة الإسلام، ورجع إلى قبيلته، ترك الطعام، وأخذ يصوم كل يوم. وجاء إلى النبي ﷺ بعد سنة، وقد كان قد تغير شكله تماما لدرجة أن النبي ﷺ ما تعرف عليه، فعرف بنفسه للنبي (ﷺ) فقال ﷺ : فَمَا غَيَّرَكَ وَقَدْ كُنْتَ حَسَنَ الْهَيْئَةِ؟ قال: مَا أَكَلْتُ طَعَاماً مُنْذُ فَارَقْتُكَ إِلاَّ بِلَيْلٍ، قال ﷺ: لِمَ عَذَّبْتَ نَفْسَكَ، ثُمَّ قال: صُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ وَيَوْماً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ". فأظهر قدرة له فوق هذا. فنصحه النبي ﷺ بصيام يومين، فأراد أكثر من هذا أيضا. فنصحه النبي ﷺ بصيام ثلاثة أيام في الشهر. فطلب الزيادة فنصحه الرسول ﷺ بصيام الأشهر الحرم. [2] وقد ورد أن نفرًا من أصحاب

---

[1] أبو داود، كتاب الصلاة، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٣٧٠) حدثنا عُبَيْدُ الله بنُ سَعدٍ أخبَرَنَا عَمِّي أخبَرَنَا أبي عن ابنِ إسْحَاقَ عنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عنْ أبيهِ عنْ عَائِشَةَ ،: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ إِلَى عُثْمانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ يَاعُثْمانُ أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ لاَ وَالله يارَسُولَ الله، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قَالَ فإنِي أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ الله يَاعُثْمانَ، فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُم وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ».(يوسف عامر).

[2] أبو داود، باب صوم الأشهر الحرم. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود:(٢٤٢٩) حدثنا مُوسَى بنُ إسْمَاعِيلَ أخبرنا حَمَّادٌ عن سَعِيدٍ الْجُرَيْرِيِّ عن أبي السَّلِيلِ عن مُجِيبَةَ الْبَاهِلِيَّةِ عن أبيهَا، أوْ عَمِّهَا: « أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ انْطَلَقَ فَأَتَاهُ بَعْدَ سَنَةٍ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ وَهَيْئَتُهُ، فقال: يَارَسُولَ الله أَمَا تَعْرِفُنِي؟ قال: وَمَنْ أَنْتَ؟ قال: أَنَا الْبَاهِلِيُّ الَّذِي جِئْتُكَ عَامَ الأَوَّلِ، قال: فَمَا غَيَّرَكَ وَقَدْ كُنْتَ حَسَنَ الْهَيْئَةِ؟ قُلْتُ مَا أَكَلْتُ طَعَاماً مُنْذُ فَارَقْتُكَ إلاَّ بِلَيْلٍ، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِمَ عَذَّبْتَ نَفْسَكَ، ثُمَّ قال: صُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ وَيَوْماً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، قال: زِدْنِي فإنَّ بِي قُوَّةً، قال: صُمْ يَوْمَيْنِ، قال: زِدْنِي، قال: صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، قال: زِدْنِي، قال: صُمْ

النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عبادته وعمله في السر، وكانوا يعتقدون أنه ليس هناك أي عمل للنبي ﷺ سوى العبادة ليل نهار، وحين علموا بعبادة وفعل النبي ﷺ في السر تقالوها، وقالوا: أين نحن والرسول ﷺ، فهو ﷺ معصوم، وقد غفر الله تعالى له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلِّي الليلَ أبداً، وقال الثاني: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطر، وقال الثالث: أنا أعتزلُ النساء فلا أتزوَّجُ أبداً. وحين علم النبي ﷺ بهذا قال مخاطبا إياهم: "أنتُم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني"[1]

أراد بعض الصحابة الذين لم يتمكنوا من الزواج بسبب إفلاسهم وفقرهم، ولم يقدروا على كبح جماح أنفسهم أن يجبوا مذاكيرهم، فأرادوا أن يستئذنوا الرسول ﷺ في هذه الرهبانية، فأظهر الرسول ﷺ غضبه الشديد.

مِنَ الْحُرُمِ واتْرُكْ، صُمْ مِنَ الْحُرُمِ وَاتْرُكْ، صُمْ مِنَ الْحُرُمِ وَاتْرُكْ، وَقَال بأصابعه الثلاثة فضمَّهَا ثُمَّ أرسلَهَا». (يوسف عامر)

[1] صحيح البخاري، كتاب النكاح. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٠٦٣) حدثنا سعيدُ بن أبي مريمَ أخبرنا محمدُ بن جعفرٍ أخبرنا حُميدُ بن أبي حُميدٍ الطويل أنه سمعَ أنسَ بن مالكٍ رضيَ الله عنه يقول: «جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسألونَ عن عبادةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: وأينَ نحنُ منَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ قد غَفَر اللهُ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّر. قال أحدُهم: أما أنا فأنا أصلِّي الليلَ أبداً. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطر. وقال آخر: أنا أعتزِلُ النساء فلا أتزوَّجُ أبداً. فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتُم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوجُ النساء، فمن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مني». (يوسف عامر)، ورواه مسلم بلفظ آخر قريب منه.

يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص وغيره من الصحابة: لو أذن له الرسول ﷺ لاختصى كثير من الناس. [١]

يتضح من هذا أن النبي ﷺ كم كان يهتم بتعليم الناس العبادة الصحيحة والهدف منها. كان النبي ﷺ أحيانا يواصل الصوم لعدة أيام، وأراد الصحابة إتباعه في هذا، ولكن النبي ﷺ منعهم. فاعتبروا أن هذا المنع بمثابة شفقته ﷺ عليهم، ومن ثم واصلوا الصوم. وكان النبي ﷺ قد واصل صومه لمدة يومين وفي الثالث ظهر الهلال، فأفطر ﷺ وقال: "لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلاَلُ لَزِدْتُكُمْ» كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا. قال الصحابة: يا رسول الله ! إذن لم تواصل الصوم لعدة أيام؟ قال ﷺ: «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» [٢] ومن ثم فإن مثل هذا الصوم ليس لعامة المسلمين.

ذات مرة والنبي ﷺ في مسجده، رأى حبلاً مربوطا بأحد الأعمدة، فاستفسر عنه فقال له الناس: إن زينب رضي الله عنها قد ربطته، إذ تتعب

---

[١] صحيح البخاري، وأبو داود، كتاب النكاح. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٩٥٣) حدثنا أحمدُ بن يونسَ حدَّثنا إبراهيمُ بن سعد أخبرنا ابنُ شهاب سمعَ سعيدَ بن المسيَّب يقول: سمعتُ سعدَ بن أبي وقّاص يقول: «ردَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عثمانَ بن مَظعونٍ التَّبتُّلَ، ولو أذِن له لاختَصَينا».(يوسف عامر).

[٢] صحيح مسلم، كتاب الصوم. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٢٥١٩) حدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَىٰ رَسُولُ اللّـهِ عَنِ الْوِصَالِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ، يَا رَسُولَ اللّهِ تُوَاصِلُ قَالَ رَسُولُ اللّهِ «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْماً ثُمَّ يَوْماً. ثُمَّ رَأَوُا الْهِلاَلَ. فَقَالَ: لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلاَلُ لَزِدْتُكُمْ» كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا.(يوسف عامر).

من الوقوف في الصلاة ليلاً؛ لذا تقف معتمدة عليه؛ قال ﷺ: لا، حُلُّوهُ، ليُصلِّ أحدُكم نشاطَهُ، فإذا فترَ فلْيَقعُدْ»[1]

وذات مرة مرت امرأة، فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "إنها لخولاء يقول الناس إنها لا تنام الليل وتنشغل دائما بالعبادة" قال رسول الله ﷺ: مَهْ، عليكم ما تُطيقونَ منَ الأعمالِ، فإن اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[2].

وقال النبي ﷺ مخاطباً من ينشغلون بالصلاة طوال الليل أكثر من استطاعتهم "لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات"[3].

كانت لدى العرب أعراف رهبانية كثيرة في الحج، على سبيل المثال كان بعض الحجيج يتعهد بأنه لن يتلفظ بأي شيء طوال هذا السفر، أو أنه

---

[1] جمع الفوائد، نقلا عن المعجم الكبير والأوسط للطبراني، وأبو داود، وعن أنس، ج ١، ص ٢، طبعة ميرت، باب الاقتصاد في الأعمال. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١١٣٣) حدَّثنا أبو مَعْمرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ صُهَيبٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللّهُ عنهُ قال «دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فإذا حَبلٌ مَمدودٌ بينَ الساريتَينِ، فقال: ما هذا الحبلُ؟ قالوا: هذا حبلٌ لزينبَ، فإذا فَتَرَتْ تَعلَّقَتْ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا، حُلُّوهُ، ليُصلِّ أحدُكم نشاطَهُ، فإذا فترَ فلْيَقعُدْ».(يوسف عامر).

[2] جمع الفوائد، نقلا عن الصحيحين والموطأ والنسائي. (١١٣٤) قال: وقال عبدُ اللّهِ بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن هِشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها قالت: «كانت عندي امرأةٌ من بني أسَدٍ، فدخل عليَّ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: مَن هذهِ؟ قلتُ: فلانةُ، لا تنامُ الليلَ ــ تَذْكُرُ من صَلاتِها ــ فقال: مَهْ، عليكم ما تُطيقونَ منَ الأعمالِ، فإن اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا».(يوسف عامر).

[3] أبو داود، باب القصد في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في مجمع الزوائد، جـ ١، ص٦٢ بنفس اللفظ: " قال لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات " (يوسف عامر).

سيسافر مترجلاً، ولن يمتطي أي راحلة رغم استطاعته السفر راكبا، أو أنه سيسير تحت لهيب الشمس طوال هذا السفر دون أي مظلة. ومنها أيضا أنه كان هناك بعض من الناس يضع خطاما في أنفه تعبيراً عن ذنوبه ثم يطوف، ويعتقد أن في هذا ثوابًا عظيمًا. جاء الإسلام وأبطل كل هذه الطرق والأعراف، وقرر أن تكليف النفس بأكثر ما لا تطيق ليس سببا في رضا الله تعالى. نذرت أخت عقبة بين عامر أنها ستحج مرتجلة، فجاء عقبة إلى النبي (ﷺ) وسأله عن هذا الأمر. أجاب النبي (ﷺ): " إنَّ الله لَغَنِيٌّ عن نَذْرِهَا مُرْهَا فَلْتَرْكَبْ» "[1]. وذات مرة رأى النبي (ﷺ) رجلاً ذاهبا إلى الحج مترجلا في وجود جمل الهدى، فأمره النبي (ﷺ) بأن يمتطيه، فاعتذر الرجل بسبب أن هذا الجمل جمل الهدي. فقال النبي (ﷺ):اركبْها. فقال: إنَّها بدَنة. فقال: اركبْها. قال: إنها بدَنة. قال: اركبْها ويْلَكَ، في الثالثةِ أو في الثانية». [2] وذات مرة رأى النبي (ﷺ) شيخا في سفر الحج لا يستطيع السير، وكان أبناؤه يمسكونه من الجانبين ويمشيانه، فاستفسر النبي (ﷺ)؛ فاتضح له أن هذا

---

[1] سنن أبي داود، ومسند ابن جارود، كتاب الإيمان والنذور. وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود:(٣٢٩٢) حدثنا مُسْلِمُ بنُ إبْرَاهِيمَ قال أخبرنا هشَامٌ عن قَتَادَةَ عنْ عكْرِمَةَ عن ابنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ الله عَنْهُمَا: « أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا بَلَغَهُ أنَّ أُخْتَ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ نَذَرَتْ أنْ تَحُجَّ مَاشِيَةً قَالَ إنَّ الله لَغَنِيٌّ عن نَذْرِهَا مُرْهَا فَلْتَرْكَبْ». قَالَ أبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ سَعِيدُ بنُ أبي عَرُوبَةَ نَحْوَهُ وَخَالِدٌ عنْ عِكْرِمَةَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم نَحْوَهُ.(يوسف عامر)

[2] صحيح البخاري، ج ١، صـ ٨٢. كما ورهذا الحديث أيضا في سنن أبي داود وهذا نصه:(١٦٦٩) حدَّثنا عبدُاللَّهِ بنُ يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن أبي الزِّنادِ عنِ الأعْرَجِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللَّهُ عنه «انَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يَسُوقُ بَدَنَةً فقال: اركبْها. فقال: إنَّها بدَنة. فقال: اركبْها. قال: إنها بدَنة. قال: اركبْها ويْلَكَ، في الثالثةِ أو في الثانية». (يوسف عامر).

الشيخ قد نوى الحج ماشيا، فقال (ﷺ): "إنَّ الله لَغَنِيٌّ عنْ تَعْذِيبِ هَــذَا نَفْــسَهُ وَأَمَرَهُ أنْ يَرْكَبَ» [١]

وذات مرة بينما كان النبي (ﷺ) يخطب رأى رجلا واقفا عاري الرأس في الشمس المحرقة، فسأل النبي (ﷺ) عنه، قال الصحابة: إنه أبو إسـرائيل، قد نذر بأنه سيظل واقفا ولن يجلس أبدا، ولن يـستريح تحـت ظـل، ولـن يتحدث، وسيظل صائما دائما. قال النبي (ﷺ): " مُــرُوهُ فَلْيَــتَكَلَّمْ وَلْيَــستَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ». [٢]

ومَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالكعبــةِ بإنــسانٍ يقــودُ إنساناً بخزَامَةٍ في أنفِهِ فقَطَعها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بيدِه، ثــمَّ أمــرَه أن يقودَه بيدِه. "[٣]

---

[١] أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جارود، كتاب الإيمان والنذور. وهــذا نــص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٣٢٩٧) حدثنا مُسَدَّدٌ قال أخبرنا يَحْيَــى عــن حُمَيْدٍ الطَّوِيلِ عن ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ،: « أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليــه وسلم رَأَى رَجُلاً يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، فَقَالَ: إنَّ الله لَغَنِيٌّ عنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ وَأَمَرَهُ أنْ يَرْكَبَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ عَمْرُو بنُ أَبِي عَمْرٍو عن الأَعْرَجِ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم نَحْوَهُ. (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، أبو داود، وابن جارود، كتاب الإيمان والنذور. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٣٢٨٤) حدثنا مُوسَى بنُ إسْــمَاعِيلَ أخبرنــا وُهَيْــبٌ أخبرنا أيُّوبُ عن عِكْرِمَةَ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: « بَيْنَمَا النَّبيُّ صلى الله عليــه وســلم يَخْطُبُ إذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ في الشَّمْسِ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: هٰذَا أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَــذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلاَ يَقْعُدَ وَلاَ يَسْتَظِلَّ وَلاَ يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ، قالَ: مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ».(يوسف عامر).

[٣] صحيح البخاري، كتاب الإيمان والنذور. وهذا نص الحديث: (٦٥٥٥) حدَّثَنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشامٌ أنَّ ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني سليمانُ الأحولُ أن طاوساً أخبرهُ عن ابن عباس رضيَ اللَّهُ عنهما «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم مَــرَّ وهــو

وزأى النبي (ﷺ) حالة راهبي المسيحية في هذا النوع من العبادات غير الضرورية وقال "لا تشدوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات"[1]

استأصل النبي (ﷺ) كل طرق العبادة الخاطئة بجملة وجيزة، وذلك حين أخبر(ﷺ) بأنه **لا صرورة (أي لا رهبانية) في الإسلام**. (أبو داود).

إن العزلة والانقطاع عن العالم ليسا عبادة

اعتقدت أكثر الأديان أن كمال التدين والتضرع إلى الله يعني أن الإنسان يأوي إلى غار أو جبل أو غابة، ولكن العبادة في الحقيقة ما هي إلاّ أداء حقوق الله عز وجل وحقوق العباد – وهو ما سنتحدث عنه في الصفحات التالية – ومن ثم فإن الشخص الذي ينعزل عن أبناء جنسه، ويأوي إلى زاوية، فهو في الحقيقة يكون مقصراً دائماً في حقوق أبناء جنسه؛ لذا لا يستحق أي ثناء أو مدح. والاعتقاد الصحيح في الإسلام هو أن الإنسان يشارك ويتفاعل في العلاقات الإنسانية، ويؤدي واجبه نحو كل علاقة خير أداء. والشخص الذي يضطرب من العلاقات الإنسانية وحقوقها، ويبحث عن زاوية تأويه هو في الحقيقة جندي جبان في معركة الحياة. والإسلام يريد رؤية أتباعه جنودًا شجعانًا يتحملون الأعباء، ويقيمون العلاقات، ولا ينسون

يطوف بالكعبة بإنسانٍ يقودُ إنساناً بخزَامَة في أنفِهِ فقطَعها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بيده، ثمَّ أمرَه أن يقودَه بيدِه». (يوسف عامر).

سقط هذا النص العربي في الطباعة، وقمت بترجمة ترجمته الأردية التي دونها المؤلف نفسه، ثم حققتها مع الأصل العربي في جمع الفوائد نقلا عن المعجم الكبير والأوسط للطبراني، وأبو داود، الاقتصاد في الأعمال، واكتفيت بكتابة الأصل العربي فقط (يوسف عامر).

الله؛ فمفهوم العبادة في الإسلام لا يعني ترك الفرض وإنما أداء الفــرض، لا يعني ترك العمل، وإنما التمسك بالعمل، لا يعني فعل أي شيء، وإنما يعنـــي فعل كل شيء (لا يخالف الدين).

لعلك قرأت فيما سبق أن النبي (ﷺ) قال لصحابته رضوان الله علـــيهم الذين تركوا أهلهم وعيالهم وأصدقاءهم وأحبابهم، وأخذوا يقضون يومهم فـــي الصوم وليلهم في العبادة: يا عبدَ الله، ألم أُخْبَرْ أنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ فقلتُ: بلى يا رسولَ الله. قال: فلا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجـسدكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَورِكَ عليكَ حقاً" [1]. ويتضح من هذا أن العبادة في نظر الإسلام تعني أداء هذه الحقوق، ولا تعني أبداً تركها. فذات مرة مر صحابي من مكان به غار، وبجواره بئر ماء، وحوله بعض الأعشاب، فأعجبه هذا المكان للعزلة بنفسه عـــن الـــدنيا، فجاء النبي (ﷺ) وقال: يا رسول الله! وجدت غارا بـــه كـــل الـــضروريات،

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (١٩٥٢) حدثنا ابن مُقاتلٍ أخبرَنا عبــدُ الله أخبرَنا الأوزاعيُّ قال: حدَّثني يحيى بن أبي كثير قال: حدَّثني أبو سلَمَةَ بنُ عبدِ الرحمٰنِ قال: حدَّثني عبدُ الله بنُ عمرو بن العاصِ رضيَ الله عنهما «قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: يا عبدَ الله، ألم أُخْبَرْ أنَّكَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ؟ فقلتُ: بلـــى يـــا رسولَ الله. قال: فلا تَفعلْ، صُمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَم، فإنَّ لجسدكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لعَينِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكِ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَورِكَ عليكَ حقاً، وإنَّ بحَسْبِكَ أن تصُومَ كلَّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ. فإنَّ لكَ بكلِّ حسنةٍ عَشرَ أمثالِها، فإذن ذلكَ صِيامُ الدَّهرِ كلِّه. فشدَّدتُ فشُدِّدَ عليَّ. قلتُ: يا رسولَ الله إنِّي أجِدُ قُوَّةً، قال: فصُمْ صِيامَ نبـــيِّ الله داودَ عليـــه السلامُ ولا تَزِدْ عليه. قلتُ: وما كان صِيامُ نبيِّ الله داود عليه السلامُ؟ قـــال: نـــصفَ الدَّهر. فكانَ عبدُ الله يقولُ بعدَ ماكَبِرَ: ياليتني قَبِلْتُ رُخصةَ النبـــيِّ صـــلى الله عليـــه وسلم». (يوسف عامر).

وتريد نفسي أن أعتزل بها فيه وأترك الدنيا. فأخبره النبي (ﷺ) بأنه ما جاء باليهودية ولا المسيحية ولكنه جاء بالدين الحنيفي السهل اليسير.[1]

لقد كان النبي (ﷺ) قبل البعثة يذهب إلى غار حراء ويقضي به عدة أيام، وينشغل بعبادة الله تعالى، ولكن حين جاءته أول رسالة وحي، ووضع على أكتافه عبء تبليغ الدعوة، كان يقضي بعض الساعات في اليوم والليلة، والأيام الأخيرة في شهر رمضان من كل سنة في عزلة (العبادة). وكان في يومه كله يلتقي بالجماعة، ويتفاعل معهم، ويقضي يومه في عبادة الخالق وخدمة المخلوق. وكان هذا دستور عمل الخلفاء الراشدين وعامة الصحابة الكرام، وهذه هي العبادة العملية والصحيحة في الإسلام.[2]

---

[1] مسند ابن حنبل، ج ٥، ص ٢٦٦.

[2] يبيح الإسلام الاعتكاف والعزلة في أمرين فقط. أحدهما الشخص السيئ بطبعه، وفيه إيذاء للآخرين وليس نفعهم. لذا رأى النبي (ﷺ) بأنه يحق لمثل هذا الرجل أن يعتزل الناس من أجل نجاتهم من شروره. ورد في صحيح للبخاري أن رجلاً جاء إلى النبي (ﷺ) وسأله: "من أفضل الناس ؟" فأخبره (ﷺ) رجل يضحي بماله ونفسه في سبيل الله. والثاني رجل يأوي إلى واد ويعبد الله ويحفظ الناس من شره. يتضح من هذا التعلم النبوي أن الناس على نوعين أحدهما نوع أعطاه الله تعالى التوفيق لهداية خلق الله وخدمتهم، ومن ثم عليه أن يعيش بين الناس ويعمل كل ما فيه خير لهم، حتى وإن أنفق ماله ونفسه من أجل هذا. والنوع الثاني هو أناس فطروا على ظلم الناس وإيذائهم، وصلاح أخلاق نفس هذا النوع من الناس في أنهم يعتزلون الناس، ويقضون أوقاتهم في عبادة الله، حتى يحفظوا أنفسهم من الذنوب، وينجو الناس من ظلمهم. والأمر الثاني الذي أجاز فيه النبي (ﷺ) العزلة والاعتكاف هو حين يكثر الفساد والفتن والظلم في المجتمع، ويعجز الإنسان عن كبحه وإصلاحه، فالأفضل له في مثل هذا الأمر هو أن يبتعد عن الجماعة ويعتزلها. لذا أخبر النبي (ﷺ) بأنه سيأتي زمان على أمته ﷺ فيه أفضل ثروة للإنسان ماعزاً، يأخذها ويبحث عن أماكن المطر ووديان الجبال حتى ينجو بدينه وإيمانه من الفتن. (صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب

مفهوم العبادة في الإسلام

اتضح مما سبق أن مفهوم العبادة في الإسلام ليس ضيقا كما هو الحال في الأديان الأخرى. والعبادة تعني في اللغة إظهار العجز والتضرع. وفي اصطلاح الشريعة تعني تقديم الإنسان عبوديته وخضوعه أمام الله تعالى، وتنفيذ أوامره سبحانه؛ لذا ورد في القرآن الكريم أن لفظ الغرور والاستكبار مضاد للعبادة. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر ٦٠).

ويقول عن ملائكته سبحانه:

﴿وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ (الأنبياء: ١٩).

ويقول عز وجل عن المسلمين المؤمنين المحظوظين

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (السجدة: ١٥)

وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم يتضح منها أن هناك تضادًا في المعنى بين العبادة والغرور والاستكبار، ومن ثم فإن كان الغرور والاستكبار يعنيان الاعتقاد بأن الأنا كبيرة أمام الله، والإقرار بأن لها كيانًا وشأنًا كبيرًا، واعتبار السجود أمام الله عار؛ فإن العبادة تعني إظهار الأنا لضعفها وطاعتها

العزلة، راحة من خلاط السوء). إن الاعتكاف والعزلة في هذين الأمرين مبنيان على أصول صحيحة، ففي الأمر الأول ذلك الفرد الذي لا يتأتى منه شيء للجماعة والمخلوقات سوى الإيذاء والرعب، وفي هذه الحالة تكون حياته بعيدًا عن الجماعة أنفع له وللجماعة معًا. وفي الأمر الثاني حين يسوء نظام الجماعة، ولكن على الفرد المؤمن الصحيح، الذي لا يمكن له إصلاح هذه الجماعة بسبب ضعفه، أن يُخرج نفسه من هذه الجماعة، حتى لا تؤثر فيه، ويبقى هو على دينه وإيمانه. (صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب العزلة راحة من خلاط السوء).

وعبادتها أمام الله تعالى، وتنفيذ أوامره سبحانه، والسجود له عز وجل. وعليه فالعبادة في لغة الصحيفة المحمدية؛ هي كل عمل يقوم به العبد، يقصد به إظهار عبادته الله تعالى، وطاعة أوامره وأحكامه سبحانه. وإذا قام الإنسان بأفضل الأعمال، ولكن ليس بنية وهدف عبوديته لله وطاعة أوامره سبحانه؛ فهذه ليست عبادة. يثبت من هذا أن النية الصالحة والخالصة شرط لإدراج العمل الطيب في العبادة، وهذه النية هي التي تفرق بين العبادة وغير العبادة.

وورد التعبير عن هذا في أكثر من آية في القرآن الكريم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(الليل: ١٧-٢١).

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾(البقرة: ٢٧٢).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩).

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٤-٦).

فَسَّرَ الرسول (ﷺ) هذه الآيات القرآنية الجامعة والمانعة بهذه الكلمات البليغة الجامعة المانعة: "**إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيات**..."(صحيح البخاري ومسلم)[1]. شرحها النبي (ﷺ) لهؤلاء الناس الذين تركوا بيوتهم، وجاءوا إلى المدينة، يقول (ﷺ): «إنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّمَا لِكُلِّ امرئٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: حدَّثنا الحُمَيْديُّ عبدُ اللَّه بنُ الزُّبَيرِ قال: حدَّثَنا سُفْيَانُ قال: حدَّثَنا يحيى بنُ سَعيدِ الأنْصاريُّ قال: أَخبرَني محمدُ بنُ إبراهيمَ التَّيْمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بنَ وقَّاصٍ اللَّيْثيَّ يقولُ: سمعتُ عمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي اللَّهُ عنه على المِنْبَرِ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ «إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصيبُها، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إلَيه».(يوسف عامر).

هِجْرَتُه إِلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُه إِلى ما هاجَرَ إِلَيــه». (صحيح البخاري ومسلم).

يتضح من هذا الشرح والتفسير أن مفهوم العبادة الذي وضحه وقدمــه النبي (ﷺ) للعالم لابد فيه من تحقيق النية الخالصة للأشياء أولاً، وليس فيــه تخصيص لطريقة وأسلوب أي عمل، وإنما يقوم به الإنسان بنيــة الحــصول على رضا الله، وطاعة أحكامه، وتنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه عبــادة. وإن تتصدق بمئات الآلاف من الأموال على أي أحد بغية الــشهرة، فهــذا لــيس بعبادة، ولكن تصدقك على أي أحد بأقل القليل من الأموال، بغية رضــا الله، وتنفيذا لأوامره هو العبادة الصادقة.

لقد جعل التعلم الإسلامي طهارة القلب وصفاء الروح وإخلاص العمل غاية للعبادة، وهذا هو الهدف الأصلي للإسلام من العبادة. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِــن قَــبْلِكُم لَعَلَّكُــمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ٢١).

يثبت من هذه الآية الكريمة أن التقوى هي غرض العبادة وغايتها.

والتقوى هي تلك الحالة أو الكيفية لقلب الإنسان، التي بــسببها يتجــه القلب إلى كل أعمال الخير، وينفر من كل الشرور والسيئات. ذات مرة أشار النبي إلى الصدر وقال: " التَّقْوَىٰ هٰهُنَا».[١] ووضَّحَ القرآن الكريم هذا الأمــر

---

[١] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم. وهذا نص الحديث كمــا ورد في صحيح مسلم: (٦٤٩٣) حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا دَاوُدُ يَعْنِي ابْنَ قَيْسٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَىٰ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِــعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْــعِ بَعْضٍ. وَكُونُوا، عِبَادَ اللّهِ إِخْوَاناً. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُــسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُــهُ، وَلاَ يَخْذُلُــهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هٰهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ

في قوله تعالى ﴿تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢). والغرض الأصلي من العبادة في الإسلام هو خلق هذه الحالة أو الكيفية. والصلاة والصوم وسائر العبادات الأخرى وسائل تؤدي إلى تحقيق التقوى، ومن ثم فإن سائر أعمال الإنسان المشروعة والتي تهدف إلى هذا الغرض طبقا للشريعة عبادة.

يمكن لنا أن نوضح هذا المفهوم بألفاظ أخرى، وهي أنه كان يعتقد بصفة عامة من قبل بأن العبادة اسم لبعض الأعمال المعينة، التي يقوم بها الإنسان من أجل الله تعالى مثل: الصلاة والدعاء والأضحية. ولكن تعليم محمد (ﷺ) وسّع هذه الدائرة الضيقة توسيعا لا حصر له، فطبقا لهذا التعليم يُعتبر كل عمل صالح من أجل الله تعالى، ومن أجل نفع وفائدة مخلوقاته سبحانه، ومن أجل الحصول على مرضاته عز وجل عبادة، وأي عمل لله تعالى يعني في الإسلام كل عمل يبتعد عن التظاهر ونيل الشهرة والمن على الآخرين وغيرها من الأغراض الدنيوية والمادية، ويكون فقط حبًا في الله تعالى، وطمعاً في رضاه وعفوه.

وطبقا لهذا الشرح والتوضيح فإن التفرقة البينة التي كان قد وضعها الدين بين الدين والدنيا، قد محاها تماما تعليم محمد (ﷺ)، فالدين والدنيا في الإسلام ليسا متضادين أو خصمين، وإنما هما صديقان، وإن كل أعمال الدنيا التي تُطلق عليها الأديان الأخرى بأنها أعمال دنيوية، تصبح أعمالاً دينية وليست دنيوية إذا أديتها كلها بنية خالصة وبعيدة عن أي تظاهرٍ أو أنانية أو غرض وغاية ماديين، وكان الهدف منها – فقط – هو رضا الله تعالى وإطاعة أوامره سبحانه. لذا لا يوجد فرق بين الأعمال الدنيوية والأعمال الدينية، بل الفرق فقط في الغرض والغاية والنية. لعلك قرأت فيما ذكرناه

يَحقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». (يوسف عامر).

سابقا حديث رسول الله الذي منع فيه المسلمين من المغالاة في العبادة: عن عبد الله بن عمرو قال: دَخلَ عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ألم أُخبَرْ أنكَ تقومُ الليلَ وتصومُ النهار؟ قلت: بَلى. قال: فلا تَفعلْ، قُم ونَم، وصُم وأفطِر، فإنَّ لجسَدِكَ عليك حقاً وإن لِعَينكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لزَورِك عليكَ حقاً، وإنَّ لزَوجِكَ عليكَ حقاً [1] فأخرج شيئا لخدمته. خلاصة القول هو أن أداء مثل هذه الحقوق إطاعة لله تعالى وعبادة له، ومن ثم فإن أكل الطيب من الرزق والشكر عليه عبادة أيضاً ويقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)

ويتضح من هذه الآية الكريمة أن السعي على الرزق الطيب، وأكله، وشكر لله عليه عبادة. والآية الآتية تُوضحُ بأن التوكل على الله؛ أي السعي والعمل، وترك النتيجة إلى الله تعالى عبادة أيضا. يقول الله تعالى:

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود : ١٢٣).

والصبر على المشاكل وتحمل المصائب عبادة أيضا. يقول تعالى:

﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ﴾ (مريم: ٦٥).

ومواساة أي قلب حزين وقول معروف له، والعفو عن أي مذنب عبادة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾(البقرة: ٢٦٣)

وقد شرح محمد رسول الله (ﷺ) هذه الآية الكريمة بقوله (ﷺ):

«كل معروف صدقة». [2]

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حق الضيف.

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٥٨٨٣) حدّثنا عليُّ بن عيّاش حدَّثنا أبو غَسّانَ قال: حدثني محمد بن المنكدر عن جابرِ بن عبد الله رضيَ اللّهُ عنهما عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: كلُّ معروفٍ صدَقة». (يوسف عامر).

تبسمك في وجه أخيك صدقة وإماطة الأذى عن الطريق صدقة (صحيح البخاري، كتاب الأدب).

إن مساعدة الفقير والأرملة عبادة، ليس هذا فحسب بل هي عبادة تفوق عبادات أخرى كثيرة. قال رسول الله (ﷺ):

الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل.[1] (صحيح البخاري، كتاب الأدب).

لا ريب في أن القضاء على أسباب البغض والفساد بين الناس، ونشر الحب والوئام بينهم عبادة تفوق في درجاتها الصلاة والصوم والزكاة. قال النبي (ﷺ) لصحابته ذات يوم: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ** ؟ قال الصحابة: بلى يا رسول الله. قال: **إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ**»[٢].

وذهب سيدنا سلمان الفارسي ﷺ لزيارة سيدنا أبي ذر ﷺ فرأى زوجته في ملابس رثة. فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: أخوك أبو ذر ليس له حاجة في الدنيا. بعدها جاء الطعام للضيف، فقال أبو ذر: إني صائم. قال

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٨٦٩) حدّثنا إسماعيلُ بنُ عبدِ اللّه قال: حدثني مالكٌ: عن صَفوانَ بن سُليمٍ يرفعُه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال «الساعي على الأرملةِ والمِسكين كالمجاهد في سبيلِ اللّه، أو كالذي يصوم النهارَ ويقومُ الليل». (يوسف عامر).

[٢] سنن أبي داود، ج ٢، كتاب الأدب، باب إصلاح ذات البين. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٤٩١٥) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا أَبُو مُعَاوِيَةَ الأعمَشِ عن عَمْرِو بنِ مُرَّةَ عن سَالِمٍ عن أُمِّ الدَّرْدَاءِ عن أَبِي الدَّرْدَاءِ، قال قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: « **أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ: قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قالَ: إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ**». (يوسف عامر).

سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل أخذ أبو ذر يقوم للصلاة. فقال له سلمان: نم، فنام. فلما كان من آخر الليل أيقظه سلمان وقال له: قم الآن وصل، فصليا. ثم قال له سلمان ﷺ: يا أبا ذر إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. وأتى أبو ذر النبي (ﷺ) وذكر له ما ذكره سلمان ﷺ له، فقال له النبي (ﷺ) "صدق سلمان"[1].

سأل الصحابة رسول الله عن أفضل الأعمال. أخبرهم (ﷺ) بأن الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال. فسألوا: أي غلام في تحريره ثواب عظيم ؟ أخبرهم ﷺ بأنه من تزيد قيمته، ومن هو مفضل لدى مالكه. قالوا: وإن لم نستطع فعل هذا ؟ أخبرهم وإلا فعمل الثواب هو مساعدة العامل أو فعل عمله الذي لا يمكن أن يقوم به. ثم قالوا: فإن لم نستطع ؟ أخبرهم ﷺ بألا يسيئوا إلى الناس فهذا نوع من الصدقة يستطيعونه"[2]

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، صـ ٩٠٦ وهناك رواية تقول بأن المضيف كان هو أبا الدرداء رضي الله عنه. (يوسف عامر). وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٩٤٥) حدثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ حدَّثنا جَعفرُ بنُ عَونٍ حدَّثَنا أبو العُمَيسِ عن عَونِ بنِ أبي جُحَيفةَ عن أبيهِ قال: «آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرْداءِ، فرأى أمَّ الدَّرداءِ متَبذِّلةً فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوكَ أبو الدَّرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدُّنيا. فجاءَ أبو الدَّرداءِ فصنَعَ لهُ طَعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكلٍ حتى تَأكُلَ. قال: فأكلَ. فلمّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداءِ يقومُ، قال: نَمْ، فنام. ثم ذَهبَ يقومُ، فقال: نَمْ. فلمّا كانَ من آخرِ الليلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا. فقال لـه سَلمانُ: إنَّ لربِّكَ عليكَ حقاً، ولنفسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقّ حقَّه. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذَكرَ ذلكَ له، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ سَلمانُ (يوسف عامر).

[2] الأدب المفرد، الإمام البخاري، باب معونة الرجل أخاه.

وذات مرة حَدَّث النبي (ﷺ) أصحابه: " إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي [1]

في ضوء هذا الأسلوب المؤثر اتضحت طرق وسبل عبادة الله تعالى ونيل رضاه. أراد سيدنا سعد ﷺ أن ينفق كل ثروته في سبيل الله، فأخبره النبي (ﷺ) بأنه إذا أنفق أي شيء بنية رضا الله تعالى وبغيته، لوجد ثوابه حتى اللقمة التي يضعها في فم زوجته[2]. وقال النبي (ﷺ) لأبي مسعود

---

[1] الأدب المفرد، الإمام البخاري. باب عيادة المريض. وهذا نصه في صحيح مسلم: ٢٥٦٩ حدثني محمد بن حاتم بن ميمون حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي" (يوسف عامر).

[2] الأدب المفرد، باب يؤجر في كل شيء. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري:(٥٢٢٧) حدّثنا محمدُ بن كثير أخبرنا سفيانُ عن سعد بن إبراهيمَ عن عامر بن سعدٍ رضيَ الله عنه قال: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودني وأنا مريضٌ

الأنصاري:«إذا أنفق المسلمُ نفقةً على أهلِه ــ وهو يَحتَسِبها ـــ كانــت لــه صدقةً». [1] وفي ذات مرة اشتكى بعض الصحابة لرسول الله (ﷺ) وقــالوا: "يا رسول الله ! إن الأغنياء يفضلوننا فــي الثــواب، فهــم يــصلون مثلنـــا ويصومون، فضلا عن أنهم يتصدقون بأموالهم في سبيل الله، وهو ما نفتقــده نحن". قال النبي (ﷺ):«أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهِ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِــالْمَعْرُوفِ صَــدَقَةٌ. وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّـــهِ، أَيَـــأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَــرَامٍ أَكَـــانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». [2]

بمكة، فقلتُ: لي مالٌ، أوصي بمالي كلّه؟ قال: لا. قلتُ: فالــشطر؟ قــال: لا. قلــت: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير أن تَدَعَ ورَثتكَ أغنياءَ خير مــن أن تَــدَعهم عالـــةً يتكففونَ الناس في أيديهم. ومهما أنفقتَ فهو لك صَدَقَة، حتى اللقمةَ ترفعها فــي فــيْ امرأتِكَ، ولعلَّ اللهَ يرفعُك، ينتفع بكَ ناسٌ ويُضرُ بك آخرون». (يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، كتاب النفقات. وهذا نص الحديث كما ورد في البخــاري:(٥٢٢٤) حدّثنا آدمُ بن أبي إياس حدَّثنا شُعبةُ عن عديٍّ بن ثابت قال: سمعت عبدَ الله بن يزيــدَ الأنصاري عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ فقلت: عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقــال: عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أنفق المسلمُ نفقةً على أهلِه ــ وهو يَحتَسِبها ــ كانت له صدقة».(يوسف عامر).

[2] الأدب المفرد، البخاري، باب كل معروف صدقة. وهذا نص الحديث كما ورد فــي صحيح مسلم: (٢٢٨٢) حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ الضُّبَعِيُّ. حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ. حَدَّثَنَا وَاصِلٌ مَوْلَىٰ أَبِي عُيَيْنَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ عُقَيْلٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ قَالُوا لِلنَّبِيِّ : يَا رَسُــولَ اللّـــهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ. يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي. وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَــصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ. قَالَ: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهِ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً. وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ. وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ. وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ.

يتضح من تعليمات محمد رسول الله (ﷺ) أن الإسلام كم أضاف في مفهوم الثواب والعبادة وحسن العمل، وكم من أخطاء أزالها في الفهم الإنساني. كما أنه يتضح بعد هذا الشرح أن محمداً رسول الله (ﷺ) أخبر بأن الغرض من خلق الإنسان وغايته هو عبادة الله. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)

في هذه الآية الكريمة لا يوجد ذلك المفهوم الضيق لمعنى العبادة، الذي كان يُعتقد بصفة عامة، بل إن مفهوم العبادة واسع يعني كل الأعمال الصالحة والمفيدة التي يقوم بها الإنسان بنية إظهار عبوديته أمام الله تعالى، وإطاعته، وبنية نيل رضاه سبحانه. ويدخل في هذا المفهوم – أيضا – كل أعمال الإنسان في الحياة التي يقوم بها بإتقان. وهذا هو سر الروحانية الذي انكشف للعالم أجمع عن طريق محمد رسول الله (ﷺ) فقط.

نعرف بصفة عامة أن في الشريعة أربع عبادات مفروضة. أي الصلاة والصوم والزكاة والحج. لا ريب في أن تحديد وتعيين هذه الفروض قد قلل من المفهوم الواسع للعبادة، والحقيقة أن هذه الفروض الأربعة تُقسم المعاني الواسعة للعبادة ودفاتر جزئياتها الكثيرة إلى أربعة أبواب مختلفة، وكل فريضة منها عنوان موجز لباب يوضح عباداتها وجزئياتها. كما يُكتب عنوانا موجزاً على رأس موضوع مفصل. فهذه الفروض الأربعة في حقيقة الأمر تقسم سائر أعمال الإنسان الصالحة والمفيدة إلى أربعة عناوين مختلفة ومستقلة، ومن ثم يمكننا القول بأن هذه الفروض الأربعة أربعة أصول لأعمال الإنسان وأفعاله الجيدة:

وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ. وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».(يوسف عامر).

١. فكل أعمال العبادة الصالحة والأفعال الجيدة التي تقتصر صلتها بين الخالق والمخلوق فقط باب مستقل عنوانه الصلاة.
٢. وكل الأعمال الصالحة والأفعال المفيدة التي يفعلها الإنسان من أجل نفع الآخر وراحته صدقة وزكاة.
٣. إن أي تضحية بدنية في سبيل الله تعالى، وتحمل المشقة والتكاليف من أجل الحصول على غرض طيب، والحرص على طهارة النفس من نجاسة الأطماع المادية والأنانية، والتي تكون حائلا في طريق الحصول على مطمع طيب، صوم. أو قل إن الصوم هو عنوان سائر جزئيات التضحية والإيثار.
٤. والحج عنوان باب المنظمة النمونجية لأخوة الملة الإبراهيمية في دنيا الإسلام، وقيام الإتحاد المركزي للترابط والصلات، والسعي والجهد الذاتي من أجل تعمير هذا المركز وكسب الرزق.

حين تمعن النظر، تدرك أن سائر أعمال الإنسان الصالحة والمفيدة تدخل تحت هذه الأصول والأسس الأربعة؛ لذا قال النبي (ﷺ):«بُنِيَ الإِسلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إلاّ اللّهُ، وَأَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، وَإِقامِ الصلاةِ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضان». [1] والركن الأول يضم العقائد، أما الأركان الأربعة الأخرى فهي تحيط بسائر أعمال الإنسان الصالحة والطيبة. وعلى هذه الأعمدة ترتفع عمارة الإسلام العظيمة والواسعة.

---

[1] صحيح البخاري وصحيح مسلم، كتاب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٨) حدَّثنا عُبَيدُ اللّهِ بنُ موسى قال: أخبرَنا حَنْظَلَةُ بنُ أبي سُفْيانَ عن عِكْرِمَةَ بن خالدٍ عن ابنِ عُمَرَ رضي اللّهُ عنهما قال: رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: «بُنِيَ الإِسلامُ عَلى خَمْسٍ: شَهادَةِ أَنْ لا إِلهَ إلاّ اللّهُ، وَأَنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، وَإِقامِ الصلاةِ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضان». (يوسف عامر).

وهذا لا يعني الاكتفاء بهذه الفروض الأربعة أي الصلاة والزكاة والصوم والحج فقط، بل لابد من القيام بعبادات هذه الفروض الأربعة كاملة هي وبقية جزئياتها أو فروعها، ولو قصَّر المسلمُ في جزئيات أي عبادة، لكانت طاعته لله تعالى ناقصة وغير كاملة، ويكون هناك شك في فوزه بالفلاح والنجاح في الدين والدنيا، ذلك الفوز الذي وعده الله تعالى به. وهنا تتضح الإجابة على سؤالنا: لِمَ لا تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟، ولِمَ لا يمنحنا صومنا ثروة التقوى؟ ولِمَ لا تُطهر زكاتنا قلوبنا؟ ولِمَ لا يكون حجنا سبباً في مغفرة ذنوبنا؟ ولِمَ لا تمنحنا صلاتنا النصر كما فى القرون الأولى فى الإسلام؟ ولِمَ لا تُبعد زكاتنا الإفلاس عن قومنا؟ ولِمَ لا يأتينا خير الدين والدنيا الموعود؟ ولكن وعد الله تعالى هو:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (النور: ٥٥).

إن توقع إبقاء هذا الوعد دون الإيمان الكامل والعمل الصالح حمق.

وهكذا فإن من يغض الطرف عن أحكام وأوامر هذه العناوين الأربعة الواضحة، وينفذ ما تشتمل عليه هذه العناوين من جزئيات وفروع فقط، يمكن له أن يحصل على خلافة الدنيا الفانية، ولكن لن يكون له أي حق في مملكة السماء. ولقد جاء الإسلام ليضع مملكة الدارين تحت أقدام أتباعه. ويتحقق هذا حين يدرك المسلمون مفهوم العبادات بمعناها الواسع – والذي هو غرض الإسلام – والقيام بهذه العبادات بمفهومها الجامع الأمر الذي يحث عليه الإسلام.

الصلاة

﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (البقرة:٤٣)

الصلاة هي الركن الأول من أركان الإسلام، والـذي فـرض علـى الجميع بلا استثناء، من غني وفقير، وشيخ وشاب، وامرأة ورجـل، وسـقيم وصحيح؛ فهي العبادة التي لا تسقط عن أي شخص في أي حال، فـإن لـم يستطع الإنسان أن يؤديها واقفاً، فليؤدها قاعداً، وإن لم يستطع، فليؤدها نائماً، وإن لم يستطع الكلام، فليؤدها بالإشارة[1]، وإن لم يستطع أن يتوقف ليؤديهـا، فيمكن أن يؤديها وهو ماشٍ[2]، وإن كان راكباً فليصل حيث تتوجه الدابة[3].

---

[1] نيل الأوطار، ج ٢، صـ ٢٨، برواية موقوفة من الدارقطني.

[2] أبو داود، باب صلاة الطالب. وهذا نص الحديث كما ورد فـي سـنن أبـى داود: (١٢٤٩) حدثنا أَبُو مَعْمَرٍ عَبْدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو أخبرنا عَبْدُ الْوَارِثِ أخبرنا مُحمَّـدُ بـنُ إِسْحَاقَ عن مُحمَّدِ بنِ جَعْفَرٍ عن ابنِ عَبْدِ الله بنِ أُنَيْسٍ عن أَبِيهِ، قال: «بَعَثَنِي رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلَى خَالِدِ بنِ سُفْيَانَ الْهُذَلِيِّ ــ وكَان نَحْوَ عُرَنَةَ وَعَرَفَاتٍ ــ فقال: اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ، وَحَضَرَتْ صلاةُ الْعَصْرِ فَقُلْتُ: إِنِّي لأَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا إِنْ أُؤَخِّرَ الصَّلاَةَ، فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أُصَلِّي أومئ إِيمَاءً نَحْوَهُ، فَلَمَّـا دَنَوْتُ منْهُ قال لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ لِهَـذَا الرَّجُـلِ فَجِئْتُكَ فِي ذَلِكَ. قَالَ: إِنِّي لَفِي ذَاكَ. فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً حتَّى إذا أَمْكَنَنِي عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي حتَّى بَرَدَ». (يوسف عامر).

[3] كتاب الصلاة، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهـت. وهـذا نص الحديث كما ورد في سنن أبى داود: (١٢٢٦) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا رِبْعِيُّ بنُ عَبْدِ الله بنِ الْجَارُودِ حدثني عَمْرُو بنُ أبي الْحَجَّاجِ حدثني الْجَارُودُ بنُ أَبي سَبْرَةَ حـدثني

ما هي الصلاة ؟ الصلاة هي إظهارٌ للعبودية والخضوع من المخلوق لخالقه بالقلب واللسان والجوارح، وهي ذكرٌ للرحمن الرحيم، وشكرٌ على نعمه وعطاياه التي لا تحصى، وثناءٌ على ذاته تعالى، وإقرارٌ بوحدانيته وعظمته؛ فهي صلة للروح بحبيبها، وخشوع الروح والبدن في حضرة سيدهما، وإظهار لعجز مشاعرنا الروحانية والداخلية، وهي النشيد الفطري لقلوبنا، وهي صلة بين المخلوق والخالق، وطمأنينة للأرواح الفزعة، وشفاء للعقول المضطربة، ودواء للقلوب القانطة، وهي صوت الطبيعة، والنداء الروحي للطبيعة الرقيقة المؤثرة؛ فهي أصل الدنيا وخلاصة الحياة.

وبم أن الخضوع لقوي خفي والدعاء له وطلب النجاة منه وقت الشدائد شيء غرائزي في الإنسان؛ فكأن وترا في أعماق القلوب يهتز حين تلمسه أصابع خفية، وهذا هو الجواب الطبيعي لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢). ولقد صور القرآن الكريم هذه الحالة الطبيعية للبشر في مواضع عديدة، وقال حين تنزل بكم النوازل ويهب الطوفان في البحر وتوشك سفينتكم على الغرق: من إله غير الله تدعون؟[1]

المقصود هنا هو أن الإنسان دائمًا يبحث عن معبود يسجد له، ويظهر له عجزه، ويحكي له عن أمنياته. خلاصة القول هو أن العبادة هي الجواب لحاجة الروح الغرائزية، فلو لم تكن هذه لما أمكن علاج شهوة النفس

أَنَسُ بنُ مَالِكٍ، : «أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كَان إذا سَافَرَ فأَرَادَ أنْ يَتَطَوَّعَ استَقْبَلَ بِنَاقَتِهِ القِبْلَةَ فَكَبَّرَ ثُمَّ صَلَّى حَيْثُ وَجَّهَهُ رِكَابُهُ». (يوسف عامر).

[1] يقول الله عز وجل في محكم آياته:« هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » (يونس:٢٢) (يوسف عامر).

بشرية. فإذا كنا نجد حتى في أغرب الأديان بعض مراسم العبادة، فكيف تخلو الأديان السماوية منها؟

لذا نجد الأمر بذكر الله وبعض طرق ذكره في كل الأديان السماوية، فإذا كان ذكر الله في الإسلام بالحمد والتسبيح، فإنه عند اليهود يكون بالترنيم، وعند النصارى يكون بالترتيل، وعند المجوس يكون بالابتهال، وعند الهنادكة يكون بالغناء. وهناك أوقات محددة ليلاً ونهاراً في كل دين من هذه الأديان لأداء هذه الفريضة. وعلى هذا يجب التأكد من أن الصلاة هي أحد أسس الأديان التي اتفقت عليها الدنيا بأسرها. وطبقا لما ورد في القرآن الكريم لم يأت أي نبي لم يعلم أمته الصلاة ويحثها عليها، خاصة في الملة الإبراهيمية، التي تحتل الصلاة فيها مكانة بارزة[1]؛ لذا يقول سيدنا إبراهيم عليه السلام موضحا

---

[1] تؤيد التوراة والزبور والقرآن الكريم هذا. لكن يتضح أن اللفظ الذي كان مستخدما في صحف اليهود القديمة للصلاة هو ذكر الله؛ لذا وردت الصلاة في التوراة والزبور بهذا اللفظ، وقد بنى سيدنا إبراهيم عليه السلام مصلى قرب الكعبة وذكر فيه الله، وورد النص هكذا في التوراة" فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب" (العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح١٢، الفقرة٨، ص١٩، طبعة دار الكتاب المقدس)، وذكر سيدنا إسحاق عليه السلام اسم الله. وورد النص هكذا في التوراة " فبنى هناك مذبحا ودعا باسم الرب" (العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٢٦، الفقرة٢٥، ص ٤١) وذكر سيدنا داود الله. وورد النص هكذا في التوراة "فلك أذبح ذبيحة حمد وباسم الرب أدعو". (العهد القديم، الزبور، المزمور ١١٦، فقرة ١٧، ص ٩١٥) وقد استخدم هذا المصطلح في القرآن الكريم ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى ١٥) وتوجد آيات عديدة في القرآن الكريم تدل على نفس المعنى. فقد استخدم لفظ الدعاء للصلاة في بعض الصحف السالفة لليهود مثل سفر دانيال وغيره، وفي كل صحف النصارى. وهذا اللفظ يعني في العربية الصلاة؛ لذا ترجم مترجمو الإنجيل إلى الأردية هذا اللفظ الصلاة، وورد النص هكذا في إنجيل متى، إصحاح ١٧، فقرة ٢١: "وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم". كما ورد أيضا في إصحاح ٢٣، فقرة ٢٤.

الهدف من إسكان ابنــه إســماعيل عليه السلام صــحراء مكــة: ﴿رَبَّنَــا لِيُقِيمُــوا الصَّلاةَ﴾(إبراهيم: ٣٧)، ويقول داعيا لنفسه ولذريته: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِــي مُقِــيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ (إبراهيم: ٤٠)، ويقول القرآن الكريم في حــق ســيدنا إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ﴾ (مريم: ٥٥)، ويقول قوم شعيب لشعيب عليه السلام ساخرين: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(هود: ٨٧). وكذلك يقول القرآن الكريم في شأن سيدنا لــوط عليه السلام وســيدنا إســحاق عليه السلام وسيدنا يعقوب عليه السلام والرسل من ذريتهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ﴾ (الأنبياء:٧٣)، ويقول سيدنا لقمان موصيا ابنــه: ﴿يَــا بُنَــيَّ أَقِــمِ الصَّلاةَ﴾ (لقمان: ١٧)، وقيل لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ الــصَّلاةَ لِــذِكْرِي﴾ (طه: ١٤)، وأُمرَ سيدنا موسى وهارون عليهما السلام ومن معهما من بنــي إسرائيل فقيل لهم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ (يونس: ٨٧)، ووعد الله بني إسرائيل فقال تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ (المائدة: ١٢)، وقيل فــي حــق سيدنا ذكريا عليه السلام: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران: ٣٩)، ويقول سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالــصَّلاةِ﴾ (مريم: ٣١)؛ فيثبت مــن القــرآن الكريم – إضافة للآيات السابقة – أن بعض اليهود والنصارى كانوا يقيمــون الصلاة في الجزيرة العربية بعد مجيء الإسلام. يقول الله تعالى:

﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)، وقد ورد في السنة المطهرة أيــضاً ذكــر لــصلاة اليهــود والنصارى. فمثلاً ورد عن رسول الله ﷺ أنه أمر بشد الإزار ولبس الــرداء وعند الصلاة عراة كاليهود (كنز العمال: ص ٧٢)، وعدم وضع الرداء مــن غير كاليهود بل يربط (كنز العمال: ص ٧٣)، وعدم الحركة والعبــث فــي الصلاة كاليهود (كنز العمال: ص ١١٢)، وعدم الصلاة بالخف مخالفة لليهود (كنز العمال: ص ١١٤)، وأن الأمة الإسلامية قائمة على أمــر الله مــا لــم تنتظر ظهور النجوم في صلاة المغرب تقليدا لليهود، ولا غروبها في الفجــر

تقليدًا للنصارى (كنز العمال: ص ٨٤)؛ فيثبت من هذه الاقتباسات[١] أن بعض يهود ونصارى العرب كانوا يؤدون الصلاة.

كان بعض العرب يطلقون على أنفسهم أتباع الدين الإبراهيمي، وكان بعض هؤلاء الناس لا يعرف أي طريقة خاصة للعبادة؛ لذا ورد في ذكر واقعة زيد بن عمرو، أنه كان يرفع يده ويقول: "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه"، ثم يسجد على راحلته [٢]. خلاصة القول هو أن نفرا من هؤلاء كانوا يؤدون الصلاة بشكل ما، لأن سيدنا أبا ذر الغفاري ﷺ كان يصلي ليلا قبل لقائه برسول الله ﷺ وقبل أن يسلم بثلاث سنين، وقد سأله بعضهم قائلاً: فصوب أي جهة كنت تصلي حينذاك ؟ فأجاب قائلاً: حيثما اتجهت[٣]. ويقول جران العود أحد شعراء العرب الجاهليين:

---

[١] نقل هذا كله من أبواب مختلفة من كتاب كنز العمال، الجزء الرابع، ولم تكتب غير أرقام صفحات هذا الجزء في المتن.

[٢] ابن هشام، ذكر زيد بن عمرو بن نفيل. وهذا نص قوله في سيرة ابن هشام، ج١، تحقيق محمد بيومي: "اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه"، ثم يسجد على راحلته (يوسف عامر).

[٣] صحيح مسلم، فضائل أبي ذر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٦٣١٤) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ الْعَنَزِيُّ. حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي عَدِيَ قَالَ: أَنْبَأَنَا ابنُ عَوْن عَنْ حُمَيْد بْنِ هِلاَلٍ عَنْ عَبْد اللّه بْنِ الصَّامت قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٌ، : يَا ابْنَ أَخِي صَلَّيْتُ سَنَتَيْنِ قَبْلَ مَبْعَث النَّبِيِّ. قَالَ قُلْتُ: فَأَيْنَ كُنْتَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: حَيْثُ وَجَّهَنِي اللّهُ. وَاقْتَصَّ الْحَديثَ بِنَحْوِ حَديث سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغيرَة. وَقَالَ في الْحَديث: فَتَنَافَرَا إِلَىٰ رَجُلٍ منَ الْكُهَّانِ. قَالَ فَلَمْ يَزَلْ أَخي، أُنَيسٌ يَمْدَحَهُ حَتَّىٰ غَلَبَهُ. قَالَ فَأَخَذْنَا صرْمَتَهُ فَضَمَمْنَاهَا إِلَىٰ صرْمَتنَا. وَقَالَ أَيْضاً في حَديثه: قَالَ فَجَاءَ النَّبِيُّ فَطَافَ بِالْبَيْت وَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ. فَإِنِّي لأَوَّلُ النَّاسِ حَيَّاهُ بِتَحيَّة الإسْلاَم. قَالَ: قُلْتُ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللّه: قَالَ «وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ. مَنْ أَنْتَ». وَفي حَديثه أَيْضاً: فَقَالَ: «مُنْذُ كَمْ أَنْتَ

وأدركن أعجازا من الليل بعدما أقام الصلاة العابد المتحنف[١]

فيتضح من هذا البيت أن أتباع الدين الإبراهيمي من العرب كانوا يؤدون الصلاة في النصف الأخير من الليل.

وقد كانت جماعة كبيرة من اليهود قد نسيت الصلاة، حتى أن صلاتهم أصبحت عبارة عن بعض الطقوس فحسب، إذ اهتموا أكثر من الصلاة بالأضاحي والنذور التي خلت من الإخلاص والتقرب إلى الله. أما النصارى فقد شرعوا في أداء الصلاة للبشر مع صلاتهم لله، فانشغلوا بالصلاة للسيد المسيح والعذراء مريم ولمئات آخرين من أوليائهم وشهدائهم[٢].

أما أتباع الدين الإبراهيمي فكانوا يؤدون بعض الأركان حسب فهمهم. والمراد هو أن الصلاة بحقيقتها وجوهرها الأصلي كانت قد ضاعت قبل بعثة النبي ﷺ، فقد طمس شكلها وهيئتها لدرجة أن الشكل الحقيقي لها لا يبدو ولا يتضح من صحائفهم الراهنة، فلا تُعرف أركانها، ولا نستطيع أن نعرف كيف كان حاملوا هذه الصحف المنزلة وأمناؤها يؤدون هذه الفريضة، أو بأي دعاء مأثور كانوا يدعون ويبتهلون، وفي أي وقت كانوا يصلون، فلم يتبق في هذه الصحف غير العادات أو بعض المقترحات لأرباب الدين المتأخرين التي ظل يُعمل بها على أساس أنها فريضة دينية.

فنجد أن اليهود والنصارى قد اعتقدوا أن السجود الذي هو أساس الصلاة والدرجة المتناهية لإظهار الخضوع لله صعب وشاق فتركوه، وهكذا غيروا شكل الصلاة وهيئتها، ولقد صور القرآن الكريم فعلتهم هذه بقوله:

هٰهُنَا؟» قَالَ: قُلْتُ: مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ. وَفِيهِ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتْحِفْنِي بِضِيَافَتِهِ اللَّيْلَةَ. (يوسف عامر).

[١] لسان العرب، لفظ حنف.

[٢] انظر دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشر، لفظ العبادة (فى الليل).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٩، ١٧٠).

ويقول الله تعالى في سورة مريم بعد ذكر الأنبياء الصادقين جميعا: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ (مريم: ٥٩).

والمقصود من إضاعة الصلاة أو إفسادها ليس تركها فحسب، بل الأهم من ذلك هو إضاعة حقيقتها وجوهرها، فحين يرفع المسلمون نداء الصلاة بقولهم "حي على الصلاة" كان اليهود والنصارى يسخرون منهم، فقال القرآن الكريم في ذلك: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً﴾ (المائدة: ٥٨)

ومن كان على دين آبائه من العرب وقريش كان على دراية – إلى حد ما– بهيئة الصلاة، ولكن هؤلاء لم يكونوا يؤدون هذا الفرض سهوا، فقد كانت عبادتهم هي عبادة الأصنام، والاستعانة بالجن، وتوقير الملائكة، فحينما كانوا يدعون الله في الحج، أو في الطواف، أو في أي مناسبة أخرى، كانوا يستخدمون أسماء الأصنام، وتختلط بأدعيتهم بعض فقرات الشرك؛ إذ كان دعاؤهم يخلو من الخضوع والخشوع لله. وحين كانوا يرون المسلمين يصلون يصدونهم عنها، ويضايقونهم، ويضجون حولهم ويصفقون ويسخرون؛ لذا قال القرآن الكريم عنهم:

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥).

ولقد استنبط المفسرون اللاحقون من هذه الآية معنيين: الأول أنهم كانوا فعلا يصفقون، ويصفرون في الصلاة التي كانوا يصلونها، والمعنى الثاني أنه حينما كان المسلمون يصلون كانوا هم يصفقون، ويصفرون بهدف

إفساد الصلاة عليهم، وكأن صلاتهم الفعلية كانت بهذا التصفيق والـ... [1].
وبناءً على المعنى الأول فقد كانت صلاتهم مجرد نوع من اللهو واللعب الخالص. أما في ضوء المعنى الثاني فلم تكن لهم صلاة أصلا، بل إن صد الآخرين عن الصلاة كان صلاتهم.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى**﴾ (العلق: ٩، ١٠).

والمقصود بالعبد في الآية الكريمة النبي (ﷺ) نفسه، فحينما كان النبي (ﷺ) يصلي في ساحة الحرم كان بعض رجال مكة في شتى الأنحاء يهزءون منه (ﷺ)، وأحياناً يضايقونه[2]، أو يضعون الحبل في عنقه ﷺ [3]، وأحيانا أخرى يضعون النجاسة على ظهره الشريف حين يسجد، أو يضحكون ويقهقهون حين يتعذر على رسول الله القيام من ثقل النجاسة[4]؛ لذا كان النبي

---

[1] ابن جرير الطبري، تفسير الآية المذكورة

[2] المرجع السابق.

[3] صحيح البخاري، كتاب المناقب، فضائل أبي بكر: (٣٥٩٦) حدَّثنا محمدُ بن يزيدَ الكوفيُّ حدَّثنا الوليدُ عنِ الأوزاعيِّ عن يحيى بن أبي كثيرٍ عن محمدِ بن إبراهيمَ عن عُروَةَ بنِ الزُّبيرِ قال: سألتُ عبدَ الله بنَ عمرو عن أشدِّ ما صَنَعَ المشركونَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ أبي مُعَيط جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو يُصلِّي، فوضعَ رداءَ في عُنقه فخنقَهُ به خَنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعَهُ عنه فقال: {أتقتلون رجُلاً أن يقول ربيَ اللَّهُ وقد جاءكم بالبيِّنات من ربِّكم} (غافر: ٢٨). (يوسف عامر).

[4] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئا من الأذى. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى: (٥١٤) حدَّثنا أحمدُ بنُ إسحقَ السُّورَمَارِيُّ قال: حدَّثنا عُبيدُ اللَّهِ بنُ موسى قال: حدَّثنا إسرائيلُ عن أبي إسحقَ عن عمرو بنِ مَيمونَ عن عبدِ اللَّهِ قال: «بَينَما رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قائمٌ يُصلِّي عندَ الكعبةِ وجَمْعٌ قُرَيْشٍ في مَجالِسِهم إذ قال قائلٌ منهم: ألا تَنظُرونَ إلى هذا المُرائي؟

ﷺ في بداية الإسلام يستتر في أي غار، أو في أي وادٍ ليصلي. وكان المسلمون أيضا يصلون جميعا في الخفاء، أو في سكون الليل، وإن تصادف ورآهم المشركون هموا لقتالهم. فقد ورد في ابن إسحاق أن الصحابة حينما كانوا يريدون أداء الصلاة، كانوا يختفون في الأودية ثم يصلون. ففي ذات مرة كان سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ يصلي في أحد أودية مكة مع جماعة من المسلمين، وأثناء ذلك جاءت جماعة من المشركين واعتقدت أن صلاتهم هذه بدعة، فسبت المسلمين وتأهبت لقتالهم[(١)].

المقصود هو أن النبي (ﷺ) حين دعا الناس لعبادة الله كان الناس على صنوف ثلاثة: الأول (أي اليهود) كانوا يصلون، ولكنهم كانوا على جهل مطلق بحقيقة الصلاة؛ إذ كانت صلاتهم تخلو من الإخلاص والتأثر والخشوع والطمأنينة والخوف والخشية. الصنف الثاني (أي النصارى) كانوا يعتقدون في السجود للبشر تماماً كالسجود لله؛ لذا كانوا يعبدونهم، فالشيء الذي يعد

أَيُّكمْ يقومُ إلى جَزورِ آلِ فُلانٍ فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها ودَمِها وسَلاها فيجيءُ به، ثـمَّ يُمْهِلُـه حتى إذا سجدَ وضعهُ بينَ كتفَيه؟ فانْبَعَثَ أشقاهُم، فلما سَجدَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَضَعَهُ بين كتفَيه! وَثَبَتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً. فضحكوا حتى مالَ بَعضُهم إلى بعضٍ منَ الضَّحك. فانطَلَقَ مُنطَلِقٌ إلى فاطمةَ عليها السلامُ ــ وهي جُوَيرِيةٌ ــ فأقبلتْ تَسعى، وثَبَتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقَتْـهُ عنـه، وأقبلَتْ عليهم تَسُبُّهمْ. فلمّا قَضى رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الصلاةَ قال: اللّهـمَّ عليكَ بقُرَيْشٍ، اللّهُمَّ عليكَ بقُرَيش، اللّهمَّ عليك بقُريش. ثم سَمَّى: اللهمَّ عليكَ بعَمرِو بنِ هِشامٍ وعُتْبةَ بنِ رَبيعةَ وشيبةَ بن ربيعة والوليدِ بنِ عُتْبةَ وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ وعُقْبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ وعُمارةَ بنِ الوليد» قال عبدُ اللّه: فوَاللّهِ لقد رأيْتُهم صَرْعَى يومَ بَدْرٍ، ثمَّ سُحبُوا إلى القَليبِ قَليبِ بَدْرٍ. ثمَّ قال رسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: «وأُتبِعَ أصحابُ القَليبِ لَعنةً». (يوسف عامر).

(١) سيرة ابن هشام (ابتداء ما فرض الله سبحانه من الصلاة)

مظهرًا للتوحيد، يُعد عندهم مظهراً للشرك. والصنف الثالث (أي عبدة الأصنام من العرب) فلم يعرف الله، ولم يسجد له مطلقاً، فكان هذا الصنف من الناس يجهل هذه اللذة الروحانية.

الركن الأول للإسلام بعد التوحيد:

حين بُعث النبي ﷺ كانت الصلاة هي أول أمر كُلِّف بالدعوة إليه بعد الدعوة إلى التوحيد :﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر ١: ٣) وتكبير الله هو أساس الصلاة. ثم اكتملت الصلاة بعد ذلك إلى أن وصلت لهذا اللفظ الذي هو الحد الأقصى للرقي الروحاني، فأيقظ رسول الله (ﷺ)النائمين، ونبه الغافلين، وعلم الجهلاء، ووصل العلاقة المنقطعة بين العبد وربه، وحطم الأصنام المصنوعة من الذهب والفضة والطوب والحجارة، والتي كانت تُعبد من دون الله، وأبقى على الصلاة لله دون غيره، وحرم السجود لغير الله. وهكذا ظهرت الصلاة بمعناها الحقيقي في الدنيا بفضل إرشاد النبي (ﷺ). فقد علم النبي (ﷺ) العرب والوثنيين في العالم طريقةَ الصلاة، فعلمهم أركانها وآدابها، وعلمهم الأدعية المأثورة، وأمر النصارى بالعبادة الخالصة وعبادة الله، وأخبر اليهود عن خضوع وخشوع وسر وإخلاص وتأثير الصلاة، وحدد بطريقة عملية غير قابلة للتحريف شكل وهيئة وحقيقة صلاة أنبياء الدنيا، فأمر أن: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾(البقرة: ٢٣٨)، وأمر بالحفاظ على الصلاة من حيث هيئتها وهدفها؛ لأنها سمة المسلمين فقال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام:٩٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: ٢٣). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون: ٩) بل إن رسول الله (ﷺ) نفسه أُمر بالحفاظ على الصلاة، وأن يأمر أهله بها، وأن يثبت على الصلاة التي كان أداؤها صعبًا

للغاية أثناء قيامه ﷺ بمكة. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢) وعن كيفية الصلاة يقول تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، وأثنى على المؤمنين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢)، وأمرهم فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥) وقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ (الأعراف: ٥٦) وقال تعالى:﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (الأعراف: ٢٩)

وبعد هذا الإيجاز يجب إلقاء نظرة مفصلة على كل مباحث الصلاة.

مكانة الصلاة في الإسلام

لم يسبق الإسلامَ أيُّ دين من الأديان إلا واهتم بالصلاة، ولكن لما كانت هذه الأديان خاصة ببعض الأمم والأزمنة؛ لذا قلت أهمية الصلاة فيها من الناحية العملية؛ ومن هنا لم تكن في صلاة أي دين سابق للإسلام مكانة ثابتة وواضحة ومؤكدة لحمد الله والثناء عليه والإقرار بربوبيته. أي أن هيئة الصلاة عندهم لم تتضح من عمل أرباب أي دين أو كهانه، كما قصّ القرآن الكريم أنه لم يأت نبي في الدنيا إلا وقد أمر بالصلاة وأمر قومه بها، ولكن لا توجد لها صورة واضحة وثابتة فى أي دين سوى الإسلام. والسبب في ذلك راجع إلى أن النبي (ﷺ) هو خاتم الأنبياء، والقرآن الكريم خاتم الكتب السماوية؛ لذا أُعطيت هذه الفريضة في هذا الدين شكلا واضحا ومؤكدا وبيِّنا، حتى تظل قائمة وباقية في الدنيا إلى يوم القيامة.

فالصلاة هي أحد أركان الإسلام، وهي لا تسقط عن الإنسان طيلة حياته ما بقيت حواسه. وقد ورد في القرآن الكريم ذكرها والأمر بها وتأكيدها أكثر من مائة مرة، وذكر أيضاً أن التهاون في أدائها علامة

للنفاق[١]، وأن تركها علامة الكفر[٢]؛ فالصلاة هي ركن الإسلام الذي ولد مع الإسلام واكتمل في تلك الليلة المباركة التي يطلق عليها ليلة المعراج[٣].

---

[١] من صفة المنافقين أنهم "إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى" (النساء: ١٤٢) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون ٤، ٥)

[٢] وعن الكفار أنهم (يقولون) ﴿ لم نك من المصلين ﴾ (المدثر ٤٣) فهم سيقولون هذا حين يسألون لماذا أنتم في النار ؟

[٣] كتب الصحاح، واقعات الإسراء والمعراج، وصحيح البخاري، كتاب الصلاة.وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٤٧) حدَّثنا يحيى بنُ بُكَير قال: حدثنا الليثُ عن يونُسَ عن ابنِ شهابٍ عن أَنس بنِ مالكٍ قال: كان أَبو ذَرٍّ يُحدِّثُ أن رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «فُرِجَ عن سَقْفِ بيتي وأَنا بمكةَ، فنزلَ جبريلُ ففَرَجَ صَدري، ثمَّ غَسلَهُ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ جاءَ بطِستٍ مِن ذَهَبٍ ممتلئ حِكمةً وإيماناً فأفرَغَه في صَدري ثمَّ أَطبَقَهُ، ثم أَخَذَ بيدي فعَرَجَ بي إلى السماءِ الدُّنيا، فلمّا جِئتُ إلى السماءِ الدُّنيا قال جبريلُ لخازنِ السماءِ: افتَحْ. قال: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هَل مَعكَ أحدٌ؟ قال: نعم، معي محمدٌ صلى الله عليه وسلم. فقال: أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. فلما فتحَ عَلَونا السماء الدنيا، فإذا رجُلٌ قاعدٌ علَى يَمينه أَسْوِدَةٌ وعلى يَسارهِ أَسْوِدةٌ، إذا نَظَرَ قِبَلَ يَمينهِ ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ يَسارهِ بكى، فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ لجبريلَ: مَن هذا؟ قال: هذا آدمُ، وهذهِ الأسودَةُ عن يَمينهِ وشِمالهِ نَسَمُ بَنيهِ، فأهلُ اليَمينِ منهم أهلُ الجَنَّةِ، والأَسْوِدَةُ التي عن شِمالهِ أهلُ النارِ، فإذا نظرَ عن يَمينهِ ضَحِكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ شِمالهِ بكى. حتّى عَرَجَ بي إلى السماءِ الثانيةِ فقال لخازنِها: افتحْ. فقال له خازنُها مثلَ ما قال الأوَّلُ، ففتحَ». قال أنسٌ: فذَكَرَ أنه وَجدَ في السماواتِ آدمَ وإدريسَ وموسى وعيسى وإبراهيمَ صلَواتُ اللّهِ عليهم. ولم يُثبِتْ كيفَ مَنازِلهُمْ، غيرَ أنه ذكرَ أنه وَجدَ آدمَ في السماءِ الدنيا، وإبراهيمَ في السماءِ السادسة. قال أَنَسٌ: فلمّا مَرَّ جبريلُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم بإدْرِيسَ قال: «مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ. فقلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إدريسُ. ثمَّ مَرَرتُ بموسى فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا موسى. ثمَّ مررتُ بعيسى فقال: مَرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عيسى. ثمَّ

فالإيمان ولوازمه هو الركن الأول في الإسلام، والصلاة هي الركن الثاني؛ لذا أمر الله تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الروم: ٣١) فيثبت من هذه الآية الكريمة: أولاً أن الصلاة هي أهم شيء بعد التوحيد والإيمان. ثانياً: الخوف من الوقوع في الشرك بسبب ترك الصلاة، لأنه لو لم نطور حالة القلب عن طريق الأعمال الخارجية يُخشى أن تزول كيفية القلب هي الأخرى؛ لهذا السبب كان النبي (ﷺ) يؤكد دائمًا أهمية الصلاة بصفة خاصة، ويظهر خشيته من شرك تاركها وكفره.

ورد عن النبي (ﷺ) أن "الصلاة عماد الدين"، فكما أن البيت يسقط بسقوط أعمدته، فإن إيمان القلب هو الآخر يضيع بترك الصلاة؛ لذا حين قدم وفد الطائف إلى المدينة المنورة للحديث مع رسول الله (ﷺ) في أمر الصلح،

مَرَرْتُ بإبراهيمَ فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ صلى الله عليه وسلم» قال ابن شهاب فأخبرَني ابنُ حَزمٍ: أنَّ ابنَ عبّاسٍ وأبا حَبَّةَ الأنصاريَّ كانا يقولانِ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثمَّ عُـرِجَ بـي حتّى ظَهَرْتُ لمُستَوًى أسمعُ فيه صَريفَ الأقلام». قال ابنُ حزمٍ وأنسُ بنُ مالكٍ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ففَرَضَ اللّهُ على أُمَّتي خَمسينَ صلاةً، فرَجَعْتُ بـذلكَ حتّى مَرَرْتُ على موسى فقال: ما فرَضَ اللّهُ لك على أُمَّتِكَ؟ قلتُ: فَرضَ خَمسينَ صَلاةً. قال: فارجِعْ إلى ربِّكَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلكَ. فراجعَني فوَضَعَ شَطْرَها. فرجَعتُ إلى موسى قلتُ: وَضعَ شَطرَها. فقال: راجِعْ ربَّكَ، فإن أُمَّتَكَ لا تُطيقُ. فراجَعتُ، فوَضَعَ شطرَها. فرجَعتُ إليه فقال: ارجعْ إلى ربِّكَ فإن أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلكَ. فراجعته فقال: هي خَمسٌ وهيَ خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ. فرجَعتُ إلى موسى فقال: راجِعْ ربَّكَ. فقلتُ: استحييتُ من ربي. ثم انطلقَ بي حتى انتهى بي إلى سدْرةِ المُنْتهى، وَغَشيَها ألْوانٌ لا أدري ما هيَ. ثمَّ أُدخِلتُ الجَنَّةَ، فإذا فيها حبايِلُ اللؤلؤ، وإذا تُرابُها المِسْكُ». (يوسف عامر)

طلب من النبي (ﷺ) أن يعفيهم من الصلاة والجهاد والصدقات، فأسقط النبي (ﷺ) عنهم الجهاد والصدقات، ولكنه أخبرهم بأنه لا خير في دين لا ركوع فيه لله. وورد عنه (ﷺ) أنه ﷺ أخبرهم أيضاً بأن الصلاة نور. وقال عن نفسه: "وقرة عيني الصلاة".[1] وأخبر ﷺ بأن الإنسان يحترق في نار لا تطفأ إلا بالصلاة، فهذه النار هي نار البعد عن الله، والصلاة هي ذلك الماء العذب الذي يطفأ تلك النار، وقال (ﷺ):«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».[2] لأن الكفر والإيمان يرتبطان بحالة الإنسان الداخلية والقلبية التي لا تظهر إلا عن طريق الأعمال، كما أن الصلاة هي عمل المسلم الذي يمكن الناس من رؤيته في اليوم أكثر من مرة. وقد كان رسول الله (ﷺ) وهو في اللحظات الأخيرة من حياته يقول وهو يختم بلسانه الشريف آخر حروف فرض النبوة: «الصّلاةَ الصّلاةَ وما ملَكَتْ أيْمانُكُمْ» [3].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١٢٠٤٠) حدّثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سلام أبو المنذر القاري، حدثنا ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة». (يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٢٥٥٥) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا علي بن الحسن ــ يعني ابن شقيق ــ حدثنا الحسين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر». (يوسف عامر).

[3] ذكرت كل هذه الأحاديث في كنز العمال، كتاب الصلاة، المجلد الرابع نقلاً عن كتب أحاديث مختلفة. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٦٣٢١) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أبي الخليل، عن سفينة مولى أم سلمة، عن أم سلمة: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال وهو في الموت: «الصّلاةَ الصّلاةَ وما ملَكَتْ أيْمانُكُمْ» فجعل يتكلم بها وما يَفِيض. (يوسف عامر).

حقيقة الصلاة

إن لفظ "الصلاة" يعني في اللغتين العربيــة والعبريــة الــدعاء؛ لــذا فالحقيقة اللفظية للصلاة هي الطلب والرجاء، وهذه هي الحقيقة المعنوية لها؛ ولهذا بيّن النبي (ﷺ) معنى الصلاة، فحين أسلم معاوية بن حكم السلمي كــان من آداب الإسلام التي تعلمها أن يشمت من عطس وحمد الله، وتــصادف أن عطس أحد الصحابة ذات مرة أثناء صلاة الجماعة، وكان معاويــة يــصلي معهم فقال للعاطس: "يرحمك الله". فأمعن الصحابة في النظر إليه، فقال لهــم وهو ما يزال في الصلاة أيضاً: لماذا تنظرون إليّ ؟ فقال له الصحابة آسفين: "سبحان الله". حينذاك أدرك أنهم يمنعونه عن الكلام، ولما قــضيت الــصلاة سأل النبي (ﷺ) عمّن تكلم في الصلاة؟ فأشار الناس إلى معاوية، فناده النبــي (ﷺ) وقال له برفق وحكمة: " إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لا يَحِلُّ فيها شَيْءٌ مِــنْ كَــلامِ النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ "[1]. ويقول ســيدنا أنــس

---

[1] سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة. وهذا نص الحــديث كما ورد في سنن أبي داود: (٩٣٠) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا يَحْيَى ح. وأخبرنا عُثْمَانُ بنُ أبي شَيْبَةَ أخبرنا إسْمَاعِيلُ بنُ إِبْرَاهِيمَ المَعْنَى عن حَجَّاجٍ الصَّوَّافِ حدثني يَحْيَى بــنُ أبي كَثِيرٍ عن هِلاَلِ بنِ أبي مَيْمُونَةَ عن عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ عن مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قال: « صَلَّيْتُ مَعَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَــوْمِ، فَقُلْــتُ: يَرْحَمُكَ الله، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُم تَنْظُــرونَ إِلَــيَّ. قال: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصَمِّتُونِي. قال عُثْمَانُ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسكِّتُونِي لَكِنِّي سكَتُّ. فَلَمَّا صَلَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بِأَبِي وَأُمِّي مَا ضَرَبَنِي وَلا كَهَرَنِي وَلا سَبَّنِي، ثُمَّ قال: إنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لا يَحِلُّ فيها شَيْءٌ مِنْ كَــلامِ النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أو كما قال رسولُ الله صــلى الله عليه وسلم. قُلْتُ: يا رسولَ الله إنَّا قَوْمٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَنَا الله بالإســلاَمِ،

ﷺ: إن رسول الله (ﷺ) قال ذات مرة: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَـادَةِ» [١]. ويـروي سيدنا نعمان بن بشير الأنصاري ﷺ عن النبي (ﷺ) أنه قال: "هو العبادة"[٢]. والتي يقول عنها المولى تبارك وتعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر": ٦٠)

وَمِنَّا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قال: فلا تَأْتِهِمْ. قال قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قـال: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فلا يَصُدُّهُم قال قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قال: كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ. قال قُلْتُ جَارِيَةٌ لِي كَانَتْ تَرْعَى غُنَيْمَاتٍ قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ إِذْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهَا اطِّلاَعاً فإذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْهَا وَأَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَعَظُمَ ذَاكَ عَلَيَّ رسولُ الله صـلى الله عليـه وسلم، فَقُلْتُ: أَفَلاَ أَعْتِقُهَا؟ قال: ائْتِنِي بِهَا، قال فَجِئْتُهُ بِهَا، فقال: أَيْنَ الله؟ قالـت: فـي السَّمَاءِ، قال: مَنْ أَنَا؟ قالت: أَنْتَ رسولُ الله، قال: أَعْتِقْهَا فإنَّهَـا مُؤْمِنَـةٌ». (يوسـف عامر).

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٥٠٢) حدثنا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ أخبرنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ عَن ابنِ لَهِيعَةَ عَن عُبَيْدِ الله بنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَن أَبَانَ بنِ صَالِحٍ عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، عَن النبيِّ قَالَ «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ». قَالَ أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجِهِ لاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ ابنِ لَهِيعَةَ. (يوسف عامر).

[٢] هذان الحديثان في جامع الترمذي، كتاب الدعوات، والحديث الثاني فـي أبـي داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، وفي مستدرك الحاكم، كتاب الدعاء أيضاً. وهـذا نـص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٥٠٣) حدثنا أَحْمَدُ بنَ مَنِيعٍ، حدثنا مَرْوَانُ بـنُ مُعَاوِيَةَ عَن الأَعْمَشِ عَن ذَرٍّ عَن يُسَيعَ عَن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ، عَن النبيِّ قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ. ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}. قَالَ أَبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ رَوَاهُ مَنْصُورٌ والأَعْمَشُ عَنْ ذَرٍّ وَلاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ هو ذَرٌّ بن عبد الله الهمداني ثقة وابن عمر بن ذرٍّ. (يوسف عامر).

ورد في مستدرك الحاكم (كتاب الدعاء) أن النبي (ﷺ) أخبر بأن الدعاء أفضل العبادة. ثم تلا الآية السابقة بعد ذلك. وورد في القرآن الكريم أثناء الحديث عن سيدنا موسى ﷺ معنى واحد للصلاة وهو ذكر الله تعالى. قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤)، وإن الفلاح لمن ذكر الله وصلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥).

وحين يكون الإنسان في حالة اضطراب وقلق وصراع ذهني، ويبدو له أن كل شيء في الحياة زائل، وأن كل تدبير خائب، وتكون قوة بدنه خائرة، وطريق النجاة مسدود، فإنه لا يجد الطمأنينة والسكون والراحة إلا في الدعاء والتضرع إلى الله تعالى. وقد أوضح الله سبحانه وتعالى هذا الأمر فقال: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)؛ لذا يكون الدعاء والثبات أساس النجاة وقت المصائب النوازل:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥)

وإن من شيء في السماوات والأرض إلا يسجد لله تعالى، فالسماوات والأرض والقمر والنجوم والبحار والجبال والغابات والشجر والدواب والطيور تسبح لله تعالى، وتسير طبقا لأحكامه وأوامره، وهذا هو تسبيحها وصلاتها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨).

تأمل فستجد أن كل الكائنات بلا استثناء مطيعة لله تعالى، ولم يستثنى من كل الكائنات سوى الإنسان، فكثير يسجدون، وكثير يعصون؛ لذا حق عليهم العذاب. أما بقية المخلوقات الأخرى – غير الإنسان – فهي جميعا بلا

استثناء مطيعة لله تعالى؛ لأنها مسلوبة الإرادة والاختيار، فهي مشغولة في أعمالها منذ الأزل تنفيذا لأمر الله لها، وستظل هكذا حتى يوم القيامة. أما الإنسان فإنه يتمرد ويطغى حين يعطي ولو مثقال ذرة من الحرية والاختيار الشخصي، فالصلاة فى الإسلام تدعو هذا الإنسان المتمرد الطاغي إلى الطاعة والعبادة كبقية المخلوقات الأخرى المطيعة. ومادام أن كل مخلوقات الدنيا مشغولة بحمد الله تعالى والثناء عليه والتسبيح بحمده في كل أفعالها وأقوالها، فلماذا لا يرفع العبد نداء قدسية الله تعالى، مقدمًا دليل طاعته وانقياده لله، وهذا النداء هو الصلاة.

هدف الصلاة وغايتها

الهدف والغاية السامية من الصلاة هي شكر خالق الخلق، ورازق الكون، ومالك الملك بالقلب واللسان على عطاياه التي لا حدود لها، وعلى نعمه سبحانه التي لا تحصى، حتى تستقر في النفس والقلب والعقل عظمة وكبرياء الله تعالى، ويَثْبُت عجزنا واحتياجنا إليه سبحانه، وحتى تسري محبته تعالى في عروقنا، ويرسخ الاعتقاد بأنه تعالى موجود ومطلع علينا لدرجة اليقين بأنه سبحانه يرانا، ومطلع على كل مقاصدنا وأقوالنا وأفعالنا، فنندم على مقاصدنا السيئة، ونخجل من أعمالنا السيئة، ونبتعد عنها بعد ذلك. فقد ورد في الصحيحين في كتاب الإيمان أنّ رجلا (جبريل عليه السلام) جاء النبي (ﷺ) وهو جالس مع صحابته (رضي الله عنهم) في صورة سائل وسأله عن حقيقة الإيمان والإسلام فأخبره النبي (ﷺ). ثم سأله بعد ذلك عن حقيقة الإحسان: فقال له النبي (ﷺ):«أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ» "[1] وقال

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم:(٥٩) حدثني أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ ح وَحَدَّثَنَا

أيضاً لرجل يعلمه آداب الصلاة: «إذا كان أحدُكم يُصلِّي فـلا يَبْـصُقْ قِبَـلَ وَجهِه، *فإنَّ الله قِبَلَ وَجهِهِ إذا صلَّى*»[1]. *وروي عن ابن عمر أنه قال: كـان*

عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذ الْعَنْبَرِيُّ. وَهَذَا حَدِيثُهُ: حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَن ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِالْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ. فَانْطَلَقْـتُ أَنَـا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَداً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هٰؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ. فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي. أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ. فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ! إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْـرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ. ــ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ــ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ. وأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ! لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُـؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ قَالَ: قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُـلٌ شَـدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّـى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ. فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الإِسْلاَمُ أَنْ تَـشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ،وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْـتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ!. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟. قَالَ: «أَنْ تَعْبُـدَ الله كَأَنَّـكَ تَرَاهُ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟. قَالَ: «مَا المَـسئول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَـا. وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ، الْعَالَةَ، رِعاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَلَبِثْتُ مَلِيّاً. ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّـهُ جِبْرِيلُ. أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب البزاق في الـصلاة، صـحيح مـسلم، بـاب المساجد. مسند أحمد، المجلد الثاني، ص ٢٤، والمجلد الثالث، ص ١٧٦، وغير ذلك.

النبي (ﷺ) معتكفاً ذات ليلة والناس من حوله تصلي القيام فالتفت النبي (ﷺ) إليهم وقال:«إن المصلي يناجي ربَّهُ ــ عز وجل ــ، فلينظر أحدكم بما يُناجي ربه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعضٍ بالقراءة» [1]. فيتضح من هذه التعاليم الآثار النفسية التي يمكن أن تطرأ على قلب المصلي المخلص وعقله، وعمق الأثر الذي يمكن أن يقع على أخلاقه وعاداته. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر فقال:

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت:٤٥).

فقد أُشير في الآية السابقة إلى حكمتين من الصلاة. الأولى: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. والثانية: أن الصلاة هي ذكر الله، وليس ثمة شيء أكبر وأعظم من ذكر الله، فتزكية النفس والطهارة هي اسم النجاة من الفحشاء والمنكر. أي أن هذه هي الصورة الإيجابية لهذه الحالة السلبية، والتي يعد تحقيقها هدفا أسمى ونجاحا حقيقيا للإنسان؛ لذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن

وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري:(٤٠٤) حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسُفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن نافعٍ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رأى بُصاقاً في جِدارِ القِبلةِ فحكَّهُ، ثمَّ أقبلَ علَى الناسِ فقال: «إذا كان أحدُكم يُصلِّي فلا يَبصُقْ قِبَلَ وَجهِه، فإنَّ الله قِبَلَ وَجهِه إذا صلَّى».(يوسف عامر).

[1] مسند أحمد، المجلد الثاني، ص ٣٦، ٦٧، ١٢٩. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٥٣٤١) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا عتَّاب، حدثنا أبو حمزة، ــ يعني: السكَّري ــ، عن ابن أبي ليلى، عن صَدَقَةَ المكي، عن ابن عمر قال: اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان، فاتخذ له فيه بيتٌ من سَعَف، قال: فأخرج رأسه ذاتَ يوم فقال: «إن المصلي يناجي ربَّهُ ــ عز وجل ــ، فلينظر أحدكم بما يُناجي ربه، ولا يجهرْ بعضُكم على بعضٍ بالقراءة». (يوسف عامر).

تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥). فيتضح من هذه الآية أن فلاح الإنسان ونجاحه يكمن في ذكره، أي صلاته لربه، والأوضح من هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٨)، فوضح من الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وترفع درجة الرقي الروحاني. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج: ١٩-٢٣)

فقد رأيت الفضائل التي بشر بها القرآن الكريم المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون.

وقد تحدث النبي (ﷺ) ذات مرة مع أصحابه عن فوائد وفضائل الصلاة في أسلوب تمثيلي فقال: «أرأيتمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدكم يَغتسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تَقولُ: ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قال الصحابة: لا يا رسول الله: فقال النبي (ﷺ): "فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمحو اللّه بها الْخَطايا"[1]. وذات مرة جاء أعرابي مسلم يسأل النبي ﷺ عن وسيلة لتكفير ذنب له. فنزلت الآية الكريمة.

---

[1] ورد هذا الحديث بروايات مختلفة في كتب متعددة. وقد ذكرت هذه الروايات جميعها في كنز العمال، (المجلد الرابع ص ٦٧، ٦٨)، عن الحاكم، وأحمد، وابن خزيمة، والطبراني، والبيهقي. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري:(٥٢٢) حدّثنا إبراهيمُ بنُ حَمزةَ قال: حدَّثني ابنُ أبي حازمٍ والدَّرَاوَرْديُّ عن يَزيدَ عن محمدِ بنِ إبراهيمَ عن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحْمٰنِ عن أبي هريرةَ: أنه سَمِعَ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يَغتسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تَقولُ: ذلك يُبقي **من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبْقي من دَرَنِه شيئاً. قال: فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمحو اللّه** بها الْخَطايا».(يوسف عامر).

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤) فيتضح من هذا التفصيل أن المشاعر والأحاسيس التي يريد الدين أن يولدها في أتباعه إنما تتولد من الصلاة التي تُؤدى بآدابها وشروطها الصحيحة؛ لذا عدّ النبي (ﷺ) الصلاة عماد الدين، فإذا سقطت، انهارت كل أركان الدين[١].

بعض الآداب والشروط الواجبة للصلاة

كما أن لعالم المادة بعض القوانين التي يترتب على الحفاظ عليها ومراعاتها نتائج صحيحة لأعمالنا، كذلك لعالم الإنسان الروحاني الذي يسميه الدين عالم الروح والفلسفة النفسية أو الأحوال الذهنية بعض القوانين والضوابط التي من خلال الحفاظ عليها والالتزام بها تتولد الأعمال والأفعال المرجوة للقلب والعقل والنفس والروح، وتترتب عليها نتائج صحيحة، وقد كشف تطور علم النفس اليوم الغموض عن هذا اللغز، وقال إنه لا يمكن النجاح في خلق المشاعر والأحاسيس التي نبغي وجودها فينا أو في الآخرين ما لم نوفر شكلا وطبيعةً وجوًا ملائمًا لها. وتحت هذا الضابط وُضعت كل القوانين المدنية والاجتماعية. ثم وضعت على أساس هذه القوانين كل القواعد والضوابط والأصول لتحقيق الأهداف الدينية والسياسية والاجتماعية، ففي المعابد والهياكل والكنائس ودور العبادة الأخرى يتحتم وجود زي أو لباس خاص للكهان والعُبّاد، ويجب توافر عادات وآداب معينة، وصمت وسكون وأدب واحترام وصوت أجراس مؤثرة وطرق خاصة للجلوس. كما أن وجود الحراس الأقوياء وملابس الخدام البراقة والسيوف المستلة والرماح الضخمة والعرش والأعلام والنياشين وأصوات الخدام والحراس ونظراتهم المتعاقبة

---

[١] صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة (تفسير سورة هود).

المخيفة شيء ضروري في مجالس الملوك والسلاطين لخلق الإحساس بالرعب والعظمة الملكية. وكما أن سكون وهدوء الجو، ونظافة وبساطة المكان، والبعد عن الضوضاء وصخب المدنية شيء ضروري لخلق بيئة علمية، فكذلك الألوان والروائح والنور والبهجة والغناء والموسيقى والسرور شيء طبيعي لمجلس العرش.

وبناء على هذه المبادئ الفطرية والنفسية روعيت تلك المحركات والآداب والقوانين في الأعمال الدينية كذلك. ولأن المقصود من الصلاة هو الخضوع والخشوع والتوبة والإنابة والندم والطاعة والعبادة، وإظهار عظمة الله تعالى وكبريائه، وإبراز عجزنا وانكسارنا، وخلق الطهارة والعفة والنقاء في القلب والعقل والنفس؛ لذا اُشترط للصلاة أيضا بعض الآداب والشروط والأركان التي يتحرك وينمو بها هذا النوع من المشاعر داخل الإنسان. فمثلاً إذا تيقن المصلي أنه يقف في حضرة ملك الملوك باسطا يديه، خافضا بصره، مراعيا الأدب والاحترام في حركاته وسكناته، ومكان صلاته طاهراً، وثوبه وبدنه طاهران، ويدعو الله تعالى، ويرجوه بأدب؛ فلابد أن تؤثر هذه الهيئة الخارجية على مشاعره الداخلية، وستتولد فيه كفاءة واستعداد للبركات والفيوض الروحانية. فلو فُرض أنه لم تراع النظافة والطهارة الخارجية؛ فكيف يمكن أن يتولد التفكير في نظافة وطهارة القلب. وهذا هو الأساس النفسي الذي يوجد في كل نظام وإرادة للإنسان، فصنع الخارج ضروري ــ إلى حد ما ــ لصنع الداخل أيضاً.

وبناءً على تلك الأصول، فصلاة الفرائض في جماعة أفضل من صلاة الفرد، والصلاة في المسجد أفضل من الصلاة في البيت؛ إذ يضاعف جو الجماعة والمسجد حالة القلب؛ لذا روعيت الجماعة ووحدة النظام في كل الأعمال العظيمة. وعلى هذه الأصول عُدّ تنظيم المدارس وتقسيمها إلى مراحل، وكذا اتحاد لون وزي الفرق في اللعب، والزي العسكري ووحدة

الحركة والعمل في الجيش شيء ضروري. وكذلك يجب أن تتحد الأسلحة والحركة والسكون حتى تؤثر تلك المحركات الظاهرية على الفكر الداخلي للجماعة بأسرها. ويمكن أن يكون في الجماعة بعض الأفراد المتشيعين من الكيفية (الحالة) الحقيقية، فتؤثر حالتهم الحقيقية هذه بأسرها في الآخرين، فتشبعهم أيضاً. وهكذا يتأثر الآخرون ثم الآخرون إلى أن تتأثر الجماعة – كلها– تقريباً بهم؛ إذ يضحك الجميع في المجالس بضحك الواحد، ويبكون لبكائه. وهذه القضية واضحة تماما في نفسيات الجلسة؛ لذا راعى الإسلام هذه الأصول الفطرية والنفسية لعبادته، وأسماها آداب وشروط وأركان الصلاة.

طريقتنا الذكر والدعاء والتسبيح

ذُكرَ مرارًا أن المقصود من الصلاة الخضوع والخشوع، وذكر الله والحمد والثناء عليه، والندم على الذنوب، والاستغفار وما إلى ذلك من المشاعر الطاهرة. وكل هذه الأمور تتعلق في الحقيقة بقلب الإنسان الذي لا يحتاج إلى هذه الأركان الظاهرية؛ لهذا قسم الإسلام عباداته إلى قسمين. الأول يستطيع الإنسان أن يؤديه في كل حال وصورة دون قيد أو شرط، واسم هذا النوع من العبادة التسبيح والتهليل وذكر الله، فلا يحتاج هذا النوع إلى زمان أو مكان، ولا يشترط القيام أو القعود. فهذه العبادة يمكن أن تؤدى في كل لحظة وصورة؛ لذا قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٣)

وهذه كانت حالة الصحابة رضوان الله عليهم بسبب صحبتهم لرسول الله (ﷺ). وقد أثنى عليهم الله تعالى فقال ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١).

فلا تلهيهم مشاغل الحياة ولا تجارتها عن أداء هذه الفريضة. قال تعالى:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور: ٣٧)

الصلاة اسم لطريقة موحدة للعبادة

النوع الثاني من العبادة هو ما يؤدى بواسطة أدعية خاصة في أوقات معينة بشكل وهيئة معينين، ويطلق عليه الصلاة. فالنوع الأول من العبادة انفرادي، ينحصر على الاختيار الفردي لكل شخص؛ لذا لا يكون فيه شكل جماعي، ولم يرد أي شيء فى الإسلام يدل على أن أداءه في جماعة مسنون، فَسِرّهُ العزلة، ويجب أن يؤدى في خفاء حتى لا يتولد فيه رياء ولا سمعة. أما النوع الثاني من العبادة فله شكل جماعي؛ لذا فأداؤه مع الجماعة واجب، ويمكن أن يصل إنكاره إلى حد القتل، ولو لم يؤد في جماعة فلن يحصل مؤديه على ثواب الجماعة وخيرها، ويمكن أن نقول بأسلوب آخر إن الذكر والتسبيح والتهليل طريقة فردية للعبادة. أما الصلاة فهي طريقة جماعية تؤدي بأركان وشروط معينة في أوقات محددة، ويجب أداؤها على الجميع في جماعة في كل الأحوال، ولكن إن لم يستطع الإنسان أن يؤديها في جماعة بسبب أي عذر؛ فيجب عليه أن يؤديها منفردا. مثله في ذلك مثل الجندي الذي كان يجب عليه أن يخرج مع كتيبته، لكنه تخلف عنها لعذر ما، فحينذاك يجب عليه أداء واجبه الذي كان عليه أداؤه مع بقية زملائه.

أساس نظام الاتحاد في الصلاة

حين نتدبر فى فرائض الإسلام وأحكامه عامة، والصلاة ومتعلقاتها خاصة، يجب، علينا أن نضع نصب أعيننا هذا المبدأ الخاص؛ الذي هو في

الحقيقة سر الإسلام بل سر الأسرار؛ فحقيقة الإسلام واحدة وهي التوحيد، وهذا التوحيد ليس لغزا فلسفيا ولا مسألة صوفية، بل إنه حقيقة علمية يجب إبرازها في كل أحكام الإسلام. والصلاة كبقية فرائض الإسلام مظهر لهذه الحقيقة؛ لذا يجب مزج هذه الحقيقة بكل حركة وسكنة، ولفظ وإشارة، وفعل للصلاة. وواضح أنه مادام لم يتحدد للصلاة هيئة معينة، وقواعد وضوابط وقبلة ووقت محدد فلن تستطيع الجماعات أن تؤديها في شكل متحد. فالصلاة مفروضة على البشر الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. فلو أُذن لكل واحد منهم أن يؤديها حسبما يشاء ووقتما يريد، ويتجه إلى أي جهة يشاء؛ فلن يبقى نظام وحدة الإسلام قائما، ولن يظهر سر التوحيد من حركاته البدنية كما يظهر من قلبه، ولن يتمكن ملايين المسلمين على وجه الأرض من تشكيل كيان واحد.

المقصود أن إبراز نظام الاتحاد وإظهاره كانا أكبر رمز وشعار للتوحيد. حتى تتجمع ملايين الأفئدة الموجودة في ملايين الأبدان في جسم وقالب واحد؛ إذ يصدر عنها جميعها أفعال وحركات واحدة، في هيئة واحدة، تحت نظام واحد؛ لذا بنيت كل الأنظمة الجماعية للإنسان على هذا الأساس. فوحدة الشعب، ووحدة الجيش، ووحدة أي حفل أو مجلس، ووحدة أي بلد أو سلطنة أو أي شيء آخر قائمة على هذا الأساس. خلاصة القول هو أن أي نظام وحدة قائم على هذه الأصول والضوابط، أو هكذا يجب أن يكون.

الحركات البدنية في الصلاة

وضح أن الهدف والغاية الحقيقية من الصلاة هو إظهار بعض المشاعر، وطبيعة الإنسان أنه حين يتولد داخله شعور ما يصدر عنه أي فعل أو حركة موافقان لهذا الشعور؛ فمثلاً يحمر الوجه عند الغضب، ويصفر عند الخوف، ويتفتح عند الفرح، وينقبض عند الحزن، وتمتد الأيدي عند السؤال،

وتنتصب القامة عند تعظيم أحد، وتنحني عند الحاجة، وإذا أراد الإنسان أن يظهر حاجته وعجزه أكثر من الانحناء، فيسيل لعابه، ويضع رأسه تحت قدم الآخر. فهذه جميعا طرق ووسائل طبيعية لإظهار المشاعر، توجد عند كل الشعوب تقريباً. وبعد هذا التفصيل يجب أن نفهم أن أدعية الصلاة تُؤدى بأسلوب بشري؛ لذا وضعت أركان الصلاة أيضاً في شكل أفعال وحركات بشرية طبيعية.

وأعضاء الإنسان هي مظهر أفعاله وأعماله القلبية، فلن يستطيع أي إنسان أن يقول شيئاً عن إرادة ونية أو مشاعر وأحاسيس أي إنسان آخر ما لم يصدر من جوارح الآخر هذا أي فعل أو حركة تؤيد ذلك. ولولا هذا لادّعى كل إنسان الصلاح والتقوى، وما استطاع أحد من المجتمع تكذيب ذلك، وواضح أنه بهذه الطريقة سيفسد المجتمع بأكمله، وبالرغم من أن كل شيء داخل الإنسان معلوم لله تعالى كالظاهر، وأن الله تعالى ليس فى حاجة إلى الأعمال الظاهرية، فأن العباد محتاجون إليها؛ ليصبح الظاهر والباطن معاً صورة للطلب واللجوء والتذلل والانكسار.

والإنسان بجسده وروحه مخلوق لله تعالى، فهذان الجزءان من حياة الإنسان من نعم الله تعالى عليه؛ لذا يجب على الإنسان أن يسجد خاضعا لهذا الخالق الرازق أرحم الراحمين بالروح والجسد معاً. والمقصود أن هذه هي الأسباب التي على أساسها حَدَّدَت الشريعة الإسلامية أركان الصلاة، واضعة في الاعتبار الجسم والروح معاً.

مر سابقا أن شكل الصلاة قد أُعدّ في قالب الأعمال والحركات الفطرية للإنسان، إذ إننا نعظم أي عظيم أو نبرز احتياجنا إليه بطريق البدن من خلال طرق ثلاث، وهي: القيام والركوع والسجود. كذلك للصلاة ثلاثة أركان، فقد احتوت الصلاة التي علمها الأنبياء - عليهم السلام- للناس منذ بداية الخليقة على هذه الأركان الثلاثة، ألا وهي القيام والركوع والسجود.

أركان الصلاة

علمنا أن الصلاة كانت أكبر خصوصيات الملة الإبراهيمية، فحين أمر سيدنا إبراهيم بتعمير البيت وتطهيره، أُشير – أيضا– إلى مقصد آخر هو:

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)، فقد ذكرت في هذا الأمر أركان الصلاة الثلاثة القيام والركوع والسجود مفصلة مرتبة. وكان عهد السيدة مريم آخر عهود الزمن الإسرائيلي. قيل لها: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: ٤٣)

فتوجد في صلاة مريم أيضا أركان الصلاة الثلاثة هذه.

ترتيب هذه الأركان

حين تتكون أي حقيقة من ثلاثة أركان مرتبة، وتثبت أولية الركن الأول، وتأخر الركن الثاني، فسيتضح تلقائياً أن الركن المتبقي هو الركن المتوسط بين الأول والأخير؛ لذا فكل ركعة من الصلاة تتكون من قيام ثم ركوع ثم سجود، وإذا ثبت من الآية الآتية أن القيام يكون أولاً والسجود يكون آخرًا، فسيثبت تلقائياً أن الركوع يكون بين الركنين السابقين:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ (النساء: ١٠٢)، فقد أتضح من ذلك أن القيام يكون أولاً في الركعة، أو أن الركعة تكتمل بالسجود، فلا شك أن الركوع سيكون بين القيام والسجود، وأن كل ركعة ستتكون من ثلاثة أركان مرتبة، هي القيام ثم الركوع ثم السجود.

ويتضح من التوراة –أيضا– أركان الصلاة المختلفة، لكن القضية هي أن المترجمين قد ترجموا الألفاظ العبرية واليونانية طبقًا لتصوراتهم

وعاداتهم، مما أبْهم ــ إلى حد ماــ الحقيقة. لكن على كل حال، كــان فــي شريعة سيدنا إبراهيم وذريته طرق ثلاثة للعبادة والتعظيم: ننقل فيمــا يــأتي اقتباسا لكل منها من مجموعة التوراة.

القيام: هو قيام إبراهيم عليه السلام (ابراهام) في حــضرة خالقــه ســبحانه. (سفر التكوين، إصحاح ١٨، فقرة ٢٢).[١]

الركوع: هو انحناء وركوع إبراهيم عليه السلام حتى الأرض وقوله يــا الله (سفر التكوين، إصحاح ١٨، فقرة ٢).[٢]

السجود: هو أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حني رأسه وسجد بعدما ســمع أن الله تعالى قد أعان بني إسرائيل وأذهب آلامهم. (سفر الخروج، إصــحاح ٤، فقرة٢١). "فسقط أبرام على وجهه. وتكلم الله معه قائلا" (سفر التكوين، إصــحاح ١٧، فقرة ٣)."وقتها قال إبراهيم عليه السلام (ابراهام) لفتيانه ابقوا عنــد الحمــار وسأذهب أنا مع هذا الصبي (الذبح ولده) إلى هناك. وسأسجد ثم أعود" (سفر التكوين، إصحاح ٢٢، فقرة ٥)[٣]. "وقتها حني هذا الرجل (رســول ســيدنا إسحاق عليه السلام) رأسه وسجد لله قائلاً يا إلهي إن اله إبــراهيم مبــارك" (ســفر التكوين، إصحاح ٢٤، فقرة٢٦)[٤]. "وحدث حين وصل داود قمة الجبل حيث

---

[١] وهذا نصه:" وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب".(يوسف عامر).

[٢] وهذا نصه: "فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلمــا نظــر ركــض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض".(يوسف عامر).

[٣] وهذا نصه: "فقال إبراهيم لغلاميه إجلسا أنتما ها هنا مع الحمار. وأما أنــا والغــلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما".(يوسف عامر).

[٤] وهذا نصه: "فخر الرجل وسجد للرب* وقال مبارك الرب إله سيدي إبراهيم الذي لم يمنع لطفه وحقه عن سيدي. إذ كنت أنا فى الطريق هداني الرب إلــى بيــت إخــوة سيدي". (يوسف عامر).

سجد هناك" (صموئيل الثاني، إصحاح ١٥، فقرة ٣٢)[١]. وفي الزبور يقول سيدنا داود لله تعالى: "وسأسجد صوب هيكلك المقدس خاشعاً" (الزبور، المزمور ٥، فقرة ٧)[٢].

يتضح من هذه الاقتباسات أن الأركان الثلاثة للعبادة كانت موجودة في الملة الإبراهيمية، وقد قلدها الإسلام في ذلك. وقد ورد ذكر الصلاة والدعاء في الأناجيل الموجودة اليوم متى (٦-٥)[٣]، (١٧-٢١) [٤]، (٢٦-٣٦) [٥]، ومرقس (١٤-٣٣) [٦]، ولوقا (٢٢-٤١) [٧] وغير ذلك. وقد ورد عن طريقة الصلاة في أحد الأناجيل أنها الركوع (لوقا ٢٢-٤١) [٨] في الإنجيل

---

[١] وهذا نصه: "ولما وصل داود إلى القمة حيث سجد لله إذا بحوشاي الأركي قد لقيه ممزق الثوب والتراب على رأسه". يوسف عامر).

[٢] وهذا نصه: "أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد في هيكل قدسك بخوفك." (يوسف عامر).

[٣] وهذا نصه: "ومتى صليت فلا تكن كالمرائين. فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم" (يوسف عامر).

[٤] وهذا نصه: "وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم". (يوسف عامر).

[٥] وهذا نصه: " حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها جثسيماني فقال للتلاميذ اجلسوا ها هنا حتى أمضي وأصلي هناك".(يوسف عامر).

[٦] وهذا نصه: "انظروا اسهروا وصلوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت".(يوسف عامر).

[٧] وهذا نصه: "وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلي".(يوسف عامر).

[٨] وهذا نصه: "وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلي".(يوسف عامر).

الأول. وفي الثاني (متى ٢٦-٣٩) [١] أنها السجود، وفي بقية الأناجيل أنهـا الصمت.

وقد كان المصلون من اليهود والنصارى يؤدون تلك الأركان فى زمن البعثة أيضا. فكانوا يقومون ويتلون آيات من التوراة أو من الزبــور، كمـا كانوا يسجدون. وقد شهد القرآن الكريم بهذا فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْـلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣) وفي الروايات أنهم لم يكونوا يــضمون أيديهم في الركوع كاليهود[٢]. ويتضح من هذا أن يهود العرب أيضا كـانوا يؤدون أركان الصلاة المختلفة هذه.

وقد فُرِضَت صلاة الإسلام بنفس تلك الأركان والهيئة القديمـة التـي جاءتنا منذ سيدنا إبراهيم وحتى اليوم.

لذا يكتب مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية مقرين بهذه الحقيقة وهـي: "أن الصلاة في الإسلام تشبه إلى حد بعيد صلاة اليهـود والنـصارى فـي تركيبها"[٣].

فلم يفعل الإسلام شيئا سوى أنه عمم هذا الكنز، وذكّر ثانية بالفرائض المنسية بعد أن خلصها من الشوائب البشرية، وأبرز الأثر المطموس، ونفـخ روح الحقيقة في القالب الميت للصلاة، وخلق فيها جوهر الإخلاص، وجعلها عمود الدين، وحفظ هيئتها الخارجية بالتعليم والعمل المتواتر من التحريـف البشري، وأتم فرض هذا التطبيق الذي أُختير لها منذ الأزل.

---

(١) وهذا نصه: "ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلي قائلا يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". (يوسف عامر).

(٢) فتح الباري، ابن حجر، للجزء الثاني، ص ٢٢٧، مصر.

(٣) معنى الصلاة، المجلد الرابع، صـ ٩٦.

والقضية هي أن الصلاة ليست اسما للتسبيح والتهليل المطلقين أو لذكر الله تعالى، بل إن لها أركانا معينة، وهذا ثابت من أعمال النبي ﷺ وصحابته ﷺ، إضافة إلى ثبوته في القرآن الكريم نفسه. فقد رُخّص قصر الصلاة وتخفيف أركانها في حالة الخوف والحرب، ثم قال وبعد ذلك أدّوا الصلاة كما عُلّمتموها.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩)

فيثبت من هذا أن ذكر الله كانت له طريقة خاصة، شكلها العملي الصلاة، وتفصيلها ورد في سورة النساء، فقيل عن الركعة الثانية بعد أداء الركعة الأولى مع الإمام في صلاة الحرب:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ (النساء ١٠٣)، ففي هذه الآية أمران يدعيان للتأمل، الأول: أن الركعة التي أُديت أُطلق عليها صلاة، بينما أُطلق على الركعة الثانية التي أُديت لله قياما وقعودا وسجودا وعلى الجنوب في حالة الهجوم والدفاع ذكر الله فقط. الأمر الثاني: أن صلاة الحرب المخففة العارضة هذه لم تؤدَّ بلفظ إقامة الصلاة، بالرغم من أن فيها ذكر الله وتسبيح وتهليل وبعض الأركان الأخرى، ولكنها قيام: فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة. فيتضح من هذا أن المعنى المطلق لإقامة الصلاة يختلف عن الذكر والتدبر والتسبيح والتهليل والحمد والثناء وتلاوة القرآن المطلقين؛ أي أن بعض الأركان الأخرى التي تنعدم أو تقل في حالة الحرب تدخل ضمن إقامة الصلاة، إضافة للذكر والتدبر والتسبيح والتهليل والحمد والثناء والقراءة، لكن بعد زوال هذا المانع الطارئ يُطالب بأن تؤدى الصلاة العادية. هذه هي الأركان التي قيل عنها في سورة البقرة فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم.

والآن علينا أن نطالع الأركان التي فرضت بها الصلاة، ويكفينا أن نعلم الطريقة (الكيفية) التي صلى بها النبي ﷺ طيلة حياته، والطريقة التي علمها أصحابه ﷺ، فهذه الكيفية العملية لصلاته (ﷺ) موجودة ومنقولة عن طريق التواتر منذ ذاك الوقت وحتى اليوم، وهي معلومة للصديق والعدو والمؤيد والمعارض، كما أنها متفق عليها بلا اختلاف عند كل الفرق الإسلامية، ولكن سيكون تقديم دليل للتجريبيين أكثر وقعا. أولاً أن نقف لله تعالى قانتين: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) أن نبدأ الصلاة بذكر الله ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى: ١٥) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ٣) أي نقول الله أكبر. ثم بعد ذلك نحمد الله ونثني عليه ونسأله مغفرة ذنوبنا. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور: ٤٨) ثم نقرأ القرآن.﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل: ٢٠)

وأن نذكر أسماء الله تعالى وصفاته، وأن نحمده بتلك الآيات القرآنية التي يتجلى فيها تكبير الله تعالى. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ (الإسراء: ١١٠، ١١١).

ولأن حمد الله تعالى بأكمله موجود في صورة الفاتحة؛ لذا نقرأها في الصلاة قبل أي شيء، ثم نقرأ بعد ذلك ما تيسر من القرآن، ثم نركع لله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣)، ثم نسجد بعد ذلك، أي نضع جبهتنا على الأرض أمام الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧)، ونسبح ونحمد الله تعالى في كل من الركوع والسجود: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٧٤، ٩٦) ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ

﴿الأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) وطبقا لما علّمنا رسول الله (ﷺ) تكون الأولى في الركوع والثانية في السجود[1].

وقد ثبت ترتيب القيام والركوع والسجود من سورة الحج، وآل عمران، وأن الركعة تكتمل بالسجود من سورة النساء. والحقيقة أن ترتيب الأركان أمر طبيعي وعقلي تماما؛ إذ إن الطبيعي هو أن يكون القيام أولاً، ثم يليه الركوع، ثم السجود، فالمرحلة الأولى التي يكثر حدوثها عند التعظيم هي أن يقف الإنسان أولاً، وحين تزيد المشاعر والأحاسيس عمقا وهياجا فيركع، وحين تعتريه حالة من اللاوعي، فيلقي بأعلى جزء من جسمه وهو الناصية (الجبهة) على أسفل جزء من جسم المعظم له أي القدمين؛ لذا تعد السجدة هي الحالة القصوى لكيفية الصلاة. قال القرآن: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩).

وكأن السجود هو أقصى درجة للقرب الإلهي، وربما يكرر في كل ركعة لهذا السبب.

الصلاة مجموعة لكل أحكام العبادة البدنية

أُمرنا في آيات عديدة من القرآن الكريم بعبادات بدنية ولسانية وقلبية مختلفة، فأُمر الجسم بالقيام ثم الركوع ثم السجود بأدب. وهنا تأكيد لقراءة أدعيّة مختلفة، وكذا تسبيح وحمد الله تعالى، والأمر بالدعاء والاستغفار، وخضوع وخشوع القلب والصلاة على النبي (ﷺ). وقد شُكّلت الصلاة

---

[1] ابن ماجه، كتاب الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن ابن ماجه: (٩١٨) حدثنا عَمْرُو بْنُ رَافِعٍ الْبَجَلِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَيُّوبَ الْغَافِقِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَمِّي إِيَاسَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» فَلَمَّا نَزَلَتْ: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ».(يوسف عامر).

بطريقة حوت داخلها كل أوامر القرآن الكريم البدنية واللسانية والقلبية، لهـذا فالصلاة مجموعة لكل العبادات القرآنية البدنية واللسانية والقلبية، ويمكـن أن نقول بأسلوب آخر إن كل الأحكام التي وردت للمسلمين في القـرآن الكـريم من قيام وركوع وسجود وتهليل وتسبيح وتكبير وتـلاوة وذكـر الله تعـالى والصلاة على النبي (ﷺ) كلها جميعا تسمى صلاة؛ إذ تؤدى في الصلاة كـل هذه الأمور بطريقة كلية. من جانب آخر رُوعي الترتيب في هذه الأحكـام، ولو لم يكن هذا الترتيب، وتُرك الأمر لاختيار الناس الشخصي، حيث يركـع من يريد أن يركع، ويسجد من يريد أن يسجد، ويقوم مـن يريـد أن يقـوم، ويكتفي من يريد أن يذكر ويتلو باللسان فحسب، ويتفكر بالقلب فقط أثناء أداء هذا الفرض، لسقطت من كل فرد أركان الفرائض الإلهية، وما عُمـل بهـا إطلاقا. ولا عجب أن يحول كسل الإنسان وميله للراحة بينه وبين أداء كـل هذه الأحكام، بل والأكثر من ذلك أنه لن يتشكل كيان واحد ومـنظّم لعبـادة المسلمين جميعًا، ولن تكون الجماعة، ولن يمكن القول عن الصلاة إنها عبادة الدين الخاصة، ولن تتشكل منها عظمة وحدة رمز وشعار الجماعة، فلا تتحد الأمة وتنهض.

وقد علّم الله تعالى نبيه (ﷺ) الصلاة عن طريق الملائكة [1] بطريقـة عملية، ثم علمها النبي (ﷺ) أمته، وعلمتها الأمة جيل بعـد جيـل للتـابعين، فظلت محفوظة حتى اليوم عن طريق التواتر العملي الذي يخلو مـن الـشك والشبهة.

---

[1] موطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري، كتاب الصلاة.

دعاء الصلاة

تقرأ في الصلاة أدعية مختلفة طبقاً لحالات الصلاة، وقد رويت أدعية متعددة لحالات متعددة عن النبي (ﷺ). يختار منها كل مسلم ما يريد، لكن الدعاء الأساسي للصلاة هو الذي يبتدئ القرآن الكريم به، والذي أكد النبي (ﷺ) قراءته في الصلاة، وقرأه هو في ركعات صلاته طيلة حياته، ومنذ ذلك الوقت والمسلمون يقرءونه حتى اليوم. هذا الدعاء هو سورة الفاتحة، التي تحوي وتضم كل جوانب مقاصد الصلاة؛ لذا فهي الدعاء الأصلي للصلاة في الإسلام، والذي أداه الله تعالى على لسان عباده فقال:

﴿الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ١- ٧) (نقول عند نهاية هذا الدعاء آمين؛ أي استجب يا الله).هذا هو الدعاء الذي يكرره كل مسلم في كل صلاة، والذي لا تتم الصلاة إلا به[١]. هذا الدعاء هو عصارة وخلاصة كل تعاليم الإسلام، ففيه الحمد والثناء على الله والتوحيد

---

[١] جامع الترمذي، قراءة الفاتحة. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٤٥) حدثنا ابن أبي عمرَ و عليُّ بن حُجْرٍ قالا: حدثنا سفيانُ عن الزُهْرِيِّ عن محمودِ بن الرَّبِيع عن عُبَادَةَ بنِ الصامتِ، عن النبي قال: «لا صلاةَ لمن لم يقرأْ بفاتحةِ الكتاب».

وفي البَابِ عن أبي هريرةَ وعائشةَ وأنسٍ وأبي قَتَادَةَ وعَبْدِ الله بن عمرٍو.

قال أبو عيسى: حديثُ عُبَادَةَ حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ.. والعملُ عليه عند أكثرِ أهل العلمِ من أصحاب النبيِّ، منهم عمرُ بن الخطاب وجابرُ بنُ عَبْـدِ الله وعُمْـرانُ بـنُ حُصَيْنٍ وغَيْرِهم، قالوا: لا تُجْزِئُ صلاةٌ إلا بقرَاءَةِ فاتحةِ الكتاب.

وبه يقُولُ ابنُ المُبَارَكِ والشَّافعيُّ وأحمدُ وإسْحَاقُ.(يوسف عامر).

وتأكيد الثواب والعقاب على الأعمال، وإقرار بالأداء المخلص للعبادة، وطلب التوفيق والهداية، وتمني تقليد المحسنين، والبعد عن الضالين. وفي الوقت الذي تأتي فيه أول صفة لله تعالى في هذا الحمد على اللسان تتجمع كل قدرات الله وعطاياه المنتشرة من السماء على الأرض، ويتولد الإحساس بسعة عظمة الله تعالى وكبريائه من قول "رب العالمين" أي المخلوقات إنساناً كانت أم حيوانا، أنعاما أم طيوراً، والغني من الناس والفقير، والخادم والمخدوم، والحاكم والمحكوم، والأسود والأبيض، والعربي والأعجمي سواء في الأخوة من حيث الخلقة. وتموج في بحر القلب رحمة الله الواسعة، ولطفه الكثير، وعطاياه الكثيرة من النداء على الله تعالى "بالرحمن الرحيم". ونقف من قولنا "مالك يوم الدين" على مسئولية أعمالنا ومحاسبتنا، فنخاف من جلال الله وجبروته. وحين نقول "إياك نعبد" نتخلص من كل براثن الشرك التي في قلوبنا. وحين نقول "إياك نستعين" فإننا لا نعتقد في أي مدد أو عون دنيوي، ولا نبحث إلا عن الاستعانة بقوة الله فقط، فنستغني عن الجميع ولا نلجأ إلا إلى الواحد سبحانه، وفي النهاية نطلب هداية الصراط المستقيم، ما هذا الصراط المستقيم ؟ أحكام شريعته هي:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١، ١٥٢).

أوضحت هذه الآيات معنى الصراط المستقيم في القاموس المحمدي (الإسلامي)؛ وهو عدم الشرك بالله والإحسان بالوالدين وبالأولاد، والبعد عن

الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحفظ النفس التي حرم الله، والإحسان لليتيم، والقسط في الوزن، والصدق في القول، والوفاء بالعهد، تلك هي الصفات الحميدة التي نطلبها من الله تعالى كل يوم بأسلوب تركيبي وصفي مختصر، فذلك الدعاء هو جوهر الأخلاق وروح الخير.

وتلك هي الصفات الحميدة التي اتصف بها الخاصة من عباد الرحمن، الذين كرمهم الله وفضلهم، فمن يكونون هؤلاء الخاصة ؟ لقد فصل القرآن الكريم هذا وشرحه فقال:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: ٦٩)

وعلى هذا فالصراط المستقيم الذي يطلبه كل مصلي هو طريق الهداية الذيَ يمكن أن يمشي عليه كل عباد الله الصالحين (من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين) كل حسب درجته.

والزيغ عن الصراط المستقيم راجع لأمرين: أولهما الإفراط أي الزيادة، والثاني التفريط أي التقصير، والإفراط هو أن نضيف لشرع الله بدعا من جانبنا. وهذا ضلال. أما التفريط فهو ترك العمل بأوامر الله، فيحل بذلك غضب الله على الأمة، وينزع منها كل أنواع النعم والطيبات. مثال الحالة الأولى النصارى الذين أضافوا في دينهم كثيرا من الأمور من قبل أنفسهم. ومثال الثاني اليهود الذين تركوا العمل بأوامر الله، وحرموا من كل أنواع التنعيم والطيبات؛ لهذا السبب يدعو المسلمون بأن يهديهم الله الصراط المستقيم.

يتضح من هذا الشرح أن دعاء الإسلام (سورة الفاتحة)، يضم كل أدعية الدين والدنيا، كما يضم مبادئ الأخلاق والإيمان المشتملين على فوائد الجسم والروح، ففيه حمد لله والتجاء العبد إلى الله ودعاؤه؛ لذا قال النبي (ﷺ) عنها: «لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب» ويقول الله تعالى: "قَسَمْتُ

الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يقرأ العَبْدُ فَيَقُولُ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيقولُ الله تَبَارَكَ وتَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَيَقُولُ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَيَقُولُ الله أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَيَقُولُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، فَيَقُولُ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَهَذَا لِي، وَبَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. وَآخِرُ السُّورَةِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يَقُولُ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ» [1].

في ضوء هذا الحديث القدسي يبدو دعاء الصلاة الإسلامية جذابًا ومؤثرًا، فيولد في الروح النشاط وفي القلب السرور، وهذه هي الكيفية التي

---

[1] جامع الترمذي، تفسير الفاتحة، ومسند ابن حنبل، ج ٢، صـ ٤٦، مصر. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٠٣٦) حدثنا قُتَيْبَةُ أخبرنا عَبْدُ العزيز بنُ مُحمَّد عن العَلاَءِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ عن أَبِيهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولُ الله قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ وهي خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ» قَالَ: قُلْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إنِّي أَحْيَاناً أَكُونُ وَرَاءَ الإمَامِ قَالَ: يَا ابنَ الفَارِسِيِّ فَاقْرَأْهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولُ الله عليه وسلم يَقُولُ: «قَال الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سأَلَ، يقرأ العَبْدُ فَيَقُولُ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيقُولُ الله تَبَارَكَ وتَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَيَقُولُ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَيَقُولُ الله أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَيَقُولُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، فَيَقُولُ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَهَذَا لِي، وَبَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. وَآخِرُ السُّورَةِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يَقُولُ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ»

قَال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ. وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ وَإِسْمَاعِيلُ بنُ جَعْفَرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عن العَلاَءِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ عن أَبِيهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هَذَا الْحَدِيث. وَرَوَى ابنُ جُرَيْجٍ وَمَالِكُ بنُ أَنَسٍ عن العَلاَءِ بن عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ عن أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بنِ زُهْرَةَ عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هذا وَرَوَى ابنُ أَبِي أُوَيْسٍ عن أَبِيهِ عن العَلاَءِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ قالَ حدثني أبِي وَأَبُو السَّائِبِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هَذَا. (يوسف عامر).

كتب عنها أحد المسيحيين الأوربيين مقالاً يفيض بالمعلومات عن صلاة الإسلام في دائرة المعارف الإسلامية. فيكتب تصوره ويقول: (في ضوء الإسلام يجب أن تؤدى الصلاة بخشوع؛ لهذا السبب خلع النبي (ﷺ) ذات مرة حلة ملونة؛ لأنها تشد الانتباه في الصلاة. فالقضية هي أن الصلاة ليست اسماً لأداء بعض الحركات الظاهرية فحسب، بل يجب فيها الخضوع والخشوع القلبي. ويثبت من هذا الحديث الذي قال فيه النبي (ﷺ): حُبب إليَّ من دنياكم شيئان الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة".[1]، وقد ورد أيضاً أن النبي (ﷺ) كان يعتريه البكاء في الصلاة في بعض الأوقات، فأفضل سمة للصلاة هي التي نجدها في هذين الحديثين الذين قيل فيهما أن الصلاة مخاطبة ونداء لله. ونجد توضيح هذا في الحديث القدسي الذي يقول فيه رب العزة: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»[2].**

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (١٢٠٤٠) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سلام أبو المنذر القاري، حدثنا ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة».(يوسف عامر).

[2] مر هذا الحديث آنفا. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٠٣٦) حدثنا قُتَيْبَةُ أخبرنا عَبْدُ العزيز بنُ مُحمَّد عن العَلاَءِ بن عَبْد الرَّحْمٰن عن أَبِيهِ عن أَبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله قالَ: «مَنْ صلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ القُرآنِ فَهِي خِداجٌ وهي خداجٌ غَيْرُ تَمَامٍ» قالَ: قُلْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إنِّي أَحْيَاناً أَكُونُ وَرَاءَ الإمَامِ قالَ: يَا ابنَ الفَارِسِيِّ فَاقْرَأْهَا في نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله عليه وسلم يَقُولُ: «قال الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصفُهَا لي وَنِصفُهَا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سأَلَ، يقرأ العَبْدُ فَيَقُولُ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فيَقُولُ الله تَبَارَكَ وتَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَيَقُولُ: الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. فَيَقُولُ الله أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فيَقُولُ: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، فيَقُولُ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَهَذَا لِي، وَبَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. وَآخِرُ السُّورَةِ

مقارنة هذا الدعاء الإسلامي بالأدعية المنصوص عليها لبقية الأنبياء عليهم السلام:

لم يُبعث أي نبي إلا وقد أُمرَ بالصلاة، ولم يكن هناك أي نبي إلا وقد عُلّم دعاء يقرأه في الصلاة، فالدعاء الذي دعا به سيدنا موسى ﷺ على جبل الطور وقت تجلي ربه سبحانه له ورد في التوراة في سفر الخروج. والزبور عبارة عن مجموعة أدعية من أوله لآخره، ولكننا نرى فيه عنوانا كُتب على دعاء معين وهو "صلاة داود". وفي الإنجيل يُعلّمُ سيدنا عيسى ﷺ ليلة وداعه الحواريين دعاءً خاصا، وهذا الدعاء جزء أساسي في صلاة المسيحيين حتى يومنا هذا. وبمقارنة دعاء النبي (ﷺ) النازل على النبي (ﷺ) عن طريق الوحي بهذه الأدعية، يتضح تأثير دعاء نبينا محمد (ﷺ) وحسن تدبيره وشموليته وطهارته واختصاره، وسيتضح تفرده الذي بسببه اختير ليقرأ في الصلاة. وقد قال عنه النبي (ﷺ) لصاحبه سيدنا أبي بن كعب ﷺ:

لِعَبْدِي ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يَقُولُ: اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ».

قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ. وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ وَإسْمَاعِيلُ بنُ جَعْفَرٍ وَغَيْرُ وَاحدٍ عن العَلاَء بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عن أَبيه عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هَذَا الْحَدِيث. وَرَوَى ابنُ جُرَيْجٍ وَمَالكُ بنُ أَنَسٍ عن العَلاَء بن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عن أَبي السَّائِبِ مَولَى هِشَامِ بنِ زُهْرَةَ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هذا وَرَوَى ابنُ أَبي أُوَيْسٍ عن أَبيهِ عن العَلاَءِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ قالَ حدثني أَبي وَأَبُو السَّائبِ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ هَذَا.(يوسف عامر).

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلاَ فِي الزَّبُورِ، وَلاَ في الفُرقَانِ مِثْلُهَا »[١]. وسيتأكد صدق هذا الحديث وصحته من إلقاء الضوء على هذه الأدعية.

دعاء صلاة سيدنا موسى ﵇

ورد في التوراة في سفر الخروج أن سيدنا موسى صعد جبل الطور ليأخذ الألواح ويشاهد بقية تجلي الله، فحينما تجلى ربه خر موسى ساجدا. حينذاك علمه الله تعالى هذا الدعاء: "مولاي يا إلهي يا رحمن يا رحيم يا لطيف وقت الشدة ويا رب الفيض والوفاء يا متفضلاً على كثير من العباد ويا غافر الذنوب والذلات. لكنك لا تعفو في كل حال بل تقتص من الأولاد بذنب

---

[١] جامع الترمذي، فضائل سورة الفاتحة. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٩٥٣) حدثنا قُتَيْبَةُ أخبرنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بنُ مُحمَّدٍ عن الْعَلاءِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عن أبيهِ عن أبي هُرَيْرَةَ، : «أَنَّ رَسُولَ الله خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله : يَا أُبيُّ ــ وَهُوَ يُصلِّي ــ فَالْتَفَتَ أُبيٌّ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبيٌّ فَخَفَّفَ. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ الله، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله : وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ مَا مَنَعَكَ يَا أُبي أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله: إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلاَةِ، قالَ: أَفَلَمْ تَجِدْ فيمَا أُوْحَى الله إِليَّ {أَنْ اسْتَجِيبُوا لله وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} قال: بَلَى وَلاَ أَعُودُ إِنْ شَاءَ الله. قالَ: أَتُحبُّ أَنْ أُعلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يُنْزَلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ في الإِنْجِيلِ وَلاَ في الزَّبُورِ وَلاَ في القُرآنِ مِثْلُهَا؟ قال نَعَمْ يَا رَسُولُ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله «كَيْفَ تَقْرَأُ في الصَّلاَةِ؟» قالَ: فَقَرَأَ أُمَّ القُرآنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلاَ فِي الزَّبُورِ، وَلاَ فِي الفُرقَانِ مِثْلُهَا. وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ المَثَانِي، وَالقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيْتُهُ». قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وفي البابِ عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ وَفيه عن أبي سعيد بن المصلى.(يوسف عامر).

الوالدة" (٣٤-٦)[1]، فمع أن الفقرات الأولى من هذا الدعاء مؤثرة للغاية، لكن نهايته مُقنّطه. فقد أغلق باب الإجابة في النهاية بعد أن بدأ بالتطميع في الفضل والرحمة.

دعاء صلاة سيدنا داود ﷺ في الزبور: المزمور ٨٦: صلاة داود

أمل يا رب أذنك. أستجب لي. لأني مسكين وبائس أنا* احفظ نفسي لأني تقي. يا إلهي خلص أنت عبدك المتكل عليك* ارحمني يا رب لأنني إليك أصرخ اليوم كله* فرّح نفس عبدك لأنني إليك يا رب أرفع نفسي* لأنك أنت يا رب صالح وغفور وكثير الرحمة لكل الداعين إليك.

إصغ يا رب إلى صلاتي وأنصت إلى صوت تضرعاتي* في يوم ضيقي أدعوك لأنك تستجيب لي* لا مثل لك بين الآلهة يا رب ولا مثل أعمالك* كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجدون اسمك* لأنك عظيم أنت وصانع عجائب. أنت الله وحدك.

علمني يا رب طريقك اسلك في حقك. وحد قلبي لخوف اسمك* أحمدك يا رب إلهي من كل قلبي وأمجد اسمك إلى الدهر* لأن رحمتك عظيمة نحوي وقد نجيت نفسي من الهاوية السفلى.

اللهم المتكبرون قد قاموا علي وجماعة العتاة طلبوا نفسي ولم يجعلوك أمامهم * أما أنت يا رب فإله رحيم ورءوف طويل الروح وكثير الرحمة والحق* التفت إلي وارحمني. أعط عبدك قوتك وخلص ابن أمتك* اصنع

---

[1] وهذا نصه: «فاجتاز الرب قدامه ونادي الرب الرب إله رحيم ورءوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء* حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطية. ولكنه لن يبرئ إبراء، مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع»

معي آية للخير فيرى ذلك مبغضي فيخـــروا لأنـــك أنـــت يـــا رب أعنتنـــي وعزيتني[1]

ففي هذا الدعاء حمد لله، وثناء عليه، وذكر للتوحيد والعبادة، وطلـــب هداية الصراط المستقيم، والنجاة من المغضوب عليهم والضالين، ولكن تغلب عليه شخصية الداعي بسبب طوله وتكرار فقراته؛ لذا لا يمكن أن يكون هـــذا دعاء لكل إنسان، كما لا يسمح طوله أن يدعي به في الصلاة.

دعاء الصلاة فى الإنجيل

كان سيدنا عيسى عليه السلام يدعو بهذا الدعاء وهو يعلم الحـــواريين آداب الدعاء والصلاة: "يا ربنا الذي في السماء، تقدس اسمك وعلا سلطانك واكتملت مشيئتك في الأرض كما هي في السماء ارزقنا رزق اليوم. واعـــف عن ديوننا كما نعفو نحن عن ديون مديونينا ولا تبتلينا ونجنا من البلاء. فلك الملك والقدرة والجلال دائما. آمين".[2]

المقصود بتقدس اسمك حمد الله، وبمجيء سلطانك يوم القيامة والحكم على الأفعال، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله "مالك يوم الدين" ولـــيس المقصود برزق اليوم الرزق (الغذاء) الدنيوي، وإنما المقصود - مجـــازاً - غذاء الروح والصراط المستقيم، والمقصود بالدين أن ترد الواجبات والحقوق

---

(1) العهد القديم، الزبور، المزمور ٨٦.(يوسف عامر).

(2) وهذا نصه" فصلوا أنتم هكذا. أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك* ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض* خبزنا كفافنا أعطنا اليوم* واغفـــر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا* ولا تدخلنا في تجربة. لكن نجنـــا مـــن الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين"(إنجيل متـــى، الإصـــحاح ٦، الفقرات ٩-١٣، ص ١٠-١١) (يوسف عامر).

التي فرضها الله تعالى على الناس، ويمكن أن يقصد بعدم الوقوع في الابتلاء والبعد عن البلاء نفس المعنى المذكور في نهاية الدعاء الإسلامي، وهو ذلك الصراط الذي حاد عنه المغضوب عليهم والضالون.

الخلاصة هي أن تلك الأدعية الأربعة التي جاءت على لسان أربعة من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، تضم في فحواها- بسبب الاشتراك المعنوي- تلك النسبة التي تبدو لأي شخص في المدارج المختلفة لإكمال الدين. أما الدعاء الإسلامي فيعكس صورة تكميلية؛ فهو موجز ومؤثر، ويضم كل صفات كمال الله، ويجمع كل أهداف وأوامر الشريعة، وتوجد في ألفاظه العالمية والشمولية اللتان يمكن أن تمثل قلب كل إنسان في كل آن وحال، كما أنه يخلو من تلك الاستعارات، التي يمكن أن تكون سبباً في الغموض، وتدفع الله إلى استقراض صفة الكرم والرحمة من البشر، كما يبرز في الدعاء الإسلامي رحمة الله التي تعم كل الكائنات، وتضم هذه السورة ثلاث صفات لله تعالى، والتي لا يكتمل بدونها تصوره سبحانه، وهي الربوبية والرحمة والملك؛ فتدخل في صفة الربوبية كل الصفات التي تتعلق بكل مخلوق منذ الميلاد وحتى الممات. والرحمة صفة شاملة، يظهر فيها بريق كل صفاته تعالى الجمالية. والملكية مظهر لكل صفات الجلال. والسورة بأكملها تضم الأغراض الثلاثة الحمد، وطلب الحسنات، والبعد عن السيئات. كما أن الأسلوب يليق بكل من الخالق والمخلوق، فالطلبات فيه مؤدبة جدا، والأوصاف الإلهية تتماشى تماما مع الدعاء، وفي الدعاء عموم، فلا يقتصر على أشخاص معينين، وفيه بلغ الزهد والورع منتهاهما؛ لذا غُضَّ الطرف فيه عن ذكر الأشياء الدنيوية. وفيه تناسب من حيث الكم والكيف في أوصاف الله وطلبات العباد؛ إذ أحاط الاثنان بالموقع، وأقاما رابطاً وتناسقا في موضوعات الجزأين؛ لذا لا يمكن أن يوجد تعبير آخر مختصر ومؤثر لعظمة الله وجلاله ورحمته وكرمه وقدرته وعظمته ولطفه ورأفته، ولا

لخشوع العبد وخضوعه وعلو همته وصدق طلبه في موضع آخر، غير سورة الفاتحة.

ضرورة تحديد أوقات الصلاة

وفيما يتعلق بالصلاة فإن تحديد أوقات لها يعتبر أحد مفاخر الإسلام؛ إذ إنه واضح أنه لا يوجد عمل في الدنيا يمكن أن يتحرر من قيد الوقت والزمن؛ لذا لا يمكن الاستغناء عن الوقت للقيام بأي عمل. والسؤال الآن: هل لابد من تحديد مواقيت معينة للصلاة؟ القضية هي أن أكبر ميزة للدين الذي جاء به نبينا محمد (ﷺ) أنه دين عملي، وليس نظريا محضا. وحين فرض الصلاة لم يراع الأصول والنظريات فحسب، بل جعل الإنسان يؤدي هذا الفرض في أوقات مختلفة من يومه، فنفسيات الإنسان تتسم بأن العمل الذي على الإنسان أن يؤديه دوماً لن يستطيع أن يؤديه دون توقف إذ لم تحدد له أوقات؛ لذا وجب تحديد أوقات لكل عمل منظم ومرتب ودائم، وهذه هي الطريقة التي اختارتها الدنيا جمعاء لكل أعمالها المرتبة المنظمة. والسر الحقيقي في هذا يكمن في أن الإنسان حين يعرف أن لديه مهلة ٢٤ ساعة للقيام بعمل ما فإنه دائماً ما يؤجل هذا العمل من وقت لآخر؛ بسبب الكسل والتهاون حتى ينقضي اليوم وتمر آخر ساعاته دون القيام بالعمل، لكن حين تُحدد أوقات للأعمال فإن مجيء الوقت المحدد يذكر الإنسان بالعمل الذي يجب عليه القيام به، ولا يجد الوقت ينقضي حتى يجد وقت العمل الآخر قد حان. وهكذا يظل الوقت يذكر الإنسان كل حين بواجباته فتؤدى الأعمال بانتظام دون تكاسل.

وقد روعي في تحديد مواقيت الصلاة هذا الشيء الذي مر ذكره، أي مبدأ الوحدة الذي هو الرمز والشعار الحقيقي للإسلام؛ إذ إن المسلمين

يعيشون في مدن وبلدان وأقاليم عدة في أعداد كبيرة، لكن هذه الأعداد الكبيرة تتحد في وقت معين وحالة معينة، فلو نظرت إلى الأرض باتساع رقعتها فستجد ملايين الناس ساجدة لخالق الكون في وقت واحد وبهيئة وشكل واحد.

ومادام لن يكون هناك تفاوت واضح في الشروق ولا في الغروب فإن هذا المشهد سيظل ثابتاً أمام العين، وإذا لم يسمح تفاوت الشروق والغروب في البلدان المختلفة بالاتحاد، فمن المؤكد أن هذه الوحدة في الصلاة في المكان الذي تشرق فيه الشمس. وواضح أن هذه الوحدة لم تكن لتتحقق بدون تحديد المواقيت، ولو لم يحدث هذا لكان من الصعب أن يكون مسلمو البلدة الواحدة في مكان واحد وحالة واحدة.

أوقات الصلاة في الأديان الأخرى

لهذا أقرت كل أديان الدنيا هذه الحكمة من تحديد مواقيت الصلاة، وحددت أوقاتًا مختلفة للعبادات طبقا لنظرياتها ومبادئها. فالهنادكة يؤدون عبادتهم وقت طلوع الشمس ووقت الغروب، والزرادشتيون يقيمون شعائرهم وقت شروق الشمس فقط، والنصارى الرومان الكاثوليك يرتلون وقت الفجر قبل شروق الشمس، ثم وقت الرواح، ثم بالليل عند النوم، وللصلاة عند اليهود ثلاثة أوقات يطلق عليها "تفلاً"، ففي كتاب النبي دانيال: "حين علم دانيال ذلك ذهب لبيته وفتح باب صومعته الذي كان صوب بيت المقدس وخر على ركبتيه ثلاث مرات وظل يدعو الله ويحمده طوال اليوم كما كان يدعوه من قبل، فيدعو كل يوم ثلاث مرات" (الإصحاح٦،فقرة ١٠)[١]

---

[١] وهذا نصه"فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة في عُلِّيته نحو أُورشليم فجثا على رُكبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قُدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك" (يوسف عامر).

ونجد تحديد هذه الأوقات الثلاثة في زبور سيدنا داود عليه السلام في الفقرة التالية: "لكني سأدعو الله حتى ينجيني. وسأطلب العون منه مساء وصباحا وظهرا وسأبكي إليه حتى يسمعني" (المزمور٥٥، الفقرة ١٦-١٧) [١].

ويمكن أن نطلق على هذه الأوقات بمصطلح إسلامي صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة المغرب. هذا وقد ضاعف سيدنا عيسى عليه السلام أهمية الدعاء والصلاة، فقد ورد في إنجيل لوقا: "ثم ضرب لهم (سيدنا عيسى) مثلاً على أهمية مداومة الانشغال، وعدم التكاسل في الدعاء (الإصحاح ١٨، فقرة ١)[٢]. ويتضح من أعمال الحواريين أنه كان هناك بعض أوقات للصلاة في شريعة سيدنا عيسى عليه السلام، كالتي كانت عند اليهود وإضافة لبعض الأوقات الإضافية، فكانت عندهم صلاة الظهر أيضا؛ لذا ورد في سفر أعمال الرسل: "ذهب بطرس للدعاء في حجرته وقت الظهر (سفر أعمال الرسل، إصحاح ١٠، فقرة ٩) [٣]. ولكن زيدت بعض أوقات أخرى ففي مكان آخر: "غادر بطرس ويوحنا سويا وقت الدعاء إلى الهيكل عصرا" (سفر أعمال الرسل، إصحاح ٣، فقرة١) [٤]. وكُتب في اليونانية الساعة التاسعة بدلا من "عصرا"، وهو ما نسميه صلاة العصر. ثم ورد ذكر صلاة

---

[١] وهذا نصه: "أما أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلصني* مساء وصباحا وظهرا أشكو وأنوح فيسمع صوتي". (يوسف عامر).

[٢] وهذا نصه: "وقال لهم أيضا مثلا في أنه ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل". (يوسف عامر).

[٣] وهذا نصه: "ثم في الغد فيما هم يسافرون ويقتربون إلى المدينة صعد بطرس على السطح ليصلي نحو الساعة السادسة".(يوسف عامر).

[٤] وهذا نصه: "وصعد بطرس ويوحنا معا إلى الهيكل في ساعة الصلاة التاسعة".(يوسف عامر).

هذا الوقت في سفر أعمال الرسل، إصحاح ١٠، فقرة ٣ [1]. ومرة سأل أحد تلامذة سيدنا عيسى ﷺ عن دعاء خاص للصلاة، فأخبره بأن أفضل وقت للدعاء هو منتصف الليل، وحدث أنه كان يدعو في مكان ما وبعد أن فرغ من الدعاء قال لأحد تلامذته: يا إلهنا علمنا الدعاء كما علم يوحنا (سيدنا يحيى) تلامذته. فقال لهم: متى صليتم فقولوا (أبانا الذي في السماوات)، ثم قال لهم من منكم له صديق يمضي إليه نصف الليل ويقول له يا صديقي أقرضني ثلاث أرغفة" (إنجيل لوقا، إصحاح ١١، فقرة ١-٥)[2]

وقد علم عيسى ﷺ صلاة الليل، ففي الليلة التي قبض عليه فيها كان مشغولا بصلاة التهجد هذه في جماعة. (إنجيل لوقا، إصحاح ٢٢، فقرة ٣٩).[3]

وقد ورد ذكر صلاة الفجر – أيضًا – في الإنجيل ففي الفقرة ٣٥ من الباب الأول من مرقس: "ونهض خارجا قبل طلوع الفجر وذهب إلى مكان

---

[1] وهذا نصه:" فرأى ظاهرًا في رؤيا نحو الساعة التاسعة من النهار ملاكا من الله داخلا إليه وقائلا له يا كرنيليوس"(يوسف عامر).

[2] وهذا نصه:" وإذ كان يصلي في موضع لما فرغ قال واحد من تلاميذه يا رب علمنا أن نصلي كما علم يوحنا أيضا تلاميذه* فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.* خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم* وأغفر لنا خطايا لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا. ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير* ثم قال لهم من منك يكون له صديق ويمضي إليه نصف الليل ويقول له يا صديق أقرضني ثلاثة أرغفة".(يوسف عامر).

[3] وهذا نصه: "وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون. وتبعه أيضا تلاميذه." (يوسف عامر).

مقفر فدعا هناك"[1]. وتتضح من الترجمة العربية التي نقلت مباشرة من اليونانية[2] أن سيدنا عيسى كان دوما يصلي في هذا الوقت، ففي هذه الفقرة التي ترجمتها بالعربية: **"وفي الصبح باكرا جدا قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء فكان يصلي هناك"**.

والآن إذا جمعنا كل هذه الأوقات التي ذكرت في كتب اليهود والنصارى، فستكون أوقات الصلاة في الإسلام وهي الفجر والظهر والمغرب من الزبور (مزمور٥٥، فقرة ١٦- ١٧) [3]، ومن مرقس الفجر (إصحاح١، فقرة ٣٥)[4] وسفر أعمال الرسل العصر، (الإصحاح ٣، فقرة١) [5]، و(الإصحاح ١٠، فقرة٣ -٣٠).[6] والعشاء من إنجيل لوقا (إصحاح ١١، فقرة ٢٢ -٣٩).

---

[1] طبعة لندن ١٨٦٥. وهذا نصه: "وفى الصباح باكرا جدا قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك".(يوسف عامر).

[2] طبعة المطبعة الأدبية ببيروت ١٨٨٦، ومطبعة اكسفورد ١٨٩٠.

[3] وهذا نصه: "أما أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلصني* مساء وصباحا وظهرا أشكو وأنوح فيسمع صوتي".(يوسف عامر).

[4] وهذا نصه: **"وفي الصبح باكرا جدا قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء فكان يصلي هناك" (يوسف عامر).**

[5] وهذا نصه: "وصعد بطرس ويوحنا معا إلى الهيكل فى ساعة الصلاة التاسعة".(يوسف عامر).

[6] **وهذا نص الفقرة ٣: "فرأى ظاهرا فى رؤيا نحو الساعة التاسعة من النهار ملاكا من الله داخلا إليه وقائلا له يا كرنيليوس".(يوسف عامر). وهذا نص الفقرة ٣٠: "فقال كرينليوس منذ أربعة أيام إلى هذه الساعة كنت صائما. وفى الساعة التاسعة كنت أصلي فى بيتي وإذا رجل قد وقف أمامي بلباس لامع". (يوسف عامر).**

الأوقات الطبيعية المناسبة للصلاة

الأصل أن يكون الإنسان مشغولاً بالدعاء والصلاة فقط ليلاً ونهاراً كالملائكة، لكن هذا الأمر ليس ممكنًا ولا مناسبًا؛ بسبب احتياجات الإنسان الغرائزية المتنوعة، لكن الشريعة قد تلافت هذا وحددت للصلاة أوقاتًا، فكل إنسان يقضي أربع وعشرين ساعة من عمره كل يوم في أعمال متعددة، فيستيقظ صباحا، ويظل يعمل حتى الظهر، ثم يستريح بعد ذلك قليلا، ثم يكمل عمله بعد ذلك حتى العصر، وبعد أن ينتهي منه يسلي نفسه بالترفيه والتسلية، وبعد ذلك يعود للبيت مساءً، ويبدأ حياته المنزلية، وبعد قليل من تناول الطعام والشراب، يتهيأ للنوم، ويستريح قدرا وفيرا من الوقت. وبإلقاء نظرة متأملة على أوقات الصلاة الإسلامية، يتضح أن الإسلام قد وضع يوميا صلاة معينة مع بداية كل مشغلة من هذه المشاغل البشرية المتعددة؛ وذلك حتى تكون كل الأوقات في ذكر الله تعالى، فوقت سماع هتاف حي على الصلاة وقت ظهور النور وحين ارتفاع هتافات تسبيح وحمد خالق الكون بأصوات المخلوقات يكون الوقت مناسباً تماماً لسجود النائمين،[1] إذ تتفتح في هذا الوقت صفحة جديدة ليوم قادم من كتاب الحياة؛ لذا فالأنسب أن تكتب سجدة شكر لله في لوح أعمال هذا اليوم قبل أي شيء، ثم يبدأ الإنسان بعد ذلك سعيه وكفاحه، وينشغل فيه حتى الظهر، ثم يستريح قليلا وقت الظهر بعد الانتهاء من نصف عمله اليومي، وعليه أن يشكر الله بمناسبة أن نصف عمله اليوم قد انتهى بخير وسلام، ثم بعد أن ينهي عمل اليوم بعد العصر تبدأ أعمال رفاهيته وراحته الشخصية، ويكون هذا الوقت أيضاً وقت ذكر الله تعالى مرة، ثم بعد ذلك يأتي المساء، فيعرض مشهدا مختلفا لتغير الدنيا أو تقلبها، وبعد كل

[1] أي أن هذا النداء يوقظ النائمين ليسجدوا لله تعالى فى صلاة الفجر. (يوسف عامر).

أعمال اليوم يبدأ وقت الراحة والهدوء؛ لذا يجب أن يبدأ أيضاً بسجدة عبودية. وبعد ذلك يأتي وقت النوم، فيأخذ الإنسان في الغياب عن دنيا الوعي لفترة، فيجب أيضا أن يذكر الله حين يغيب (ينام) عن هذه الحياة؛ لأن الإنسان لا يعلم أنه سيقدر له أن تتفتح عيناه المغلقتان مرة ثانية أم لا. وهكذا تظل عجلات أعمال الإنسان اليومية تسير وتدور حتى آخر العمر.

والفترة منذ الصباح وحتى الظهر هي الفترة الحقيقية لانشغال الإنسان؛ لذا لم تفرض أي صلاة منذ الفجر وحتى الزوال، وهكذا لم تفرض أيضا أي صلاة منذ العشاء وحتى الفجر؛ إذ إن هذا الوقت وقت ملائم للنوم، والأوقات المتبقية بعد هذين الوقتين أوقات عمل؛ لذا فرضت الصلوات الخمس في بداية أوقات هذه الأعمال.

أمر يتعلق بأوقات الصلاة الإسلامية

فيما يتعلق بتحديد أوقات الصلاة يجب أن يؤخذ في الاعتبار مبدأ آخر للإسلام؛ إذ يتضح من تصفح تاريخ الأديان المشركة في الدنيا أن أكبر مظهر لشرك الإنسان هي الشمس، التي هي أكثر إشراقًا في الكائنات. فقد كانت الشمس تُعبد في الهند وإيران وبابل والجزيرة العربية والشام والروم واليونان، فكان ضوءها أكبر سبب لظلام القلوب البشرية، وكانت هناك أوقات محددة لعبادة الشمس عند من كانوا يعبدونها، وذلك حين تشرق بضيائها صباحا، ثم حين تُعلن سيطرتها على الدنيا شيئا فشيئا بعد أن تفتح مملكة النمروز، ثم بعد ذلك حين تغيب عن الدنيا وتخفي وجهها في ستار الليل.

وكان سيدنا إبراهيم الخليل (عليه السلام) أول من أنكر عبـادة الـشمس[1]، وحددت الأوقات للصلاة في الملة الإبراهيمية حين غروب اله عباد النجـوم (الشمس) وغيابه، لا وقت ظهوره واكتماله، والحقيقة أن هذه الأوقات تـشهد بلسان الحال أن هذه هي عبادة الله الحق مخالفة للعقيدة الباطلة لعبادها؛ إذ إن جبهة الشمس نفسها قد تأثرت من السجود لكمال الله. والدين الإسلامي هـو الاسم الثاني للملة الإبراهيمية؛ لذا قررت فيه – أيضا – نفس أوقات الصلاة التي كانت في الملة الإبراهيمية، وذلك قبل طلوع النهار حين يكون إله عُبّاد الباطل (الشمس) مختفيًا في طي العدم.

وبعد الظهر بعد أن تصل الشمس لقمة ذروتها، تميل ناحيـة الـزوال والهبوط؛ ولهذا الهبوط أيضا ثلاث مراحل، المرحلة الأولـى: حـين تميـل الشمس عن ناحية الرأس، وهو ما يطلق عليه زوال، والثانية: حـين تنـزل الشمس عن دائرة تقابل العينين، وهو ما يطلق عليه عصر. ثم حـين تغيـب الشمس عن الأفق وهو ما يطلق عليه مغرب. وعند كل مرحلة من مراحـل زوال الشمس الثلاثة تُؤدي صلاة، ثم تؤدي العشاء بعد أن تغرب الـشمس، وتدفن في قبر الظلمات؛ لذا ورد عند الحديث عن أوقات الصلاة في القـرآن الكريم ذكر خاص لدلوك الشمس وغسق الليل.

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (الإسراء: ٧٨) وسيرد تفصيل ذلك لاحقا.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الأنعام، آيـة ١٩. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُـلِ اللّـهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَـن بَلَـغَ أَئِـنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام:١٩). (يوسف عامر).

خلاصة القول هو أن سبب عدم فرضية أي صلاة في الإسلام من صلاة الفجر وحتى الظهر، هو أن هذا الوقت وقت سطوع الشمس؛ لذا تكون كل الصلوات وقت الهبوط التدريجي والانخفاض والغروب. وسبب النهي عن الصلاة وقت شروق الشمس ووقت ذروتها ووقت غروبها، هو أن هذه أوقات عبادة الشمس[1].

طريقة الصلاة وأوقاتها في الإسلام

وردت في القرآن الكريم آية جامعة عن كيفية الصلاة وأوقاتها وعدد ركعاتها وآدابها وشروطها. وقد جاءت هذه الآية أثناء شرح كيفية أداء الصلاة في حالة الحرب:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٣٨، ٢٣٩).

فيتضح صراحة من هذه الآية الكريمة كيفية وميقات وعدد ركعات الصلاة التي يجب علينا أداؤها. فهكذا علمنا ربنا سبحانه وتعالى في القرآن. وتفصيل هذا الإيجاز موجود في الأحاديث النبوية الواردة إلينا عن طريق الكتابة، وفي الأحاديث النبوية الواردة إلينا بطريقة عملية من خلال تواتر

[1] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٨٧٠) حدثنا يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ. قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ مَالِكٍ عَنْ مُحمَّدِ بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ حَبَّانَ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ نَهَىٰ عَنِ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ، حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ. وَعَنِ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصُّبْحِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ. (يوسف عامر).

أعمال المسلمين المتفق عليها من المسلمين جيلا بعد جيل، وذكرت في القرآن الكريم الإشارة العملية إليها والأحكام المتعلقة بها.

المداومة والمحافظة على الصلاة

أول أمر في هذا الشأن هو أنه يجب علينا – نحن المصلين – أن نؤدي الصلاة دائماً، وأن نحافظ ونداوم عليها، وقد استخدم القرآن الكريم لفظاً خاصا للحفاظ والعناية والمداومة على الصلاة وهو "المحافظة"، الذي يعني من الناحية اللفظية المداومة، ومن معانيه أيضا المداومة على أداء الصلاة في وقتها والعناية بها. قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ (البقرة ٢٣٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج ٣٤)﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون ٩) ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٢).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج ٢٣).

فقد ثبت من هذه الآيات أن الصلاة هي هذا الفرض الذي لا يمكن أن يسقط عن أي مسلم في أي حال من الأحوال، ويجب على كل مسلم أن يؤديه على الدوام، وبانتظام، وفي وقته، وبكل شروطه.

للصلاة أوقات محددة

القضية بعد ذلك هي أن الله تعالى حدد للصلاة أوقاتًا معينة، فقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء ١٠٣) فقد وضح من هذه الآية أن لصلواتنا المفروضة أوقاتًا محددةً.

ما هي تلك الأوقات ؟

كثيرًا ما استخدم القرآن الكريم ثلاثة ألفاظ لأداء الصلاة، هي الصلاة أو إقامة الصلاة، والتسبيح، وذكر الله. أما اللفظ الأول وهو "إقامة الصلاة"، فخاص بالصلاة، لكن اللفظ الثاني والثالث فيستخدمان لتسبيح الله تعالى وحمده وذكره بصفة عامة، ويُعد هذا الجزء أفضل وأعظم جزء لتسبيح الله وحمده. وقد ورد في الأحاديث النبوية أيضا لفظ التسبيح بمعنى أداء الصلاة[1]. وقد ورد في شعر العرب[2] ولغتهم[3] أيضاً دليل لهذا. وحين يخصص هذا اللفظ (التسبيح) في القرآن الكريم بوقت فلن يقصد به شيء آخر غير الصلاة؛ لأنه لم يفرض في الإسلام ذكر الله تعالى في وقت محدد غير الصلاة. لكن حين يأمر القرآن الكريم بالتسبيح دون تخصيص وقت فيمكن أن يراد به الاثنان، وبعد هذا التفصيل يجب النظر للآيات الآتية :

١. ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل ٢: ٤)

٢. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (غافر ٥٥)

---

[1] صحيح مسلم، باب الضحى، ما رأيت رسول الله ﷺ يصلي سبحة الضحى قط وإني لأسبحها. أيضاً صحيح مسلم، باب جواز النافلة على الدابة، وباب وكنت أسبح فقام قبل أن أقضي سبحتي. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (١٥٦٠) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ. حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يُصَلِّي سُبْحَتَهُ. حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ نَاقَتُهُ. (يوسف عامر).

[2] بيت الأعشى:

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

شعراء الجاهلية ج ٣ صـ ٢٦٥.

[3] لسان العرب، ج ٣، صـ ٣٠١، مصر.

٣. ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب ٤٢)
٤. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفتح ٩)
٥. ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف ٢٠٥)
٦. ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الأنعام ٥٢)
٧. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ..﴾ إلى آخر الآية (النور ٣٦، ٣٧)
٨. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الكهف ٧٨)
٩. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور ٤٨، ٤٩)
١٠. ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود ١١٤)
١١. ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ (بني إسرائيل ٧٨، ٧٩)
١٢. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان ٢٥، ٢٦)
١٣. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (طه ١٣٠)
١٤. ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم ١٧، ١٨)
١٥. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (ق ٣٩، ٤٠)

١٦. ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ (النور ٥٨)

ذكرت في الآيات السابقة أوقات مختلفة للصلاة بعضها مكرر وبعضها غير مكرر، وبعد دمج الأوقات المكررة تتكون هذه الأوقات الخمس، التي كان رسول الله (ﷺ) يؤدي الصلاة فيها طوال حياته ﷺ، ثم أداها من بعده ﷺ صحابته الكرام، وأخذ المسلمون يؤدونها جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا، وهي الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. والمقصود من الغدوة والغداة والبكرة الفجر، ومن قبل طلوع الشمس وحين تصبحون صلاة الصبح، ومن أصيل وعشي وقبل غروب الشمس صلاة العصر، ومن دلوك الشمس (الزوال) وحين تظهرون الظهر، والمقصود بطرف النهار وتمسون صلاة المغرب، ومن آناء الليل وغسق الليل صلاة العشاء. تلك هي أوقات الصلوات الخمس التي أمرنا أن نذكر الله تعالى ونسبحه ونحمده فيها.

اكتمال الأوقات

الاكتمال التدريجي لمواقيت الصلاة

معلوم للجميع أن بداية الإسلام كانت مع فقر وظلم وقلة أسباب؛ لذا لم تكن هناك أية صلاة وقت النهار في الفترة الأولى، بل إن الناس كانوا يتخفون ليلاً فقط في أماكن متفرقة، ويصلون حتى وقت متأخر. وقد نزلت هذه الآيات من سورة المزمل التي هي من السور المكية الأولى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾(المزمل:١-٧)

وقد ظلت – في الغالب – طريقة الصلاة هذه حتى السنوات الثلاث التي لم تجهر فيها بالدعوة للإسلام؛ لأنه حين نزل الأمر بـ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) ذكر بعدها أيضاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الشعراء: ٢١٧-٢٢٠).

ومغزى هذه الآيات الكريمة أن النبي (ﷺ) كان قبل تلقي أمر إعلان الدعوة يقوم الليل وسط هؤلاء الأعداء، ويصلي بنفسه، ويتفقد المسلمين ليرى من منهم مشغولاً في الصلاة، ومن منهم نائمًا، ومن منهم عليه أن يوقظه للصلاة، فكان صلى الله عليه وسلم يخرج في الليل وحده لأداء هذا الفرض معتمدا على أن الله يراه ويحفظه، وبعد ذلك حين تحقق الاطمئنان نسبياً، وجاء وقت إظهار الدعوة، وتقدمت خطى الإسلام شيئا فشيئا نحو الاكتمال، زيدت صلاتان إضافة للتهجد، الصلاة الأولى في الجزء الأول من الليل (صلاة العشاء)، والثانية وقت إدبار النجوم (صلاة الفجر). ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الطور: ٤٨، ٤٩)

هذه الآية الكريمة هي آخر آية من سورة الطور، وسورة الطور ــ كما هو معروف ــ قد نزلت في مكة، وربما كان ذلك حين بدأ المشركون فى إيذاء النبي (ﷺ)؛ إذ وردت في نفس السورة قبل هذه الآية الكريمة إشارة من الله تعالى لشدائد النبي (ﷺ)، وأمره باحتمالها، وانتظار حكم الله وأمره وبشرى حفظ النبي (ﷺ)، وحتى ذاك الحين لم تكن هناك صلاة غير صلاة الليل[1]. وقد وردت في سورة الإنسان ــ وهي سورة مكية (عند الجمهور)،

---

[1] صحيح البخاري، تفسير سورة الطور، واقعة جبير بن مطعم. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٧٣٥) حدَّثَنا الحُمَيْدِي حدَّثَنا سفيانُ قال: حدثوني عن

ونزلت في الغالب بعد سورة الطور ــ آية أخرى بهذا العنوان زيــدت فيهــا صلاة أخرى، إضافة إلى صلوات الأوقات السابقة، وذلك قرب نهاية اليــوم، وهي صلاة العصر: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَــهُ وَسَــبِّحْهُ لَــيْلاً طَوِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٤-٢٦)

فحينذاك صُرِّح بثلاثة أوقات إضافة لصلاة التهجد أي صلاة الصبح، وصلاة آخر الليل وبدايته، لكن لم يكن يفرق حتى ذلك الحين في "الأصيل"[1] بين الظهر والعصر ولا في "من الليل" بين المغرب والعــشاء؛ إذ إن جملــة الصلاة كانت ثلاثة فقط، صلاة وقت الفجر ، وأخرى وقت العصر، والثالثــة ليلاً؛ لذا كان قد أُمِر حتى ذلك الحين بالتهجد لــيلاً، بــدلاً مــن الــصلاتين الباقيتين، كما وضح من الآية السابقة.

حينذاك أخذ التسبيح والتحميد في هذه الأوقات الثلاثة شــكل صــلاة منتظمة، فأمر أن:

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: ١١٤)

الزُّهريِّ عن محمَّد بن جُبَير بن مُطْعِم عن أبيه رضيَ اللَّهُ عنه قال: ســمعتُ النبــيَّ صلى الله عليه وسلم يَقرأُ في المَغْرِبِ بالطُّورِ، فلما بَلَغَ هذه الآيةَ: {أَمْ خُلِقوا من غيرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخالقون؟ أمْ خَلَقوا السَّماواتِ والأرضَ؟ بَلْ لا يوقنون. أمْ عِندَهم خَزائنُ رَبِّك، أمْ هم المُسَيْطِرون} (الطور: ٣٥ ــ ٣٧) كادَ قَلْبي أنْ يَطيرَ. قال سفيانُ فأمّا أنا فإنما سمِعت الزُّهْرِيَّ يحدِّثُ عن محمَّد بن جبَير بن مُطعم عن أبيه سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأ في المغْرب بالطُّور، لم أَسْمعْه زاد الذي قــالوا لــي».(يوســف عامر).

[1] يطلق الأصيل على الجزء الأخير من النهار. كتب في أكثر كتب اللغة أن الأصــيل يطلق على الوقت الممتد من بعد العصر حتى المغرب. وكتب في لــسان العــرب أن معنى الأصيل هو العشي الذي استعمل للعصر في صورة الروم.

فقد وردت هذه الآية في سورة هود، التي نزلت في مكة، وذُكر فيها فيما يتعلق بغالبية الأنبياء (عليهم السلام) أنهم دعوا أقوامهم لعبادة الله تعالى، وأُمر فيها النبي (ﷺ) أيضا بإقامة الصلاة، وغالباً هذه هي أول آية نزلت تتعلق بأوقات الصلاة، جاء فيها الأمر بإقامة الصلاة بدلاً من التسبيح[1].

في ذلك الوقت كان تعداد المسلمين قد زاد كما هو واضح من الآية السابقة:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ﴾ (هود: ١١٢)

ففي ذلك الحين فرضت ثلاث صلوات دائمة بعد ترك صلاة التهجد: واحدة في طرف النهار أي قرب انتهاء الليل وقت زوال النجوم، والثانية في الطرف الثاني من النهار قرب انتهائه، والثالثة تكون في الجزء الأول من الليل، وقد عبر عن الصلاة الأولى بصلاة الفجر، وعن الثانية بصلاة العصر التي كان يطلق عليها قبل ذلك الأصيل، أما الصلاة الثالثة فهي صلاة العشاء، لكنه حتى ذلك الحين كان هناك إجمال وإبهام في صلوات الليل والنهار، فكانت صلاتا الظهر والعصر مبهمتين في الصلاة الثانية، وصلاتا المغرب والعشاء مبهمتين في الصلاة الثالثة. في ذاك الوقت فصلت صلوات الليل أولاً. فيقول الله تعالى في سورة "ق" السورة المكية بعد ما بين الأوقات مختلفة:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾. (ق: ٣٩، ٤٠).

---

[1] عُبر عن طرفي النهار في القرآن الكريم بطرق مختلفة فقال قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. بالعشي والإبكار. بالغدو والآصال. الطرف الأول منه هو الفجر والبكرة والغدو والطرف الثاني هو العصر والعشي والأصيل.

ويثبت من الأمر بالصبر هنا أن هذا الأمر كان خلال فترة إيذاء كفار قريش لرسول الله (ﷺ)، فأزيل غموض صلاة الليل، ثم حددت صلاتا المغرب والعشاء، فقال عن الأولى **ومن الليل**، وعن الثانية **وأدبار السجود**[1]. وقد بدأ بالليل عند تفصيل أوقات الصلاة؛ لأن هذا الوقت كان وقت أمانٍ نسبي من الكفار، أما الصلاة التي تكون بعد الزوال وحتى الغروب، والتي عُبّر عنها في البداية بالأصيل ثم بطرفي النهار، وقبل عنها هنا وقبل الغروب، فظلت في حاجة للتفصيل؛ لدخول صلاتي الظهر والعصر فيها؛ لذا فصلت في سورة الروم التي نزلت في مكة، ويثبت من التاريخ أن وقت نزول هذه السورة كان بعد الهزيمة النهائية للروم، والتي وقعت ما بين السنة الخامسة أو السادسة وبين السنة الثامنة أو التاسعة من البعثة النبوية.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم:١٧، ١٨)، فقد وضحت في هذه الآية الصلوات المبهمة التي تكون بعد الزوال (الظهر) وقبل الغروب (العصر)، فقيل عن الأولى "عشي" (العصر)، وعن الثانية ظهرا، ويتضح

---

(١) لأن لفظ الشمس قد ورد قبل ذلك، لذا أراد بأدبار السجود هنا أدبار الشمس، كما قصد بقوله قبل الغروب غروب الشمس. والمراد من سجود الشمس غروبها، كما ورد في أحاديث صحيح البخاري وغيرها أن الشمس تسجد لله بعد الغروب، ولأن لفظ "غروب" جاء لغياب الشمس، لذا كانت فصاحة الكلام تقتضي أن يُستخدم لها لفظ آخر، ومن ثم أُستخدم هذا المعنى للفظ السجود على سبيل الاستعارة. ويطلق السجود في الأصل على وضع الجبهة على الأرض، وهكذا تكون حالة الشمس عند الغروب. والمقصود من هذا الأسلوب هو الرد على عبدة الشمس. وعلى هذا ذكر الله تعالى سجود الشمس للصلاة، أي حين تكون الشمس ساجدة لخالقها، اسجدوا أنتم أيضا لخالقكم. وقد وردت في التفاسير روايات عن سيدنا علي ﷺ أن المقصود بها هنا الركعتان اللتان بعد صلاة المغرب.

من استعراض كل الآيات أن التصريح بصلاة الفجر قد ورد في سـور طـه والطور والإنسان وهود و ق والروم والنور، ووردت الإشارة إلى الظهر في سور الإنسان و ق وطه والإسراء، وصرح بها في الإسراء والـروم، وورد ذكر العصر في البقرة والإنسان وهود وطه و ق والروم، ووردت الإشـارة إلى المغرب في هود وطه والروم والتصريح بـه فـي ق، ووردت صـلاة العشاء بلفظ صلاة الليل في سورة المزمل والطور والإنسان، وبلفظ العـشاء تلميحا في طه وهود والروم، وتصريحا فـي ق وهـود، وورد ذكـر كـل الصلوات إجمالا في سور البقرة والإسراء وطه، فثبت من سـورة الطـور صلاتا الفجر والعشاء، ومن الإسراء وهود وطه صلاة ثلاثة أوقـات علـى الأقل، ومن الروم صلاة أربعة أوقات (لو اعتبرنا أن المراد بالمساء صـلاة المغرب فقط) ومن طه والروم صلاة الأوقات الخمس.

أمر جدير بالذكر:

الجمع بين الصلوات

بتدبر الآيات الكريمة السابقة، يتضح أمر عجيب، وهـو أن الآيـات الأولى قد جمعت بين صلاتي الظهر والعصر، أي عُبّر عن الاثنتـين بلفـظ واحد، وهو "قبل الغروب" أو "الأصيل" أو "طرف النهـار". وفـي الآيـة الأخيرة من سورة الروم ورد اسم صلاتي الظهر والعصر صراحة، ولكـن في صلاة الليل إجمال؛ إذ عُبّر عن صلاتي المغرب والعشاء بقولـه "**حـين تمـسون**"؛ لذا تظهر نقطة دقيقة وهي أن الاثنين معاً يمكن أن يجمعـا أو أن يستقلا، وعلى هذا فيمكن الجمع في أداء صلاتي الظهـر والعـصر، وفـي

صلاتي المغرب والعشاء، وذلك وقت الضرورة والسفر والخـوف[1]. أمـا صلاة الفجر، فلا يجوز جمعها مع أي صلاة أخرى؛ لأنهـا وردت منفـردة ومستقلة دائما في كل الآيات؛ لذا لا يجوز جمعها مع أي صلاة أخرى.

وتوجد في الأحاديث التي شرحت هذه النقطة القرآنية أمثلـة عمليـة للنبي (ﷺ) تحت عنوان: "الجمع بين الصلوات".

أوقات الصلوات الخمس، وآية الإسراء

أجمع علماء الحديث والمؤرخون أن تحديد أوقات الصلوات الخمس قد تم ليلة الإسراء والمعراج، التي كانت في السنة الثانية عـشرة مـن البعثـة النبوية، وقبل الهجرة بسنة واحدة، وذلك طبقاً للدراسة التي قمنا بها. وكـان ذكر أوقات الصلوات الخمس موجود في سورتيْ ق والروم، اللتان نزلتا قبل

---

[1] موطأ الإمام مالك، ومسلم، والترمذي، باب القصر في الصلاة في السفر والحـضر. وقد تولد شك عند المستشرقين بعد ما رأوا أحاديث الجمع بين الصلوات أنـه ربمـا كانت هناك صلوات ثلاثة أوقات تؤدى وقت زمن النبوة. (وقد تولد هذا الشك لـدى مؤلف في دائرة المعارف الإسلامية) (انظر مقالة الصلاة). ولكن هذا ليس صـحيحا؛ إذ إن الصلاة خمس مرات، ولكن يمكن أداء صلاتي الظهر والعصر معًا، والمغـرب والعشاء جمعا عند الضرورة. أي أن الصلوات تظل كما هي، ولكن تقل المواقيـت. وقد اختلف الفقهاء في إمكانية أداء الصلاتين ركعتين وركعتين في وقت واحد، فعنـد الأحناف أنه لا يجوز هذا إلا في حالة واحدة، وهي يوم التاسع من ذي الحجة وقـت الحج؛ إذ يمكن أن تؤدى صلاتا الظهر والعصر وقت الظهـر، لأن وقـت العـصر خصص لأدعية الحج. أما بقية الصلوات فلا تجمع حقيقة عند الأحناف إلا في حالـة واحدة، وهي أن تؤدى الصلاة الأولى في آخر وقتها، والثانية في أول وقتها، أما بقية الفقهاء فيجوز عندهم جمع الصلاتين في السفر، وقد فعل رسول الله (ﷺ) هذا. وراج أداء صلاتين مقصورتين (ركعتين وركعتين) معًا عند الشيعة.

ذلك، ونزل أول أمر بالصلوات الخمس في سورة الإسراء مقترنًا بالأمر بإقامة الصلاة، ويتضح من هذا أن إتمام الصلوات الخمس قد تم في هذا المعراج بشكل كامل، وبالرغم أن الوضوء كان موجودًا من قبل، فإن الأمر به قد نزل في السور المدنية. والآية من سورة الإسراء (المعراج) التي ورد فيها ذكر الصلوات الخمس هي:

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (الإسراء:٧٨)

فتوضح هذه الآية الكريمة تحديد أوقات الصلوات الخمس والسبب في ذلك. وأهم لفظ فيها يحتاج لتوضيح هو لفظ "دلوك". والمعنى الحقيقي لدلوك هو الانحناء والميول. أما ما يحتاج إلى تحقيق، فهو ما المقصود من "دلوك الشمس" والمعاني التي كانت العرب تستخدمها له ؟ والحقيقة هي أن هذا اللفظ يطلق في العربية على ثلاثة أوقات، أو ثلاث حالات للشمس: وهي الزوال، وعند تحرك الشمس من على النظر وقت الزوال، وعند دلوك الشمس. وحين ورد في الآية الكريمة "**أقم الصلاة لدلوك الشمس**"، فرضت في كل وقت من هذه الأوقات الثلاثة للدلوك صلاةُ معينة. والمقصود هو أن للشمس ثلاثة أوقات للدلوك منذ شروقها وحتى غروبها: الدلوك الأول حين تكون الشمس عمودية على الرأس، والثاني عند نقطة التقابل، والثالث حين تغيب عن دائرة الأفق. الوقت الأول وقت الظهر، والثاني وقت العصر، والثالث وقت المغرب. ففرضت عند كل دلوك صلاة؛ لنفي إلوهية الشمس وإنكارها، وإقرار إلوهية الله تعالى وإثباتها. فهكذا اوضحت أوقات ثلاث صلوات من افظ دلوك. ووقت الصلاة الرابعة هو غسق الليل، وهي صلاة العشاء. والأحق أن تؤدى هذه الصلاة في منتصف الليل حين يغيب وجه الشمس المشرق في طي الظلمات، لكنها فُرضت قبل النوم تخفيفاً على الناس، حتى لا يفسد بها النوم. أما وقت الصلاة الخامسة فقد تحدد وقت قرآن

الفجر، فتؤدي هذه الصلاة قبل الشروق، لأن الشمس ستشرق بعد ذلك بقليل، وتلفت انتباه عبادها؛ لذا يجب أن يذكر الخالق الأعظم تبارك وتعالى قبل طلوعها، وأن يعلن فساد الباطلين الذين منهم عُباد الشمس. المقصود أننا نجد دليل مواقيت الصلوات الخمس في هذه الآية الكريمة. والآن علينا أن نقول أن أوقات ميول الشمس يطلق عليها دلوك، وإن ثبت هذا من كلام العرب، فلن يكون لأحد عذر في قبول شرح أوقات الصلوات الخمس وتفصيل هذه الأوقات من هذه الآية.

تحقيق لفظ "دلوك"

ذهب بعض المفسرين إلى أن الدلوك هو وقت الزوال، بينما اعتبره البعض الآخر وقت الغروب. وقد استخدم أصحاب المعاجم هذين المعنيين لهذا اللفظ، بل إنهم أضافوا إليهما معنا ثالثاً وهو الزوال عن نقطة النظر، وقدموا بيتا لشاعر جاهلي، دليلاً على هذا المعنى؛ لذا ورد في لسان العرب: **ودلكت الشمس تدلك دلوكا غربت وقيل اصفرت ومالت للغروب وفي التنزيل العزيز ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وقد دلكت زالت عن كبد السماء... وقال الفراء عن ابن عباس في دلوك الشمس أنه زوالها الظهر. قال ورأيت العرب يذهبون بالدلوك إلى غياب الشمس. قال الشاعر:**

هذا مقام قدمي رباح ذبب حتى دلكت براح

يعني الشمس. قال أبو منصور وقد روينا عن ابن مسعود أنه قال دلوك الشمس غروبها، وروى ابن هانئ عن الأخفش أنه قال دلوك الشمس من زوالها إلى غروبها. وقال الزجاج دلوك الشمس زوالها في وقت الظهر، وذلك ميلها للغروب، وهو دلوكها أيضا، يقال دلكت براح وبراح، أي قد مالت للزوال.

حتى كاد الناظر يحتاج إذا تبصرها أن يكسر الشعاع عن بصره براحته... فإن قيل ما معنى الدلوك في كلام العرب قبل الدلوك الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار دالكه، وقيل لها إذا أقلت دالكه؛ لأنها في الحالتين زائلة... قال الفراء في قوله براح جمع راحه، وهي الكف، يقول يضع كفه على عينيه ينظر هل غزيت الشمس بعد.

وكثيرا ما ذكر الشعراء العرب وضع اليد على العينين وقت غروب الشمس: فمثلاً يقال العجاج[١].

والشمس قد كادت تكون دلفا ادفعها بالراح كي تزحلقا

يتضح معنى البيت الأول [٢] من هذا البيت الثاني بأن المقصود فيه بالدلوك بدلاً من الزوال والغروب هو هذا الوقت الذي تأتي فيه الشمس أمام العيون وقت غروبها، أي أن لفظ دلوك يطلق على ميلان الشمس عامة، وأول ميلان لها يكون وقت الزوال حين تميل عن ناحية الرأس، والميلان الثاني وقت العصر حين تميل عن ناحية النظر، وتواجه أعين السائرين ناحية الغرب؛ لذا يضع الإنسان يده أو أي شيء آخر على عينيه؛ ليفادي نفسه من شدة أشعة الشمس في ذلك الوقت. أما ميلانها الثالث فيكون وقت الغروب حين تغيب من شدة أشعة الشمس في ذلك الوقت. أما ميلانها الثالث فيكون وقت الغروب حين تغيب عن الأفق وتغرب، وقد قال بعض أهل المعاجم – كما مر – بسبب هذه الأوقات الثلاثة المتتالية التي تكون من الزوال وحتى الغروب، أن المقصود بالدلوك هو الوقت الممتد ما بين الزوال والغروب، مع أنه يطلق تخفيفا على ميلانات الشمس الثلاثة. الأول على الميلان الذي يكون عن الرأس، والثاني على الميلان الذي يكون عن النظر، والثالث على

---

[١] ورد البيت في تفسير الطبري.

[٢] هذا مقام قدمي رباح ذبب حتى دلكت براح (يوسف عامر).

الميلان الذي يكون ناحية الأفق، وتأتي هذه الأوقات مرتبة الأول ثم الثاني ثم الأخير بعد بضع ساعات. وخلاصة هذا البحث هو أن المقصود من قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ (الإسراء: ٧٨). ثلاث صلوات؛ لأن الدلوك يحدث ثلاث مرات. الصلاة الأولى هي الظهر حين تميل الشمس من ناحية الرأس، والعصر حين تميل من ناحية العين، ثم المغرب حين يكون تميل ميلا كاملا من ناحية الأفق[١]. ثم يتضح بعد هذا أن المقصود من غسق الليل وقرآن الفجر صلاتا العشاء والصبح. وهكذا اتضحت مواقيت إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها من هذه الآية من سورة الإسراء.

سر آخر لمواقيت الصلاة

حين تقرأ هذه الآية الكريمة مرة أخرى، يتضح لك أن بداية أوقات الصلوات الخمس تكون مع الظهر، ويثبت هذا أيضاً من هذا الحديث الذي ذكر فيه عن طريق سيدنا جبريل تعليم الأوقات الخمس للصلاة[٢]؛ إذ يأتي فيه الظهر أولاً، ثم تأتي بعد ذلك الصلوات الأربع مرتبة، أي يلي الظهر العصر ثم المغرب ثم العشاء وقت النوم، وتتخلل هذه الصلوات مدة تقدر بساعتين أو ثلاث تقريباً، ثم بعد ذلك تكون صلاة الفجر التي تبعد عن صلاة

---

[١] ورد في التفاسير – أيضاً – بروايات الصحابة أن هذه الصلوات هي المقصودة مع اختلاف في الرواية، ويرى سيدنا ابن مسعود أن المراد بالدلوك غروب الشمس، بينما يرى سيدنا ابن عباس المقصود به زوال الشمس. وهكذا يعتقد بعض الناس أن المقصود من غسق الليل صلاة المغرب، بينما يعتقد آخرون أن المراد منه صلاة العشاء، ويقولون أن المراد من دلوك الشمس الظهر والعصر، ومن غسق الليل المغرب والعشاء، ومن قرآن الفجر صلاة الصبح. وهكذا تكون هذه الآية موضحة لأوقات الصلوات الخمس.

[٢] سيرة ابن هشام، باب ابتداء فرضية الصلاة.

العشاء بسبع أو ثمان ساعات، ثم تكون نفس المدة بين صلاتي الفجر والظهر؛ لذا ورد في الآية السابقة أمر واحد بالصلاة من الظهر حتى العشاء، ثم يكون الأمر بصلاة الفجر بعد الانتظار لبضع ساعات، ثم تكون وقفة، ثم يأتي وقت صلاة الظهر بعد فترة طويلة من طلوع الشمس، وهكذا تدور الدورة. المقصود أن الصلاة من الظهر إلى العصر ومن العصر إلى المغرب ومن المغرب إلى العشاء تكون صلوات متتالية، ثم تكون استراحة طويلة حتى صلاة الفجر، فيكون ذكر الله في الصباح عقب القيام من النوم، ثم تُركت وقفة طويلة للمشاغل الإنسانية تمتد من الصبح حتى الظهر لا تتخللها أية صلاة.

آية أخرى لأوقات الصلوات الخمس

هناك آية أخرى من سورة طه كآية سورة الإسراء، ورد فيها تفصيل أوقات الصلوات الخمس. تلك الآية هي:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ (طه:١٣٠)

فقبل طلوع الشمس يكون الفجر، وقبل غروبها يكون العصر، والمراد من آناء الليل صلاة العشاء، ومن أطراف النهار صلاتي الظهر والمغرب.

تحقيق لفظ "أطراف النهار"

يمكن الاعتقاد بأن لفظ "أطراف النهار" جمع يقال على ثلاثة على الأقل، وعلى هذا يجب أن يكون للنهار ثلاثة أطراف، والنهار إما أن يكون له طرفان هما الصبح والمساء، وإما ثلاثة فإن كانوا ثلاثة سيكون هناك طرف وسط، أي الصبح والظهر والمساء. ولو أخذنا بالتقسيم الأول فسيكون

ذكر الصبح مكررا أو سيسقط الظهر، ولو أخذنا بالتقسيم الثاني، فسيأتي الظهر لكن سيظل الظهر مكررا كذلك.

والجواب على هذا الاعتراض اللفظي هو أن الأطراف رغم أنها جمع فإن الجمع يطلق على المثنى أيضاً في كلام العرب، وتوجد أمثلة لهذه الاستعمالات في القرآن الكريم. فمثلاً قيل في موضع مشرقين ومغربين، وقيل في موضع آخر مشارق ومغارب، وقيل في سورة التحريم فقد صغت قلوبكما. وواضح أن الرجلين لهما قلبان فقط. أي لا يمكن أن يكون لفظ القلوب هنا جمع، فهذه محاورة لا دخل للقياس ولا للتعقل فيها، وعلى هذا فالمراد من أطراف النهار طرفين فقط. ومن المسلم به عند الجميع أن لليوم طرفين واضحين، الأول من الصبح حتى الظهر، والثاني من الظهر حتى المساء، والمراد من الأطراف هنا هذين الجزأين. الطرف الأخير للجزء الممتد من الصبح حتى الظهر هو الظهر، والطرف الأخير من الجزء الثاني الذي يمتد من الظهر إلى الغروب هو العصر والمغرب، لكن لأن ذكر العصر موجود بصفة مستقلة في قوله تعالى وقبل غروبها؛ لذا تحدد أن المقصود هنا هو المغرب.

طريقة أخرى للإثبات

يمكن لنا أن ندلل على أوقات الصلوات الخمس من خلال آيات متفرقات من الذكر الحكيم. فمثلاً: ١- ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ (الإسراء:٧٨) هذه صلاة الظهر. ٢- ﴿وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ (ق:٣٩). ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١] (الإنسان:٢٥) هذه صلاة العصر التي قيل عنها في سورة البقرة آية ٢٣٨ ﴿وَالصَّلاةِ الوُسْطَى﴾؛ لأنها تقع بين صلاتي النهار

---

[١] الأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب (صحاح الجوهري ولسان العرب).

الظهر والمغرب. ٣- ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ (هود:١١٤) الطرف الأول للنهار هو الصبح، والثاني هو المغرب.

ورد في سورة النور أمر بعدم الذهاب إلى أماكن النساء وحجراتهن دون إذن قبل صلاة الفجر:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ (النور:٥٨) فنجد فيها دليلاً عملياً لصلاة الفجر. ثم قال في نفس المكان ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾

فقد أُمر فيها بعدم الدخول بدون إذن على أي مكان بعد صلاة العشاء؛ لأنه يكون وقت نوم وخلع ملابس، وهذا أيضا دليل عملي لصلاة العشاء. وهذه هي مواقيت الصلوات الخمس.

الصلوات الخمس في الأحاديث والسنة

التفضيل والشرف الذي حصل عليهما النبي ﷺ دون بقية الأنبياء جميعا، هو أن الشريعة التي جاء بها لم تكن نظرية أو مثالية فحسب، كما أنها تخلو من أي إبهام أو غموض؛ إذ أوفى النبي ﷺ شرحها عن طريق أعماله وسنته، فأزال بعمله وبأمر متبعيه بالعمل كل شك أو غموض فيها، فطريقة العبادة اليومية التي قدمها الإسلام قد شرح النبي (ﷺ) كل أركانها وآدابها وشروطها ومواقيتها وعددها شرحاً وافياً عن طريق عمله. وقد وصل إلينا كل شيء من هذا عن طريق التواتر القولي والفعلي المحكم، فقد شرح النبي ﷺ لأصحابه وعلمهم كيفية الصلاة وما يجب أن يقرأ في الصلاة، وفي أي الأوقات نصلي، وعدد ركعات كل صلاة. وبطريقة عملية ظل النبي (ﷺ) طيلة فترة البعثة التي أعقبت الأمر بالصلاة يؤدي الصلاة أمام المسلمين لا لمدة يوم أو يومين، وإنما ظل يؤديها لمدة عشر سنين في كل يوم خمس مرات، ولم يتركها حتى في مرض الموت، فحافظ عليها (ﷺ) حتى آخر

أنفاسه. ورفع هتافات الصلوات الخمس وآذانها في المسجد النبوي بالمدينة وفي كل المساجد الإسلامية، فظل هذا الفرض يؤدى كل يوم خمس مرات في كل مكان يدخله الإسلام. وبعد النبي (ﷺ) ظل كل الخلفاء الراشدين والتابعون يؤدون هذا الفرض خمس مرات فى اليوم حيثما حلوا، وحيثما كانوا في سفر أو حضر. فهل يُعقل أن يشك أحد في هذا الشيء الدائم المعلن المتواتر والمستمر، ولقد أُمر بهذا الاهتمام والإعلان والاستمرار والتأكيد البليغ؛ حتى تظل طريقة العبادة في آخر الشرائع السماوية (الإسلام) محفوظة دون أن يعتريها أي شك أو خطأ، كما حدث في طرق عبادة الأنبياء السابقين عن طريق ترك أتباعهم لها؛ لأنه لو اعتراها أي شك، فلن تأتي رسالة أخرى تجددها وتصلحها؛ لذا ظلت صلاة النبي (ﷺ) محفوظة بكل متعلقاتها وأركانها وشروطها وأحكامها عن طريق التواتر والرواية حتى يومنا هذا عند كل معتنقي الإسلام، فالصلاة هي هذا الفرض الذي فرض الله تعالى في تلك الساعة السعيدة التي تشرف فيها النبي (ﷺ) بالقرب من ربه يوم المعراج. فقال الله تعالى: كتبت عليك وعلى أمتك خمس صلوات في اليوم والليلة هم في الأجر خمسين[1]، وقد ثبت هذا أيضاً من القرآن الكريم إذ يقول

---

[1] البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، كتاب الصلاة، وكتاب الإسراء. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣٤٧) حدَّثنا يحيى بنُ بُكَير قال: حدثَنا الليثُ عن يونُسَ عن ابنِ شهابٍ عن أنس بنِ مالكٍ قال: كان أبو ذَرٍّ يُحدِّثُ أن رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «فُرِجَ عن سَقفِ بيتي وأنا بمكةَ، فنزلَ جبريلُ ففَرَجَ صَدري، ثمَّ غَسلَهُ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ جاءَ بطِسْتٍ مِن ذَهَبٍ ممتلئٍ حِكمةً وإيماناً فأفرَغَه في صَدري ثمَّ أطبَقَهُ، ثم أخَذَ بيدي فعَرَجَ بي إلى السماءِ الدُّنيا، فلمّا جئتُ إلى السماءِ الدُّنيا قال جبريلُ لخازنِ السماءِ: افتَحْ. قال: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هل مَعَكَ أحدٌ؟ قال: نعم، معي محمدٌ صلى الله عليه وسلم. فقال: أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. فلما فتحَ عَلَونا السماء الدنيا، فإذا رجُلٌ قاعدٌ علَى يَمينِه أسْوِدَةٌ وعلى يَسارِه أسْوِدةٌ، إذا نَظَرَ قِبَلَ يَمينه

تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام:١٦٠)؛ لذا تأكد أن الخمس صلوات في حكم الخمسين صلاة. وبعدما فُرضت الصلاة نزلت

ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ يَسارِهِ بكى، فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ لجبريلَ: مَن هذا؟ قال: هذا آدمُ، وهذهِ الأسودَةُ عن يَمينِهِ وشمالِهِ نَسَمُ بَنيهِ، فأهلُ اليَمينِ منهم أهلُ الجَنَّةِ، والأَسْوِدَةُ التي عن شِمالِهِ أهلُ النارِ، فإذا نظرَ عن يَمينِهِ ضَحِكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ شِمالِهِ بكى. حتّى عَرَجَ بي إلى السماءِ الثانيةِ فقالَ لخازنِها: افتحْ. فقال له خازنُها مثلَ ما قال الأوَّلُ، ففتحَ». قال أنسٌ: فذَكَرَ أنه وَجدَ في السماواتِ آدمَ وإدريسَ وموسى وعيسى وإبراهيمَ صلَواتُ اللّهِ عليهم. ولم يُثبِتْ كيفَ مَنازِلَهُمْ، غيرَ أنه ذكرَ أنه وَجدَ آدمَ في السماءِ الدنيا، وإبراهيمَ في السماءِ السادسةِ. قال أنَسٌ: فلمّا مَرَّ جِبريلُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم بإدْرِيسَ قال: «مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ. فقلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إدريسُ. ثمَّ مَرَرتُ بموسى فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والأخِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا موسى. ثمَّ مررتُ بعيسى فقال: مَرحباً بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عيسى. ثمَّ مَرَرْتُ بإبراهيمَ فقال: مَرحباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ صلى الله عليه وسلم» قال ابن شِهاب فأخبرَني ابنُ حَزمٍ: أنَّ ابنَ عبّاسٍ وأبا حَبَّةَ الأنصاريَّ كانا يقولانِ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثمَّ عُرِجَ بي حتّى ظَهَرْتُ لمُستَوًى أسمعُ فيه صَريفَ الأقلامِ». قال ابنُ حزمٍ وأنسُ بنُ مالكٍ: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ففَرَضَ اللّهُ على أُمَّتي خَمسينَ صلاةً، فرَجَعْتُ بذلكَ حتى مَرَرْتُ على موسى فقال: ما فرَضَ اللّهُ لك على أُمَّتكَ؟ قلتُ: فَرضَ خَمسينَ صَلاةً. قال: فارجِعْ إلى ربِّكَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلكَ. فراجعَني فوَضَعَ شَطْرَها. فرجَعتُ إلى موسى قلتُ: وَضعَ شَطرَها. فقال: راجِعْ ربَّكَ، فإن أُمَّتَكَ لا تُطيقُ. فراجَعتُ، فوَضَعَ شطرَها. فرجَعتُ إليه فقال: ارجِعْ إلى ربِّكَ فإن أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلكَ. فراجعته فقال: هي خَمسٌ وهيَ خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ. فرجَعتُ إلى موسى فقال: راجِعْ ربَّكَ. فقلتُ: استحييتُ من ربي. ثم انطلقَ بي حتى انتهى بي إلى سدْرةِ المُنْتَهى، وَغَشِيَها ألْوانٌ لا أدري ما هيَ. ثمَّ أُدخِلتُ الجَنَّةَ، فإذا فيها حبايِلُ اللؤلؤِ، وإذا تُرابُها المِسكُ».(يوسف عامر).

الملائكة وعلمت بنفسها طريقة الصلاة ومواقيتها الخمس، فعلمت كل شــيء بطريقة عملية بعد أن صلت عند بداية ونهاية كل وقت صلاة[١]، وقد أخبــر النبي (ﷺ) أيضًا أصحابه ﷺ بنفس الطريقة وحثهم على أدائها؛ لــذا حينمــا قرر النبي (ﷺ) إعلان وتبليغ أوامر الشريعة وأحكامها في كل مكــان بعــد انتشار الإسلام، جاء أعرابي من نجد قاطعا في سفره طريقا طويلا، وجــاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ! أخبر رسولك أن خمــس صــلوات قــد فُرضن في اليوم والليلة. فهل هذا صحيح ؟ فقال ﷺ فــصدّق رســول الله ﷺ رسولَهُ. قال الأعرابي أو الذي بعثك بالحق نبيا هل أمرك الله بهــا ؟ قــال: (فيما معناه) نعم[٢].

---

[١] صحيح البخاري، وصحيح مسلم، باب أوقات الصلوات الخمس. وهذا نص الحــديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٣٠) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا لَيْثٌ. ح قَالَ وَحَدَّثَنَا ابْنُ رُمْحٍ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخَّرَ الْعَصْرَ شَيْئاً. فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ : أَمَا إِنَّ جِبْرِيلَ قَدْ نَزَلَ. فَصَلَّى إِمَامَ رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ اعْلَمْ مَا تَقُولُ يَا عُرْوَةُ. فَقَالَ: سَمِعْتُ بَشِيرَ بْنَ أَبِي مَسْعُودٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مَسْعُودٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي. فَصَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ». وَيَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ. (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، صــ ١١، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان في شرائع الدين، صــ ٢٤ – ٢٥، مصر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٦) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكُ بنُ أنَسٍ عنْ عَمِّهِ أبــي سُهَيلِ بن مالكٍ عنْ أبيه أنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بنَ عُبَيدِ اللّهِ يقولُ: «جاءَ رَجُلٌ إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم منْ أهلِ نَجْدٍ ثائرَ الرأسِ يُسمعُ دَوِيُّ صَوته ولا يُفْقَهُ ما يقــولُ، حتى دَنا، فإذا هُوَ يَسألُ عنِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وســلم: خَمــسُ صلَواتٍ في اليَوْمِ والليلةِ. فقال: هَل عَلَيَّ غَيْرُها؟ قال: لا، إلاّ أنْ تَطَوَّعَ. قال رســولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: وَصِيامُ رَمَضانَ. قال: هلْ عَلَيَّ غيــرُهُ؟ قــال: لا، إلاّ أن تَطوَّعَ. قال وذَكَرَ له رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الزكاةَ، قال هلْ عَلَيَّ غيرُهــا؟

وأخبر النبي (ﷺ) بنفسه أصحابه ﷺ أن جبريل قد نزل وأمّني فصليت معه، ثم صليتُ ثم صليت. ثم صليت. ثم صليت. فكان (ﷺ) يقول هذا بلسانه ويعد بأصابعه واحد، اثنان. ثلاثة أربعة[1]. وقال (ﷺ) مرة لأصحابه (ﷺ):«أرأيتُمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يَغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تَقولُ: ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبْقي من دَرَنه شيئاً. قال: فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمحو اللّه بها الْخَطايا»[2]. وقال (ﷺ) في تحديد مواقيت الصلاة: «إِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ قَرْنُ الشَّمْسِ الأَوَّلُ.ثُمَّ إِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ الْعَصْرُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ

قال: لا، إلاّ أن تَطوَّعَ. قال فأدْبرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يقولُ: وَاللّهِ لا أزيدُ علَى هذا ولا أنقُصُ. قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أفْلَحَ إنْ صَدَقَ».(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، باب أوقات الصلوات الخمس. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٣٠) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعيد. حَدَّثَنَا لَيْثٌ. ح قَالَ وَحَدَّثَنَا ابْنُ رُمْحٍ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخَّرَ الْعَصْرَ شَيْئاً. فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ : أَمَا إِنَّ جِبْرِيلَ قد نَزَلَ. فَصلَّى إِمَامَ رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ اعْلَمْ مَا تَقُولُ يَا عُرْوَةُ. فَقَالَ: سَمِعْتُ بَشِيرَ بْنَ أَبِي مَسْعُود يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مَسْعُود، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي. فَصَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ. ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ». وَيَحْسُبُ بِأَصَابِعِهِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ. (يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٥٢٢) حدثنا إبراهيمُ بنُ حَمزةَ قال: حدَّثني ابنُ أبي حازِمٍ و الدَّرَاوَرْديُّ عن يَزيدَ عن محمدِ بن إبراهيمَ عن أبي سَلمةَ بن عبدِ الرَّحْمٰنِ عن أبي هريرةَ: أنه سَمِعَ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتُمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يَغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خَمساً ما تَقولُ: ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبْقي من دَرَنه شيئاً. قال: فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يَمحو اللّه بها الْخَطايا». (يوسف عامر).

إِلَى أَنْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ الشَّفَقُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ». [١].

يقول الصحابي أبو برزة ﷺ: إن النبي (ﷺ) كان يقرأ في صلاة الفجر ما بين ستين ومائة آية[٢]. وكان يصلي الظهر بعد الزوال ويصلي العصر بقدر ما كان الرجل يذهب إلى أقصى المدينة ثم يعود، ثم تبق الشمس على حالتها. ولا يذكر الراوي ما قيل في المغرب، وكان لا يتردد في أداء صلاة العشاء حتى الثلث الأخير من الليل[٣]. ويروى سيدنا جابر عن صحابي آخر

---

[١] صحيح مسلم، باب أوقات الصلوات الخمس. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٣٦) حدثنا أَبُو غَسَّانَ الْمِسْمَعِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى. قَالاَ: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ وَهُوَ ابْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ نَبِيَّ اللّهِ قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ قَرْنُ الشَّمْسِ الأَوَّلُ.ثُمَّ إِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ الْعَصْرُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى أَنْ يَسْقُطَ الشَّفَقُ. فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ فَإِنَّهُ وَقْتٌ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ».(يوسف عامر).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٣٤) حدثنا حفصُ بنُ عُمرَ قال: حدَّثَنا شُعبةُ عن أبي المِنهالِ عن أبي بَرْزَةَ. «كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصلي الصُّبْحَ وأحَدُنا يَعرِفُ جَليسَه، ويَقرأُ فيها ما بينَ السِّتِّينَ إلى المائة، و كان يُصلِّي الظُّهرَ إذا زالت الشمسُ، والعَصرَ وأحَدُنا يَذهبُ إلى أقصى المَدينة ثُمَّ يَرْجِعُ والشمسُ حَيَّةٌ. ونَسيتُ ما قالَ في المَغرِبِ. ولا نُبالي بتأخيرِ العشاءِ إلى ثُلُثِ الليل ــ ثمَّ قال ــ إلى شَطرِ الليلِ». وقال مُعاذٌ: قال شُعبة: ثمَّ لَقِيتُه مرةً فقال: «أو ثُلُثِ الليلِ».(يوسف عامر).

[٣] صحيح البخاري، باب وقت الظهر عند الزوال. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٣٤) حدثنا حفصُ بنُ عُمرَ قال: حدَّثَنا شُعبةُ عن أبي المِنهالِ عن أبي بَرْزَةَ. «كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصلي الصُّبْحَ وأحَدُنا يَعرِفُ جَليسَه، ويَقرأُ فيها ما بينَ السِّتِّينَ إلى المائة، و كان يُصلِّي الظُّهرَ إذا زالت الشمسُ، والعَصرَ

يقول أن النبي (ﷺ) كانَ النبي صلى الله عليه وسلم يُصلِّي الظهرَ بالهاجرَةِ، والعصرَ والشمسُ حيَّةٌ، والمَغربَ إذا وَجَبتْ، والعشاءَ: إذا كثُرَ الناسُ عَجَّلَ، وإذا قلُّوا أخَّر. والصُبحَ بغَلَسٍ». [1] يقول الصحابة إن النبي (ﷺ) كان لا يعجل في الركعتين الأولتين من صلاتي الظهر والعصر[2]. فكان يقرأ سورة ثانية مع سورة الفاتحة. وأحيانا يقرأ آية[3]. وقرأ صلى الله عليه وسلم في

وأُخْتُنا يَذهبُ إلى أقصى المَدينة ثُمَّ يَرْجِعُ والشمسُ حَيَّةٌ. ونَسيتُ ما قالَ في المَغرِبِ. ولا نُبالي بتأخيرِ العشاءِ إلى ثُلثِ الليل ــ ثمَّ قال ــ إلى شَطرِ الليل». وقال مُعاذٌ: قال شُعبة: ثمَّ لَقيتُه مرةً فقال: «أو ثُلُثِ الليل».(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، باب وقت العشاء إذا اجتمع الناس أو تأخروا. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٥٥٨) حدثنا مُسلمُ بنُ إبراهيمَ قال: حدَّثنا شُعبةُ عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن محمدِ بنِ عمروٍ ــ هوَ ابنُ الحسَنِ بنِ عليٍّ ــ قال: «سألنا جابرَ بنَ عبدِ الله عن صلاةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: كانَ النبي صلى الله عليه وسلم يُصلِّي الظهرَ بالهاجرَةِ، والعصرَ والشمسُ حيَّةٌ، والمَغربَ إذا وَجَبتْ، والعشاءَ: إذا كثُرَ الناسُ عَجَّلَ، وإذا قلُّوا أخَّر. والصُبحَ بغَلَسٍ».(يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧٥٠) حدثنا أبو نُعَيم قال: حدَّثنا شيبانُ عن يحيىٰ عن عبدِ الله بنِ أبي قَتادةَ عن أبيهِ قال: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَقرأُ في الرُكعتين الأولَيَيْنِ من صلاةِ الظهر بفاتحةِ الكتاب وسورتَين يُطولُ في الأولىٰ ويُقصِّرُ في الثانيةِ ويُسمِعُ الآيةَ أحياناً، وكانَ يَقرأُ في العصرِ بفاتحةِ الكتاب وسُورتَينِ وكان يُطوِّلُ في الأولَى وكان يطولُ في الركعةِ الأُولى من صلاةِ الصبح ويُقصِّرُ في الثانيةِ».(يوسف عامر).

[3] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧٥٣) حدثنا المكيُّ بنُ إبراهيمَ عن هِشامٍ عن يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ عن عبدِ الله بنِ أبي قَتادةَ عن أبيه قال: «كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَقرأُ في الرَّكعتَينِ منَ الظهرِ والعصرِ بفاتحةِ الكتابِ وَسورةٍ سورة، ويُسمعُنا الآيةَ أحياناً».(يوسف عامر).

صلاة المغرب سورة المرسلات وأحياناً قرأ سورة الطور[١]. وقرأ في صلاة العشاء سورة إذا السماء انشقت والتين والزيتون[٢]. وقرأ سورة الطور في صلاة الفجر[٣].

وتوجد روايات كثيرة من هذا القبيل، ولكن ما الذي يتوقف على الروايات؟ هو أن التواتر العملي لكل أفعال النبي (ﷺ) حجة بالغة، لا تقبل الشك من صديق ولا عدو منذ عهده (ﷺ) وحتى اليوم.[٤]

لكن لماذا صارت صلاة التهجد بعد ذلك نفلاً

بعد اكتمال الصلوات الخمس أصبحت صلاة التهجد التي كانت قبل ذلك فرضا، أصبحت نفلاً للأمة. **يقول الله تعالى:**

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧٥٤) حدّثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن ابنِ شهابٍ عن عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما قال: «إنَّ أُمَّ الفضلِ سمعتْهُ وهو يقرأُ: {والمرسَلاتِ عُرفاً} فقالت: يا بُنَيَّ، واللهِ لقد ذكَّرْتَني بقِراءتكَ هذهِ السُّورةَ إنها لآخرُ ما سمعتُ من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغربِ».(يوسف عامر).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧٦٠) حدّثنا خَلادُ بنُ يحيىٰ قال: حدَّثنا مِسْعَرٌ قال: حدَّثنا عديُّ بنُ ثابتٍ سمعَ البَراءَ رضيَ اللهُ عنه قال: «سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأُ: {والتينِ والزيتونِ} في العِشاءِ، ومَا سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً منه أو قراءةً».(يوسف عامر).

[٣] المرجع السابق، باب القراءة في الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر بروايات متعددة. يروى عن أم سلمة أنها قالت : طُفتُ وراءَ الناسِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يُصلِّي ويَقرأُ بالطُّورِ. (يوسف عامر).

[٤] لأن بعض المستشرقين (دائرة معارف الإسلام لفظ صلاة) قد أرادوا بقصد أو بدون قصد سوء فهم أوقات الصلاة؛ لذا وجد (تحتم) هذا الكم من التفصيل حتى يزول سوء فهمهم هذا.

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مُّحْمُوداً﴾ (الإسراء:٧٨، ٧٩)

تأمل فى أنه حين كانت أوقات الصلاة غير محددة (مفروضة)، كانت صلاة التهجد وقراءة ما تيسر من القرآن فرضًا، وكأن صلاة التهجد هذه كانت صلوات الأوقات الخمسة مجتمعة في صلاة هذا الوقت. حيث كانت زهرة الصلاة ذات الورقات الخمسة ما تزال كالبرعم ملتصقة وملفوفة الأوراق، وحينما انفصلت صلوات وقتين أو ثلاثة خُفِّف نفس القدر من صلاة التهجد، ونزل الأمر به ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ﴾(المزمل:٢٠)[1]، ثم حينما جاء ذكر أوقات الصلوات الخمس لإقامة الصلاة سقطت فرضية صلاة التهجد. وهنا أمر آخر قابل للذكر، وهو أنه ربما تكون هذه الآية الكريمة آخر إعلان لاكتمال أوقات الصلاة؛ لأن صلاة التهجد التي كانت فرضاً قد أصبحت نفلاً بنزولها.

---

(١) صحيح مسلم، ج ١، باب وجوب قراءة الفاتحة. وحديث "ارجع فصل فإنك لم تصل". وانظر أيضا فتح الباري، ج ١ صـ ٣٩٣. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٨٣٦) حدثني مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى. حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ. قَالَ: عَنْ سَعِيدُ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ دَخَلَ الْمَسْجِدَ. فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى. ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ. فَرَدَّ رَسُولُ اللّهِ السَّلاَمَ. قَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ. فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ صَلَّى. ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ» ثُمَّ قَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ. فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» حَتَّى فَعَلَ ذٰلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أُحْسِنُ غَيْرَ هٰذَا. عَلِّمْنِي. قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ. ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ. ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً. ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِماً. ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً. ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِساً. ثُمَّ افْعَلْ ذٰلِكَ فِي كُلِّ صَلاَتِكَ كُلِّهَا».(يوسف عامر).

القبلة

كما أن عمل أي إنسان لا يمكن أن يستغني عن عنصر الزمن الذي على أساسه حددت أوقات الصلوات، كذلك لا يمكن الاستغناء عن المكان، فعندما يقوم الإنسان بعمل ما، فالطبيعي أنه سيولي وجهه جهة معينة، فلو لم تتعين جهة معينة للصلاة، وأُذِنَ لمن يريد أن يصلي أن يولي وجهه حيث شاء، ستتمزق أواصل الجماعة، وستزول الوحدة الظاهرة للمصلين، فلو يجتمعون في مسجد واحد ووقت واحد، ثم يولي أحدهم وجهه قِبل المشرق، والآخر قِبل المغرب، وآخر قبل اليمين، ورابع قِبل الشمال، فسيكون هذا المنظر مضحكًا، إضافة إلى أنه مخالف لنظام الوحدة؛ لذا تعينت في كل دين قبلة للعبادة. فالصابئون (عبدة النجوم) يولون وجوههم قبل القطب الشمالي حين تبدو النجوم ثابتة غير متحركة[١]، وكان عباد الشمس يولون وجوههم قبل الشمس، ويضع عباد النار النار أمامهم. وهكذا يفعل الوثنيون، وكانت أكثر الشعوب الشامية تولي وجوهها قِبل المشرق، حتى أن فرق الأيسنية – إحدى الفرق اليهودية – كانت قد اتخذت مطلع الشمس قبلة لها، وهي نفس القبلة التي كان نصارى الشام يصلون صوبها[٢]، ومؤكد أن بني إسرائيل أيضاً كانت لهم قبلة. ويتضح من التوراة أن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب حين كانوا يريدون العبادة يبنون بيتاً لله تعالى "بيت ايل" من

---

[١] الرد على المنطقيين لابن تيمية.

[٢] هذه التفاصيل موجودة في دائرة معارف الإسلام في لفظ قبلة.

الحجارة[1]، وقد ورد في القرآن الكريم أن بني إسرائيل حين كانوا في مصر أمرهم سيدنا موسى أن يجعلوا بيوتهم قبلة ويقيموا الصلاة:

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾(يونس:٨٧).

وقد ورد في مجموعة صحف العهد القديم في أماكن عديدة ذكر كون بيت المقدس قبلة، ففي زبور سيدنا داود عليه السلام: "لكني سأجيء من فيض رحمتك إلى بيتك وسأسجد لك خاشعاً... صوب الهيكل المقدس" (المزمور ٥، فقرة ٧)[2]، وفي سفر الملوك الأول: "حين تخرج طائفتك لقتال أعداءها فأرسلها حيث كانت للدعاء لله تعالى صوب هذه المدينة التي تحبها وصوب هذا البيت الذي بنيته أنا لك". (إصحاح ٧، فقرة ٤٤).

ويقول أيضاً في نفس الصحيفة: "وسأدعوك صوب هذه الأرض التي أعطيتها آباءهم وأجدادهم وصوب هذه المدينة التي اخترتها وصوب هذا البيت الذي بنيته أنا لك" (٤٨).

---

(1) سفر التكوين، باب ١٢ – ٨. وهذا نص الفقرة:" ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعايُ من المشرق. فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب".(يوسف عامر). ١٣ – ٤. وهذا نص الفقرة: "إلى مكان المذبح الذي عمله هناك أولا. ودعا هناك أبرام باسم الرب". (يوسف عامر). ٢٨ – ١٧. وهذا نص الفقرة: "وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء". (يوسف عامر). ٣١– ١٣. وهذا نصها: "أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا. حيث نذرت لي نذرا. الآن قم أخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك". (يوسف عامر).

(2) وهذا نصه: "أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد في هيكل قدسك بخوفك." (يوسف عامر).

وقد كان للكعبة عند العرب نفس القدر الذي كان لبيت المقدس عند بني إسرائيل؛ لذا كانت الكعبة قبلة العرب. من كل هذا التفصيل تتضح هذه الآية في القرآن الكريم :

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة:١٤٨)

يتضح من البيان السابق أنه كانت هناك ثلاث قبلات في الأديان الثلاثة للدنيا، عباد النجوم (الكواكب) كانوا يجعلون من نجم معين في وقت معين قبلة لهم بسبب عبادتهم للنجوم. فمثلاً كان عباد الشمس يتخذون من مشرق الشمس قبلة لهم، وكان الصابئون يتخذون من القطب الشمالي، وكان عبدة النار والأصنام يتخذون النار أو البحر أو أي صنم قبلة لهم، وكان الموحدون يعتبرون مسجدهم الأم قبلتهم.

وفي الأمم الإبراهيمية نوعان من أمهات المساجد، المسجد الأقصى (بيت المقدس)، والمسجد الحرام (الكعبة). كانت ولاية المسجد الأول مسئولية سيدنا إسحاق عليه السلام وأولاده؛ لذا كان قبلتهم. بينما كان سيدنا إسماعيل عليه السلام وأولاده ولاة على المسجد الثاني؛ لذا اتخذوه قبلة لهم. وفي الفترة التي كان يقيم فيها النبي (ﷺ) في مكة كان يقف موليا وجهه شطر الكعبة بطريقة تجعل الكعبة وبيت المقدس في المواجهة، لكن هذا الأمر تعثر عليه حين هاجر إلى المدينة؛ لأن بيت المقدس كان يقع شمال المدينة، والكعبة جنوبها، ولأنه لم يكن قد تم تحويل القبلة للبيت الحرام حتى ذاك الحين؛ لذا كان النبي (ﷺ) يتوجه صوب بيت المقدس، الذي كان قبلة أنبياء بني إسرائيل، لكن النبي (ﷺ) كان يتمنى أن يكون المسجد الإبراهيمي (الكعبة)، الذي تولى سيدنا إسماعيل رعايته بإيعاز من بانيه (سيدنا إبراهيم) عليه السلام قبلة للملة الإبراهيمية الجديدة؛ لذا نزلت الأحكام المتعلقة بهذا في وسط سورة البقرة، فقيل في البداية أن الله تعالى ليس له جهة معينة، وأنه تعالى منزه عن الجهات:

﴿لِلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:١١٥)

فيدخل في سعته كل الجهات، وهو عليم بكل الجوانب، فتَعْتَبِرَ هذه الآية أن أي تأويل لتحويل القبلة يمكن أن تتولد منه شائبة شرك أمر خاطئ، وهذا ما قيل في الآية الآتية:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(البقرة:١٤٢)

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى اليهود الذين كانوا أكثر المعترضين على تحويل القبلة من المسجد الشرقي – أي بيت المقدس – إلى المسجد الغربي – أي الكعبة – فقال:

﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧).

فقد ثبت تماما من هذا التصريح مكانة القبلة في الإسلام، فالقبلة هي الجهة أو الزاوية التي يُتجه إليها، وليست شيئاً ضروريا للعبادة. لكن لأنه كانت هناك حاجة لتخصيص جهة معينة من أجل إقامة نظام وحدة الأمة في الصلاة؛ لذا نزل الأمر بجعل الكعبة قبلة في السنة الأولى من الهجرة.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٤٤)

هذا ولم يختر الإسلام جهة معينة للقبلة، وإنما اختار مسجدا مركزيا يمكن أن يصلي حول أطرافه الأربع، وبهذا يكون المشرق والمغرب والشمال

والجنوب كلهم جميعا قبلة واحدة في وقت واحد لعالم الإسلام. وهنا إشارة لطيفة إلى أن قبلة المسلمين كربهم لا وجهة لها، أما الفائدة الثانية للقبلة فهي إن الفكر الذي كان يتولد للسجود وعبادة شيء مركزي للقبلة (كالشمس أو القطب الشمالي أو غير ذلك) ، والذي كان قد انتشر بسبب انتشار الوثنية وعبادة النجوم، قد انتهى تماما بتحديد القبلة.

لكن المسجد الحرام (الكعبة) قد اختير بدلاً من ذاك المسجد المركزي (بيت المقدس)، لما كان في ذلك من منافع ومصالح عديدة. هي:

١. كان لابد من وجود شيء يستطيع كل شخص أن يولي وجهه شطره في كل مكان وفي كل بلد، وهذا الشيء إما أن يكون شيئا مصنوعاً كقنديل أو شمعة أو صورة أو تمثال أو كتاب، كما رأينا أصحاب الأديان الذين كانوا يضعون أمامهم بعض الأشياء، التي كانوا يعبدونها، كالصنم والتمثال والنار والماء والشمس وغير ذلك من الأشياء والعناصر والكواكب. وواضح أن الإسلام لو فعل مثل هذا الأمر هو الآخر؛ لوقع هو الآخر فى أسر الوثنية الواضحة. أما الصورة الثانية فهي أنه يتجه إلى جهة محددة بدلا من الاتجاه إلى الأشياء، مثل الاتجاه إلى الشمال (القطب الشمالي) أو إلى الشرق حيث مطلع الشمس، ولكن لم يكن يليق لدين التوحيد أن يقيم رموزاً وعلامات لعبادة النجوم التي يبطلها ويحرمها.

٢. كان يمكن القول بترك المشرق والمغرب، قبلتي عبادة النجوم، واختيار أي جهة أخرى، لكن هذا الأمر مفتوح؛ لأن اختيار أي جهة من الجهات يجب أن تكون على أساس سبب يرجحها، وإلا فالجهات الأربع سواء عند لله تعالى؛ لذا لابد أن يكون في تلك الجهة سبب معين يدعو لتخصيصها، ولا يمكن تحديد الجهة دون مراعاة لمشرق أو مغرب الشمس أو أي نجم آخر. ولأن كل جهة فيها نجم مشهور

خصصت به، ولابد أن تتوند الأسباب التي أدت إلى ترجيح هذا النجم الذي اختيرت جهته لتكون قبلة، ومؤكد أن يصبح بين التوحيد دين شرك في ذاك الوقت بسبب هذا الترجيح.

٣. لهذا تركت الملة الإبراهيمية كل هذه الأشكال، واتخذت مصلى قبلة لها على الدوام، حتى تظل صلاتها محفوظة من كل شوائب الشرك. وقد اختارت ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام مسجدين مركزيين من بين كل المساجد التي بناها سيدنا إبراهيم. المسجد الأول هو بيت المقدس الذي بناه سيدنا داود عليه السلام وسيدنا سليمان عليه السلام في زمانهما باهتمام بالغ، وأصبح قبلة لبني إسرائيل. والمسجد الثاني هو الكعبة التي كانت مركزا دينياً لذرية إسماعيل عليه السلام.

٤. أخبر الإسلام بأن الكعبة كانت قد بنيت قبل بيت المقدس، وأنها كانت أول بيت بُني في الدنيا لعبادة الله تعالى، وأن سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل عليه السلام هما من قاما ببنائه.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾ (آل عمران:٩٦)

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة:١٢٧)

وكون الكعبة قبلة حقيقة لم ينكرها اليهود أيضاً زمن الإسلام؛ مذكور فى القرآن الكريم.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (البقرة:١٤٤).

ويكتب بولوس في خطاب لكليتون:

"كتب أن ابراهام (سيدنا إبراهيم عليه السلام) كان له ولدان. واحد من الجارية (هاجر) والثاني من الحرة (سارة) لكن الذي كان من الجارية (إسماعيل) ولد حسب الجسد. والذي كان من الحرة فبالموعد. يعد هذا الكلام تمثيليا. لأن هاتين السيدتين هما تلك العهود التي أخذ الأول على جبل الطور

(كانت السيدة هاجر في مصر وسيناء تقع في طريق مصر) وكان نتاج هذا العهد عبيد. وهذه هي هاجر التي كانت من جبل سيناء الذي كان يضاهي (بيت المقدس)أورشليم آنذاك. فكانت هاجر وأولادها في الرق. لكن التي كانت من أورشليم فكانت حرة."(إلى كليتون ٢٢ – ٢٦ الباب الرابع).[١]

يتضح من هذا الاقتباس أن مؤسس النصرانية أيضاً كان على علم بهذا السر، وهو أن كلاً من أورشليم وبيت الله (أو جبل سيناء العرب) يقابل أحدهما الآخر، ويتضح من قوله: "أورشليم الراهنة" أن أورشليم حديثه، وأن بيت الله قديم. ويعرف أيضا أن السيدتين عهدان، أي أن الله تعالى كان قد عهد لسيدنا إبراهيم عليه السلام عهدين بالنسبة لأولاده، فكان عهد السيدة هاجر قد تم على جبل سيناء حين كانت هاجر قادمة من مصر بصحبة أو برفقة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكانت سيناء في طريقهما. وطبقاً لهذا العهد بنى أولاد السيدة هاجر (العبيد) بيتًا مركزيا للعبادة في الجزيرة العربية، وأصبحوا (العبيد) مسئولين عنه، وكان هذا البيت عند بني إسرائيل يقابل مركز عبادتهم الجديد، وهو بيت المقدس. ولم يرد هنا ذكر لعهد سارة، لكن معروف أن سيادة بيت المقدس كانت قد آلت إلى بني إسرائيل، وكأن عهد الله قد ظل حتى مجيء سيدنا محمد ﷺ مع بيت المقدس وبني إسرائيل. وقد نقض بنو إسرائيل هذا العهد بتمردهم وطغيانهم وبغيانهم وقسوتهم؛ لذا توعدهم الله سبحانه وتعالى بعد بعثة النبي (ﷺ)، وقد جاء هذا في سورة الإسراء، لكن لما لم يؤثر هذا

---

[١] وهذا نصه: "فإنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة* لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد وأما الذي من الحرة فبالموعد * وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر* لأن هاجر جبل سيناء فى العربية. ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها* وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعا فهي حرة".(يوسف عامر).

الوعيد على بني إسرائيل نقض الله عهده معهم، وبدأ عهد بني إسماعيل عليه السلام الذي كان قد أبرم على جبل سيناء بشأن السيدة هاجر.

فكأن صلاة النبي (ﷺ) في بيت المقدس ليلة المعراج، وجعلــه قبلــة للصلاة لبضع سنوات لاحقة، إعلان لنقض عهد بني إسرائيل، وبداية عهــد بني إسماعيل عليه السلام، كما كتب في المجلد الثالث من هذا الكتــاب فــي أمــر المعراج: في تفسير قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَــرَامِ إِلَــى الْمَــسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:١)

يتضح من هذا التوضيح أن بيت المقدس الذي كــان رمــزاً للــزمن الإسرائيلي عند بني إسرائيل، لم تبق له سمة كونه قبلة بعد مجيء الإســلام؛ لأن مسجد سيدنا إبراهيم الذي يتعلق بالعهد الإسماعيلي قد أصبح قبلة.

ما هو ذاك العهد ؟ تفصيله هو:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَــةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْــرَاهِيمَ مُــصَلًّى وَعَهِــدْنَا إِلَــى إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــمَاعِيلَ أَن طَهِّــرَا بَيْتِــيَ لِلطَّــائِفِينَ وَالْعَــاكِفِينَ وَالرُّكَّــعِ الــسُّجُودِ﴾ (البقرة:١٢٤، ١٢٥)

المقصود هو أن هذا كان سرًا إلهيًا فى علــم الله تعــالى قبــل آلاف السنين، والذي بناءً عليه أصبحت الكعبة - بعد هجرة النبــي ﷺ - مركــزا روحانيا (قبلة) للدنيا بدلاً من بيت المقدس. والكعبة من الناحية التاريخية هي هذا البيت الذي وقف عنده سيدنا إبراهيم عليه السلام، ورفع نداء التوحيد؛ لذا كــان هذا البيت هو أول بيت لله تعالى في الدنيا. أما من الناحية الروحانية، فهــذا البيت يوازي ظل عرش الرحمن، ويتوسط الكرة الأرضية؛ لذا أمر الله تعالى فقال: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** (البقرة:١٤٩).

وعلى كل مسلم في الحقيقة أن يقف هو الآخر، ويؤدي فرض العبودية في نفس المكان الذي كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد وقف فيه، لكن لأنه يصعب على كل مسلم أن يفعل هذا في مكان واحد ووقت واحد؛ لذا وجب عليهم أن يوجهوا وجوههم شطره وقت الصلاة، وواضح أن رحمة الله وغايته لا وجهة لهما؛ لذا قيل عند تحديد القبلة:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة:١١٥)

وليست جدران الكعبة ولا سقفها معبوداً ومسجوداً لأي مسلم، فلا تخاطب القبلة في الصلاة والدعاء، كما يفعل المشركون وعباد الأصنام والنجوم، ولا يطلب منها شيء، ولا يتوسل إليها، ولا تعد إلها، ولا يعتقد أن الله جالس داخلها؛ إذ ستظل الكعبة قبلة حتى وإن قوضت جدرانها وسقط سقفها، ولم يبق منها شيء، وتجوز الصلاة داخل بنائهما وفوق سقفها. وفي حالة عدم معرفة القبلة، فيمكن أن يصلى صوب الجهة التي يعتقد أنها القبلة، كما تصلى النافلة في السفر حيث تتوجه الدابة، ويمكن أن يفعل هذا في القتال أيضاً. كل هذه الأمور تنفي تماما كل المعتقدات الخاطئة للمشركين التي يمكن أن تتولد بسبب تحويل القبلة، وهذه هي الحيثية الكاملة للدين المحمدي في هذا الشأن.

فكأن هذه القبلة هي المركز الأرضي، والدليل العملي لأتباع الملة الإبراهيمية، وأول أثر لموحدي الدنيا السالفين، ورمز لأتباع سيدنا محمد ﷺ، وشمل لوحدة مسلمي العالم. لكل هذا عدّ النبي (ﷺ) التوجه إليها علامة قبول الإسلام والاعتراف به. فقال: «مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقْبَلَ قِبلتَنا، وأَكَلَ ذَبِيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذمة رسوله، فلا تَخفِروا اللهَ في

ذِمَّتِه».[1]. فلو خرج شخص ما من دائرة الممكنات أو المعقولات، وحلق في الفضاء الفسيح حين يصلي المسلمون، فسيجد أن القبلة هي النقطة المركزية، التي يلتف كل مسلمي العالم حول أطرافها في شكل دائرة مصطفين ساجدين لله.

عدد الركعات

تطلق الركعة على الهيئة المكونة - على الترتيب - من قيام وركـوع وسجود، وأقل صلاة مفروضة ركعتان، وأكثرها أربع، فقد فـرض الـصبح ركعتين، والظهر والعصر والعشاء أربع ركعات، والمغـرب ثـلاث، ولـم تفرض صلاة من ركعة واحدة، ولا من أكثر من أربع ركعات؛ لأن الفائـدة هي ألاّ تكون الصلاة قصيرة من ركعة واحدة؛ حتى لا يتعذر تولد أثرها في القلب، ولا طويلة تجعل الإنسان يمل، فالصلاة من ركعة واحدة مختـصرة، لدرجة أنه لا يتولد بها خشوع ولا خضوع في القلب؛ إذ إنها تتم فـي بـضع لحظات، والصلاة الزائدة على أربع ركعات تؤثر سلبًا في قلب الإنـسان؛ إذ يمل الإنسان من طولها؛ ولهذا لم تفرض صلاة أقل من ركعتـين، ولا أكثـر من أربع ركعات.

وكان المسلمون يصلون خفية وهم في مكة؛ بسبب عـدم الاطمئنـان، والخوف من المشركين؛ لذا لم يكن ممكناً أن تزيد الصلاة في ذلك الوقت عن

---

[1] البخاري، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة. وهذا نص الحديث كما ورد فـي البخاري: (٣٨٩) حدَّثنا عَمرُو بن عباسٍ قال: حدَّثَنا ابنُ المَهديِّ قال: حدَّثَنا مَنصورُ بنُ سَعْدٍ عن ميمونِ بنِ سياهٍ عن أَنَسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليـه وسلم: «مَنْ صلَّى صَلاتَنا، واستَقبَلَ قِبلَتَنا، وأكَلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللهِ وذمة رسولِه، فلا تَخفِروا اللهَ في ذِمَّتِه». (يوسف عامر).

ركعتين؛ لهذا كانت الصلاة في مكة المكرمة ركعتين فقط. لكن حينما هاجر المسلمون إلى المدينة، وقُدّر لهم الأمن، فرضت أربع ركعات لصلاة الظهر والعصر والعشاء، بينما ظلت ركعتان فقط للمسافر[1]؛ لأن سبب عدم استقراره – الذي كان سبب التخفيف – ما يزال باقيا. وخلاصة ما رواه ابن عباس، هو أن على المقيم أربع ركعات، وعلى المسافر ركعتين، وعلى الخائف ركعة[2]، فوضح من هذا أن زيادة الركعتين أو قلتهما تكون على أساس توافر أو انعدام الطمأنينة.

أما صلاتا الصبح والمغرب، فلا فرق فيهما بين القيام والسفر؛ إذ لا يمكن أن تُقَسَّم ركعات المغرب الثلاثة، أو تخفف ركعتي الصبح. ولكن لماذا كان المغرب ثلاث ركعات والصبح ركعتين ؟ أوضحت أم المؤمنين السبب في هذا فأخبرت: **بأن المغرب ثلاث ركعات فقط؛ لأنه وتر النهار، والصبح ركعتان؛ لأن القراءة فيه زيدت بدلاً من زيادة ركعتين[3].**

---

(1) صحيح البخاري، باب الهجرة، وصحيح مسلم، صلاة المسافر، ومسند ابن حنبل، ج ٢، صـ ٢٤١. وابن خزيمة، وابن حبان، والبيهقي، وفتح الباري، ج١، ص ٣٩٣. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٥٢٠) حدّثنا يَحْيَىَ بْنُ يَحْيَىٰ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى مَالِكٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، زَوْجِ النَّبِيِّ، أَنَّهَا قَالَتْ: فُرِضَتِ الصَّلاَةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ. فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلاَةِ الْحَضَرِ. (يوسف عامر).

(2) صحيح مسلم، صلاة المسافر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم:(١٥٢٥) حدّثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَىٰ وَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَ أَبُو الرَّبِيعِ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ يَحْيَىٰ : أَخْبَرَنَا. وَقَالَ الآخَرُونَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ بُكَيْرِ بْنِ الأَخْنَسِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنّ فَرَضَ اللّهُ الصَّلاَةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعاً، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً. (يوسف عامر).

(3) مسند أحمد بن حنبل، ٦– ٢٤١.

إن قول السيدة عائشة يحتاج إلى قليل من التوضيح، فقد مر أن الصلاة مُنعت وقت الشروق والغروب؛ لأن هذا الوقت كان وقت عبادة الكفار (عبدة الشمس) [١]، وصلاة المغرب تكون بعد الغروب مباشرة؛ لذا يجب أن يُظهِر الموحدون براءتهم الكاملة من شرك عبادة الشمس؛ ولهذا بقيت في صلاة هذا الوقت الركعات التي تثبت بها وحدانية الله تعالى وتفرده،[٢] ولم يكن عدد ركعاتها ركعة واحدة؛ لأنه يتعذر بها تحقيق الخضوع والخشوع والتأثير، ولم تكن ركعتين؛ لأن الركعتين مثنى لا وتر؛ لذا كان العدد الأكثر دلالة على التوحيد - وأحاديا أيضا - هو عدد ثلاث ركعات، التي تثبت بها وحدانية الله تعالى وتفرده، ويكتمل بالثلاثة أيضا الخضوع والخشوع في الصلاة. ولأن زوال الشمس وغيابها أو ما نطلق عليه نحن غروبا، يكون في هذا الوقت؛ لذا يجب أن يبرز في هذا الوقت رمز للتوحيد، ويتضح شرح هذا الأمر من هذا الحديث، الذي قال فيه النبي (ﷺ) مؤكدا على صلاة الوتر.

«يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ» (أبو داود)[٣].

أما وقت الفجر؛ فهو وقت خلاب، يستيقظ فيه الإنسان بعد راحة وسكون تامين، حينها يكون الوقت مناسبا، وتكون القريحة فيه مواتية، والقلب مطمئن، والعالم كله يبدو منتشيا؛ لذا كان هذا الوقت مناسبا تماما للصلاة

---

[١] صحيح مسلم، النهي عن الصلاة فى الأوقات الثلث.

[٢] يطلق على صلاة الوتر التي تكون بعد صلاة العشاء وتراً؛ لأنها ثلاث ركعات، وهي صلاة الليل.

[٣] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٤١٧) حدثنا إبراهِيمُ بنُ مُوسَى أنبأنا عِيسَى عن زَكَرِيَّا عن أَبِي إِسْحَاقَ عن عَاصِمٍ عن عَلِيٍّ، قال قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». (يوسف عامر)

والدعاء، وقد ذكر الوصف الخاص بهذا الوقت في القـرآن الكـريم بهـذه الألفاظ:

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (الإسراء:٧٨)

لذا راعت الشريعة الإسلامية الحالة الحقيقية لهذا الوقـت بـدلاً مـن مراعاة عدد ركعات الصلاة؛ أي أن عدد الركعات ظل اثنين كما كان، لكـن أُمر بتطويل القراءة، وأن تقرأ سورة طويلة؛ لذا كان النبي (ﷺ) نفسه يقـرأ في الركعة الواحدة للصلوات الأخرى خمس عشر آية تقريباً، ويقرأ في صلاة الصبح ما بين ستين ومائة آية[1]، وبهذا القدر أيضا كان الركوع والسجود[2].

بالرغم من أن عدد الركعات قـد ثبـت بـالتواتر عـن النبـي (ﷺ) وصحابته، وأن كل المسلمين بلا استثناء يعملون بهذا التواتر، فإن الإشـارة العملية لذلك تظهر في القرآن الكريم من صلاة الخوف، التي أمـر فيهـا أن يقسم الجيش الإسلامي إلى طائفتين. الطائفة الأولى تقف أولاً خلف الإمـام، وتؤدي ركعة، وتقف الطائفة الثانية في مواجهة العدو، ثم تأتي الطائفة الأولى

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الصلاة باب القراءة. وهذا نص الحديث كما ورد فـي صـحيح مسلم: (٩٨٤) وحدثنا أَبُو كُرَيْبٍ : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، عَنْ أَبِـي الْمِنْهَالِ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ مَا بَيْنَ الـسِّتِّينَ إِلَى الْمِائَةِ آيَةً. (يوسف عامر).

(2) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمـام. وهـذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٠٠٩) وحدثنا حَامِدُ بْنُ عُمَرَ الْبَكْرَاوِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ فُضَيْلُ بْنُ حُسَيْنٍ الْجَحْدَرِيُّ كِلاَهُمَا عَنْ أَبِي عَوَانَةَ قَالَ حَامِدٌ : حَـدَّثَنَا أَبُـو عَوَانَةَ عَنْ هِلاَلِ بْنِ أَبِي حُمَيْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَـازِبٍ، قَالَ: رَمَقْتُ الصَّلاَةَ مَعَ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدْتُ قِيَامَهُ، فَرَكْعَتَهُ، فَاعْتِدَالَهُ بَعْدَ رُكُوعِه، فَسَجْدَتَهُ، فَجَلْسَتَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، فَسَجْدَتَهُ، فَجَلْسَتَهُ مَا بَيْنَ التَّسْلِيمِ والانصراف، قَرِيباً مِنَ السَّوَاءِ. (يوسف عامر).

لتقف في مواجهة العدو؛ لتصلي الطائفة الثانية ركعة خلف الإمام، وبهذا يتم الإمام ركعتين، وتؤدي كل طائفة ركعة في جماعة. هذا وإن وجدت فرصة للركعة الثانية، فإنها ستكون بأركانها، وإن انعدمت الفرصة أمكن أداؤها فرديا بالإشارة. وإذا ثبتت ركعتا القصر في صلاة الخوف فإن الأصل سيكون أربع ركعات، ويتضح من هذا أيضاً أن القصر يكون في صلوات الركعات الأربع فقط، وقد وردت آيات القصر في الربع الثامن من سورة النساء.

الآداب الباطنية للصلاة

وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية ألفاظ متعددة للصلاة، كالصلاة والدعاء والتسبيح وذكر الله، هذه الألفاظ نفسها تظهر الآداب والخصائص المعنوية للصلاة. والصلاة هي عبادة للجسم والروح على السواء، فلو لم يكن في الصلاة - إضافة لحركة الجسم - نبض القلب وتأثر الروح، لما كانت هذه الصلاة أكثر من وردة بلا لون، وشراب بلا مذاق.

إقامة الصلاة

استخدم تركيب إقامة الصلاة في القرآن الكريم؛ لأداء الصلاة، وهذا التركيب لا يستعمل لأداء الصلاة فحسب، بل لأدائها بكل آدابها وأركانها وسننها؛ لأنه حين أُسقطَت بعض آداب الصلاة وأركانها وشروطها من صلاة الخوف، قيل بعد هذا ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(النساء:١٠٣)، فوضح من هذا أن إقامة الصلاة تعني أداءها بكل آدابها وأركانها وشروطها، لذا يجب أن تشتمل الصلاة على الاطمئنان، واعتدال الأركان، والخضوع والخشوع الباطنيين اللذين لا تكتمل الصلاة إلا بهما.

القنوت

الشيء الثاني من الآداب الباطنية للصلاة هو القنوت. يقول تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨)، ويقول الصحابة ﷺ: كنا نتكلم في الصلاة قبل هذا. لكن حينما نزلت هذه الآية منعنا النبي (ﷺ) عن هذا؛ لأنه انعزال عن آداب الصلاة ومخالفة لها، والقنوت الذي أُمِرَ به في القرآن الكريم لفظ عجيب جامع. من معانيه في المعجم (لسان العرب) الصمت، والخضوع، والدعاء، والعبادة، والوقوف، وإطالة الوقوف، والتواضع. والصلاة التي ذكرت فيها هذه الآية، مطلوب فيها كل معنى من هذه المعاني؛ لأن الصلاة تخلو من كل الاحتياجات والكلام البشري ما عدا الذكر والقراءة والتسبيح والاستغفار والتسليم والتشهد، فهي خضوع لله، ودعاء وعبادة، وقيام طويل، وإظهار للعجز.

وإن فقد شيء من هذه الأشياء في الصلاة نقصت الصلاة بقدر نقصان أوصافها.

الخشوع

الشيء الثالث هو الخشوع، وقد ورد الخشوع في القرآن الكريم لوصف للمصلين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون:٢).

المعنى اللغوي للخشوع؛ هو انحناء البدن، وخفض الصوت، وغض البصر؛ أي إظهار المسكنة والعجز والتواضع في كل حركة (لسان العرب)؛ لهذا فالصلاة إظهار للمسكنة والحاجة والانكسار لله تعالى، وكأن الهدف من الصلاة لن يتحقق بدون هذه الكيفية.

التبتل

المعنى الأصلي للتبتل؛ هو الانقطاع، ومعناه الاصطلاحي؛ قطع الصلة بكل شيء سوى الله، وواضح أن هذا هو الهدف الحقيقي لحياة كل مسلم، ويتضح من السياق الذي ورد به الأمر بالتبتل، أنه خاص بالصلاة؛ لذا قيل في سورة المزمل:

﴿يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل:١-٨)

أي أنه يجب أن نخرج من أذهاننا في الصلاة وقت ذكر الله تعالى كل الأفكار ما عدا عظمة الله تعالى وعجزنا نحن، وقد روي في صحيح مسلم عن سيدنا عمرو بن عبد السلمي أنه قال: إن الصلاة التي علمني إياها رسول الله (ﷺ) قال عنها من توضأ ثم قام للصلاة ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه وأظهر عظمته التي هو أصل لها. وفرغ قلبه من كل شيء لله تعالى. كان بعد صلاته كمن ولدته أمه. وكأن هذا الحديث تفسير لهذه الآية.

التضرع

التضرع؛ هو البكاء والمسكنة والدعاء بعجز (لسان العرب)، فيجب أن تظهر على العبد من الصلاة حال الدعاء المسكنة والبكاء والعجز والإلحاح، وإلا لن يكون قد عمل بهذا الأمر.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف:٥٥)

الإخلاص

الإخلاص؛ هو الجوهر الحقيقي للسان والآداب الباطنية للصلاة، ويعني هذا ألاّ يُقْصَد أي شيء من الصلاة غير الله تعالى، وبدون الإخلاص لن تكون الصلاة صلاة، بل تكون رياءً وسمعة، ولابد أن يدخلها الشرك كما يعتقد بعض أهل الصواب. قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (الأعراف:٢٩).

فوضح من هذا أن وجود الإخلاص في الصلاة شيء ضروري لكمالها.

الذكر

تكون الصلاة لذكر الله، فإن كان على اللسان شيء، وفي القلب شيء آخر، فلن يكون هذا ذكر حقيقي لله؛ لذا قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:١٤)

وواضح أن الذكر لا يعني أداء ألفاظ باللسان فقط، بل لابد من أن يصاحبه معية القلب، وحضور الذهن،وهذا هو الغرض الأسمى للصلاة.

الفهم والتدبر

يجب أن يُفهم ما يقرأ في الصلاة؛ فإن القلب لا يتأثر إذا لم يُهتم بالمعاني بسبب الانشغال بشيء ما؛ لذا مُنع أداء الصلاة في حالة السُكر؛ لأن السكران يفقد عقله في هذه الحالة؛ فقد قال الله تعالى:

﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء:٤٣)

فأوضحت هذه الآية أنه يجب أن يُتدبر ما يُقْرَأ في الصلاة؛ لهذا منع النبي (ﷺ) أداء الصلاة في حالة غلبة النوم؛ إذ يكون الإنسان في هذه الحالة عاريا من الفهم والتدبر؛ لذا ورد في الحديث عن النبي (ﷺ) أنه قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّىٰ وَهُوَ نَاعِسٌ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبَّ نَفْسَهُ»[١]. وورد في رواية أخرى أنه (ﷺ) أخبر بأنه إذا غلب المصلي النوم فلينم حتى يدرك ما يقول[٢]. ورد في مستدرك الحاكم أن النبي (ﷺ) أخبر بأن من أسبغ الوضوء ثم صلى متدبراً ما يقول حتى ينهي صلاته، كان كيوم ولدته أمه[٣].

هذه هي الآداب الباطنية للصلاة، التي لا تكتمل الصلاة إلا بها، وكما أن السهو عن الشروط الظاهرية للصلاة سهو عن الصلاة، كذلك عدم مراعاة تلك الآداب الباطنية للصلاة، يُعدّ أيضا سهوا عن الصلاة؛ لذا تصدق الآية الآتية على الحالتين:

---

[١] مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر من نعس في صلاته، ج١، ص٢٩٣.

[٢] صحيح مسلم، المجلد الأول، باب الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها: وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٧٨٥) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ نُمَيْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ. حَدَّثَنَا أَبِي. ح وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ. حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ. جَمِيعاً عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ. ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّىٰ وَهُوَ نَاعِسٌ، لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ».(يوسف عامر).

[٣] المستدرك (الترغيب والترهيب للحافظ المنذري المجلد الأول ص ٧٣ مصر) **ويجب على المسلمين الذين لا يعرفون العربية أن يعتبروا وألا يجب عليهم أن يتدبروا السور والأدعية التي يقرؤونها في الصلاة. وهكذا ممكن لكل مسلم بسهولة. بشرط أن يهتم** ولو قليلاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (الماعون:٤ -٦).

تأمل هذه الألفاظ: "**ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون**"، فمعنى أنه ساهٍ عن الصلاة رغم أنه مؤديها، أنه يسهى عن آدابها الظاهرية، كمراعاة الوقت، وعدم الاعتدال في أداء الأركان، أو في الآداب الباطنية كالخشوع والخضوع والتضرع والخشية والفهم والتدبر، وغير ذلك من الأمور الضرورية.

وطبقا لآداب الصلاة وأخلاقياتها المذكورة، فإن إرشادات النبي (ﷺ) وتعليماته أمثلة عملية لها؛ إذ أوضح النبي (ﷺ) فيها الحقيقة الأصلية للصلاة، فذات مرة جاء رجل إلى المسجد الحرام، وصلى في عجلة، فقال له النبي (ﷺ): **ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ. فعاد وصلى كما صلى في المرة الأولى.** فأعاد النبي (ﷺ) عليه قولته. ولما فعل في المرة الثالثة أيضاً كما فعل في المرة الأولى. قال علمني يا رسول. فقال النبي (ﷺ): إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معَك منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صَلاتِكَ كلِّها»[1].

---

[1] صحيح البخاري، ومسلم، وأبو داود، كتاب الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٧٤٨) حدثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ قال: حدَّثَنا يحيىٰ عن عُبيدِ اللهِ قال: حدَّثَني سعيدُ بنُ أبي سعيدٍ عن أبيهِ عن أبي هُريرةَ «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم دخلَ المسجدَ، فدخلَ رجُلٌ فصلَّى، فسلَّمَ علَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فردَّ وقال: ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ، فرَجَعَ يُصلِّي كما صلَّى، ثم جاءَ فسلَّمَ علَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجِعْ فصلِّ فإنكَ لم تُصلِّ (ثلاثاً). فقال: والذي بَعثَكَ بالحقِّ ما أُحسِنُ غيرَه، فعلِّمني: فقال: إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فكبِّرْ، ثمَّ اقرأْ ما تَيسَّرَ معَك منَ القرآنِ، ثمَّ اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً، ثمَّ ارفعْ حتى تَعدِلَ قائماً، ثمَّ اسجُدْ حتى

والتلفت هنا وهناك ينافي الخشوع في الصلاة؛ إذ يتشتت بـه اهتمـام الإنسان، ويختل حضور قلبه؛ لذا قال النبي (ﷺ): لا ينتهي أقـوام يرفعـون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم» [1]. وقال (ﷺ) أيـضا: «لا يَزَالُ الله عَزَّوَجَلَّ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ في صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِـتْ، فـإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ»[2]. وفي الطبراني ورد أن النبي (ﷺ) أمر بأنـه حـين يقوم المسلم للصلاة، فإنه يتوجه إلى الله حتى يفرغ من صلاته فلا يلتفت في الصلاة؛ لأنه يتكلم مع الله وهو في الصلاة"[3]. ورد في مسند بزار أن العبد حين يلتفت في الصلاة يَطلُب منه الله تعالى أن يلتفت إليه سبحانه وإلا يُحوّل الله وجهه عنه"[4].

تطمئنَّ ساجداً، ثمَّ ارفعْ حتى تطمئنَّ جالساً، وافعلْ ذلكَ في صَلَاتِكَ كلِّهـا».(يوسـف عامر).

[1] مسند أحمد بن جابر بن سمرة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمـام أحمد: (٢٠٥٨٤) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمـش عـن مسيب بن رافع عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينتهي أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجـع إليهم».(يوسف عامر).

[2] مسند أحمد، المجلد ٥، صـ ٢٧٢، وأبي داود، باب الالتفات في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٩٠٩) حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا ابنُ وَهْـبٍ أخبرني يُونُسُ عن ابنِ شِهَابٍ قال سَمِعْتُ أَبَا الأَحْوَصِ يُحَدِّثُنَا في مَجْلِسِ سَـعِيدِ بـنِ المُسَيَّبِ قال: قال أَبُو ذَرٍّ: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَزَالُ الله عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ في صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْـهُ». (يوسـف عامر).

[3] الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة نقلاً عن كنز العمال، ج ٤، صـ ١٠٨.

[4] كنز العمال، ج ٤، صـ ١٠٨.

وورد عن النبي (ﷺ): أن أكبر سارق سارق الصلاة. فقال الصحابة ما هي سرقة الصلاة يا رسول الله ؟ فأخبرهم (ﷺ) بأن سرقتها تعني عدم إتمام الركوع والسجود وعدم الخشوع"[1]. وذات مرة نادى النبي (ﷺ) بعدما فرغ من الصلاة على رجل في الصف الأخير، وقال له يا فلان أما تخشى الله كيف تصلي ؟ إن أحدكم حين يقف للصلاة فإنه يناجي ربه فتدبر كيف تناجيه"[2]. وفي صحيح مسلم أن النبي (ﷺ) قال «يَا فُلاَنُ أَلاَ تُحْسِنُ صَلاَتَكَ؟ أَلاَ يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ. "[3]. والبصق في الصلاة خاصة جهة القبلة يخالف الأدب. وقد قال النبي (ﷺ) لأصحابه: " «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ؟ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ؟ "[4]. وفي رواية أخرى أن النبي (ﷺ) قال: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ

---

[1] مسند أحمد بن قتادة والدارمي، باب من لا يتم الركوع والسجود. وابن أبي شيبة وابن خزيمة وابن حبان وعبد بن حميد وعبد الرازق والطبراني في الأوسط. لكن اللفظ الأخير لم يرد في بعض الروايات.

[2] مستدرك الحاكم في الصلاة، ج ١، ص ٢٣٦، (على شرط مسلم)

[3] صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٩٠٨) حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ الْهَمْدَانِيُّ : حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنِ الْوَلِيدِ يَعْنِي ابْنَ كَثِيرٍ حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَوْماً. ثُمَّ انْصَرَفَ فَقَالَ: «يَا فُلاَنُ أَلاَ تُحْسِنُ صَلاَتَكَ؟ أَلاَ يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ. إِنِّي وَالله لأَبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنَ يَدَيَّ». (يوسف عامر).

[4] صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق فيها، والحاكم في المستدرك، وأبي داود. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٨٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. جَمِيعاً عَنِ ابْنِ عُلَيَّةَ. قَالَ زُهَيْرٌ : حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ. فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ؟ أَيُحِبُّ

فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلاَ يَبْزُقَنَّ"[1]. وفي رواية أخرى لمسلم إن النبي (ﷺ) قال: "إن الله يكون صوب أفواهكم في الصلاة"[2].

كما حثّ النبي (ﷺ) على السكون والطمأنينة في الصلاة فقال: "إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلاَةِ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ. وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ"[3]. الهدف الأول من هذا، هو أن يظل السكون والاطمئنان كائنين في الشخص نفسه، والثاني: ألاّ يقع خلل في سكون المصلين الآخرين بسبب سرعته هو. وهكذا

أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَخَّعْ عَنْ يَسَارِهِ. تَحْتَ قَدَمِهِ. فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هٰكَذَا» وَوَصَفَ الْقَاسِمُ، فَتَفَلَ فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ مَسَحَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ. (يوسف عامر).

(1) صحيح البخاري، ومسلم، كتاب الصلاة والمساجد. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٨٢) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ ابْنُ بَشَّارٍ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ. حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ. فَلاَ يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ. وَلٰكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ. (يوسف عامر).

(2) المرجع السابق، باب النهي عن البصاق فيها. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٧٥) حدثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ رَأَى بُصَاقاً فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ. فَحَكَّهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلاَ يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ. فَإِنَّ الله قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى».(يوسف عامر).

(3) صحيح مسلم، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣١١) حدثنا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ ابْنُ حُجْرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ. قَالَ ابْنُ أَيُّوبَ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ. أَخْبَرَنِي الْعَلاَءُ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلاَةِ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ. وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ. فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا. فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلاَةِ فَهُوَ فِي صَلاَةٍ». (يوسف عامر).

إن كانت هناك أسباب غرائزية لعدم الاطمئنان، فيجب الخلاص منها قبل الصلاة. فمثلاً لو أن الإنسان جائع، والطعام مطهي، والصلاة مقامة، فيجب عليه أن يأكل أولاً حتى تؤدى الصلاة بطمأنينة[١]. وإذا كانت هناك حاجة ماسة للاستنجاء، أو لقضاء الحاجة، فيجب أن تقضى أولاً، ثم تؤدى الصلاة[٢].

كان الناس في بداية الإسلام يرفعون أيديهم في الصلاة رداً للسلام، لكن مُنع هذا الأمر بعد الهجرة للمدينة، وقد سلم رجل من الصحابة ممن لم يكن عندهم علم بعدم جواز هذا الأمر على رسول الله (ﷺ) في الصلاة أكثر من مرة، ولما لم يجبه رسول الله (ﷺ). سأله عن السبب بعد الصلاة فقال

---

[١] صحيح البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، باب كراهية الصلاة بحضرة الطعام. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٩٣) أَخْبَرَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ». (يوسف عامر).

[٢] صحيح مسلم، وأبو داود، وموطأ الإمام مالك، والترمذي، والحاكم، في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٩٨) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ. حَدَّثَنَا حَاتِمٌ هُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ، قَالَ: تَحَدَّثْتُ أَنَا وَالْقَاسِمُ عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهِ عَنْها حَدِيثاً، وَكَانَ الْقَاسِمُ رَجُلاً لَحَّانَةً. وَكَانَ لأُمِّ وَلَدٍ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: مَا لَكَ لاَ تَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُ ابْنُ أَخِي هٰذَا؟ أَمَا إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ مِنْ أَيْنَ أُتِيتَ. هٰذَا أَدَّبَتْهُ أُمُّهُ وَأَنْتَ أَدَّبَتْكَ أُمُّكَ. قَالَ فَغَضِبَ الْقَاسِمُ وَأَضَبَّ عَلَيْهَا. فَلَمَّا رَأَى مَائِدَةَ عَائِشَةَ قَدْ أُتِيَ بِهَا قَامَ. قَالَتْ: أَيْنَ؟ قَالَ: أُصَلِّي. قَالَت: اجْلِسْ. قَالَ: إِنِّي أُصَلِّي. قَالَت: اجْلِسْ غُدَرُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ».(يوسف عامر).

النبي (ﷺ): "إن في الصلاة شغلاً"[١]. ويُكره كذلك لبس ثــوب، أو تعليــق ستار به أعلام وقت الصلاة، حتى لا يشتغل القلب بها.

وفي ذات مرة التفّ النبي (ﷺ) برداء مزخرف، وصلى فيه، وبعد أن فرغ من صلاته قال: «اذْهَبُوا بِهذِهِ الْخَمِيصَةِ إِلَى أَبِــي جَهْــمِ بْــنِ حُذَيْفَــةَ، وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفاً فِي صَلاَتِي» [٢]. وذات مرة علقت السيدة عائشة سجافاً منقوشا على جدار أمامي. فحين صــلى النبــي (ﷺ) انجــذب انتباهه فقال لها:«أَمِيطي عنّا قِرامَكِ هذا، فإنه لا تَزالُ تَصاوِيرُهُ تَعرِضُ فــي صَلاتي»[٣].

---

[١] صحيح مسلم، باب تحريم الكلام في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٥٣) حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ ابْنُ نُمَيْــرٍ وَ أَبُــو سَعِيدٍ الأَشَجُّ وَأَلْفَاظُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ قَالُوا: حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ : حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ إِبْــرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللّهِ، قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ. فَيَرُدُّ عَلَيْنَا. فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ، سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلاَةِ، فَتَرُدُّ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلاً».(يوسف عامر).

[٢] صحيح مسلم، باب كراهية الصلاة في ثوب لها أعلام. وهذا نص الحديث كمــا ورد في صحيح مسلم: (١١٩١) حدثنا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَامَ رَسُــولُ اللّـــهِ يُصَلِّي فِي خَمِيصَةٍ ذَاتِ أَعْلاَمٍ. فَنَظَرَ إِلَى عَلَمِهَا. فَلَمَّا قَضَىٰ صَلاَتَهُ قَالَ: «اذْهَبُوا بِهذِهِ الْخَمِيصَةِ إِلَى أَبِي جَهْمِ بْنِ حُذَيْفَةَ، وَائْتُــونِي بِأَنْبِجَانِيَّــةِ، فَإِنَّهَــا أَلْهَتْنِــي آنِفــاً فِــي صَلاَتِي».(يوسف عامر).

[٣] صحيح البخاري، ومسلم، كتاب اللباس. وهذا نص الحديث كما ورد فــي صــحيح البخاري: (٣٧٢) حدَّثَنا أبو مَعْمَرٍ عبد الله بنُ عَمرو قال: حدَّثَنا عبدُ الــوارثِ قــال: حدَّثَنا عبدُ العزيزِ بنُ صُهَيب عن أَنَس: «كان قِرامٌ لعائشةَ سَتَرَتْ به جانبَ بَيتِها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَميطي عنّا قِرامَكِ هذا، فإنه لا تَزالُ تَصاوِيرُهُ تَعــرِضُ في صَلاتي».(يوسف عامر).

وقد روعي في تحديد مواقيت الصلاة أيضاً أن تكون الأوقات وقت طمأنينة وسكون، فقد كان الواجب أن تكون صلاة الظهر بعد الزوال مباشرة، لكن لأن هذا الوقت يشتد حره؛ فقد أُمر بالتريث قليلا. ولأن الحرارة في أيام الصيف تشتد أكثر؛ فقد قال النبي (ﷺ): "إن حرارة الظهر هذه هي نار جهنم فصلوا الظهر بعد أن تخف الحرارة قليلاً"[1]. **"فإن الصلاة مشهودة محضورة"**[2].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: ٥٣١) حدَّثنا عُمرُ بنُ حَفْصٍ قال: حدثنا أبي قال: حدَّثنا الأعمشُ حدَّثنا أبو صالحٍ عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أبرِدوا بالظُّهرِ فإنَّ شِدَّةَ الحرِّ من فَيحِ جَهنَّمَ».
تابَعَهُ سُفيانُ ويحيى وأبو عَوانةَ عن الأعمش

[2] صحيح مسلم، باب النهي عن الأوقات الثلاث. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (١٨٨٠) حدثني أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْمَعْقِرِيُّ. حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ. حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ. حَدَّثَنَا شَدَّادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو عَمَّارٍ وَيَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ عِكْرِمَةَ : وَلَقِيَ شَدَّادٌ أَبَا أُمَامَةَ وَوَاثِلَةَ. وَصَحِبَ أَنَساً إِلَىٰ الشَّامِ. وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ فَضْلاً وَخَيْراً) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ، قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ، كُنْتُ، وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ ضَلاَلَةٍ. وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ. وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ. فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَاراً. فَقَعَدْتُ عَلَىٰ رَاحِلَتِي. فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ. فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ مُسْتَخْفِياً، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ. فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ. فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي الله» فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ وَأَنْ يُوَحَّدَ الله لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ» قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ هٰذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» قَالَ وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلاَلٌ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ. قَالَ: «إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ يَوْمَكَ هٰذَا. أَلاَ تَرَىٰ حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلٰكِنِ ارْجِعْ إِلَىٰ أَهْلِكَ. فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَىٰ أَهْلِي. وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَدِينَةَ. وَكُنْتُ فِي أَهْلِي. فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ. حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هٰذَا الرَّجُلُ

وأسمى منظر للكيفية القلبيّة للصلاة هو أن تطرأ على الإنسان حالة يُعلم منها أنه يقف في هذا الوقت أمام الله تعالى، وقد مر أن النبي قال للشخص الذي يسأله عن الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه

الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ. وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَستَطِيعُوا ذَلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ. فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ. أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ؟» قَالَ فَقُلْتُ: بَلَىٰ. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّه أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ الله وَأَجْهَلُهُ. أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلاَةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ. ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ. فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ. وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ. ثُمَّ صَلِّ. فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ. حَتَّىٰ يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ. ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ. فَإِنَّ حِينَئِذٍ، تُسْجَرُ جَهَنَّمُ. فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ. فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ. حَتَّىٰ تُصَلِّيَ الْعَصْرَ. ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ. حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ. فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ. وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ». قَالَ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّه فَالْوُضُوءُ؟ حَدِّثْنِي عَنْهُ. قَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ. ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ الله إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ. ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ. ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ. ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلاَّ خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ. فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّىٰ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله، إِلاَّ انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّه. فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ: يَا عَمْرُو بْنَ عَبَسَةَ انْظُرْ مَا تَقُولُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ يُعْطَىٰ هَـذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ عَمْرٌو. يَا أَبَا أُمَامَةَ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَاقْتَرَبَ أَجَلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّه، وَلاَ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّه. لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّه إِلاَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً (حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ) مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَبَداً. وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.(يوسف غامر).

فإنه يراك"[1]. وكان البكاء يغلب النبي (ﷺ) أحيانا في الصلاة، وتسيل الدموع من عينيه. يقول أحد الصحابة الذين شاهدوا النبي في هذه الحالة: رأيت النبي والدموع تسيل من عينيه في الصلاة حتى اختنقت أنفاسه من كثرة البكاء، فكان يبدو وكأن رحى تدور أو قدحاً يغلي"[2].

وكان عالم عجيب من الخشوع يعتري رسول الله (ﷺ) في صلوات الليل، فكان صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، وحين يمر ذكر لعظمة الله وكبريائه يرجوه، وحين تمر آية رحمة وكرم يدعوه"[3]. وقال النبي

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الإيمان. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٥٠) حدَّثنا مُسَدَّدٌ قال: حدَّثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ أخبرنا أبو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ عنْ أبي زُرْعةَ عن أبي هُرَيرةَ قال: «كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بارزاً يَوْماً للنَّاسِ، فأتاهُ جبْريلُ فَقَالَ: ما الإيمانُ؟ قال: «أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائكتِهِ، وبلقائِهِ، وَرُسُلِهِ، وتُؤْمِنَ بالبَعْثِ». قال: ما الإسلامُ؟ قال: «الإسْلامُ: أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ ولا تُشْرِكَ بهِ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤَدِّيَ الزَّكاةَ المَفْروضةَ، وتَصومَ رَمضانَ». قال: ما الإحسانُ؟ قال: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك». قال: مَتى الساعةُ؟ قال: «ما المسئولُ عنها بأعلمَ منَ السائلِ. وسأُخبرُكَ عنْ أشْراطها: إذا وَلَدَت الأَمَةُ رَبَّها؛ وإذا تَطاولَ رُعاةُ الإبلِ البُهْمِ في البُنْيانِ، في خَمْسٍ لا يَعْلَمُهنَّ إلاَّ اللَّهُ». ثمَّ تَلا النبيُّ صلى الله عليه وسلم: {إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ علمُ السَّاعةِ} الآية. ثمّ أدْبَرَ. فقال «رُدُّوهُ». فلم يَرَوْا شَيْئاً. فقال: «هذا جبْريلُ جاءَ يُعَلِّمُ الناسَ دينَهُم». قال أبو عبدِ اللَّهِ: جَعَلَ ذلكَ كلَّهُ منَ الإيمان» (يوسف عامر).

[2] الترمذي، وأبو داود، باب البكاء في الصلاة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبى داود: (٩٠٣) حدثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ سَلاَّمٍ أخبرنا يَزِيدُ ــ يَعْني ابنَ هَارُونَ، أخبرنا حَمَّادٌ ــ يَعْني ابنَ سَلَمَةَ ــ عن ثَابِتٍ عن مُطَرِّفٍ عن أبِيهِ، قال: «رَأَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي وفي صَدْرِهِ أزِيزٌ كأزِيزِ الرَّحَى مِنَ البُكَاءِ صلى الله عليه وسلم». (يوسف عامر).

[3] مسند أحمد بن حنبل، ج ٦، صـ ٩٣.

(ﷺ): «الصَّلاَةُ مثْنَى مَثْنَى أَنْ تَشَهَّدَ في كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَأَنْ تَبَأَّسَ وَتَمَسْكَنَ وَتُقْنِعَ بيدَيكَ وتقُولَ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ خِدَاجٌ» [١].

وكان النبي (ﷺ) معتكفاً ذات مرة، وكانت الناس تقرأ بصوت عالٍ في المسجد، فقال النبي (ﷺ): أَلاَ إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلاَ يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضاً. وَلاَ يَرفَعُ بَعضُكُم عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ قَالَ فِي الصَّلاَةِ» [٢].

وطلب صحابي من رسول الله (ﷺ) أن يعظه، فأمره النبي (ﷺ) حين يقوم للصلاة: "صل صلاة مودع، فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك "[٣]. فهل يستطيع أي شخص أن يدرك كيفية الصلاة هذه.

---

[١] أبو داود، باب صلاة النهار، والترمذي، باب ما جاء في الخشوع في الصلاة، ص ٧١، طاعة دهر. وهذا نص رواية أبي داود: (١٢٩٦) حدثنا ابنُ المُثَنَّى أخبرَنَا مُعَاذُ بنُ مُعَاذٍ أخبرَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَني عَبْدُ رَبِّهِ بنُ سَعِيدٍ عن أَنَسِ بن أبي أَنَسٍ عن عَبْدِ الله بن نَافِعٍ عنْ عَبْدِ الله بن الحارثِ عن المُطَّلِبِ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى أَنْ تَشَهَّدَ في كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَأَنْ تَبَأَّسَ وَتَمَسْكَنَ وَتُقْنِعَ بيدَيكَ وتقُولَ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ خِدَاجٌ» سُئِلَ أَبُو دَاوُدَ عن صَلاَةِ اللَّيْلِ مَثْنَى قال: إِنْ شِئْتَ مَثْنَى مَثْنَى وإِنْ شِئْتَ أَرْبَعاً. (يوسف عامر).

[٢] أبو داود، صلاة الليل. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (١٣٣٢) حدثنا الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أنبأنا مَعْمَرٌ عنْ إِسْمَاعِيلَ بن أُمَيَّةَ عنْ أبي سَلَمَةَ عنْ أبي سَعِيدٍ، قال: «اعْتَكَفَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في المَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بالْقِرَاءَةِ. فَكَشَفَ السِّتْرَ وَقَالَ: أَلاَ إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلاَ يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعضاً. وَلاَ يَرفَعْ بَعضُكُم عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ قَالَ فِي الصَّلاَةِ». (يوسف عامر).

[٣] مسند أحمد، المجلد ٥، ص ٤١٢، عن أبي أيوب. وعن ابن عمر قال أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله حدثني حديثا واجعله موجزا فقال النبي صلى الله عليه وسلم "صل صلاة مودع فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك وأيس مما في

تتضح من كل هذا التفصيل ماهية الصلاة في الإسلام، وما هي الصلاة التي جاء بها القرآن الكريم؟ وأي صلاة علمها النبي؟ وما هي كيفيتها الحقيقية؟ فإذا كانت الصلاة هي هذه الصلاة، فكم تكون مؤثرة لإصلاح الإنسان باطنيًا وأخلاقيًا؟. لهذا أخبرنا القرآن الكريم، أن المحافظة على الصلاة هي ثمرة الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام ٩٢).

هذه المحافظة على الصلاة لها معنيان، والاثنان مقصودان هنا، أول المعنيين تنفيذ شروطها الظاهرية، وثانيهما مراعاة آدابها الباطنية.

الفوائد الأخلاقية والتهذيبية والاجتماعية للصلاة

الصلاة في الحقيقة مذاق الإيمان، وغذاء الروح، وسبيل طمأنينة القلب. إضافة إلى أنها آلة فعالة لإصلاح المسلمين اجتماعيًا وأخلاقيًا وحضاريًا وثقافيًا وتهذيبيًا، وقد تحققت كل الإصلاحات الأخلاقية والحضارية والاجتماعية التي جاء بها النبي (ﷺ) عن طريق الصلاة، فبفضلها أوصل الإسلام بلدا قبليا بدويا متخلفاً، لم يكن يعرف حتى طريقة الملبس، أوصله في بضع سنين إلى أعلى درجات الأدب والتمدن، واليوم، يصل الإسلام إلى بلاد أفريقيا الهمجية، ويسمو بفكرها ويطورها، ويعلمها الإخلاص الذي بسببه صار عملهم ــ الذي كان من ذي قبل تراباً ــ أكسيرا.

١. **ستر العورة:** الشيء الأول من الفوائد الاجتماعية للصلاة هو "**ستر العورة**"، إذ إن ستر بعض أجزاء الجسم لأجل الحياء شيء ضروري للغاية. وقد كان بدو العرب على جهل تام بهذا الأدب، بل إن سكان

أيدي الناس تكن غنيا وإياك وما يعتذر منه" رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم. (يوسف عامر).

الحضر أنفسهم كانوا لا يبالون بهذا أيضاً، لدرجة أن النساء من غير القرشيات كن يأتين للحج عاريات، وغالباً ما كُن يطفن بدون ثياب. فلما جاء الإسلام أمر بستر العورة، لدرجة أنه عدّ الصلاة باطلة بدون ستر العورة، ونزلت الآية الكريمة:

﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ (الأعراف:٣١).

فكان ستر ما بين السرة والركبة للرجل، ومن الجبهة حتى القدمين للمرأة شيئاً ضرورياً في الصلاة، وقد أجبر هذا الأمر العرب البدو الجهلاء، والشعوب العرايا في البلاد التي دخلها على ستر العورة.

كما أن تأكيد الصلاة كل يوم خمس مرات، قد سترهم للأبد، ويمكن أن نعرف من خلال النظر إلى لباس المسلمين وغيرهم في أفريقيا وشبه القارة الهندية القدر الكبير للهداية والإرشاد، الذين ساعد بهما الإسلام الدنيا في هذا الدرس الأول للمدنية. ومن ناحية أخرى تبدو البلدان المتقدمة فاقدة للحياء؛ بسبب الغلو في الزينة والتمدن؛ إذ يلبس الرجال هناك ملابس فوق الركبة، وتلبس النساء ملابس شبه عارية شفافة للغاية. والصلاة تصلح هذه البلدان والشعوب أيضاً، فلا تسمح للشعوب المتحضرة بالتطرف؛ لهذا فقد منع الإسلام النساء من المرور بالمسجد متطيبات، ونهى عن لبس ثياب فاضحة، فلا صلاة بدون ستر العورة.

٢. **الطهارة**: الدرس الثاني للصلاة، **هو الطهارة** والنظافة اللتان تعدان من أوامر الإسلام الأولى؛ فالمرة الثانية التي نزل فيها الوحي على سيدنا محمد أمره فيها أن: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ (المدثر:٤)، وقد حدد الإسلام وأقرّ أسس هذه النظافة وتلك الطهارة، وحدد النبي (ﷺ) بتعليماته حدودهما، واشترط لصحة الصلاة طهارة بدن الإنسان وثوبه ومكان صلاته. وكبقية الشعوب الهمجية، لم تكن للعرب دراية بالطهارة، ولا بالنظافة، لدرجة أن

أعرابيا دخل المسجد النبوي، وقضى فيه حاجته أمام الجميع، فاستبق الصحابة لضربه، لكن النبي (ﷺ) منعهم، ونادى الأعرابي، وأخبره برفق بأن هذا مكان للصلاة، فلا يناسب هذا النوع من الفعل. ثم قال للصحابة صبوا على هذه النجاسة ماء. [1] مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقَبرَينِ فقال: «إنَّهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبير: أمّا أحَدُهما فكانَ لا يَستَتِرُ منَ البَولِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمة»[2]. المقصود أن هذا الأمر الذي كان للصلاة فحسب، قد عوّد العرب خاصة والمسلمين عامة على الحفاظ على الطهارة والنظافة، وعلَّم آداب الاستنجاء وبيت الخلاء والطهارة التي لا تزال الشعوب المتحضرة تجهلها حتى يومنا هذا، وعلَّم نظافة الثوب والبدن والمكان؛ لذا مدح الله تعالى أولئك الصحابة الذين كانوا يهتمون بالطهارة فقال:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة:١٠٨)

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٢٢٠) حدَّثنا أبو اليمانِ قال: أخبرَنا شُعَيبٌ عن الزُّهريِّ قال: أخبرَني عُبَيدُ اللّه بنُ عبدِ اللّه بنِ عُتبةَ بنِ مسعودٍ أنَّ أبا هُريرةَ قال: قام أعرابيٌّ فبالَ في المسجد، فتناولَهُ الناسُ، فقالَ لهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «دَعوهُ، وهَريقوا على بَولِهِ سَجْلاً من ماءٍ ــ أو ذَنوباً منْ ماءٍ ــ فإنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين».(يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٢١٨) حدَّثنا محمدُ بنُ المُثَنَّى قال: حدَّثنا محمدُ بن خازِمٍ قال: حدَّثَنا الأعمشُ عن مُجاهدٍ عن طاوُسٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قال: مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقَبرَينِ فقال: «إنَّهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ: أمّا أحَدُهما فكانَ لا يَستَتِرُ منَ البَولِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمة» ثمَّ أخذَ جَريدةً رَطبةً فشقَّها نِصفينِ، فغَرَزَ في كل قبرٍ واحدةً. قالوا: يا رسولَ اللّه لمَ فعَلتَ هذا؟ قال: «لَعلَّه يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا».

قال ابنُ المثنّى: وحدَّثنا وكيعٌ قال: حدَّثَنا الأعمشُ قال: سَمعتُ مُجاهداً مِثلَه.(يوسف عامر).

فإذا عدّ الإسلامُ الطهارة والنظافة وسيلتين لحب الله تعالى، فمن ذا الذي يحب أن يُحْرَمَ من هذه النعمة؟

٣. **النظافة**: الفائدة الثالثة للصلاة، هي أن الصلاة تحث الإنسان على نظافة بدنه وأعضائه؛ إذ يضطر كل مصل لغسل فمه ويديه ورجليه – المكشوفة دائما – كل يوم خمس مرات، ويضع ماء في أنفه وينظفها. وقد أخبرني طبيب كبير أنه طبقا لنظرية الجراثيم اليوم، فإن كثيرا من الأمراض تدخل الجسم عند التنفس عن طريق الجراثيم التي تدخل الفم وقت التنفس، ولكنها تتلاشى وتختفي بسبب وضع الماء في الأنف، وبسبب الاستنشاق.

ولا يوجد في الدنيا دين آخر غير الإسلام، عدّ وضع الماء في الأنف ضروريا؛ إذ إن هذا الشيء ضروري جدا من الناحية الطبية، ويتضح من هذا مدى تأسيس أحكام الإسلام وأوامره على أسس طبية. وتزيد أهمية الأمر بالوضوء خمس مرات كل يوم، حين نعلم أن هذا الأمر قد نزل في بلد يندر فيه الماء، فقد كانت العرب ـ خاصة البدو منهم ـ لا تنظف أسنانها إلا نادرا، فكان يترتب على هذا إضافة لسوء منظرهم، وكراهة خلوفهم ظهور كثير من الأمراض؛ لذا أكد النبي (ﷺ) استخدام السواك عند كل صلاة لدرجة تقترب من الوجوب فقال: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك (عند كل صلاة)".[1].

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٥٤٢) حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ عَمْرٌو النَّاقِدُ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ، عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ». (يوسف عامر).

وبسبب قلة الماء، كانت العرب لا تستحم إلا نادرا، وكانت ملابسهم في الغالب من الصوف، ولأنهم كانوا يكدون كثير؛ فقد كانوا يعرقون كثيرا، ولأنهم كانوا يرتدون الثوب الواحد لأسابيع عديدة؛ فقد كانت الرائحة تفوح من أبدانهم وملابسهم حين ذهابهم للصلاة في المسجد؛ لهذا أوجب الإسلام الغسل أو الاستحمام كل أسبوع مرة واحدة على الأقل قبل صلاة الجمعة، فقال النبي (ﷺ):

"غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم" (البخاري، كتاب الجمعة)[١]

وحث الإسلام أيضاً على لبس ملابس نظيفة، إضافة للنظافة والطهارة وغير ذلك من الأمور التي تكون في ذلك اليوم، وعدّ الغسلَ فرضا في **بعض الأحوال، ولا تصح الصلاة بدونه، فقال تعالى:**

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة:٦)

٤. **تنظيم الوقت**: إن أكبر سر للحياة العملية الناجحة للإنسان، هو أن يؤدى كل أعماله في أوقات محددة، فقد خلق الإنسان بطبعه محبًا للراحة والسكون، ولجعله ملتزما بالوقت، يجب أن تحدد جبرا مواقيت لبعض أعماله، وعليه فإنه سوف يحدد مواقيت أعماله الأخرى. وبهذا تنتظم حياته، ولا يضيع وقته سدى. ولأن أوقات الصلاة محددة؛ لذا تكون أوقات المصلين ــ خاصة المصلين في جماعة ــ منظمة بطريقة تلقائية، فيكون نومهم ويقظتهم بموعد؛ لذا يقول الصحابي المعروف سلمان

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (١١٣٣٨) حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي قال: قرأت على عبد الرحمن مالك، قال: أبي: وحدّثناه أبو سلمة ـــ يعني الخزاعي ــ أنبأنا مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم».(يوسف عامر).

الفارسي ﷺ: "**الصلاة مكيال فمن أوفى أوفى به ومن طفف فقد علمتم ما للمطففين**"[١].

وبالرغم من أنه يمكن أن تكون لهذه المقولة معانٍ أخرى، فإن الصلاة أيضاً يمكن أن تكون مقياس أعمال لكل مسلم، فتنتظم بها كل أموره.

٥. **التبكير**: لا تخفى أهمية التبكير في النوم والتبكير في اليقظة قبل طلوع الشمس في الطب وفي أسس الحفاظ على الصحة، ولا يستطيع المحافظون على الصلاة مخالفة هذا الأمر. فإن لم ينم الإنسان مبكراً، فلن تستطيع عينه أن تتفتح في وقتها صباحاً؛ لذا نهى النبي (ﷺ) عن السمر واللغو بعد العشاء"[٢]. فالعين تستطيع أن تفتح في وقتها، إذا نامت في وقتها، فيصبح التبكير عادة المسلمين، ويوقظهم النداء المؤثر للمؤذن: **الصلاة خير من النوم وقت الفجر**.

٦. **خشية الله**: حين تزل قدم المسلم – الذي يصلي – أحيانا بسبب ذنب، أو ضعف بشري، فإن الرحمة الإلهية تمسك بيده، فيندم على فعله، ويؤنبه ضميره حين يقف أمام الله تعالى، ويخجل من الناس؛ لأنهم سيقولون إنه

---

[١] كنز العمال، مندوبات الصلاة، ج ٤، صـ ٢٣٠، نقلاً عن المؤلف عبد الرازق.

[٢] البخاري، كتاب الصلاة، باب ما يكره من السمر بعد العشاء. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٩٢) حدثنا مُسَدَّدٌ قال: حدَّثَنا يحيىٰ قال: حدثَنا عَوفٌ قال: حدَّثَنا أبو المنهالِ قال: «انطلقتُ مع أبي إلى أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ، فقال له أبي: حَدِّثْنا كيف كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يصلِّي المكتوبةَ؟ قال: كان يُصلِّي الهَجيرَ ــ وهيَ التي تَدْعونَها الأولىٰ ــ حينَ تَدحَضُ الشمس، ويصلِّي العصرَ ثمَّ يَرجِعُ أحدُنا إلى أهلهِ في أقصىٰ المدينةِ والشمسُ حَية. ونسيتُ ما قال في المغربِ. قال: وكان يَستَحبُّ أن يؤخِّرَ العشاءَ. قال: وكان يَكرهُ النومَ قبلَها، والحديثَ بعدَها. وكان يَنفتِلُ من صلاةِ الغداةِ حينَ يعرِفُ أحدُنا جَليسَه، ويقرأُ منَ الستِّينَ إلى المائة».(يوسف عامر).

يفعل هذا النوع من الأفعال رغم أنه يحافظ على الصلاة، وترتعد قــدماه وقت الوقوع في الذنب. والمقصود أن الصلاة تــوقظ حاســة الإنــسان الأخلاقية فيه، وتخلصه من الآثام، وقد أوضح الله تعالى هــذا الوصــف وهذه الخاصية للصلاة فقال:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥).

٧. **الفطانة**: الصلاة هي العقل والوعي واليقظة والتدبر والتأمل في آيات الله تعالى، وهي ذكر الله وتسبيحه والدعاء بالمغفرة؛ لذا فكل الأشــياء التــي تذهب عقل الإنسان ووعيه وشعوره وإحساسه منافية للصلاة؛ لهذا كــان أداء الصلاة محرما في حالة السكر قبل أن تحرم الخمر تحريما قاطعــا. قال تعالى:

﴿لاَ تَقْرَبُــوا الــصَّلاَةَ وَأَنْــتُمْ سُــكَارَى حَتَّــى تَعْلَمُــوا مَــا تَقُولُونَ﴾(النساء:٤٣)

ولذا يبتعد كل محافظ على الصلاة عن كل الأشياء التي تذهب العقــل والوعي.

٨. **علامة مميزة للمسلمين**: ليس من الناحية العقائدية فحسب، وإنما مــن الناحية السياسية كذلك، فقد كان الإسلام في حاجة ماسة لتمييز المخلصين من المنافقين، ولم يكن القانون يستطيع أن يفرق بين الاثنين، وكان الحج من الفرائض التي اعتادتها العرب منذ زمن بعيد، فكان هذا التجمع شــيئا ضروريا في ثقافة العرب؛ إذ كانوا يتباهون ويتفــاخرون فيــه، وكــأن الإسلام أصلحه. ولم تكن الزكاة كذلك علامة مميزة؛ لأن أكثر المنــافقين كانوا أغنياء. والزكاة يمكن أن تكون وسيلة للفخر والمباهاة، كما أنها لــم تكن أيضاً ثقيلة على طبيعة العرب الفياضة، كما أن شعور التعاطف مــع الفقراء شعور فطري؛ أي أن الدافع لها كان غرائزيا. والصوم أيــضا لا

يمكن اعتباره علامة مميزة للإسلام؛ لأنه يمكن بكل سهولة الأكل خفية أثناء الصوم. أما الصلاة فهي الوحيدة التي يمكن أن تكون حداً فاصلاً بين الفريقين (المؤمنين والمنافقين)؛ لهذا عدّ القرآن الكريم التكاسل في أدائها سمة وعلامة مميزتين للمنافقين. يقول تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ (النساء:١٤٧)

وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥)

خاصة أوقات العشاء والفجر؛ لأنها أوقات راحة؛ لذا قال النبي (ﷺ): **"ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء"**[(١)] ويقول سيدنا ابن عمر: "حين كنا (معاشر الصحابة) نفتقد شخصاً من صلاتي العشاء والفجر كنا نظن به الظنون"[(٢)].

كان لتحويل القبلة في المدينة منافع كثيرة، أحدها تمييز المخلصين من المنافقين، فأناس مكة المكرمة القائلون بعظمة الكعبة، كانوا يرون أن تولية الوجه صوب المسجد الأقصى غير جائز، وكان اليهود يقطنون المدينة، وكان بعضهم قد دخل الإسلام، وكانوا يصلون صوب بيت المقدس، ولا يسلمون بعظمة الكعبة؛ لذا يمكن تمييز منافقي العرب من جعل بيت المقدس قبلة، ومعرفة منافقي اليهود بعد جعل الكعبة قبلة.

---

(١) البخاري، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٤٨) حدثنا عمرُ بنُ حفصٍ قال: حدَّثنا أبي قال: حدَّثنا الأعمشُ قال: حدَّثني أبو صالحٍ عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ليسَ صَلاةٌ أثقلَ على المنافقين من الفَجرِ وَالعِشاءِ، ولَو يَعلمونَ ما فيهما لأتَوهما ولو حَبْواً. لقد هَممتُ أن آمُرَ المُؤذِّنَ فيُقيمَ، ثمَّ آمُرَ رجُلاً يَؤُمُّ الناسَ، ثمَّ آخُذَ شُعَلاً من نارٍ فأُحرِّقَ على مَن لا يَخرُجُ إلى الصلاةِ بعد». **(يوسف عامر)**.

(٢) مستدرك الحاكم (على شرط الشيخين)، ج ١، ص ٢١١.

لذا قال القرآن الكريم: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ﴾** (البقرة:١٤٣).

وستظل هذه الميزة والعلامة حتى يوم القيامة؛ لهذا قال النبي (ﷺ): «مَنْ صَلَّى صَلاتَنَا، واستَقْبَلَ قِبلَتَنا، وأَكَلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ»[1].

٩. **دحض الباطل والدفاع عن الحق واجب على الإنسان:** على الإنسان أن يستعد دائما للقيام بهذا الواجب، وصلاتنا اليومية هي خريطة هذا الاستعداد؛ لذا فقد ورد في أبي داود: "**كان النبي ﷺ وجيوشه إذ علوا الثنايا كبروا وإذ هبطوا سجدوا فوضعت الصلاة على ذلك" (أبو داود)**[2].

---

[1] البخاري، باب فضل استقبال القبلة. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣٨٩) حدَّثنا عَمرُو بن عباسٍ قال: حدَّثنا ابنُ المَهديِّ قال: حدَّثنا مَنصورُ بنُ سَعْدٍ عن ميمونِ بنِ سِياهٍ عن أنَسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صلَّى صَلاتَنا، واستَقبَلَ قِبلَتَنا، وأَكلَ ذَبيحتَنا، فذلكَ المُسلِمُ الذي لـه ذِمَّـةُ اللهِ وذمـة رسولِه، فلا تُخفِروا اللهَ في ذِمَّتِه».(يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٢٦٠٠) حدثنا الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أخبرني ابنُ جُرَيْجٍ أخبرني أَبُو الزُّبَيْرِ أنَّ عَلِيًّا الأَزْدِيَّ أَخْبَرَهُ أنَّ ابنَ عُمَرَ عَلَّمَهُ، : « أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ إذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجاً إلى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاَثاً ثُمَّ قال: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإنَّا إلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هٰذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هٰذَا. اللَّهُمَّ اطْوِ لَنَا الْبُعْدَ. اللَّهُمَّ أنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ والْخَلِيفَةُ في الأهْلِ وَالمَالِ. وَإذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ. وكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَجُيُوشُهُ إذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا. وَإذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا، فَوُضِعَت الصَّلاَةُ عَلَى ذٰلِكَ».(يوسف عامر).

إن الاصطفاف وإطاعة القائد (الإمام) والمحبة والتعاون المتبادل لجميع الجنود (المصلين)، والحركة والقيام والقعود على صوت تكبيرة واحدة، تُعلّم المسلمين أوصاف الحرب، وتوقظ وتشحذ قواهم العملية، فلا يمكن بدون التوضؤ خمس مرات في البرد، والخروج من البيت إلى المسجد في الحر الشديد وقت الظهر، واقتطاع وقت من ملذات اللعب واللهو لذكر الله وقت العصر، والتضرع والابتهال إلى الله تعالى قبل النوم، والانشغال في حمد الله تعالى بعد ترك لذة النوم صباحاً وقت صلاة الفجر، لا يمكن بدون كل هذا ألاّ نبالي بالراحة والتعب الوهميين، ونولد داخلنا قوة العمل. ولن نفهم ضرورة أداء متطلبات الإحساس بالفرض وقت الحاجة للعمل، ونعود أنفسنا على تحمل الصعاب العارضة في سبيل ذلك. وكان يمكن أن يكون اجتماع كل مسلمي المدينة، أو القرية مرة واحدة في الأسبوع؛ لأداء صلاة الجمعة في تجمع واحد وقت الراحة التامة ليلاً أو نهارا، لكن حُدِّد لها وقت الظهر؛ حتى يعتاد المسلمون من هذا الاجتماع والتظاهر على الخصائص العسكرية. وسيشهد كل محافظ على صلاة الجمعة أن عادته هذه تساعده على مواجهة مشكلات الوقت.

١٠. **أن الهدف الحقيقي لكل العبادات بل لكل الأديان هو إتمام مكارم الأخلاق**: لكن أكبر وسيلة لإصلاح الأخلاق هي أن تكون النفس يقظة، ومستعدة دوما لقبول التأثير. والصلاة وحدها من بين كل العبادات هي التي يمكنها أن توقظ النفس، فالصوم والحج والزكاة ليسوا فروضًا على كل شخص، إضافة إلى أن الصوم يكون مرة واحدة في السنة، وهكذا تكون الزكاة أيضا. والحج يجب أداؤه في العمر مرة واحدة؛ لذا لا يمكن أن تكون هذه الفرائض وسيلة يومية ودائمة للتنبيه وإيقاظ النفس. على عكس هذا، تكون الصلاة خمس مرات، ويجب الوضوء لكل صلاة،

ويولد السجود والركوع والقيام والقعود والجهر والخفاء والتسبيح والتهليل والتكبير والتشهد في أركانها وأعمالها تنوعًا وتميزًا، فتتولد بهم في كل نفس صلاحية التأثر التدريجي، وتحذر النفس البشرية في كل أربع وعشرين ساعة، ويوقظ القلب الغافل. وهكذا تظل الصلاة تنبه النفس ليلاً ونهارا.

١١. **الألفة والمحبة:** الصلاة هي الوسيلة لخلق الألفة والمحبة المتبادلة بين المسلمين؛ فحين يجتمع كل مسلمي الحي أو البلد في مكان معين خمس مرات في اليوم، ويلتقي كل منهم بالآخر، فإن التباعد يزول من بينهم، وتتولد بينهم المحبة والألفة، وهكذا يكون كل منهم مستعد لمساعدة الآخر في كل حين، وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى صفة وأثر الصلاة فقال:

﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعًا﴾ (الروم: ٣١، ٣٢)

وضح من هذا أن التجمع للصلاة يحصن المسلمين من التفكك والتفرقة؛ لأنه حين يظل كل واحد منهم يلتقي بالآخر، فإن أي سوء فهم بينهم سيزول وينعدم.

١٢. **المواساة:** الأكثر من هذا أن الصلاة وسيلة للمواساة والتعاطف المتبادل بين المسلمين، فحين يلتقي الفقير والغني في مكان واحد، ويرى الأغنياء والفقراء بأعينهم، فسيتحرك جودهم، ويعلم كل منهم أوجاع أخيه، وتتولد بينهم حالة المواساة.

في بداية الإسلام كانت هناك جماعة تسمى أصحاب الصفة، والتي كانت أشد حاجة للمعونة، وكانت هذه الجماعة تعيش في المسجد، وكان الصحابة يرونهم حين يذهبون للمسجد، فتتولد لديهم تلقائياً عاطفة

المواساة: لذا كان أكثر الصحابة يأخذون أقناء التمر، ويعلقونها في المسجد، فتعيش عليها الجماعة، وكان الرسول ﷺ نفسه وأكثر الصحابة بعد الانتهاء من الصلاة يصطحبونهم لبيوتهم، ويطعمونهم، وكانت المساجد وقتها وسيلة للصدقات والتبرعات؛ لهذا السبب ذكرت الصلاة والزكاة مقرونتين في القرآن الكريم.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:٣)

١٣. **الاجتماع:** لما كان التجمع شيئًا غرائزيا؛ حددت كل الأمم أوقاتًا وأعيادا له، وحتى تلك الأمم التي يقال عنها إنها متحررة من القيود الدينية، تبدو فيها مظاهر هذا التجمع في النوادي والمؤتمرات والندوات والمجالس الأخرى. وبالرغم من أن هذا التجمع يقدم فائدة، فإنه يؤدى بالتأكيد إلى انعكاسات سلبية، فالتجمع يكون لعمل، ولو لم يكن العمل مفيدا، فسيصل للترف والرقص والسمر وشرب الخمر ولعب القمار والسرقة والاختلاس والفحش والحسد، بل سيصل لحد القتل والسلب. وقد كانت الأسواق والأفراح والأعياد والمواسم التي كانت عند مشركي العرب، وكذا التجمع غير الجائز على القبور، مراكزًا لارتكاب أسوأ الذنوب والمفاسد. فلو قضى الإسلامُ على هذه العادات الخطيرة دون أن يقدم بديلاً لها، فلن يكون هذا العلاج السلبي كافيًا أو مفيدًا؛ لذا كانت هناك حاجة لتجمع شعبي ينطفئ به العطش الفطري لقلب الإنسان، فيعقد اجتماع للخير بدلاً من الشر؛ لذا أقر الإسلام صلوات الجماعة يوميا، وصلاة الجمعة أسبوعيا، وصلاة العيدين سنويا؛ حتى تكتمل الحاجة الفطرية للتجمع، ويُبتعد عن مفاسد الشرك والنقائص الأخلاقية؛ لأن أساس اجتماع الإسلام مبني على الدعوة للخير. أما في الاجتماع الديني العالمي للحج، فقد عدّ من أهدافه ذكر الله والتوبة والإنابة، إضافة إلى

تحقيق أهداف ومنافع اجتماعية واقتصادية. وهكذا يقوم كل اجتماع للإسلام على أساس طهارة الفكر وإخلاص العمل.

١٤. **التنوع في الأعمال:** رغم أن فطرة الإنسان ثابتة، فإنها جبلت على طلب التفنن والتجدد؛ لأن قلب الإنسان وعقله وجوارحه لو ظلوا مشغولين بعمل واحد، فستفقد الطمأنينة والهدوء والراحة والسعادة التي تعقب أي عمل، وستتمرد الدنيا على أفضل الأعمال؛ لذا قسمت القدرة الأوقات بطريقة مفيدة، فتيسَّر للإنسان فرضا الحركة والسكون معا؛ لهذا عد اختلاف الليل والنهار آية من آيات الله؛ لأنه ينشأ من تعاقبهما تنوع في نظام الكون، فتظل لذة أعمال الإنسان موجودة وثابتة بسبب هذا التقسيم. والصلاة هي الفرض الذي لم يفرض على الإنسان كل لحظة، كما لم يفرض مرة واحدة في السنة ولا في العمر، بل يؤدى كل يوم خمس مرات، فإن بدأ العمل صباحاً، فإنه يتوقف ظهرا، ثم يستأنف حتى العصر، ثم ينهى ما بُدأ حتى المغرب، ثم تبدأ بعد ذلك المشاغل المنزلية، وتنتهي عند العشاء، ثم يكون النوم، ويستمر حتى الفجر، وبعد اليقظة يبدأ العمل من جديد مستهلا بالأدعية. والأغنياء الذين لا يحصلون على قوتهم بتعب ومشقة جسدية أو ذهنية، لا يعرفون لذة هذه الوقفة (الاستراحة)، فالإنسان الذي يمل من عبء مشقة عمل واحد يستمر لساعات، ينشط في بضع دقائق من القيام والقعود والتسبيح والذكر بعد غسل يديه ووجهه، ويولد من جديد قوة جديدة لعمله.

١٥. **التربية:** إن النجاح العملي للإنسان مرهون بالمداومة والثبات، فمواظبة الإنسان طيلة حياته على عمله الذي بدأه، يسمى رسوخا وثباتا للعادات والأخلاق وقوة الشخصية، والعمل الذي يُربى فيه رسوخ الخلق وقوة الشخصية، لابد له أن يكون عملاً يوميا، بل لابد أن يُصنع أكثر من

مرة في اليوم الواحد، والصلاة هي الفريضة التي يشترط لأدائها أن يكون لدى الإنسان ثبات ومواظبة ومداومة؛ لذا لا يمكن أن يكون هناك شيء أفضل من الصلاة لتكون وسيلة لخلق هذه الخاصية الأخلاقية في الإنسان، وقد قال القرآن الكريم في مدح الصحابة:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج:٢٣).

ويقول النبي (ﷺ): **"أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل"** (أبو داود، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة).[1]

١٦. **تنسيق الجماعة:** لا يمكن أن تقوم حياة أي أمة دون تنظيم الجماعة، فإن حُلّت هذه الرابطة، فإن شمل الأمة سيتفكك، ويتبعثر. وصلاة الجماعة في الإسلام هي المثال العملي لحياة المسلمين؛ فقد رسم النبي (ﷺ) خطة حياة العرب بعد أن قدّم لهم هذا المثال العملي، حين أشار إلى أن وقوف المسلمين صفاً صفاً، وكتفاً بكتف، وحركاتهم المتساوية أساس استحكام حياتهم اليومية وقوتها. وكما أن صحة الصلاة مرهونة بتسوية الصف، ونظام الجماعة، فحياة كل الأمة كذلك، مرهونة بالتعاون والتضامن والمشاركة والمودة والرحمة المتبادلة؛ لذا كان النبي (ﷺ) يؤكد تسوية الصف، فيقول:«لتُسَوُّنَّ صفوفَكم، أو ليُخالفَنَّ اللّهُ بينَ وُجوهِكم»[2].

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٣٦٩) حدثنا قُتَيْبَةُ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عن ابن عَجْلاَنَ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عنْ أبي سَلَمَةَ عنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ: «اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فإنَّ الله لاَ يَمَلُّ حَتى تَمَلُّوا، فَإنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إلى الله أَدْوَمُهُ وَإنْ قَلَّ، وكَانَ إذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ».(يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها. وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧٠٨) حدثنا أبو الوليدِ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ قال: حدَّثنا شعبةُ قال: أخبرَني عمرُو بنُ

١٧. **المساواة:** الصلاة درس للأخوة الإنسانية، والمساواة بين المسلمين أيضا؛ فلا يكون فيها تفريق بين غني وفقير، وأسود وأبيض ورومي، وحبشي وعربي وأعجمي؛ إذ يقف الجميع معا في درجة واحدة، وصف واحد، ساجدين لله تعالى. كذلك لا يشترط للإمام الحسب والنسب والعائلة، ولا اللون والقومية، والجنسية والمنصب، بل يشترط له العلم والتفقه، والفضل والكمال، والتقوى والطهارة، وهنا يكمن الفرق بين الحاكم والمحكوم، وبين الشريف والحقير، فيقف الجميع متكاتفين على أرض واحدة، خلف إمام واحد في صف واحد، ولا يستطيع أحد أن يزحزح الآخر عن مكانه. هذا الدرس للأخوة والمساواة الإنسانية يتكرر كل يوم خمس مرات، **فهل يوجد هذا النظام الديمقراطي الاجتماعي الإسلامي في أي مكان آخر؟.**

١٨. **الإطاعة:** لا يتحقق أمن الجماعة دون وجود إمام تجب طاعته، وتتحرك الأمة كلها بإشارته، وصلاة الجماعة هي إشارة للمسلمين لهذا الأمر، فكما أن لهم إماما في عبادتهم (الصلاة) يتحركون طبقاً لإشارته يجب أيضاً أن يكون هناك أمام للحياة العامة للأمة، ويكون نداء "الله أكبر" بمثابة صلصلة ودقات جرس لمسيرة الأمة.

ولأجل طاعة الإمام يجب أن تكون في الأمة قابلية الإطاعة، كما هو الحال عند المأمومين في الصلاة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب على الإمام أن يقدم مثالاً للأخلاق الفاضلة، يظل أمام أعين الناس دائما، والصلاة تجمع هذين الشيئين؛ فهي حركة دائمة، تعد أعضاء وجوارح الأمة للإطاعة في كل وقت. إضافة لهذا تكون إمامة الصلوات الخمس

مُرَّةً سمعتُ سالمَ بنَ أبي الجَعد قال: سمعتُ النُّعمانَ بنَ بشيرٍ يقول: قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لتُسَوُّنَّ صفوفَكم، أو ليُخالفَنَّ اللّهُ بينَ وُجوهِكم».(يوسف عامر).

والجمعة والعيدين حق لإمام بعينه؛ لأن الناس تحصي عليه أعماله، وتنتقده، وتتأثر به دائما. وأوقات الصلوات الخمس خاصة تكون فرصة لإظهار ذلك الشخص المترف المستريح وفضحه، وهو الذي يكون مشغولاً طيلة ليله في الترف، ولا يستطيع أن يشترك في صلاة الفجر، ولن يستطيع الشخص المحب للراحة أن يتحمل شدة حر الظهر، ويشترك في الجماعة؛ لذا حينما بدأ عصر بني أمية عقب عصر الخلفاء الراشدين، شعر به الصحابة بصفة خاصة، وأخذوا ينتقدونهم بكل جرأة، وقد أشير في أحاديث خاصة إلى هذا العصر، الذي ستغفل فيه الأئمة عن أداء الصلاة في وقتها.

١٩. **معيار الأفضلية**: لأنه لا يشترط في الإمامة أي شرط آخر غير العلم والفضل والتقوى؛ فإن الحصول عليه ميسرٌ لكل مسلم بصفة دائمة، وقد أمر النبي (ﷺ) بأن الأكثر قراءة هو المستحق للإمامة، وفي ذات مرة جاء بعض الناس من مكان ما للدخول في الإسلام، وبالسؤال عرف أن أصغرهم سناً هو أكثرهم حفظاً للقرآن؛ لذا عينه النبي (ﷺ) إماما لهم، المقصود من هذا أنه يتولد في الناس بسبب الصلاة والإمامة الرغبة والتطلع لتحصيل الفضائل العلمية والعملية.

٢٠. **اجتماع عمومي يومي**: كان العرف في عصر النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين حين تعترضهم حادثة مهمة، أو تواجههم مشكلة سياسية أو قومية، أو يعلن عن أي أمر ديني، أن ينادي في المسلمين: "**الصلاة جامعة**"[1]، فيتجمع الناس كلهم في الحال، ويُخبرون بهذا الأمر المهم، أو

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٠٣١) حدثنا إسحاقُ قال: أخبرنا يحيى بنُ صالحٍ قال: حدثنا مُعاويةُ بنُ سَلاّمِ بنِ أبي سلاّمٍ الحبَشيُّ الدِّمَشْقِيُّ قال: حدَّثنا يحيى بنُ أبي كثيرٍ قال: أخبرَني أبو سلَمةَ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ الزُّهريُّ عن عبدِ

يعرضون مشورتهم حوله. فكأن هذا التجمع هو وسيلة الحل السليم لقضايا المسلمين الدينية والاجتماعية والسياسية، وكان وجوده شيئاً ضروريا لكل مسلم دون تكاسل أو تهاون بسبب الصلاة.

وحين نتدبر في هذه الأمور، نجد أن الصلاة هي الشعار الأهم للإسلام، والمرآة للمقاصد الدينية والاجتماعية والحضارية والسياسية والأخلاقية؛ فبحضورها يجتمع شمل المسلمين، وبفك رباطها تنفك كل أربطة المسلمين وتجمعاتهم، فالمسجد هو مركز التجمع القوي للمسلمين، والصلاة رسم ضروري لهذا التجمع المركزي. وكما أن افتتاح كل جلسات اليوم تكون بالخطب الرئاسية لتحديد الهدف وإيضاحه، كانت الصلاة هي الافتتاح لكل مجالس المسلمين طيلة حياتهم، فيكون كل شيء بعدها تابعا لها، وكان مكان صلاتهم هو مكان دار إمارتهم، ومجلس مشورتهم، وبيت مالهم، وغرفة عملياتهم الحربية، ومكان عبادتهم.

إن كل رقي ونهضة للجماعة يكون أساسهما الترابط والتعاون المشترك بين الأفراد، ويشترط لتحقيق هذا أن يضحي كل فرد براحته ومصلحته الشخصية، ويترك الاختلاف بينه وبين الآخرين، وأن يجتمع على هدف واحد، ويذوب في وحدة الجماعة متى تتحقق فائدة الجماعة، لأجل هذا يجب تعيين شخصٍ ما إماما وقائداً للجند، ويتعهد الجنود بطاعته والامتثال لأوامره. والصلاة في الإسلام جامعة لكل هذه الإسرار والرموز؛ إذ إنها تلقن المسلمين درس التعاون والاجتماع والإطاعة والاتحاد كل يوم خمس مرات؛ لهذا لا يكون المسلم مسلما بدونها ولا تتحقق وحدة الجماعة إلا بها، وبدونها لا يكون انقياد للأمة، ولا حياة ولا هدف. لكل هذا قال النبي (ﷺ):

الله بنِ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهما قال: لما كسَفَتِ الشمسُ عَلَى عهدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُودِيَ: إنَّ الصلاةَ جامِعةٌ».(يوسف عامر).

"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر". (أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه)[١].

فبترك الصلاة يصبح المسلم قالباً بلا روح، وشرابًا بلا نشوة، ووردةً بلا لون ورائحة، ثم يفقد شيئا فشيئا ميزة وشعارا من مميزات وشعائر المجتمع الإسلامي، لذا فالصلاة هي الشعار الأول للإسلام، وبها يتحقق الإسلام.

التحول المعنوي التام للعرب

العرب الذين كانوا لا يعرفون عبادة الله، ولم تخر جباههم إطلاقاً لله، ولم تعرف قلوبهم لذة عبادته، ولم يجرب لسانهم طعم تسبيحه وحمده، ولم ترى أعينهم المنظر المؤثر ليقظة الليل، ولم تعمر قلوبهم بإحساس الطمأنينة الإلهية. ماذا جرى لهم فجأة من تعليم النبي ﷺ ؟ لقد أصبحت عبادة الله كل هدفهم، ولم يطلبوا شيئاً غير الإخلاص من أعمالهم، ولم ترد جباههم بعد أن سجدت لله أن تنهض ثانية، ولم تعجب قلوبهم بعد ذلك أية لذة دنيوية، ولم يذق لسانهم طعما أحسن من الإيمان، ولم تر أعينهم مشهداً آخر غيره، ولم تطمئن قلوبهم لأي شيء سوى ذكر الله.

أولئك هم العرب الذين كانوا ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء:١٤٢).

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٢٥٥٥) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا علي بن الحسن ــ يعني ابن شقيق ــ حدثنا الحسين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر». (يوسف عامر).

وأثرت دعوة الحق وفيض النبوة وبركتها فيهم إلى أن اتصفوا بصفة رجال لا تلهيهم مشاغل الحياة عن ذكر الله. يقول الله تعالى:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور:٣٧)

كانت قلوبهم في كل حال – من قيام وقعود ومشي وترحال وغير ذلك – ذاكرة لله تعالى:

﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:١٩١).

كانت – حين تنام الدنيا كلها ليلاً – تتجافى جنوبهم عن المضاجع ساجدين لله تعالى مشغولين بعبادته:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ **(السجدة:١٦)**

أولئك هم الذين كانوا قبل ذلك

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ (المرسلات:٤٨).

الآن أصبحوا:

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ (الفتح:٢٩).

أولئك الذين كانت قلوبهم:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾(الزمر:٤٥).

ولّد إشراق شمس النبوة في تلك الوجوه المكدرة (الغابرة) جوهر خشية الله:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال:٢ – والحج:٣٥).

تلك هي شهادة القرآن الكريم نفسه، التي يتضح منها مدى التحول والانقلاب الذي أحدثه عمل النبي (ﷺ)وتعليمه في عالم أرواح العرب، فكل الناس الذين اعتنقوا الإسلام، لم تكن أعمالهم تلهيهم عن ذكر الله سواء أكانوا يعملون بالزراعة أو بالتجارة أو بالأعمال الشاقة. يقول قتادة كان هؤلاء

الناس (الصحابة) يبيعون ويشترون ويتاجرون، ولكن عندما كان يحين أي فرض لله، لم تكن أعمالهم تلهيهم أو تشغلهم عن أداء هذا الفرض، فكانوا يؤدونه كاملاً"[1]. ويقول ابن عمر رضي الله عنهما إنه كان ذات مرة في السوق، ونودي للصلاة، فرأى أن الصحابة قد أغلقوا المحلات على الفور، ودخلوا المسجد"[2]. وكان الصحابة يقضون ليالٍ كاملة ساهرين في ذكر الله تعالى، حتى إنهم كانوا يشتغلون بالعبادة في الليالي غير الآمنة في مكة أيضاً. وقد شهد الله تعالى بهذا فقال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل:٢٠)

في ذاك الزمن لم تكن تتيسر للصحابة فرصة لذكر الله تعالى إلا في الليل، فكانوا يجتمعون ليلاً في أي مكان آمن بعد انتظار طويل لذكر الله طيلة اليوم، وهناك يخرون بشوق كامل لله تعالى ساجدين، وكانوا يطيلون – كثيرا – في السجود، وكان رسول الله (ﷺ) يتجول، ويرى طريقة عبادتهم الشيقة هذه، وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد بالألفاظ الآتية:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (الشعراء:٢١٧-٢١٩).

وكانت أول فقرة قالها النبي (ﷺ) بعد هجرته للمدينة هي:

"يا أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام" (الترمذي)[3].

---

[1] صحيح البخاري، باب التجارة في البز. مرسلا.

[2] فتح الباري، ج، ٤ ص ٢٥٣، أخذاً من عبد الرازق.

[3] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٥٣٤) حَدَّثَنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ وَ مُحمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ وَ ابنُ أَبِي عَدِيٍّ وَ يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ، عنْ عَوْفِ بنِ أَبِي جَمِيلَةَ الأعرابي عن زُرَارَةَ بنِ أَوْفَى عن عَبْدِ الله بنِ سَلاَمٍ. قَالَ: «لَمَّا

وقد نفذ لبعض الصحابة هذا الأمر بشدة، لدرجة أنهم تركوا نوم الليل؛ لذا اضطر النبي (ﷺ) في نهاية الأمر إلى أمر هؤلاء الناس بالوسطية والاعتدال؛ لهذا كان سيدنا عثمان بن مظعون يظل طوال الليل مشغولاً في الصلاة، فقال النبي (ﷺ): "... يَاعُثْمَانَ، فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ» [1]. ويقول سيدنا ابن عباس:" كان الصحابة يقومون ليلاً للصلاة وكانوا قليلا من الليل ما يهجعون"[2]. وكان أبو هريرة قد قسم الليل إلى ثلاثة أثلاث: ثلث يصلي فيه هو، وثلث لزوجته، والثلث الأخير لغلامه. فكان كل واحد من الثلاثة يوقظ

قَدِمَ رَسُولُ الله، يَعْنِي المَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ الله فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ الله عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُو السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ».

قال أَبُو عِيسَى: هَذَا حديثٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

[1] أبو داود، باب القصر في الصلاة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (١٣٧٠) حدثنا عُبَيْدُ الله بنُ سَعدٍ أخبَرَنَا عَمِّي أخبَرَنَا أبي عن ابن إسْحَاقَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عنْ أبيه عنْ عَائِشَةَ، : «أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ يَا عُثْمَانُ أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ لاَ وَالله يا رَسُولَ الله، ولَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قَالَ فإني أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ الله يَا عُثْمَانَ، فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ». (يوسف عامر).

[2] أبو داود، كتاب الصلاة، في وقت قيام النبي ﷺ من الليل. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٣٢٢) حدثنا مُحمَّدُ بنُ المثَنَّى أخبرنا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ وَ ابنُ أبي عَدِيٍّ عنْ سعيدٍ عنْ قَتَادَةَ عنْ أَنَسٍ، في قَوْله: {كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} قالَ: «كَانُوا يُصَلُّونَ فِيما بَيْنَ المَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» زَادَ في حَدِيثِ يَحْيَى وَكَذَلِكَ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ}. (يوسف عامر).

الآخر بالتناوب[١] وكان سيدنا ابن عمر يقضي الليل بطوله في الصلاة، وحين علم النبي (ﷺ) بذلك ذهب إليه وأرشده[٢]. وهكذا كان حال الصحابي أبي الدرداء، فكان يقضي الليل كله في الصلاة، وكان سيدنا سلمان الفارسي أخيه في الإسلام ذاهب إليه ذات ليلة للضيافة، فلما قام سيدنا أبو الدرداء للعبادة ليلا منعه سيدنا سلمان، وحين عمّ الصمت في الثلث الأخير من الليل، أيقظه وقال له: الآن وقت الصلاة[٣]، ولم يكن هناك صحابي قد تأخر عن وقت الصلاة قاصدا، فقد كانوا لا يغفلون عن هذا الفرض حتى في أوقات القتال والخطر، فقد أرسل النبي أحد الصحابة للقيام بعمل تحفه المخاطر، فلما وصل الصحابي قرب المكان المقصود كان وقت الصلاة، فخشي أن ينتظر حتى يصلي العصر، فيضيع الوقت، وخشى أن يؤخر العصر، فيتأخر في تنفيذ أمر الله. لكنه حل المشكلة بأن صلى بالإشارة وهو ماشٍ[٤]؛ أي أن

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الخشف.

[٢] صحيح البخاري، كتاب الصوم.

[٣] المرجع السابق. (١٩٤٥) حدثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ حدَّثَنا جَعفرُ بنُ عَونٍ حدَّثَنا أبو العُمَيسِ عن عَونِ بنِ أبي جُحَيفةَ عن أبيهِ قال: «آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ سَلْمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلْمانُ أبا الدَّرْداءِ، فرأى أمَّ الدَّرداءِ متَبَذِّلَةً فقال لها: ماشأنُكِ؟ قالت: أخوكَ أبو الدَّرداءِ ليسَ لهُ حاجةٌ في الدُّنيا. فجاءَ أبو الدَّرداءِ فصنَعَ لهُ طَعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكلٍ حتى تأْكُلَ. قال: فأَكلَ. فلمّا كان الليلُ ذَهبَ أبو الدرداءِ يقومُ، قال: نَمْ، فنام. ثم ذَهبَ يقومُ، فقال: نَمْ. فلمّا كانَ من آخرِ الليلِ قال سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فصلَّيا. فقال له سَلمانُ: إنَّ لربِّك عليكَ حقاً، ولنفسِكَ عليكَ حقاً ولأهلِكَ عليكَ حقاً فأعْطِ كلَّ ذي حَقِّ حقَّه. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذَكرَ ذلكَ له: فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: صَدَقَ سَلْمانُ». (يوسف عامر).

[٤] أبو داود، باب الصلاة الطالب. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٢٤٩) حدثنا أَبُو مَعْمَرٍ عَبْدُ الله بنُ عَمْرٍو أخبرنا عَبْدُ الْوَارِثِ أخبرنا مُحمَّدُ بنُ إسْحَاقَ عن مُحمَّدِ بن جَعْفَرٍ عن ابنِ عَبْدِ الله بنِ أُنَيْسٍ عن أَبِيهِ، قال: «بَعَثَنِي رسولُ

الصلاة لم تكن تترك حتى في أوقات الشدة، لدرجة أنهم كانوا يساندون بعضهم في حالة المرض، ويذهبون للمسجد[1]، ثم يصلون في خشوع وخضوع ووله واستغراق في الصلاة بشكل مؤثر للغاية، وكان سيدنا أبو بكر حين يقوم للصلاة، يبكي بكاءً شديدًا، لدرجة أن بكاءه كان يؤثر في النساء والأطفال الكفار[2]، وكان سيدنا عمر يبكي في الصلاة بكاءً شديدًا يسمعه من

الله صلى الله عليه وسلم إلى خَالِدِ بنِ سُفْيَانَ الْهُذَلِيِّ ـ وكَانَ نَحْوَ عُرَنَةَ وَعَرَفَاتٍ ـ فقال: اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ. قال: فَرَأَيْتُهُ، وَحَضَرَتْ صلاةُ الْعَصْرِ فَقُلْتُ: إِنِّي لأَخَافُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا إِنْ أُؤَخِّرَ الصَّلاَةَ، فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي وَأَنَا أُصَلِّي أُومِيءِ إِيْمَاءً نَحْوَهُ، فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنْهُ قال لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَجْمَعُ لِهَـذَا الرَّجُلِ فَجِئْتُكَ في ذَاكَ. قال: إِنِّي لَفِي ذَاكَ. فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً حتَّى إذا أَمْكَنَنِي عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي حتَّى بَرَدَ». (يوسف عامر).

[1] النسائي، كتاب الإمامة، باب المحافظة على الصلاة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن النسائي: (٨٤٧) أَخْبَرَنَا سُوَيْدُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ: أخبرنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنِ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الأَقْمَرِ عَنْ أَبِـي الأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، : «أَنَّـهُ كَـانَ يَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَدا مُسلِما فَلْيُحَافِظْ عَلَـى هَـؤُلاَءِ الـصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَرَعَ لِنَبِـيِّهِ صلى الله عليه وسـلم سُـنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَإِنِّي لاَ أَحْسَبُ مِنْكُمْ أَحَدا إِلاَّ لَهُ مَسْجِدٌ يُصَلِّي فِيهِ فِـي بَـيْتِهِ فَلَوْ صَلَّيْتُمْ فِي بُـيُوتِكُمْ وَتَرَكْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِـيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُـنَّةَ نَبِـيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَمْشِي إِلَى صَـلاَةٍ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً أَوْ يَرْفَعُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً أَوْ يُكَفِّرُ عَنْـهُ بِهَا خَطِيئَةً وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نُقَارِبُ بَـيْنَ الْخُطَا وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَـا إِلاَّ مُنَـافِقٌ مَعْلُومٌ نِفَاقُهُ وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَـيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ». (يوسـف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا بكى الإمام في الصلاة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٧٠٧) حدثنا إسماعيلُ قال: حدَّثنا مالكُ بنُ أَنَسٍ عن هِشامِ بن عُروةَ عن أبيه عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ «أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم

فى الصف الأخير[١]. وذات ليلة قام سيدنا تميم الداري لصلاة التهجد، فأصبح وهو لا يتلو إلا آية واحدة كان يكررها ويستمتع بها[٢]. يقول الشاعر:

يصير الليل صباحا وأشاهد نفس الظلام

وكان سيدنا أنس يمكث في القيام من السجود، لدرجة أن الناس كانت تعتقد أن شيئا قد نسي[٣]، وكان سيدنا عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهمـا) حين يقوم للصلاة يقرأ سورا عديدة، ويقف وكأنه عمود لا يتحـرك، وحـين يسجد يمكث في السجود لدرجة أن حمام الحرم كانت تعتقده شـيئا جامـدا، فتقف على ظهره[٤].

قال في مرضه: مُروا أبا بكرٍ يُصلِّي بالناسِ. قالت عائشةُ: قلتُ إنَّ أبا بكرٍ إذا قامَ في مَقامِكَ لم يُسمعِ الناسَ منَ البُكاءِ فمُرْ عمرَ فلْيُصلِّ. فقال: مُروا أبا بكرٍ فلْيُصلِّ للناسِ. قالت عائشةُ لحفصةَ: قولي له إنَّ أبا بكرٍ إذا قام في مَقامِكَ لم يُسمعِ الناسَ منِ البكاءِ، فمرْ عمرَ فليُصلِّ للناسِ. ففعلت حفصةُ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَـهْ، إنَّكنَّ لأنتُنَّ صَواحِبُ يوسُفَ، مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ للناس. قالت حفصةُ لعائـشةَ: مـا كنتُ لأُصيبَ منكِ خيراً». (يوسف عامر).

[١] صحيح البخاري، كتاب الهجرة وكتاب الصلاة، باب المسجد يكون في الطريق.

[٢] أسد الغابة، ذكر سيدنا تميم الداري.

[٣] صحيح البخاري، باب المكث بين السجدتين. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٨١٢) حدثنا سُليمانُ بنُ حَربٍ قال: حدَّثنا حَمّادُ بنُ زيدٍ عن ثابتٍ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «إني لا آلو أن أُصلِّيَ بكم كما رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يصلِّي بنا ــ قال ثابتٌ: كان أنسٌ يَصنَعُ شيئاً لم أَركم تَصنعونَهُ ــ كان إذا رَفعَ رأسَهُ منَ الرُكوعِ قامَ حتى يقولَ القائلُ قد نَسِيَ، وَبينَ السَّجدَتَينِ حتـى يقـولَ القائـلُ قـد نَسِيَ». (يوسف، عامر).

[٤] حال عبد الله بن الزبيرﷺ، الإصابة وأسد الغابة وغير ذلك. ورد هذا الكلام عن عبد الله بن الزبيرﷺ في الإصابة في تمييز الصحابة: عبد الله بن الزبير بن العـوام بـن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي الأسدي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولـد

عام الهجرة، وحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وعن أبي بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وسفيان بن أبي زهير وغيرهم، وهو أحد العبادلة، وأحد الشجعان من الصحابة، وأحد من ولي الخلافة منهم، يكنى أبا بكر، ثم قيل له أبو خبيب بولده، روى عنه أخوه عروة وابناه عامر وعباد وابن أخيه محمد بن عروة وأبو ذبيان خليفة بن كعب وعبيدة بن عمرو السلماني وعطاء وطاوس وعمرو بن دينار ووهب بن كيسان وابن أبي مليكة وسماك بن حرب وأبو الزبير وثابت البناني وآخرون، وبويع بالخلافة سنه أربع وستين عقب موت يزيد بن معاوية، ولم يتخلف عنه إلا بعض أهل الشام، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة، وحنكه النبي صلى الله عليه وسلم، وسماه باسم جده، وكناه بكنيته. وزعم الواقدي أنه ولد في السنة الثانية، والأصح الأول، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال سمعت أصحابنا يقولون، ولد سنة الهجرة وأتاه النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي ولد فيه يمشي، وكانت أسماء مع أبيها بالسنح، فأتى به فحنكه. قال الزبير والثبت عندنا أنه ولد بقباء، وإنما سكن أبوه السنح لما تزوج مليكة بنت خارجة بن زيد. قال الواقدي ومن تبعه ولد في شوال سنة اثنتين، ووقع في الصحيح من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة، ونزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فيه، فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي صلى الله عليه وسلم، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام. لفظ أحمد في مسنده، وقد وقع في صحيح البخاري أن الزبير كان بالشام لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه قدم المدينة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فكساه ثوبا أبيض، وإذا كان كذلك فمتى حملت أسماء منه بعد ذلك، بل الذي يدل عليه الخبر أنها حملت منه قبل أن يسافر إلى الشام، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وتبعه أصحابه أرسالا خرجت أسماء بنت أبي بكر بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم بأشهر. فإن كان قدومها في شوال محفوظا، فتكون سنة إحدى، وقد وقع في بعض طرق الحديث أن عبد الله بن الزبير جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعه وهو ابن سبع سنين أو

ثمان، كما أخرجه ابن منده من طريق عبد الله بن محمد بن عروة حدثني هشام بن عروة عن أبيه قال: خرجت أسماء حين هاجرت وهي حامل، قالت: فنفست به، فأتيته به ليحنكه، فأخذه فوضعه في حجره، وأتى بتمرة، فمصها ثم مضغها في فيه فحنكه، فكان أول شيء دخل بطنه ريق النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مسحه، وسماه عبد الله، ثم جاء بعد وهو ابن سبع أو ثمان؛ ليبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه، وبايعه، وكان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وكان يهود تقول قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد، فكبر الصحابة حين ولد، وقد قال الزبير بن بكار حدثني عمي مصعب سمعت أصحابنا يقولون ولد عبد الله بن الزبير سنة الهجرة. وأما ما رواه البغوي في الجعديات من طريق إسماعيل عن أبي إسحاق عمن حدثه عن أبي بكر أنه طاف بعبد الله بن الزبير في خرقة، وهو أول مولود ولد في الإسلام، فقد ذكر ابن سعد أن الواقدي أنكره، وقال: هذا غلط بين، فلا اختلاف بين المسلمين إنه أول مولود ولد بعد الهجرة ومكة يومئذ حرب لم يدخلها النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ، ولا أحد من المسلمين، قلت: يحتمل أن يكون المراد بقوله طاف به من مكان إلى مكان، وإلا فالذي قاله الواقدي متجه، ولم يدخل أبو بكر مكة من حين هاجر إلا مع النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية، ولم يكن ابن الزبير معه، وفي الرسالة للشافعي إن عبد الله بن الزبير كان له عند موت النبي صلى الله عليه وسلم تسع سنين، وقد حفظ عنه، وقال الدينوري في المجالسة: حدثنا إبراهيم بن يزيد حدثنا أبو غسان حدثنا محمد بن يحيى أخبرني مصعب بن عثمان قال: قال عبد الله بن الزبير: هاجرت وأنا في بطن أمي، وأخرج الزبير من طريق مسلم بن عبد الله بن عروة بن الزبير عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم في غلمة من قريش ترعرعوا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرو بن أبي سلمة، فقيل لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر فأتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا فاقتحم عبد الله بن الزبير أولهم، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إنه بن أبيه ومن طريق عبد الله بن مصعب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع أبناء المهاجرين والأنصار الذين ولدوا في الإسلام حتى ترعرعوا فوقفوا بين يديه فبايعهم وجلس لهم فجمع منهم بن الزبير وأخرج البخاري في ترجمة

عبد الله بن معاوية عن عاصي بن الزبير إنه روي عن هشام بن عروة عن أبيه أن الزبير قال لابنه عبد الله: أنت أشبه الناس بأبي بكر. وأخرج أبو يعلى والبيهقي في الدلائل من طريق هنيد بن القاسم سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم فلم فرغ قال يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد إلى الدم فشربه فلم رجع قال يا عبد الله ما صنعت بالدم قال جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفي عن الناس قال لعلك شربته قال نعم قال ولم شربت الدم ويل للناس منك وويل لك من الناس قال أبو موسى قال أبو عاصم فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم وله شاهد من طريق كيسان مولى ابن الزبير عن سلمان الفارسي رويناه في جزء الغطريف وزاد في آخره لا تمسك النار إلا تحلة القسم وأخرج عن أسماء بنت أبي بكر في معجم البغوي وفي البخاري عن بن عباس أنه وصف ابن الزبير فقال عفيف الإسلام قارئ القرآن أبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه بنت الصديق وجدته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمة أبيه خديجة بنت خويلد وقال بن أبي خيثمة حدثنا أحمد بن يونس حدثنا الزنجي بن خالد عن عمرو بن دينار قال ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير

وأخرج أبو نعيم بسند صحيح عن مجاهد كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود وقال بن سعد حدثنا روح حدثنا حسين الشهيد عن بن أبي مليكة كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام ثم يصبح اليوم الثامن وهو إلينا وأخرج البغوي من طريق ميمون بن مهران رأيت بن الزبير واصل من الجمعة إلى الجمعة وأخرج بن أبي الدنيا من طريق ليث عن مجاهد ما كان باب من العبادة إلا تكلفه ابن الزبير ولقد جاء سيل بالبيت فرأيت بن الزبير يطوف سباحة وشهد ابن زبير اليرموك مع أبيه الزبير وشهد فتح إفريقية وكان البشير بالفتح إلى عثمان ذكره الزبير وابن عائذ واقتص الزبير قصة الفتح وأن الفتح كان على يديه وشهد الدار وكان يقاتل عن عثمان ثم شهد الجمل مع عائشة وكان على الرجالة قال الزبير حدثني يحيى بن معين عن هشام بن يوسف عن معمر أخبرني هشام بن عروة قال أخذ عبد الله بن الزبير من وسط القتلى يوم الجمل وفيه بضع وأربعون جراحة فأعطت عائشة البشير الذي بشرها بأنه لم يمت

وفي ذات ليلة عُيّن صحابيان للحراسة على قمة جبل في ساحة القتال، فكان أحدهما ينام، ويقوم الآخر للصلاة. وإذا بأحد الأعداء يرصده، ويطلق عليه سهما يدخل جسده، وتغرق ثيابه في الدماء، ولكنه مع كل هذا يظل مستغرقاً في صلاته حتى أنهاها، ثم أيقظ صاحبه، وأخبره بما جرى، فيقول له صديقه: لماذا لم توقظني وقتها؟ فيقول له: كنت قد بدأت تلاوة سورة أحبها، ولم أرد أن أقطع الصلاة دون أن أنهيها[1].

عشرة آلاف ثم اعتزل ابن الزبير حروب علي ومعاوية ثم بايع لمعاوية فلما أراد أن يبايع ليزيد امتنع وتحول إلى مكة وعاد بالحرم فأرسل إليه يزيد سليمان أن يبايع له فأبى ولقب نفسه عائذ الله فلما كانت وقعة الحرة وفتك أهل الشام بأهل المدينة ثم تحولوا إلى مكة فقاتلوا ابن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار ففجعهم الخبر بموت يزيد بن معاوية فتوادعوا ورجع أهل الشام وبايع الناس عبد الله بن الزبير بالخلافة وأرسل إلى أهل الأمصار يبايعهم إلا بعض أهل الشام فسار مروان فغلب على بقية الشام ثم على مصر ثم مات فقام عبد الملك بن مروان فغلب على العراق وقتل مصعب بن الزبير ثم جهز الحجاج إلى بن الزبير فقاتله إلى أن قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وهذا هو المحفوظ وهو قول الجمهور وعند البغوي عن ابن وهب عن مالك أنه قتل على رأس اثنتين وستين وكأنه أراد بعد انقضائها. (يوسف عامر).

[1] أبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من الدم. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود:(١٩٨) حدثنا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ قال حدثنا ابن المُبَارَكِ عن مُحمَّد بنِ إسْحَاقَ قال حَدَّثَنِي صَدَقَةُ بنُ يَسَارٍ عن عَقِيلِ بنِ جَابِرٍ عن جَابِرٍ، قال «خَرَجْنَا مَعَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ يَعْنِي في غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ فأَصَابَ رَجُلٌ امْرَأَةَ رَجُلٍ منَ المُشْرِكِينَ، فَحَلَفَ أنْ لاَ أنْتَهِي حَتَّى أُهْرِيقَ دَماً في أصْحَابِ مُحمَّد، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أثَرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم فنَزَلَ النَّبي صلى الله عليه وسلم مَنْزِلاً، فقال: مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا، فَانْتَدَبَ رَجُلٌ منَ المُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ منَ الأنْصَارِ فقال: كُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ. قال: فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلاَنِ إلَى فَمِ الشِّعْبِ اضْطَجَعَ المُهَاجِرِيُّ وَقَامَ

والمشهد الأكثر تأثيرا من هذا هو أن صفوف الأعداء تقف في المواجهة، وتمطر السهام، وتبرق السيوف والرماح في كل صوب، وتقطع الرؤوس والأعناق والأيدي والأذرع، وفجأة يحين وقت الصلاة، فتصبح صفوف القتال صفوف صلاة على الفور، فيركعوا ويقوموا مع صوت واحد هو الله أكبر غير مبالين بالموت أو بالحياة، ويقف فجر النور ومركز دائرة الإسلام سيدنا الفاروق إمامًا في الصلاة، ويصطف الصحابة من خلفه، وفجأة يتقدم أحد الأشقياء وبيده خنجر، ويهجم على الخليفة ﷺ، ويمزق بطنه، فيسقط ﷺ مغشيا عليه، وتسيل الدماء منه كالنافورة منه، ويحدث كل شيء والصفوف قائمة ثابتة في مكانها، ويتقدم سيدنا عبد الرحمن بن عوف ليؤم الناس، وتؤدى ركعتا الفجر أولاً، ثم يحمل الخليفة بعد ذلك[١].

وفي الفجر التالي للفجر الذي جرح فيه سيدنا عمر تأتي الناس، وتوقظه للصلاة؛ فيقول: نعم لا نصيب في الإسلام لمن يترك الصلاة، وقام وصلى رغم أن الدم ينزف ويسيل منه[٢].

الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي وَأَتَى الرَّجُلُ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَهُ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةٌ لِلْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ حَتَّى رَمَاهُ بِثَلاَثَةِ أَسْهُمٍ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ انْتَبَهَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ هَرَبَ: فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالأَنْصَارِيِّ مِنَ الدَّمِ قَالَ: سُبْحَانَ الله أَلا أَنْبَهْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَى؟ قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا». (يوسف عامر).

[١] صحيح البخاري، واقعة شهادة عمر ﷺ.

[٢] موطأ الإمام مالك، كتاب الصلاة، باب العمل فيمن غلب عليه الدم. وهذا نص الحديث كما ورد في الموطأ: (٨١) حدَّثني يَحْيَى، عَنْ مَالِك، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيه، أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي طُعِنَ فِيهَا، فَأَيْقَظَ عُمَرَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ، وَلاَ حَظَّ فِي الإِسْلاَمِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ، فَصَلَّى عُمَرُ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَماً. (يوسف عامر).

وبينما يدخل سيدنا علي ﷺ المسجد لأداء صلاة الفجر، – أو وهو ﷺ في صلاة الفجر فعلاً – [1] يضربه ابن ملجم بسيفه، وبعد قليل قال علي ﷺ لملك الموت: لبيك. ويتقدم الإمام المظلوم الحسين بن علي في ساحة كربلاء، ويشاهد جثث أقاربه وأصدقائه ملقية أمـــام عينيـــه فـــي ســـاحة المعركـــة، ويحاصره آلاف الأشقياء، وإذا بوقت الظهر يحين، فيطلب منهم أن يمهلـــوه حتى يستطيع أن يصلي الظهر[٢].

لقد قدمت الصحابة هذه النماذج للخشوع والخضوع في الصلاة، فكانوا يضحون حتى بأغلى الأشياء إن وقع بسببها خلل في خشوعهم.

فقد كان سيدنا أبو طلحة الأنصاري جالسا في حديقته، فجاء أمامه بلبل وأخذ يغرد، وظل سيدنا أبو طلحة ينظر هنا وهناك، وحين صلى نسى ركعة، فقال في نفسه: لقد أحدثت هذه الحديقة فتنة، ثم ذهب لرسول الله (ﷺ) وروى له القصة، وقال: يا رسول الله! هذه الحديقة نذر في سبيل الله.

وكان أحد الصحابة – أيضاً – مشغولاً في الصلاة في حديقته، وكانت الحديقة في ذاك الوقت تعج بالفواكه والثمار اليانعة، فلما نظر إليهـــا انـــشغل عن الصلاة، فلما تذكرها، ندم من داخله؛ لأن مال الدنيا وثروتها شغلاه بها. وكان هذا زمن خلافة سيدنا عثمان، فذهب إليه، وقال: إننـــي وهبـــت هـــذه الحديقة التي فتنتني في سبيل الله، فاشتراها سيدنا عثمان من بيت المال، ودفع فيها خمسين ألفا[٣].

---

[١] الرياض النضرة، للمحب الطبري.

[٢] تاريخ الطبري الكبير، صـــ ٣٤٧، أحداث سنة ٦١ هـــ.

[٣] ذكرت هاتان الواقعتان في موطأ الإمام مالك في كتاب الصلاة باب ما يشغلك عنها.

الزكاة

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة:٤٣)

حقيقة الزكاة ومفهومها

الزكاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، الذي يأتي بعد الصلاة، والتي هي الصلة بين العبد وربه، ومن أكبر فوائد الزكاة قيام نظام جماعي؛ فهي تعني مساعدة الناس بعضهم لبعض، ومن أهم فوائدها توفير ثروة نقدية لقيام نظام الجماعة. والاسم الثاني للزكاة هو الصدقة التي تطلق - أيضاً - على كل حسنة، أو مساعدة مالية، أو بدنية على وجه العموم. أما الزكاة فلا تطلق في الاصطلاح الفقهي إلا على المساندة والمساعدة بالمال، التي تجب على كل مسلم يملك مقدارا معينا من المال.

الزكاة في الأديان السابقة

الزكاة واحدة من تلك العبادات التي ورد ذكر فرضها في كل الكتب السماوية، ولكن علماء هذه الأديان كانوا قد نسوا هذه الفريضة، لدرجة أننا لا نرى حتى اسمها في فهارس فروضهم الدينية. ومع أن القرآن الكريم قال - وأيدته في ذلك كل الكتب السماوية -، إن الزكاة كانت كالصلاة ركن أساسي في كل الأديان السماوية؛ إذ ذكرت الصلاة والزكاة مقترنتين في العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل حين قال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة:٤٣)

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ (المائدة:١٢)

وقال في ذكر سيدنا إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِياً﴾ (مريم:٥٤، ٥٥).

ويقول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾ (مريم:٣١). ويتضح من التوراة أنه كان واجبا على بني إسرائيل إخراج العشر من حصاد الأرض ونتاج الماشية. (الأخبار ٢٧ – ٣٠ – ٣٢). ويتضح أيضا أنه يجب إخراج نصف المثقال على كل من تجاوز العشرين عاماً، غنياً كان أم فقيراً. (الخروج ٣٠ – ١٣ – ١٥)[1] وإنهم كانوا يخرجون وقت الحصاد شيئاً من الحبوب والثمار التي تنبت بلا رعاية، وكانت هذه هي الزكاة، التي كانت واجبة الأداء كل ثلاث سنوات، فكانت تجمع مبالغها في خزائن بيت المقدس، ويأخذ منها الرهبان ستين جزءًا، ويأخذ أولاد سيدنا هارون لكونهم كهان عشرها، ويوضع عشرها كل ثلاث سنوات لضيافة حجاج بيت المقدس، ومن هذا المد كان الطعام يطهى ويقسم على عامة المسافرين والفقراء واليتامى والأرامل[2]. أما مبلغ زكاة نصف المثقال النقدية، فكان يبقى لينفق منه على

---

[1] ورد النص هكذا في التوراة: "هذا ما يعطيه كل من اجتاز إلى المعدودين نصف الشاقل بشاقل القدس.الشاقل هو عشرون جيرة. نصف الشاقل تقدمه للرب* كل من اجتاز إلى المعددوين من ابن عشرين سنة فصاعدا يعطي تقدمة للرب* الغنى لا يكثر والفقير لا يقلل عن نصف الشاقل حين تعطون تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم".(العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٣٠، الفقرات من ١٣-١٥، ص١٣٧). (يوسف عامر).

[2] دائرة المعارف طبعة بريطانيا الحادية عشرة. مقالة الصدقات باب الصدقات عند اليهود.

خيمة الاجتماع (مسجد بيت المقدس) ولشراء الأضاحي ومستلزماتها[1].... ولم يُضدّل سيدنا عيسى على الإطلاق في تلك القواعد الظاهرية لشريعة سيدنا موسى بل أكدها، ففي إنجيل لوقا (١٨ – ١٠) "إن النادم على ذنبه أفضل ممن يُخرج عشر زكاته رياءً وتظاهرًا وسمعة"[2] والفقرة الأولى من الباب الواحد والعشرين من إنجيل لوقا تقول: "لو يخرج أي غني مبلغاً كبيرا من زكاته في خزانة الهيكل وفي مقابل هذا تخرج أي أرملة فقيرة أقل القليل بقلب خالص. فإن زكاتها ستكون أفضل كثيرا من زكاة ذلك الفتى"[3]

وقد رغب سيدنا عيسى عليه السلام الناس في أن يزكوا بما عندهم في سبيل الله تعالى فقال: "إن ولوج الجمل في سم الخياط أسهل من دخول الغني

---

[1] التوراة، سفر الخروج (٣٠ – ١٦). وورد النص هكذا فى التوراة: "وتأخذ فضة الكفارة من بني إسرائيل وتجعلها لخدمة الاجتماع. فتكون لبنى إسرائيل تذكارا أمام الرب للتكفير عن نفوسكم".(يوسف عامر)ـ (٣٨ – ٢٦)" للرأس نصف نصف الشاقل بشاقل المقدس. لكل من اجتاز إلى المعدودين من ابن عشرين سنة فصاعدا. لست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين"(العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٣٨، الفقرة ٢٦، ص ١٥٣)(يوسف عامر).

[2] ورد النص هكذا فى التوراة "إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا واحد فريسي والآخر عشّار "(العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح ١٨، الفقرة١٠، ص١٢٩)(يوسف عامر).

[3] ورد النص هكذا فى التوراة: " وتطلع فرأى الأغنياء يلقون قرابينهم في الخزانة* ورأى أيضا أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين* فقال بالحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع* لأن هولاء من فضلتهم ألقوا في قرابين الله وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل المعيشة التى لها"(العهد الجديد، إنجيل لوقا، الأصحاح٢١، الفقرات ١–٤، ص ١٣٥)(يوسف عامر).

في ملك الله" (متى ١٩-٢٤)[١]. كما أنه عليه السلام زكى عن نفسه ونيابة على رفاقه رغم فقره بنصف المثقال" (متى ١٧-٢٤)[٢].

ولأن الثروة في زمن التوراة كانت مقصورة في الغالب على خراج الأرض ورؤوس الماشية؛ لذا فقد ورد ذكر الزكاة في هذين الشيئين، ولندرة الذهب والفضة والعملة الذهبية والفضية في ذاك الوقت، لم يرد ذكرهم إلا في موضعين اثنين، لهذا لم يشعر اليهود بأهمية زكاة النقد، كما لا تتضح المدة التي يجب فيها الزكاة، أكل سنة أم سنتين أم ثلاث؟ كما لا تتضح مصارفها؛ إذ لم يرد توضيح ذلك في التوراة نفسها إلا قليلا جدا، المهم – أياً كانت الأسباب – هو أن اليهود قد نسوا هذا الفرض (الزكاة) تماماً، خاصة يهود العرب الذين كانوا الملاك الوحيدين للثروة، وكانوا لا يفكرون فيها (أي الزكاة) ما عدا قلة قليلة منهم؛ لذا ذكرهم الكريم فقال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ (البقرة:٨٣). وبالرغم من أن الدين المسيحي كان فيه أمر بإخراج كل شيء، فإن هذا الأمر لم يكن مناسبا للجميع، ولا يستطيع أن يطبقه كل فرد. وبالرغم من أن الأوامر بإخراج الخيرات والصدقات كانت موجودة في الفقرات الأخرى، فإنه لم يحدد لها أي نظام أو ضابط، وليس فيها مبلغ معين يجب على الشخص إخراجه.

---

[١] وهذا نص التوراة: " وأقول لكم أيضًا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل الجنة غنى إلى ملكوت الله"(العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح ١٩، الفقرة ٢٤، ص ٣٥)(يوسف عامر).

[٢] ورد النص هكذا فى التوراة: " ولما جاءوا إلى كفر ناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلى بطرس وقالوا أما يوفى معلمكم الدرهمين"(العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح١٧، الفقرة٢٤، ص ٢٤) (يوسف عامر).

إنجاز الإسلام في هذا الشأن

قد أبدعت شريعة النبي (ﷺ) في هذا الشأن أيضاً، فأعدت ببراعة ودقة نظر متناهيين نظامًا كاملاً للزكاة، فبصفة عامة تقاس حالة الإنسان المادية بدخله السنوي؛ لهذا حدد الإسلام مدة الزكاة بعد سنة كاملة، وعدّ أداءها كل سنة فرضًا. إضافة لذلك حدد الإسلام ثلاثة موارد للثروة، هي: الذهب والفضة، والماشية، والثمار، وحدد لكل واحد منها مقداره الخاص، فحدد في الذهب والفضة مقدار الأربعين، وفي الثمار العشر، وحدد في الأنواع المختلفة للماشية نسبة تتفاوت زيادة ونقصاً حسب قيمة الماشية وعددها ونوعيتها، ثم حدد مصارف الزكاة، وجعل جمعها وتوصيلها وصرفها أمراً خاصاً ببيت المال. كان هذا هو الإجمال، والآن سنفصل المكانة التكميلية للشريعة المحمدية في كل جانب من هذه الجوانب.

أهمية الزكاة في الإسلام

الزكاة هي أهم ركن في القرآن الكريم والسنة النبوية بعد الصلاة؛ فالصلاة من حقوق الله، والزكاة من حقوق العباد، ويكشف ارتباط هذين الفرضين وتلازمهما عن حقيقة، هي أن الإسلام قد راعى حقوق العباد مع حقوق الله، فحيث ذكرت الصلاة في القرآن الكريم ذكرت معها الزكاة، لذا ورد لفظ إتيان الزكاة بعد إقامة الصلاة في القرآن الكريم في عشرين موضع، فمثلاً: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، أو أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. إضافة لمدح مخرج الزكاة، أو ذكر مخرجها، أو مانعها، ومن هذا تتضح أهمية الزكاة في الإسلام. وحين كان أي شخص يأتي النبي (ﷺ) ويسأله عن فرائض الإسلام، فكان النبي يخبره أول ما يخبره بعد الصلاة بالزكاة. وتوجد

أحاديث متعددة من هذا القبيل في الصحيحين في كتاب الإيمان، روعي فيها هذا الترتيب، بل إن الزكاة دخلت – أيضا – ضمن شروط بيعة الإسلام؛ لأن سيدنا جرير بن عبد الله البجلي يقول: " بايعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزّكاةِ، والنُّصحِ لِكلِّ مُسلم. "[١]. وحين قدم وفد عبد القيس سنة خمسة هجرية يسأل النبي (ﷺ) عن تعاليم الإسلام، فأخبره النبي (ﷺ) أول ما أخبره من الأعمال بعد الصلاة الزكاة.[٢].

وحين أرسل سيدنا معاذ سفيرا لليمن سنة تسعة هجرية، أخبره بترتيب الفرائض الدينية على هذا النحو: ادْعُهم إلَى: شهادةِ أنْ لا إله إلاّ اللّهُ وأني رسولُ اللّهِ، فإن هُمْ أطاعوا لذلك فأعْلِمْهُم أنّ اللّهَ افترَضَ عليهم خَمسَ صلَواتٍ في كلّ يومٍ

---

[١] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخارى: (٥١٨) حدّثنا محمدُ بنُ المُثنَّى قال: حدَّثَنا يَحيىٰ قال: حدَّثَنا إسماعيلُ قال: حدّثَنا قَيسٌ عن جَريرِ بن عبدِ اللهِ قال: بايعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزّكاةِ، والنُّصحِ لِكلِّ مُسلم. (يوسف عامر).

[٢] وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٨٠) حدّثنا حَجّاجٌ حدّثنا حَمّادُ بنُ زَيدٍ حدّثَنا أبو جَمْرةَ قال: سَمِعْتُ ابنَ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما يقول: «قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، إنّا هذا الحيّ من ربيعةَ، قد حالتْ بيننا وبينَكَ كفّارُ مُضَرَ، ولسنا نَخلُصُ إليكَ إلاّ في الشهرِ الحرامِ، فمرْنا بشيءٍ نأخذُهُ عنكَ ونَدْعو إليهِ مَن وراءَنا. قال: آمُرُكم بأربعٍ، وأنهاكم عن أربعٍ الإيمانِ باللّهِ وشَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ ـ وعقَدَ بيدِهِ هٰكذا ـ وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأن تُؤدّوا خُمُسَ ما غنمتم. وأنهاكم عن الدبّاءِ والحَنْتَمِ والنّقيرِ والمُزَفّت».

وقال سليمانُ وأبو النعمانِ عن حمّاد «الإيمانِ باللّهِ: شهادةِ أن لا إلهَ إلاّ اللّهُ». (يوسف عامر).

وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأَعْلِمْهُم أنّ اللّهَ افترضَ عليهم صدقةً في أموالِهِمْ، تُؤخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فُقَرائهم» [1].

والواقفون من الصحابة على الشريعة يعرفون هذا الأمر جيداً؛ لأن العرب حين ارتدت بعد وفاة النبي (ﷺ)، ومنعت الزكاة، استل سيدنا أبو بكر سيفه لقتالهم، فقال عمرُ ﷺ لأبي بكر ﷺ: كيفَ تقاتلُ الناسَ وقد قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: أُمرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللّه، فمن قال لا إله إلا اللّه عصمَ مني مالهُ ونفسَه إلا بحقه، وحسابُهُ على اللّه، فقال سيدنا أبو بكر: والله لأقاتلن من يفرق بين الصلاة والزكاة، ولو منعوا عقال بعير: كانوا يؤدونه زمن النبي (ﷺ) لقاتلتهم عليه"[2]. والحقيقة أن

---

[1] صحيح البخاري، ج ٢، صـ ٩٦، كتاب الرد على الجهمية. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٧٧) حدثنا أبو عاصمٍ الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ عن زَكَرِيّاءَ بن إسحاقَ عن يحيى بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ صَيْفِيٍّ عن أبي مَعْبَدٍ عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّه عنهما «أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بَعثَ مُعاذاً رضيَ اللّهُ عنهُ إلى اليَمن فقال: ادْعُهم إلَى: شهادةِ أنْ لا إله إلاّ اللّهُ وأني رسولُ اللّه، فإن هُمْ أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهُم أنّ اللّهَ افترَضَ عليهم خَمسَ صلَواتٍ في كلّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأَعْلِمْهُم أنّ اللّهَ افترضَ عليهم صدقةً في أموالِهِمْ، تُؤخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فُقَرائهم». (يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، ج١، ص ١٨٨.وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧١٢١) حدَّثَنا قُتيبة بن سعيد حدَّثَنا ليثٌ عن عُقَيل عن الزهريّ أخبرَني عُبيدُ اللّه بن عبد اللّه بن عتبةَ عن أبي هريرةَ قال: «لما توفيَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم واستخلفَ أبو بكر بعدَه وكفرَ من كفرَ من العرب قال عمرُ لأبي بكر: كيفَ تقاتلُ الناسَ وقد قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: أُمرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللّه، فمن قال لا إله إلا اللّه عصمَ مني مالهُ ونفسَه إلا بحقه وحسابُهُ على اللّه. فقال: واللّهِ لأقاتلنَّ من فرّقَ بينَ الصلاةِ والزّكاة، فإنَّ الزّكاةَ حقّ المال، واللّهِ لو مَنَعوني عِقالاً كانوا يُؤدّونَه إلى رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم

الصحابة الكرام كانوا يدركون جيدًا معرفة أسرار الشريعة[1]، ومن ثم اقتنع سيدنا عمر، واقتنع الناس جميعًا.

وهناك سبب آخر لتلازم الصلاة والزكاة؛ وهو أن الحياة الإدارية للإسلام تقوم على دعامتين الأولى: الروحانية؛ وتتحقق بالصلاة في جماعة في أي مسجد، والثانية: النظام المادي الذي يُجمع في بيت المال ثم يقسم؛ لهذا يبدو الركنان متلازمين في الإسلام. وقد أكدت الشريعة الإسلامية مكانتهما الاجتماعية إضافة لمكانتهما الفردية، فكما أن الصلاة إذا أديت في غير جماعة، وفي غير المسجد، تفقد بعض مقاصدها، فإن الزكاة يمكن أن تجمع في غير بيت المال، لكنها ستفقد بعض مقاصدها أيضاً، لهذا حينما قالت بعض القبائل أثناء خلافة أبي بكر: إننا لن نؤدى الزكاة إلى بيت المال، وسنوزعها نحن بأنفسنا، رفض علماء الشريعة هذا الاقتراح، وأجبروهم على جمع الزكاة في بيت المال، فلو تم لهؤلاء ما يريدون لتفككت وحدة المسلمين، ولفسد نظام إمامة المسلمين وجماعتهم في ذلك الوقت.

المهم أن الزكاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الصلاة، وبألفاظ أخرى نقول إن مساعدة الفقراء، وإعانة المساكين والمسافرين واليتامى، ونصرة الأرامل، وإعانة العبيد والمساجين، هي الأهمية والمقصد الأول لهذه الفريضة التي نجدها في تاريخ الأديان.

لَقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوَاللَّه ما هو إلا أن رأيتُ اللَّهَ قد شرحَ صدرَ أبي بكرٍ للقتالِ فعَرَفتُ أنهُ الحق». قال ابنُ بُكير وعبدُ اللَّهِ عن الليثِ «عَناقاً» وهو أصحُّ. (يوسف عامر).

[1] لقد كانت الآية الكريمة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (التوبة:٥) هي الدافع لفعل سيدنا أبي بكر الصديق. وانظر صحيح البخاري، ج ٢، صـ ١٠٩٦، باب كراهة الاختلاف.

بداية الزكاة وتطبيقها التدريجي

كما أن الصلاة بدأت مع الإسلام واكتملت بعد الهجرة شيئا فشيئا، كذلك الزكاة؛ أي أن الترغيب في المساعدات المالية، قد بدأ مع بداية الإسلام، لكن نظام الزكاة الكامل قد أقيم شيئاً فشيئا بعد فتح مكة. وعلى هذا نجد تصريحا لبعض المؤرخين والمحدثين يقولون فيه إن الزكاة فرضت سنة ٨هـ، لكن المواضع التي مر فيها لفظ الزكاة قبل تلك السنة، قد أثارت الشك، على الرغم من أن لفظ الزكاة كان يرادف الصدقة فقط في بداية الإسلام. أما المقدار والنصاب والمدة وغير ذلك من الخصائص التي تدخل في حقيقة الزكاة، فلم توضح إلا بعد ذلك طبقاً للظروف. إن رسالة النبي (ﷺ) مكونة من عنصرين فقط هما: حق الله، وحق العباد، والصلاة هي المظهر الاسمي للعنصر الأول، والزكاة للثاني؛ لذا حينما ارتفعت دعوة النبي (ﷺ) للحق كان كل صوت لها هو شرح وتوضيح لهذين العنصرين، وكما كان النبي (ﷺ) يختبئ قبل بعثته في غار حراء، ويشتغل بذكر الله (الصلاة)، كان أيضاً يساعد الفقراء والمحتاجين. وقد قالت السيدة خديجة عنه وقت البعثة: " إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقّ"[1]. تأمل، أليست الزكاة اسما لكل هذه الفرائض؟

---

[1] صحيح البخاري،ج ١، الباب الأول.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٣) حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثَنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلو بِغارِ حِراءِ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ الليالي ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلهِ ويتزوَّدُ لِذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءِ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قالَ: ما أنا

وعلى هذا فالقول بأن الصلاة والزكاة توأمان، وأن الإسلام كله شرح وتوضيح لهاتين الحقيقتين المجملتين صحيح.

وبالرغم من أن سورة "المدثر" هي أول سور الوحي، فإنها تضم كل هذه البذور التي نمت، وأنبتت شجرة الأركان الإسلامية العظيمة، فقد ذكرت فيها كل تفاصيل الصلاة في لفظ واحد هو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر:٣)؛ لأن تكبير الله هو روح الصلاة. ثم قال بعد ذلك ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر:٦) ففيها أيضا كل البذور التي تضم كل أوراق قضايا الزكاة وثمارها. وبعد سورة المدثر نزلت سورة المزمل، وقد ورد فيها أيضاً تصريح بالأمرين، وفصلت فيها الزكاة إلى حد ما.

بقارىء. قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأْ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ مِنْ علَق. اقْرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفْسِي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتتْ به ورقةَ بنَ نوْفَل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهِليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعبْرانيَّةِ ما شاءَ اللهُ أن يَكتُبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: يا ابنَ عَمِّ، اسْمعْ منِ ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تَرَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، يا لَيْتَني فيها جَذَعٌ، لَيْتَني أكونُ حَيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئتَ به إلاَّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ (يوسف عامر).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾(المزمل:٢٠).

وفي السنة الخامسة للبعثة استدعى النجاشي سيدنا جعفر ومن معه حين هاجروا إلى الحبشة، استدعاهم إلى بلاطه، وسألهم عن حقيقة الإسلام وتعاليمه، فقال له سيدنا جعفر فيما قال: "وعلمنا النبي (ﷺ) أن نقيم الصلاة ونصوم ونؤدي الزكاة"[1]. فوضح من هذا أن بداية الزكاة والتصدق كانت

[1] مسند أحمد، ج ١، ص ٢٠٢.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند أحمد: (١٧٥١) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يعقوب ثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدَّثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، آمنّا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لتردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم،

ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قال: فغضب النجاشي ثم قال: لا، ها الله، أيم الله إذاً، لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول: والله ما علّمنا وما أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه ـــ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال: ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم ؟ قالت: فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قال: فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمْنا ما حرَّمَ علينا، وأحلَلْنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا

أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاءه به من الله من شيء ؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من { كهيعص } قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد، قالت أُم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبأتهم غداً عيبهم عندهم ثم أستأصل به خضراهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: وكان ــ أتقى الرجلين فينا ــ لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال: بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب :نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ــ والسيوم الآمنون ــ من سبَّكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبراً ذهباً وإني آذيت رجلاً ــ والدبر بلسان الحبشة: الجعل ــ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به ــ يعني من ينازعه في ملكه ــ قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك، تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

منذ بداية الإسلام. وكانت الزكاة ضمن الأحكام والأمور التي علمها النبي (ﷺ) لوفد عبد القيس (الذي قدم إليه سنة ٥ هـ تقريباً).[١]

وفي سنة ٦ هـ سأل النجاشي أبا سفيان ــ الذي كان ما يزال كافراً حتى ذاك الوقت ــ عن تعاليم الإسلام بعد أن وصلته رسالة النبي (ﷺ). فذكر له أبو سفيان ثاني ما ذكر الزكاة والصدقة[٢]. وضح تماما من هذه الأحداث أن الأمر بالزكاة كان موجودا أيضاً قبل سنة ٨هـ، بل قبل الهجرة وبعد البعثة، لكن لأن طريقة تعليم النبي (ﷺ) لم تكن قاصرة على تقديم النظريات فحسب، بل إنه (ﷺ) جعل الأمة متمسكة بطريقة عملية بتعاليم الإسلام؛ لذا فصلت تلك الأحكام والأوامر شيئا فشيئا طبقا لمتطلبات الوقت

قالت: فقال الزبير بن العوّام: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سناً قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوّه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ». (يوسف عامر)

[١] صحيح البخارى، كتاب الزكاة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٨٠) حدّثنا حَجّاجٌ حدّثنا حَمّادُ بنُ زيدٍ حدّثنا أبو جَمْرة قال: سَمِعْتُ ابنَ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما يقول: «قَدِمَ وَفْدُ عبدِ القَيسِ على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللّه، إنّا هذا الحيّ مِن ربيعةَ، قد حالتْ بينَنا وبينَكَ كفّارُ مُضَرَ، ولسنا نَخلُصُ إليكَ إلاّ في الشهرِ الحرامِ، فمرْنا بشيءٍ نأخُذُهُ عنكَ ونَدْعو إليهِ مَن وراءَنا. قال: آمُرُكم بأربعٍ، وأنهاكم عن أربعٍ الإيمَانِ باللّه وشَهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ ــ وعقدَ بيدِه هكذا ــ وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأن تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غنِمْتم. وأنهاكم عن الدبّاءِ والحَنْتَمِ والنَّقِيرِ والمُزَفَّتِ».

وقال سليمانُ وأبو النعمانِ عن حمّاد «الإيمانِ باللّهِ: شهادةِ أن لا إلهَ إلاّ اللّهُ». (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، ج ١، بداية كتاب الزكاة وكتاب التفسير.

وما يناسبه؛ لأن المسلمين كانوا في مكة في اضطراب وتشتت وحال سيئة وفقر ومسكنة؛ فكان يكفيهم إطعام يتيم ومسكين وجائع؛ لهذا عُلمت هذه الأمور في تلك الفترة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد:١٢-١٦).

وقد جاء العتاب لقريش؛ لأنهم لم يسمعوا دعوة النبي (ﷺ) للمواساة الإنسانية: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الماعون:٢، ٣).

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الفجر:١٧، ١٨).

وأثنى على إخلاص المسلمين ومواساتهم لبعضهم وعطفهم فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ (الإنسان: ٨، ٩).

وبعد هجرة المسلمين للمدينة استقر بهم الحال بعض الشيء، وبدأوا أعمالهم إلى حد ما، ففرضت عليهم صدقة الفطر مع الصوم سنة ٢ هجرية.[1] وهي أن يتصدق كل مسلم مرة واحدة في السنة قبل صلاة العيد بصاع أو بصاع وربع من الحبوب في سبيل الله تعالى؛ حتى يقضي الفقراء المحتاجون يوم عيدهم شبعى وسعداء، ثم أكدت الصدقة والبر بأنواعه بعد ذلك، وقد سألوا النبي عما ينفقونه:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ (البقرة:٢١٥)

فأجابهم وقال:

﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة:٢١٩)

---

[1] تاريخ الطبري، أوربا، ص ١٢٨١.

فكانت هذه أولى خطى الإسلام على طريق تحديد الزكاة، وقد نقل في صحيح البخاري قول سيدنا ابن عمر؛ والذي يعني أن المسلمين كانوا قد أمروا قبل نزول أحكام الزكاة و مقدارها أن يتصدقوا بما فاض عندهم، وألا يبقون شيئاً منه لغدهم[1]؛ لأن حالة الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت كانت تستلزم هذا، ولكن بعد فترة وحين تيسرت الفتوحات للمسلمين، وامتلكوا أرضًا وأطيانًا، وبدأ دخول التجارة، أمروا أن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ (البقرة:٢٦٧).

وقد نفذ المسلمون الأمر، فمدحهم الله تعالى وقال: **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾** (البقرة:٣). وقد كان الصحابة يضطربون حين لا يجدون ما يتصدقون به في سبيل الله؛ لذا حينما نزل الأمر بفرض الصدقة على كل مسلم ذهب الفقراء والمفلسون إلى رسول الله (ﷺ)، وقالوا له: يا رسول الله وماذا يفعل من لم يستطع ؟ فقال لهم النبي (ﷺ): فيَعمَلُ بيديهِ، فينفعُ نفسَهُ ويتصدَّقُ. قالوا: فإن لم يستطعْ، أو لم يفعل؟ قال: فيُعينُ ذا الحاجة الملهوفَ. قالوا: فإن لم يَفعل؟ قال: فليأمرْ بالخير. أو قال بالمعروف. قال: فإن لم يَفعلْ؟ قال: فليُمسك عن الشر، فإنهُ له صدقة». [2]. وقد أثر فيهم تعليم النبي (ﷺ)ونصحه، لدرجة أنهم

---

[1] كتاب الزكاة مع فتح الباري، ج ٣، صـ ٢١٦.

[2] صحيح البخاري، كتاب الزكاة. وهذا نص الحديث كاملا: (٥٨٨٤) حدثنا آدمُ حدَّثنا شعبةُ حدَّثنا سعيدُ بن أبي بُردةَ بن أبي موسى الأشعريِّ عن أبيه عن جدِّهِ قال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: على كلِّ مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يَجدْ؟ قال: فيَعملُ بيديهِ، فينفعُ نفسَهُ ويتصدَّقُ. قالوا: فإن لم يستطعْ، أو لم يفعل؟ قال: فيُعينُ ذا الحاجةِ الملهوفَ. قالوا: فإن لم يَفعل؟ قال: فليأمرْ بالخير. أو قال بالمعروف. قال: فإن لم يَفعلْ؟ قال: فليُمسك عن الشر، فإنهُ له صدقة». (يوسف عامر).

كانوا يذهبون إلى السوق يحملون أثقالاً للتصدق، وما كان يتبقى معهم كـــانوا يخرجونه في سبيل الله[١].

لكن لأن العرب كلها لم تكن قد اجتمعت حتى ذلك الوقت تحت لـــواء الإسلام؛ لم يكن قد أقيم أي نظام قوي منظم. أما في سنة ٨هـــ فقد ضم فـــتح مكة العرب كلهم في صعيد واحد وحان الوقت ليقيم الإسلام نظامه الخـــاص. حينذاك نزلت الآية الكريمة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣).

وفي السنة اللاحقة - أي في سنة ٩هـــ - ترتبت كل أحكـــام الزكـــاة وضوابطها وعين محصلون وعاملون في كل العرب لتحصيلها[٢]. وأقيم بيت المال بصورة منظمة، وقد ذكرت كل هذه الأحكام والـــضوابط فـــي ســـورة التوبة التي نزلت في أواخر عام ٨هـــ.

تحديد مدة الزكاة

قبل الإسلام كان هناك تفريط وإفراط كبيران في تحديد مدة الزكـــاة، فالعشر الذي كان قد حُدد في التوراة، كان واجب الأداء مـــرة كـــل ثـــلاث سنوات. (التثنية ١٤ – ٢٨)، ولم تحدد في الإنجيل أية مدة أو فترة، لذا كان تحديد مدة للزكاة هو أول شيء في سبيل تنظيمها، فيجب أن لا تكون المـــدة صغيرة مختصرة؛ حتى لا يمل الإنسان من كثرة الإعطـــاء، فيتكـــدر قلبـــه ويتعكر بدلاً من أن يسعد ويهنأ، ويجب أيضاً ألا تكـــون طويلـــة، حتـــى لا يضطر الفقراء والمساكين والمحتاجون إلى تحمل عبء الانتظار طويلا مـــن

---

[١] المرجع السابق.

[٢] ابن سعد، مجلد المغازي، صـــ ١١٥، وتاريخ الطبري، ج ٤، صـــ ١٧٢٢، طبعـــة أوربا.

أجل أن يقضوا حوائجهم، وقد حدد الإسلام في هذا الشأن سنة واحدة واضعا في الاعتبار الأمور المالية الأخرى في الحياة، فقد حدد كل العالم المتحضر سنة للأعمال (السنة المالية). والسبب في ذلك أن الدخل الأساسي يكون من حصاد الأرض أو عائدها. ثم تكون بعد ذلك صناعة المحصول وتجارته، كما أنه من الضروري لكل وسائل الدخل أن تمر عليها مواسم العام المختلفة من شتاء وصيف وربيع وخريف، حتى يتضح العائد والمنصرف والمكسب والخسارة للسنة كلها، حتى يستطيع كل من المالك والمزارع والتاجر والعامل والصانع أن يقدر حالته المادية بعد أن يحسب ثروته ودخله، وفي المتوسط يكون تناسل الحيوانات الكبيرة وميلادها كل سنة[1]. لكل هذه الأسباب حددت كل الجماعات والحكومات والشعوب المنظمة سنة كاملة لتحصيل الضرائب، وقد سبقت الشريعة الإسلامية إلى هذا المبدأ الطبيعي، وحددت مبلغاً للزكاة مرة واحدة من دخل السنة كلها [2]، وقد ورد الأمر الواضح بهذا في سورة التوبة التي ورد فيها بعد بيان كل أحكام الزكاة قول الله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (التوبة:٣٦).

مقدار الزكاة

يتضح من التوراة أن مقدار الزكاة عند بني إسرائيل كان العشر في المحصول، ونصف المثقال في النقد على كل من الغني والفقير. أما الأرض

---

[1] مدة حمل الماعز ستة أشهر والبقرة تسعة أشهر والبعير أحد عشر شهرا ولجاموس اثنا عشر شهرا.

[2] الصحيح هو أن الشريعة الإسلامية سبقت الحكومات والشعوب في تحديد دفع الزكاة كل عام، بل إنها سبقت اليهودية والمسيحية في ذلك. (يوسف عامر).

فتكون متعددة الأنواع، فهناك أرض تُسقى بماء المطر فقط، ومنها ما يُسقى بماء النهر، ومنها ما يُسقى بتعب ومشقة. والنقد أيضا يتعدد، ففي بعض الأوقات تأتي الثروة دون تعب، وبعضها يحصل كداً وتعباً، لذا لا يمكن تساوي الجميع، وكالعادة لم تحل التوراة هذه المشكلة. أما الشريعة الإسلامية الكاملة فقد حددت الوسائل الطبيعية والفطرية للثروة طبقًا للمبادئ الصحيحة لعلم الاقتصاد والسياسة، وحددت لكل نوع قدرا معينا للزكاة، وأول أمر في هذا الصدد هو أن الشريعة الإسلامية قد جمعت في طياتها كلاً من المقدار القانوني للتوراة وعدم وجود المقدار الأخلاقي للإنجيل، وسمحت لكل شخص أن يُخرج بصفة أخلاقية كل ماله أو نصفه في سبيل الله إن أراد ذلك، وأطلقت على ذلك إنفاقًا أو تبرعًا أو صدقةً، لكنها بجانب هذا حددت جزءا محددا يُؤخذ سنويا من ثروة الأغنياء لمساعدة الفقراء والمحتاجين وللأعمال الخيرية وغيرها، وسمّت هذا زكاة؛ لذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:٢٣ -٢٥).

وقد ثبت بطريقة واضحة وصريحة من هذه الآية أن حق الفقراء في ثروة المسلمين حق معلوم ومحدد وثابت؛ لأن هذا هو المراد من لفظ "معلوم" و"معلومات" ورد في القرآن الكريم، وثبت من هذا أن من كان يؤدي الزكاة من العرب قبل الإسلام بأية طريقة، فإن الإسلام قد قبل نهجه هذا بعد إصلاحه. ولم يؤد أحد من بين العرب هذا النوع من الزكاة سوى بني إسرائيل، والذي ورد الأمر به في التوراة. كما ورد ذكر مقداره أيضا، أي زكاة العشر من المحاصيل، ونصف مثقال النقد. وقد حدد النبي (ﷺ) بحكمته الربانية مقادير متعددة لأنواع الزكاة، والتي هي شرح لقوله تعالى "معلوم"، فكتب رسول الله (ﷺ) هذه المقادير والتوضيحات، وأرسلها إلى عماله في شكل أوامر، وظلت هذه الأوامر محفوظة حتى زمن تدوين الحديث، ثم

أدرجت بعد تدوين الحديث في كتب الحديث الموجودة اليوم كما هي، وأصل هذه التوضيحات والشروح موجود في القرآن الكريم أيضاً.

ومن الواضح أن ثروة الإنسان ما هي إلا نتيجة لكفاحه وثروته، لذا يقتضي المنطق أن يزيد مقدار الزكاة إذا قلّ التعب في تكوين الثروة، ويقل إذا زاد التعب والكفاح في تحصيلها، وجرى العرف بين العرب على دفع المرباع إلى شيوخ القبائل، ولهذا كانوا يطلقون مسمى المرباع على سيدهم. وربما كانت هذه عادة الأمم السالفة الأخرى أيضا؛ إذ إن المراهتة في الهند كانوا قد أذاعوا المرباع. ولكن الإسلام قد راعى المحكومين والجنود كثيرًا، لذا حدد الخمس بدلاً من الربع، وعليه يكون خمس الثروة بدلاً من ربعها لله ورسوله، وهذا الخمس يخرجه رسول الله (ﷺ) ونوابه من بعده لحاجاتهم الضرورية، ولإطعام أهلهم وأولادهم ومساعدة المسلمين المشردين، أو لحاجة الحكومة، أو الجماعة الإسلامية.

وتسمى الزكاة التي تكون على مال الغنيمة خمسًا؛ لذا قال القرآن الكريم:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال:٤١).

أمر جدير بالذكر

هناك أمر معين يجب فهمه بهذه المناسبة، وهو أن الهدف الحقيقي للجهاد أو قتال الأعداء إنما حماية دين الله تعالى وإعلاء كلمته لا تحصيل مال الغنيمة، فلو حارب أحد العدو بهدف تحصيل الغنيمة فقط، فإن قتاله هذا في نظر الإسلام لا يُعَدّ جهادا، ولا يثاب عليه. والإشارة إلى هذا الأمر موجودة في القرآن الكريم نفسه، والنبي (ﷺ) أوضح ذلك في أحاديث متعددة،

وبناء على هذا فإن مال الغنيمة الذي يأتي في الحقيقة من قتال الكفار إنما هو مال يحصل عليه المسلمون بلا قصد وبلا مشقة، وبهذا تحل قضية أن المال المكتسب من غير كد يكون خمسه لنظام الجماعة ولمصارف الحكومة التي ورد ذكرها سابقاً.

والهدف من أن المال الذي يكتسبه المسلمون مصادفة بلا تعب يكون خمسه لله وللرسول، هو أن يصرف هذا الخمس في الأهداف المشتركة للجماعة، وهو نفس المبدأ الذي على أساسه عُدّ خمس الركاز؛ أي المال الذي يحصل عليه الشخص فجأة دون تعب يكون لبيت مال الجماعة.

وأول الثروة التي تأتي من الكد والتعب هي نتاج الأرض، وقد حددت التوراة العشر على كل نتاج الأرض. أما الشريعة المحمدية فقد فَصَّلَت بدقة مقدار الزكاة على الأنواع المتعددة للمحاصيل، فقررت الزكاة أولاً على المحاصيل التي يمكن أن تظل محفوظة لفترة زمنية، ولا يخشى من تلفها ليستفاد منها في البيت، أو في التجارة حسب الحاجة. وعلى هذا لم تفرض الزكاة على الخضروات والبقوليات؛ إذ لا يمكن أن تحفظ لأكثر من يومين، ولا على الأشياء التي لا تقبل الزيادة كالآلات والبيت والثوب والمتاع والوسائل والدابة والأحجار الكريمة[1]. أما الأشياء التي تقبل الحفظ والزيادة؛

---

[1] المقصود من الأحجار الكريمة الجواهر واللآلئ ولم تفرض عليهم زكاة لأن الإسلام عدهم وسائل زينة وقال: ﴿ أو حلية تلبسونها ﴾ (النحل وفاطر) كما أن الذهب والفضة اللذين يستعملان للزينة ليست عليهم زكاة عند بعض الفقهاء؛ لأنها من الحلية التي تلبس. لكن إذا كنز شخص جواهر بآلاف الجنيهات، فإما أن تكون هذه الجواهر للتجارة فحينئذ وجبت عليها الزكاة طبقا لقيمتها؛ على أساس أنها مال تجارة. وإما أن تكون للهروب من الزكاة، لذا فيحول ماله لمجوهرات، وفي هذه الحالة ليست عليه من الناحية القانونية زكاة، ولكنه آثم ومذنب جداً عند الله. أما الحالة الثالثة فهي أن تكون

فهي أربعة الأرض والماشية (الحيوانات)، والذهب والفضة أو عملاتهما، ومال التجارة؛ لهذا قررت الزكاة على هذه الأشياء الأربعة.

أما الأراضي فقد قسمت إلى قسمين: القسم الأول منها، ما ينفق المزارع على حرثها وزراعتها والعمل فيها، لكنه لا يتعب في ريها لأسباب فصلية أو إقليمية، فتروى بماء المطر والنهر، وقد فرضت على مثل هذه الأرض الزكاة التي تفرض على الثروة التي تأتي من غير كد وهي العشر. أما النوع الثاني من الأرض فهي تلك التي يتعب المزارع في ريها كأن يخرج لها الماء من الآبار أو الأنهار، وقد فرض على هذا النوع من الأرض نصف القدر الذي فرض على النوع الأول أي نصف العشر. والثروة النقدية التي تحتاج لرأس مال لتنميتها، ويخشى سرقتها وضياعها، وسلبها، أو فسادها، فعليها نصف ما على النصف الثاني من الأرض، أي ربع العشر[1]، (وسيرد ذكر الماشية لاحقاً).

وهناك سبب اقتصادي آخر دقيق لقلة وزيادة مقدار الزكاة في خراج أو محصول الأرض والثروة النقدية؛ وهو أن الغذاء هو الشيء الضروري للإنسان، وعليه تتوقف حياته، وهذا الشيء يحصل عليه ملاك الأراضي

هذه الجواهر للفخر والمباهاة فيكون حكمها حكم من يجمع ملابس ووسائل عيش غالية وثمينة. وسيعد هذا إسرافاً وعليه وعيد.

الأصل أن القيمة الكبيرة للجواهر ليست فطرية وإنما فرضية. كما أنها ليست من ضروريات الحياة. ولا تبادل أو تشتري بها ضروريات الحياة. فقد رفع سعرها طلب بعض الأغنياء وحاجتهم. وإن ذهب بريقها أو كسرت أو فسدت فإن قيمتها ستقل على الفور، بخلاف الذهب والفضة اللذين تُعد قيمتهما العالية المرتفعة شيئاً طبيعياً، وهما شيئان ضروريان لتبادل ضروريات الحياة. وإن كسرا أو اتسخا فإن قيمتهما لا تقل في أي حال.

[1] أوضح الحافظ ابن القيم هذه النقطة في زاد المعاد.

بطريقة مباشرة عن طريق تعبهم وكفاحهم، وبهذا يستغنون عن أشد ضروريات الحياة. أما ثروة أصحاب الذهب والفضة والتجارة، فليست ضرورية لحياتهم، بل إنهم يحصلون عن طريق مبادلتها أو بيعها وشرائها على احتياجاتهم، فيشترون المحاصيل من المزارعين، ويعطونهم النقود، التي يسد بها المزارعون حاجاتهم، ثم يأخذون هذا المحصول، ويذهبون به لبلاد ومدن مختلفة، ويدفعون أجرة نقله أيضا، والتعب الذي يبذل للحصول على محصول الأرض يبذل أكثر منه بكثير للحصول على النقود، والذهب والفضة لا يوجدان إلا بعد تغييرات طبيعية تحدث بعد قرون، أما المحاصيل فتكون كل سنة وكل فصل؛ لهذا تكون قيمة الذهب والفضة أكثر بكثير من الحبوب، وهناك أمر آخر وهو أن المزارعين وملاك الأراضي غالباً ما يعيشون في القرى بعيدا عن المدن، ويكونون محرومين عامة من الذهب والفضة وعملاتهما؛ لذا يعيشون أحرارا نسبيا من قيد الاحتياجات القومية والخدمات المادية للدين، ومساعدة المحتاجين والمستحقين، وهذا ما يعوضه أصحاب الثروات والتجار في شكل نقد، لذا كانت هنا حاجة ماسة لأن يكون نصاب زكاتهم مختلفًا عن نصاب أصحاب الأراضي.

ويتضح أمر آخر من آية الخمس فيما يتعلق بتحديد نسبة الزكاة؛، وهو أن كل المصارف الشخصية والقومية للإمامة والحكومة تكون ضمن الخمس، لذا حدد لها خمس كامل، وقد حددت مصارف الزكاة كما هو مذكور في سورة التوبة في الربع الخامس ربع العشر؛ أي ١/٤٠ مقدار نسبة المصارف الثمانية؛ أي أن الرقم الكلي لهذه المصارف الثمانية في زكاة الذهب والفضة هو أربعين جزء. ثم نلحظ أن نسبة الذهب والفضة ٢٠٠ درهم أو ما يقابلها ذهبًا، ولو قسمنا هاتين المائتين على خمسة، فسيكون الناتج أربعين، فكل نسبة الزكاة هي ١/٥ – ١/١٠ – ١/٢٠ – ١/٤٠ الأول ضعف الثاني

والثاني نصف الأول، فيتضح من هذا أن التقسيم والتحديد مبنيان على الأسس الخاصة للحساب والاقتصاد.

زكاة الماشية

كان العشر في التوراة مقدار الزكاة على كل أنواع الماشية[1]، لكـــن لأن صلاحية النمو ومدة الحمل ليستا متساويتين عند كـــل الحيوانـــات، ولأن العشر ونصفه لا يمكن أن يكون على كل الأعداد من الماشية قليلة أو كثيرة؛ لذا كانت هناك حاجة لتحديد عدد معين بدلاً من فرض العشر أو نصفه، وقد أكملت الشريعة المحمدية هذا النقص، واستثنت الحيوانات النـــادرة أو قليلـــة الوجود من الزكاة بناءً على المبدأ الأول (الميلاد: مدة النمو، الحالة، الكمية)، **فلا زكاة مثلاً على البغال والحمير[2]. (أو على الأفيال كمـــا فـــي الهنـــد)،** وحددت نسبة الحيوانات الأخرى بناء على قيمتها وقوتها وحالتهـــا ونموهـــا. وهذا هو الشيء الذي أقره النبي (ﷺ) بحكمته الإلهية، ولم يقله فحسب، بـــل كتبه في شكل أوامر، وأرسله إلى العمال، ونسخه الخلفاء الراشدون من بعده، وأرسلوه إلى حدود المملكة الإسلامية، ويجري العمل به حتى اليـــوم دون أي اختلاف.

---

[1] الأخبار ٢٧ – ٣٢.

[2] عند الأحناف لكون الزكاة على الخيل المتناسلة وعلى خيل التجار. ولا زكاة علـــى خيل الجهاد والركوب.

اسم الحيوان	العدد	مقدار الزكاة	اسم الحيوان	العدد	مقدار الزكاة
الجمال والبعير (الإبل)	من ١حتى٤	لا شيء	الإبل	٢٠ – ٢٤	أربع شياه
	٥ – ٩	شاه			
	١٠ – ١٤	شاتان		٢٥ – ٣٥	ابن لبون
	١٥ – ١٩	ثلاث شياه		٣٦ – ٤٥	جمل ابن سنتين
				٤٦ – ٦٠	جمل ابن ثلاث سنين
الإبل	٦١ – ٧٥	بعير ابن ٤ سنوات	البقر والجاموس	٤٠	عجل أو فحل ابن سنتين
	٧٦ – ٩٠	جملين ابنا سنتين		٦٠	عجلين أو فحلين ابنا سنتين
	٩١ – ١٢٠	جملين ابنا ثلاث سنين		٧٠	عجل ابن ٣ سنوات
	ما بعد ١٢٠ يكون على كل ٤٠	جمل ابن سنتين		٨٠	عجلان ابنا ٣ سنوات
	وكل ٥٠	جمل ابن ٣ سنين		٩٠	٣ عجول ابنا ٣ سنين
الغنم	١ – ٣٩	لا شيء		١٠٠	عجلين لسنتين وواحد لسنة
	٤٠ – ١٢٠	شاه		ثم على كل ١٠	عجل أو فحل لسنتين

اسم الحيوان	العدد	مقدار الزكاة
	١٢١ – ٢٠٠	شاتان
	٢٠٠ – ٣٠٠	ثلاث شياة
	ثم على كل ١٠٠	شاه
البقر والثيران والجاموس	١ – ٢٩	لا شيء
	٣٠	عجل ابن سنة

نصاب زكاة المال

كان هناك نقص آخر في الشرائع السابقة في تحديد نصاب الزكاة، وهو ما أكملته الشريعة المحمدية، ففرض الزكاة والصدقات في الشرائع الأخرى، لم يكن فيه تفريق بين غني وفقير، فمثلاً لو جمعت الزكاة من أصحاب العشر أو العشرين جنيها أو العشر والخمس أبقار لكان ظلماً لهم. والعشر الذي حدد في التوراة على الحبوب والحيوانات، ونصف العشر الذي على النقد، لم يراع فيهما هذا أيضاً، حتى إنه قيل في زكاة النصف مثقال إن: "وقت إخراج الزكاة لله لا يخرج الغني أكثر من نصف المثقال، ولا يقلل الفقير عنه" (الخروج ٣٠ – ١٥)[١].

---

[١] وهذا نصه في التوراة، سفر الخروج، الإصحاح ٣٠، الفقرة ١٥: الغني لا يُكثِّر والفقير لا يُقلل عن نصف الشاقل حين تعطون تقدمة للرب للتكفير عن نفوسكم. (يوسف عامر).

لكن الشريعة الإسلامية راعت هذا الأمر، واستثنت من أداء فرض الزكاة الفقراء والمشردين والمدينين والعبيد، الذين لا يملكون المال، أو يجمعون المال لتحرير أنفسهم. ولم تفرض أيضاً على قليلي المال، فلهم أن يتصدقوا بإرادتهم. وحددت الشريعة أيضاً أقل مقدار للثروة، فجعلت زكاة الذهب نصف المثقال، لكنها أوضحت أن نصف المثقال هذا يؤخذ ممن يملك خمس أوقيات أو عشرين مثقالاً على الأقل من الذهب[١]. والقيمة المتوسطة لخمس أوقيات ذهبية أي عشرين مثقال ذهب؛ هي عملة عشرين درهم فضة؛ أي أن الأوقية الواحدة تساوي أربعين درهماً[٢]. وأقل الثروة التي لا زكاة عليها بالترتيب هي:

النوع	أقل من هذا العدد لا زكاة عليه
الثمار والزروع	لا زكاة على أقل من خمسة أوسق [٣].
الإبل	لا زكاة على اقل من خمسة جمال
البقر والثيران والجاموس	لا زكاة على أقل من ثلاثين

---

[١] طبقا للحساب الانجليزي الراهن فإن عشرين مثقال الذهب يساوي سبع وزنات ومائتي درهم فضة يساووا اثنين وخمسين روبية.

[٢] سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب من يعطي الزكاة وحد الغني، ج ١، ص ١٦٤، مطابع لكناؤ. (١٦٢٩) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ وَ هِشَامُ بنُ عَمَّارٍ قَالاَ أخبرنا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ أبي الرِّجَالِ عن عُمَارَةَ بنِ غَزِيَّةَ عن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عن أبِيهِ أبي سَعِيدٍ، قَالَ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ، فَقُلْتُ نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ هِيَ خَيْرٌ مِنْ أُوقِيَّةٍ. قَالَ هِشَامٌ: خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهماً فَرَجَعْتُ فَلَمْ أَسْأَلْهُ شَيْئاً. زَادَ هِشَامٌ في حَدِيثِهِ: وَكَانَتْ الأُوقِيَّةُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أَرْبَعِينَ دِرْهَماً». (يوسف عامر).

[٣] الوسق هو في الغالب الحمل الذي تستطيع الناقة أن تحمله.

الغنم والماعز	لا زكاة على أقل من ثلاثين
الذهب	لا زكاة على أقل من خمس أوقيات (عشرين مثقالاً)
الفضة	لا زكاة على أقل من مائتي درهم

وبهذا المقدار زال عدم التفريق بين الغني والفقير في مقدار الزكاة، وعُفي الفقراء الذين كانوا يستحقون الزكاة من هذا الفرض.

والحقيقة أن الأشياء المذكورة بالجدول مبنية على معيار واحد من الناحية المادية رغم أن عددها متفاوت؛ فخمسة أوسق من الحبوب ومائتي درهم فضة وخمس أوقيات من الذهب كلها في الحقيقة متساوية، فالأوقيات الخمس والمائتي درهم سواء، وهكذا قيمة الوسق الواحد من الحبوب هي ٤٠ درهم أو أربعة مثاقيل في تلك الفترة[١]؛ أي أن قيمة الخمسة أوسق أو الخمس أوقيات ستكون نفس قيمة المائتي درهم أو العشرين مثقالاً.

مصارف الزكاة وإصلاحاتها

كانت هناك ثلاثة أنواع للزكاة في شريعة سيدنا موسى عليه السلام، الأول: نصف المثقال في الذهب والفضة، وكان هذا المبلغ يُنفق في تعمير وصيانة خيمة الجماعة أو بيت المقدس، وكذلك على الأضاحي وصناعة الأمتعة والأوعية. (الخروج ٣٠ – ١٣)[٢]. النوع الثاني من الزكاة: كان ترك بعض الحبوب والثمار وقت الحصاد والتخزين، وكان هذا خاصاً بالفقراء

---

[١] الهداية، المجلد الأول، باب الزكاة في التجارة.

[٢] وهذا نصه في التوراة: هذا ما يعطيه كل من اجتاز إلى المعدودين نصف الشاقل بشاقل القدس. الشاقل هو عشرون جيرة. نصف الشاقل تقدمة للرب (سفر الخروج، الإصحاح٣٠، الفقرة١٣، ص١٣٧)(يوسف عنمر).

والمسافرين (الأخبار ١٩ – ١٠)، وكان العرف أن يخرج كل ثلاث سنين عشر الحصاد والحيوانات لله تعالى، وكانت طريقة صرفها كالآتي: يذهب المزكي مع أهله وأسرته إلى بيت المقدس، ويقيم احتفالاً يأكل فيه ويطعم الآخرين، ثم تقسم الأكوام على الكهان بالاسم، لذا كانوا يحرمون نظير ذلك من الميراث العائلي، ثم توضع هذه الأشياء بعد ذلك في خزينة بيت المقدس؛ ليأكل منها المسافرون واليتامى والأرامل (التثنية، الإصحاح ١٤، الفقرات ٢٦: ٢٩).

أكبر إصلاحات قامت به الشريعة الإسلامية في حقيقة الدين:

١. كان القضاء على الواسطة بين الله وعبده في العبادة، أول إصلاح قامت به الشريعة، ففيها يكون كل شخص إمام نفسه وكاهنها، لهذا زالت الحاجة لخدام الكهنة والعُباد والمتطفلين، وقضي على مصرف الزكاة الخاص بهم، والذي كان يضيع سدى.

٢. حدث تيسير في العبادة، وقضي على كل المظاهر والعادات الشكلية، لذا لم تعد هناك حاجة إلى أمتعة الذهب والفضة، وأوعية الذبائح وطلاء المحاريب والشمعدانات.

٣. فُرِضَ الحجُّ على كل مستطيع، لذا لم يعد كل شخص في حاجة إلى الذهاب إلى بيت الله، وعليه أُخرج هذا المبلغ (الذي كان ينفقه كل فرد فى الحج قبل الإسلام).

٤. مُنِعَ صرف الزكاة في أكل المزكي واحتياجاته؛ لأنها لو صرفت في قضاء حوائجه فما الفائدة منها ؟.

٥. وهكذا صُرفت كل المبالغ والأمتعة التي كانت تجمع للزكاة على الأطفال والفقراء والمساكين والمسافرين وغيرهم. وإضافة

للإصلاحات السابقة، قامت الشريعة المحمدية ببعض الإصلاحات الأخرى فيما يتعلق بالزكاة مثل:

٦. كان أكبر نقص في الشرائع السابقة أن الزكاة لم تكن تصرف لمستحقيها، بل كانت تجمع في خزانة، ثم يطهى منها الطعام، ويقسم على الفقراء، ولأن الضروريات والاحتياجات العامة للإنسان لا تقتصر على الأكل فحسب، قامت الشريعة المحمدية بهذا الإصلاح؛ وهو إعطاء الزروع والنقود لمستحقيها؛ حتى ينفقونها كما يشاءون طبقا لاحتياجاتهم.

٧. كان أكبر خلل هو أن الزكاة التي كانت نصف المثقال، كانت مخصصة للإنفاق على بيت المقدس، ولم تكن هناك أية زكاة نقدية إضافة لها. أما الشريعة المحمدية فقد فرضت زكاة نصف المثقال على كل عشرين مثقال وأوصلتها جميعها لأيدي مستحقيها.

٨. كانت زكاة الحبوب تجمع جميعها في بيت المقدس، فتطهى هناك، وتقسم بعد ذلك، وربما كان هذا الأمر مناسبا لشعب صغير كبني إسرائيل، لكنه لا يناسب تماماً الأتباع الكثيرين لهذا الدين العالمي، المنتشرين في كل مكان، لذا كان الأفضل أن تنفق زكاة كل مكان على المستحقين فيه.

٩. كان بعض المنافقين والبدو يطمعون في هذا النوع من الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها، يطعنون في الإسلام، ويشنعون عليه. أما الإسلام فقد حدد مصارف الزكاة؛ ليغلق فم هؤلاء الناس، ويقضي على عادتهم، فأخبر عن مستحقي الزكاة، وعمن يمكن مساعدته منها، وقد ورد ذكر ذلك بالتفصيل في الربع الخامس من سورة التوبة.

١٠. لو لم تحدد مصارف الزكاة وتوضح أوصاف مستحقيها، لأصبحت كل هذه الثروة لعبة في أيدي الخلفاء والسلاطين، وستضيع هي الأخرى كبقية الدخول على ترفهم وراحتهم؛ لذا أكد أنها تُحرّم على آخذها غير المستحق، وأن من يعطي زكاته لغير من يستحقها، فلن تكون زكاته قد أديت، وقد نتج عن هذا التشديد أن أصبحت الزكاة توزع بين المسلمين في مصارفها الشرعية قدر الإمكان.

١١. حين توزع مبالغ الزكاة على شيوخ الدين، فإنه سيساء الظن بأنهم يريدون فتح باب من الدخل الدائم لهم ولأسرهم، وقد عُدّ سيدنا هارون عليه السلام وأولاده في شريعة سيدنا موسى عليه السلام هم المستحقون للزكاة؛ لأنهم كانوا قد عينوا كهانا للأسرة، لكن النبي محمد (ﷺ) قضى على سوء الفهم هذا للأبد، وحرّم الزكاة على أهل بيته إلى يوم القيامة.

١٢. حددت الشريعة في القرآن الكريم ثمانية مصارف للزكاة هي:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٦٠).

وقد رُجِّحَ من الفقراء أباء النفس غير ميسوري الحال [١]، ومن لا يستطيعون القيام بأي عمل أو تجارة بسبب انشغالهم بأي عمل من أعمال الدين والمسلمين. ورغم أنهم محتاجون، إلا أنهم لا يسألون أحدا، ويحرصون على عفتهم، وعزة أنفسهم في كل الأحوال؛ لذا قال تعالى عنهم:

---

[١] ذكر المؤلف ص ١٢٦ "أن الزكاة يُرجحُ إيتاؤها للفقراء أُباء النفس ميسوري الحال" واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ (البقرة:٢٧٣). فى حين أن المقصود فى الآية الكريمة من "الفقراء" هم الفقراء غير ميسوري الحال؛ لذا ترجمت فقرته طبقا للآية الكريمة. (يوسف عامر).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ (البقرة:٢٧٣).

فيجب إعطاء كل المستحقين حسب أهميتهم وصلتهم بالترتيب، لذا قال تعالى في نفس السورة:

﴿وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ (البقرة:١٧٧).

ثم قال بعد ذلك بقليل:

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (البقرة:٢١٥).

التفاضل بين المحتاجين

كان من السائد قبل الإسلام اعتقاد بأن إعطاء الغريب والبعيد ومن لا صلة به أكثر ثوابا أو إثابة من إعطاء الأهل والأقارب، وكان سبب هذا أن تكون في إعطاء الأقارب شائبة النفس والطمع لأنهم أقاربه، وأن ربحهم أو خسارتهم هي ربح أو خسارة للإنسان نفسه، لكن حقيقة الأمر تظهر أن هذه مغالطة أخلاقية، فالحقوق التي للإنسان على الآخر مبنية على أساس عمق أو قلة ارتباطه به، فالأقرب هو أكثر من يكون له عليك حقوق وعليه لك واجبات، ولو لم يكن ذلك لأصبحت القرابة والصلات لغوًا لا قيمة لها. فأول حق يكون على الإنسان يكون على نفسه، ثم على أهله وعياله، ولو تبقى شيء في السنة بعد أداء حقوقهم، فسيكون أكثر المستحقين هم الأقارب، وقد روعي هذا الأمر في الميراث وتقسيم التركة.

قد يقال إنه لو رُجح الأقاربُ، فمن ذا الذي يعطي حق الفقراء؛ وهذا نوع من أنواع المغالطة. والحقيقة هي أن لكل إنسان في الدنيا أقارب، وعليه أن يسأل كل شخص عن أقاربه ويهتم بهم، فيُهتم إذن بكل الناس بهذه الطريقة. إضافة إلى هذا هناك مغالطة أخرى فى هذا الأمر، والتي يجب استئصالها تماما، وهي أن التفضيل الذي يكون بين المحتاجين يبني على أمرين: مدى قرب هؤلاء الأشخاص وبعدهم من المعطي. والثاني: مدى حاجة هؤلاء الأشخاص. ولا يعني ترجيح الأقارب أن يرجحوا سواء أكانوا محتاجين أو غير محتاجين على من هم أكثر منهم حاجة، بل إن الأمر يكون كالآتي: لو وجد هناك اثنان من المحتاجين مدى حاجتهم واحدة، وأحدهما قريب أو جار، فإنه يكون الأحق بالمساعدة؛ أي أن القريب سيرجح عند تساوي الحاجة ليس إلا. وهذه هي طبيعة الإنسان، فهو يرجح أقاربه وأحباءه في مثل هذه الحالة.

وقد رُجِّح من بين الفقراء والمساكين أولئك المحتاجون الذين لا يسألون الناس إلحافا، ويتحملون كل أنواع الفقر والفاقة، لكنهم مع ذلك لا يسألون الناس بسبب عزتهم وحيائهم، وهذا ما علمنا إياه القرآن الكريم كما مر ذكره، وقد أكد النبي (ﷺ) على هذا فقال:«لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهٰذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ. فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ. وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ». قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ. وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ. وَلاَ يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً».[1].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه.وهذا نص الحديث كاملا: (٢٣٤٦) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ يَعْنِي الْحِزَامِيَّ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهٰذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَىٰ النَّاسِ. فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ. وَالتَّمْرَةُ

ولهذا التوجيه هدفان: أولهما أن أي أحد سيعطي هؤلاء السائلين، وبهذا سيحصلون على العطاء من أي ناحية، لذا لم يلتفت إليهم بالقدر الذي يجب أن يلتفت به إلى هؤلاء المساكين، الذين يتحملون الفقر والفاقة بصبر وقناعة، فلا يعرف بحالتهم أحد، فيعيشون في الغالب محرومين من المساعدة. الهدف الثاني هو أن الشريعة قد أثبتت بتعاليمها وعملها أن كرامة السائلين المتجرئين قليلة للغاية في نظرها، وأنها لا تقبل إطلاقاً عدم حيائهم.

وقد حددت الشريعة مصارف الزكاة؛ حتى لا يجرؤ كل إنسان على السؤال ويعدها عامة الناس وسيلة سهلة للدخل. كما عدها بعض المنافقين والبدو ثمناً لإسلامهم؛ لذا فضح الله تعالى أمرهم وقال:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٥٨ – ٦٠)

في ذات مرة طلب رجل من النبي (ﷺ) أن يعطيه شيئا من مال الزكاة، فقال النبي (ﷺ):"إِنَّ الله لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيَ وَلاَ غَيْرِهِ في الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ».[1]

وَالتَّمْرَتَانِ». قَالُوا: فَمَا الْمِسكِينُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ. وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ. وَلاَ يَسأَلُ النَّاسَ شَيْئاً». (يوسف عامر).

[1] أبو داود، كتاب الزكاة، باب من يعطي الصدقة وحد الغنى.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (١٦٣١) حدثنا عَبْدُ الله بنُ مَسلَمَةَ أخبرنا عَبْدُ الله يَعْني ابنَ عُمَرَ بنِ غَانِمٍ عن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ زِيَادٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بنَ نُعَيْمٍ الْحَضْرَمِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بنَ الْحَارِثِ الصُّدَائِيَّ، قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فَبَايَعْتُهُ

المصارف الثمانية للزكاة في الإسلام

تضم هذه المصارف الثمانية كل أنواع الخير والفلاح وصنوفهما، فيدخل مع الفقراء والمساكين كل المحتاجين الذين لا يستطيعون الكسب من تعبهم وكفاحهم، كالعجوز والمريض والأعمى والمشلول والمفلوج والمجذوم، أو من يستطيع أن يكد، لكنه مشغول في أي عمل ضروري للدين والملة، ولا يجد الوقت للعمل، أمثال هؤلاء المبلغين والأئمة وطلبة العلم البالغين، فهؤلاء يدخلون في حكم قوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ﴾(البقرة:٢٧٣)

وكما دخل أصحاب الصفة زمن النبي (ﷺ)، يدخل أيضا الفقراء والمتعثرون الذين يعجزون عن كسب قوتهم لدرجة تفي حاجاتهم رغم كفاحهم وكدهم.

"والعاملين عليها" أي الذين يُعيَّنون من قبل الإمام لتحصيل الزكاة، فإنهم يأخذون أجرهم منها، ويدخل أيضاً المؤلفة قلوبهم أي الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، أو من يرغبون في الدخول فيه. "وفي الرقاب" أي العبيد الذين لا يزالون ملكاً لغيرهم، فيشترون ويحررون، وكذلك يدخل المقترضون الذين يتعثرون في سداد قروضهم. والمقصود بالغارمين أولئك الذين تعهدوا بضمان مالي في سبيل مصالحة الناس والقبائل، فيؤدي هذا الضمان المالي من الزكاة بوصفه نظامًا قوميا.

وَذَكَرَ حَدِيثاً طَوِيلاً قال فَأَتَاهُ رجُلٌ فَقَالَ اعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الله لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيَ وَلاَ غَيْرِهِ في الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ». (يوسف عامر).

ومفهوم "في سبيل الله" مفهوم واسع يشمل ويحوي كل أعمال الخير[1]، فيمكن أن يراد به أحيانا الأعمال الدينية، أو السفر للحج وخلافه حسبما تقتضي الضرورة. وابن السبيل تتضمن إضافة لمساعدة المسافر وإعداد سبل وصوله وتجهيزها كإنشاء الطرق والكباري وبيوت الراحة لهم[2]. تلك هي المصارف الثمانية للزكاة التي أكد الإسلام إنفاق هذا المبلغ القومي والديني (مبلغ الزكاة) فيها.

مساعدة المساكين والفقراء والمعاقين

أهم مصرف للزكاة هو مساعدة الأعرج والمشلول والأعمى والعجوز والمجزوم والمفلوج وغيرهم من المعاقين، وكذلك تولي مسئولية اليتامى والأرامل الذين لا يجدون قوت يومهم رغم كفاحهم. هذا هو مصرف الزكاة الذي يعد مصرفاً مهماً وضروريا في كل أمة وفي كل دين تقريباً، فلا تحتاج الحالة المؤسفة لهؤلاء المستحقين مزيداً من الشرح والتوضيح، لكن الإسلام حدد إضافة لهذا المصرف مصارف أخرى أحس الإسلام – بصفة خاصة – بأهميتها.

---

(1) ذهب أكثر الفقهاء إلى أن المقصود من قوله في سبيل الله هو الجهاد. لكن لا يقصد به الجهاد فحسب، فالآية السابقة ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يقصد هنا من سبيل الله الجهاد فحسب، وإنما كل عمل خير وكل عمل ديني. وقال أيضاً أكثر الفقهاء إنه يجب التمليك في الزكاة أي تمليك شخص ما. واستدلوا بأن اللام في قوله للفقراء للتمليك. لكن هذا مشكوك فيه؛ فاللام يمكن أن تكون للانتفاع كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾

(2) كتاب الخراج، قاضي أبو يوسف، باب الصدقات.

مكافحة الرق

كان الرق أصعب قيد للحضارة الإنسانية القديمة، ولم يفك هذا القيد غير الإسلام الذي أوضح فضائل تحرير العبيد وعتقهم، وأكد حسن معاملتهم والإحسان إليهم، وحسن السلوك معهم، بل أكثر من ذلك أنه حدد لهم مصرفاً خاصاً من مصارف الزكاة تشتري منه العبيد وتحرر. ولأن القيمة الكاملة لتحرير العبيد أو ثمن حريتهم لا يستطيع شخص واحد أن يتحمله، فقد اقترح أن يتم هذا بصورة جماعية من المبلغ الكلي للزكاة، وهذا إحسان منقطع النظير على هذه الطبقة الضعيفة، وقد أوجبت الشريعة المحمدية هذا الجزء من الزكاة على الأمة؛ حتى تعيد الحرية المسلوبة لهذه الطائفة المظلومة، ويظل هذا المصرف قائماً حتى يتحرر كل عبيد الدنيا، وحتى تنتهي هذه العادة من العالم كله.

المسافر:

من خلال وضع صعوبات السفر ومشقاته في الحسبان قديمًا، يمكن أن نفهم بسهولة مدى الحاجة إلي مساعدة المسافرين، وتهيئة وسائل السفر لهم؛ فكل المسافرين يتدفقون ذهابا وإيابا من الصحاري والغابات والحضر والمناطق النائية، وما يزال هذا الأمر موجوداً حتى الآن، فأولئك هم الذين خرجوا تاركين أهليهم وأقاربهم وأحبابهم دون مال أو ثروة، وليس عندهم طعام يؤكل، ولا ماء يشرب، ولا أريكة ينام عليها، ولا غطاء يقي من البرد، وهذا الأمر يعترض في بعض الأحيان كل إنسان، لذا اقتضت الضرورة أن تهيأ لهم سبل الراحة، لذا كانت تعد بيوت الضيافة والآبار، ودور الضيافة كانت وما زالت تبني حتى الآن.

ويمكن أن يقال إن هذه الصعوبات أصبحت بمثابة أساطير أو قصص خاصة بعصر معين، أما الآن ونحن في عصر الكهرباء والطاقة، فقد أقيمت في كل مكان فنادق فخمة، ووسائل مواصلات سريعة، وبنوك كبيرة، وشركات نقل عملاقة، ولم يعد هناك فرق بين السفر والحضر. لكننا إذا تأملنا فسنجد أن كل ما تم إنما هو مقصور على راحة الأغنياء والأثرياء ومتعتهم فحسب، فقد محت وسائلهم الحديثة كل الوسائل القديمة تماما، فكما أقيمت في كل مكان في العالم المتحضر في المدن الكبرى والقرى فنادق ومطاعم ومقاهي للمسافرين الأغنياء والأثرياء، كذلك هناك أيضاً في كل هذه البلدان المسيحية مسافرون فقراء كسيدنا عيسى لا يجدون مكانا يضعون فيه رءوسهم، ولا توجد في جيوبهم أوراق مالية ولا شيكات، وكل أبواب الفنادق ودور الضيافة مغلقة دونهم. **فهل هذه هي الرحمة بالبشرية ؟ وهل هذا عطف على بني الإنسان ؟** لكن في طول كل البلدان وعرضها التي فتحها أتباع النبي (ﷺ) أقيمت دور للضيافة وللمسافرين، وحفرت الآبار بشكل كبير، وتمكن المسافر الفقير من أن يسافر من "أسبانيا" حتى أقصى قرية في "كاشغر" بكل سهولة ويسر، وأن يمشي آمناً من أقاصي الهند حتى أقاصي بلاد الروم وهو يردد قائلاً: **"أهلاً بأهل وأوطانا بأوطان"**

وبسبب هذا النظام يحصل المسافرون الفقراء اليوم في كل البلاد الإسلامية التي لا تعرف النظام الرأسمالي الأوربي على كل الراحة والرفاهية. وماذا نقول للأمراء والأغنياء؟ نقول لهم كما قال سعدي: ليس غريبا أن يكون المنعم بجبل أو صحراء، فحثما يحل يقيم خيمة البلاط الملكي

صورة نفقات الأعمال الجماعية

في الحقيقة لن يتحقق وجود الجماعة دون أن يتجمع الأفراد المتفرقون في شمل واحد. ومع وجود الجماعة، فإنها- كالأفراد - تحتاج للضروريات، فمساعدة الضعفاء والمعوقين والمفلسين من الجماعة، وكفالة نفقة الحرب الوقائية للحفاظ على الجماعة ومبادئها، وإنشاء وتطوير وسائل السفر والنقل لها، ومساعدة المقترضين والمتضررين مادياً، وتعويض أعضاءها القائمين على خدمتها الدينية والعلمية والتعليمية، والقائمين على جمع هذه المبالغ وتوفيرها أمر ضروري؛ **فالزكاة هي الثروة النقدية لكل هذا النظام الجماعي.**

أهداف الزكاة وفوائدها وإصلاحاتها

إن الهدف الرئيسي والأساسي من الزكاة يكمن في لفظ الزكاة نفسه؛ فالمعنى اللفظي للزكاة هو الطهارة والنظافة، أي الطهارة والنظافة من الذنب وكل العيوب المعنوية والقلبية والأخلاقية، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم مراراً بهذا المعنى، ففي سورة الشمس:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩، ١٠).

فهذه التزكية والعفة والطهارة، هي أحد الخصائص النبوية العظيمة الثلاثة التي ورد ذكرها في بعض آيات القرآن الكريم مثل: **﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:١٦٤- الجمعة:٢).**

تزكية النفس

يتضح من تلك الآيات مدى أهمية الزكاة والتزكية، أي العفة والطهارة في الإسلام والشريعة المحمدية، فطهارة القلب وصفاء الروح وعفة النفس،

هي الغاية الحقيقية للدين والهدف الأصلي للنبوة. فالسبب في الجزء الأكبر من أمراض الإنسان النفسية والروحية يرجع إلى عدم الرجاء والخوف من الله، وقطع الصلة به وعدم محبته، وتكون الصلاة هي الدواء لذلك. أما السبب الثاني الأكبر هو حب ما سوى الله، وتعلق القلب بالمال والثروة والوسائل الدنيوية الأخرى، والزكاة هي العلاج لهذا المرض الثاني. فحين أذنب بعض الصحابة أثناء عزوة تبوك، ولم يشاركوا في الغزوة بسبب حبهم لحدائقهم وبساتينهم التي كانت رأس مالهم، ثم سامحهم الله تعالى لصدقهم وإخلاصهم. حينذاك خوطب النبي في القرآن الكريم وقيل له:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣)

فثبت من هذه الآية الكريمة أن أكبر مرض في القلب ــ والذي يطلق عليه حب المال ــ يزول بمداومة إخراج قدر من المال في سبيل الله، وبه أيضاً يكون علاج مرض البخل، ويقل الحرص على المال، وينمو شعور مواساة الآخرين، ويتعلم الإنسان إيثار المصالح الاجتماعية على المصالح الشخصية. تلك هي الجدران التي تقوم عليها أسس تهذيب النفس، وحسن الخلق ونظام الحياة الاجتماعية.

والحد الذي يُعد فاصلاً بين الربا والصدقة في القرآن الكريم هو:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة:٢٧٦). ولكن لا يعني هذا خسارة حقيقية في الربا، وزيادة ملموسة في الصدقة؛ لأن الواقع خلاف هذا. لكن الهدف الحقيقي من هذا - إضافة إلى لفارق في الثواب والعقاب الأخروي والبركة أو عدمها - هو أن الربا رغم أنه يزيد في ثروة الإنسان، فإنه يخرب ويدمر ثروة الجماعة، فتخسر الأمة كلها بذلك، ثم يهلك هذا الإنسان نفسه في النهاية. وبمساعدة أفراد الأمة غير القادرين على الكسب من الصدقة والعطايا القومية، يظل النظام المعتدل للثورة القومية قائماً، فتعيش الأمة كلها حياة سعيدة مباركة. وإن حدث ووقع آكل الربا في مأزق

مالي، فلن يتحرك إصبع واحد من الجماعة لمساعدته، لكنها ستهب جميعها لمساعدة المزكي إن حدث معه ذلك.

وهناك أمر آخر، وهو أن آكلي الربا يصبحون حريصين وطماعين، لدرجة أنهم يرون المال الكثير قليلا. أما المتصدقون والمزكون فيصبحون أغنياء مستعفين، لدرجة أن القليل للغاية يكفيهم. إن آكل الربا يحرص على زيادة ومضاعفة ماله، لدرجة أن السيف الذي يقتل به غيره، ثم يستولي على ماله، يأتي شخص آخر في النهاية ويقتله به، ويستولي على كل ماله ومكاسبه. أما المتصدق المزكي فلا يستولي على أموال أحد بطريقة غير شرعية، بل إنه يعطي الآخرين من ماله، ويدير تجارته بطريقة سليمة، فلا يسلبه أحد، لذا يحافظ على ثروته ومكاسبه القليلة. وأسواق ومخازن المدن التجارية الكبرى في العالم صورة معبرة لهذا الواقعة المؤثرة، وهذا المشهد يتكرر كل يوم، لذا وضح أن الاستغناء والقناعة هما حجر أساس الفضائل الأخلاقية.

لذا أرشدنا النبي (ﷺ) بطريقة بليغة وحكيمة للغاية فقال: **«ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنَّ الغَنى غِنى النفس»** [1]. وقد ترجم سعدى هذا الحديث الشريف بقوله: "الغنى غنى النفس لا غنى المال". وإن شئت قل بعبارة أخرى: إن الثروة لا تعني زيادة الدخل، بل قلة الاحتياجات. لكن هذه الثروة غير الفانية لا تكتسب بالحرص والطمع وإنما بالصبر والقناعة. وعلى

---

[1] البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس.وهذا نص الحديث كاملا: (٦٢٩٩) حدَّثنا أحمدُ بن يونسَ حدَّثنا أبو بكرٍ حدَّثنا أبو حَصين عن أبي صالح عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنَّ الغَنى غِنى النفس». (يوسف عامر).

هذا فهل يمكن أن يشك أحد في كون الزكاة والصدقة مطهرين ومزكيين ومصلحين للأخلاق ؟.

ثم متى يجد آكل الربا فرصة أثناء سلبه الآخرين ليقوم بفرض بمساعدة الغير؟ إنه سيظل في هذه الدوامة إلى الأبد، يتورط في مصائب وآلام الآخرين، ويستفيد من حالتهم هذه. أما المزكي فإنه يظل مشغولاً بالبحث عن المحتاجين؛ حتى يساعدهم من ماله وثروته، ويضمد جراح قلوبهم.

التدبير العملي للإعانة المشتركة

الجزء الأكبر من مصارف الزكاة والصدقات يكون لمساعدة الفقراء والمحتاجين؛ لأنها هي الطبقة البشرية التي تعاطفت معها كل الأديان، ولأجل طمأنتهم ومواساتهم استخدمت ألفاظاً مبشرة – للغاية – برجاء وتمني الدار الآخرة، لكن لا يجب أن نفهم أن مرارة حياتهم ستزول بالكلام المعسول فقط من أهل الأديان، وقد كان النبي (ﷺ) أول وآخر نبي أثبت تعاطفه العملي مع هذه الطبقة، وسن واتخذ تدابير عملية لتقليل متاعبها ومصائبها، وقد أمضى النبي (ﷺ) نفسه حياته كالفقراء والمساكين، ودعا الله تعالى فقال: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسكِيناً وَأَمِتْنِي مِسكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ» [1]. وكان بيته

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٣٩٢) حدَّثنا عَبْدُ الأَعْلَى بنُ وَاصِلٍ الكُوفِيُّ، أَخْبَرنَا ثَابتُ بنُ مُحمَّدٍ العَابدُ الكُوفِيُّ، أَخْبَرنَا الْحَارِثُ بنُ النُّعْمَانِ أخبرنا اللَّيْثِيُّ عن أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله قالَ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسكِيناً وَأَمِتْنِي مِسكِيناً وَاحْشُرْنِي في زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قالَ: «إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً، يَا عَائِشَةُ لاَ تَرُدِّي المِسكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي المَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ الله يُقَرِّبُك يَومَ القِيَامَةِ» .

قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غريبٌ. (يوسف عامر).

صلى الله عليه وسلم ملاذا للفقراء والمساكين، كما أن الفقراء والمساكين كانوا هم المقربين في مجلس رسول الله والفدائيين في غزوات الإسلام، فلم يكن فقر أي إنسان وتعسره يعنيان تدنيه أو تحقيره عند رسول الله (ﷺ). كما لم تكن الثروة والإمارة تعنيان العزة والوقار، بل إن التقوى والصلاح كانا أساس الأفضلية والتعظيم. وقد قال سيدنا المسيح: "إن فقراء القلب مباركون لأن ملك السماء ملكهم"[1]. وقد أدى النبي (ﷺ) نفس المعنى لكن بإيجاز واختصار أكثر فقال: "إذ المكثرين هم المقلون"[2]. والمعنى الثاني لهذا هو

---

[1] متى ٥ – ٣.وهذا نصه " طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات" (العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح٥، الفقرة٣، ص٧)(يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٦٢٩٦) حدَّثَنا قُتيبة بن سعيدٍ حدَّثَنا جَرِيرٌ عن عبد العزيز بن رُفَيعٍ عن زيدِ بن وَهب عن أبي ذرٍّ رضيَ اللَّه عنه قال: «خَرجتُ ليلةً من الليالي، فإذا رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمشي وَحدَهُ وليس معَهُ إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، قال: فجعلتُ أمشي في ظلِّ القمر، فالتفتَ فرآني فقال: من هذا؟ قلتُ: أبو ذر جَعَلني اللَّهُ فداءَك. قال: يا أبا ذر، تعال. قال: فمشَيْتُ معهُ ساعة، فقال لي: إن المكثرينَ همُ المقلون يومَ القيامة، إلا من أعطاهُ اللَّه خيراً فنفَح فيه يمينَهُ وشِماله، وبين يدَيهِ ووراءَه، وعملَ فيه خيراً. قال: فمشيتُ معَهُ ساعة فقال لي: اجلسْ ها هنا، قال: فأجلَسَني في قاعٍ حولَهُ حِجارة، فقال لي: اجلسْ ها هنا حتى أرجعَ إليك. قال: فانطلق في الحَرَّة حتى لا أراه، فلَبِثَ عني فأطال اللبْث، ثمَّ إني سمعتُهُ وهو مُقبِلٌ وهو يقول: وإنْ سرَق، وإن زنى. قال: فلما جاءَ لم أصبرْ حتى قلت: يا نبيَّ اللَّه، جَعلني اللَّهُ فِداءك، مَن تُكلمُ في جانبِ الحرة؟ ما سمعتُ أحداً يرجعُ إليكَ شيئاً. قال: ذلك جبريلُ عليه السلامُ عَرَضَ لي في جانب الحرة قال: بَشِّرْ أمتَكَ أنهُ من ماتَ لا يُشركُ باللَّهِ شيئاً دخلَ الجنة، قلت: يا جبريلُ، وإن سَرَق، وإن زنى؟ قال: نعم. قال: قلت: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم». قال النضرُ: أخبرَنا شعبةُ وحدَّثَنا حَبيبُ بن أبي ثابت والأعمشُ وعبدُ العزيز بن

أن الفقراء سيكونون هم الأغنياء، ثم بشرهم بأن الفقراء (الذين لن يحاسبوا أمام الله تعالى على أي ثروة لهم) سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين سنة[1]. أما العمل الإضافي الذي قام به الإسلام إضافة لتلك المواساة والبشارات المعنوية، فهو أنه اتخذ تدابير عملية لتقليل المضايقات والمصائب الدنيوية لهؤلاء الفقراء، هذه التدابير تكمن في الصدقة والزكاة، فلم يقتصر تعليمه على الترغيب والتشويق الأخلاقي فقط لمساعدتهم وإعانتهم، وإنما اتخذ نوعين من التدابير، أولهما: أنه نصح كل مسلم أن يساعدهم قدر المستطاع من ماله، وهذه هي الصدقة التطوعية التي أسماها القرآن الكريم إنفاقاً، لكن لأن هذه الصدقة التطوعية لا يجبر كل شخص على فعلها؛ لذا فرضت ضريبة قانونية على كل من يملك مقداراً معينا من المال، يؤديه كل سنة، بوصفه فرضاً دينياً، ويخصص المبلغ الأكبر من هذا المقدار لمساعدة الفقراء والمحتاجين وإعانتهم. وقد سن رسول الله (ﷺ) تعليمه هذا لأمته على

رُفَيع حدثنا زيدُ بن وَهب بهذا. قال أبو عبدِاللَّهِ: حديث أبي صالحِ عن أبي الدرداء مُرسَل لا يَصحُّ، إنما أرَدنا للمعرفة والصحيحُ حديث أبي ذر. قيل لأبي عبدِ اللَّه: حديث عطاءِ بن يَسار عن أبي الدرداء؟ قال: مرسل أيضاً لا يَصحُّ، والصحيح حديث أبي ذر. وقال: اضربوا على حديثِ أبي الدرداءِ هذا «إذا مات قال: لا إله إلا اللَّه عندَ الموت».(يوسف عامر).

[1] جامع الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٢٣٩٢) حدَّثنا عَبْدُ الأعلَى بنُ وَاصِلِ الكُوفِيُّ، أَخْبَرنَا ثَابتُ بنُ مُحمَّد العَابدُ الكُوفِيُّ، أَخبَرنَا الْحَارِثُ بنُ النُّعْمَانِ أخبرنا اللَّيْثِيُّ عن أَنَس، أَنَّ رَسُولَ الله قالَ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسكيناً وَأَمِتْنِي مِسكيناً وَاحشُرنِي في زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «إنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً، يَا عَائِشَةُ لاَ تَرُدِّي المِسكِينَ ولَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي المَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ الله يُقَرِّبُكِ يَومَ القِيَامَةِ» . قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ غريبٌ. (يوسف عامر).

الدوام بوصفه دستور عمل، لا يقبل التغيير ولا التبديل، لذا حينما أرسل النبي (ﷺ) معاذ بن جبل نائباً عنه إلى اليمن، أمره بعد التوحيد والصلاة بالزكـــاة، وقال له عنها أنها: **تؤخذ من أغنياءهم وترد على فقرائهم**[1].

ولقد حافظ الصحابة – رضوان الله تعالى عنهم – بشدة علـــى هـــذين النوعين من الصدقات تمسكاً بهديه (ﷺ)، لدرجة أن الـــذي كـــان لا يملـــك المقدرة منهم، كان يذهب للسوق ويعمل، ثم يخرج المبلغ الذي يكـــسبه فـــي مساعدة إخوانه المحتاجين والفقراء. هذا ولقد واسى النبي (ﷺ) هذه الطبقـــة من الناس، لدرجة أنه قال: «اتَّقوا النارَ ولو بِشقِّ تَمرةٍ».[2] **الأكثر من هذا أنـــه (ﷺ) منع أن ينهر السائل، وقد علمنا الله تعالى هذا في القرآن فقال:**

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ (الضحى:٩، ١٠).

---

[1] صحيح البخاري، المجلد الثاني، ص ١٠٩٦، كتاب الرد على الجهمية: وهذا نـــص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٧٧) حدّثنا أبُو عاصِمٍ الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ عن زَكَرِيّاءَ بنِ إسحاقَ عن يحيى بنِ عبدِ اللّهِ بنِ صَيْفِيٍّ عن أبي مَعبَدٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهما «أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بَعثَ مُعاذاً رضيَ اللّهُ عنـــهُ إلى اليَمنِ فقال: ادْعُهم إلَى: شهادةِ أنْ لا إله إلاّ اللّهُ وأني رسولُ اللّهِ، فإن هُمْ أطاعوا لذلك فأعلِمْهُم أنّ اللّهَ افترَضَ عليهم خَمسَ صَلَواتٍ في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعْلِمْهُم أنّ اللّهَ افترضَ عليهم صدقةً في أموالِهمْ، تُؤخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فُقَرائهم». (يوسف عامر). (يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقو النار ولو بشق تمرة: (١٣٩٧) حدَّثنا سُليمانُ بنُ حَرْبٍ حدَّثَنا شُعبةُ عن أبي إسحاقَ قال سمعتُ عبدَ اللّهِ بنَ مَعقِلٍ قال: سمعتُ عَدِيَّ بنَ حاتِمٍ رضيَ اللّهُ عنهُ قال: سمعتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ «اتَّقوا النارَ ولو بِشقِّ تَمرةٍ».(يوسف عامر).

إضافة لهذا أمرنا – أيضا – إذا أحسنا إلى محتاج، ألا نعد عليه الإحسان حتى لا نخجله، بل علينا أن نؤدي شكر الله على هذه النعمة وعلى هذا الإحسان؛ لأن التذكير بالإحسان مما يبطل به الإحسان. لذا قال تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (البقرة:٢٦٤).

بهذا الرفق واللين والرأفة ساعد النبي (ﷺ) بأمر من الله هذه الطبقة الضعيفة، وأعطانا دروس الحب المتبادل ومساعدة الآخرين، فلو اقتصر الأمر على الناحية الأخلاقية فقط، أو كان بطريقة مبهمة، أو أمر كل واحد أن يخرج كل ما يملك، لما كان ليعمل به بهذا الجمال والنظام والالتزام. وما يزال هذا الطريق مفتوحاً اليوم أمام المسلمين.

ويعمل به اليوم أيضاً في كل مكان تقريباً، لهذا السبب لم يكن الأغنياء قلة في المسلمين، فإن الفقراء المحتاجين أيضاً يكونون قلة، كما يظهر في الشعوب الأخرى. لكن من المؤسف أن نظام المسلمين هذا قد تردى ترديا شديدا منذ فترة، ولا يهتم بتنظيمه، فنتج عن هذا أن تردى وتدهور كل عمل مشترك لنا.

علاج أمراض الأغنياء

دائما ما جاءت قضية الثروة أو الغنى بوصفها مسألة مختلفاً فيها في كل أديان الدنيا. فهناك بعض المذاهب كاليهودية لم يقلل فيها من شأن الثروة، ولم يقدر فيها المفلس والفقير؛ بل وكأن هذا البحث قد تُرك بدون تفصيل. لكن المسيحيين والبوذيين قد حرما الثروة، فالثروة والغنى في نظر المسيحيين شوكة وعقبة في طريق النجاة، بل إن أي إنسان لن يتمكن من الحصول على النجاة حتى يخرج كل ما عنده في سبيل الله. وقد ورد في الإنجيل أن غنياً صالحا سأل سيدنا عيسى عن طريق النجاة، فقال له سيدنا عيسى: "إن أردت

أن تكون كاملاً، فاذهب وبع كل ما عندك، واعط ثمنه للمحتاجين حتى تكون لك ثروة في السماء، وقتها تعال واتبعني". وحينما سمع الغنى هذا الكلام ولى حزيناً، فقال سيدنا عيسى في الإنجيل: "إن دخول الغنى مملكة السماء صعب، بل إنني أقول إن ولوج الجمل في سم الخياط أسهل من دخول الغني في مملكة الله" (متى ١٦ – ٢١ – ٢٤)[1].

وقد حثت الديانة البوذية الناس على ترك الدنيا، والعيش بعيداً عن كل أنواع الثروة، وأعدَّ لمثل هؤلاء الناس هذه الوسيلة: وهي أنهم إذا جاءوا أخذوا قصعة، ووقفوا أمام بيوت الناس يتسولون. ولكن رسول الله (ﷺ) لم يفضل هاتين الطريقتين، فالحقيقة أن الثروة لو كانت شيئا سيئا، فلن يكون في إعطائها الآخرين مصلحة لهم؛ بل ضرر وعداوة، ولو أن الفقر شيء سيئ، فلن يكون إعطاء الآخرين كل شيء والعيش في الفقر فطنة وصلاحا، لذا فإن هذه الطريقة غير مفيدة – على حد سواء – لكل شخص، فإن الثروة لا تجعل من الملاك شيطانا، كما لا يجعل الفقر الشيطان ملاكاً. وكما أن الثروة تكون سبباً لآلاف المصائب في الدنيا، فإن الفقر كذلك يكون محركاً ودافعاً لآلاف الجرائم الدنيوية، وقد كان إنقاذ الإنسان وتخليصه من هذين الجرمين فرض النبوة الأعظم. فالغنى في حقيقته والفقر في حد ذاته بريئان من صفة الخير والشر؛ فلو نظرنا لصلاحية فعل الخير وإمكانيته لوجدنا أن الخيّر الغني يملك

---

(1) ورد النص هكذا في التوراة" وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح: أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية. قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني* فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا. لأنه كان ذا أموال كثيرة* فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات * وأقول لكم إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخلني إلى ملكوت الله"(العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح ١٩، الفقرات ١٦-٢٤)(يوسف عامر).

فرصاً أكثر بكثير من الخيّر الفقير، لذا تعد الثروة في نظر الإسلام من نعــم الله تعالى لا من نقمه، وتعد ميزة وليست عيباً، وخيراً وليست شرا. لذا عُبر في القرآن الكريم عن الثروة في أماكن عديدة بالخير والفضل، ويثبت فــضل الثروة من الأحاديث النبوية كذلك.

لذا حينما أراد أحد صحابة رسول الله أن يتبرع (يتصدق) بكل مالــه في سبيل الله حين حضرته المنيةَ قال له النبي (ﷺ):إنَّكَ أن تَدَعَ وَرَثَتَكَ أغنيــاء خيرٌ من أن تَدَعَهُمْ عالةً يتكفَّفون الناسَ [1]. وكان من صــحابة رســول الله (ﷺ) الأغنياء والفقراء، وكان الفريقان يحتلان نفس المكانة في مجلس رســول الله (ﷺ). ويروى أن فقيراً جاء لرسول الله (ﷺ) ذات مرة، وقال له: " يا رسول الله يسبقنا إخواننا الأغنياء، فإنهم يفعلون الحسنة التي نفعلها، إضافة إلى أنهم يتصدقون، ونحن لا نتصدق". فعلمهم النبي (ﷺ) دعاء يدعون به، فلما ســمع الأغنياء به، أخذوا يدعون به أيضا، فعاد الفقــراء لرســول الله (ﷺ) ثانيــة وأخبروه، فقال النبي: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[2].

---

[1] البخاري، كتاب الوصايا، أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففون الناس. وهــذا نص الحديث: (٢٦٨٣) حدثنا أبو نُعَيم حدَّثَنا سُفيانُ عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن عامرِ بنِ سعدٍ عن سعدِ بنِ أبي وقاص رضيَ اللهُ عنهُ قال: «جاءَ النبيُّ صلى الله عليه وســلم يعودُني وأنا بمكة، وهوَ يكرَهُ أن يموتَ بالأرضِ التي هاجرَ منها، قال: يَرحَمُ اللهُ ابنَ عَفراءَ. قلتُ: يا رسولَ الله أُوصي بمالي كله ؟ قال: لا. قلت: فالــشَّطر ؟ قــال: لا. قلتُ: الثُّلث ؟ قال: فالثُّلث والثُّلثُ كثير، إنَّكَ أن تَدَعَ وَرَثَتَكَ أغنياء خيرٌ من أن تَدَعَهُمْ عالةً يتكَفَّفون الناسَ في أيديهم وإنَّكَ مهما أنفقْتَ من نَفَقَةٍ فإنها صدقَة، حتّى اللُّقْمة التي تَرفَعها إلى في امرأتكَ، وعسى اللهُ أن يرفعَكَ فَيَنْتَفِعَ بكَ ناسٌ ويُضَرَّ بكَ آخرون. ولم يكُنْ له يَومَئذٍ إلاَّ ابْنَةٌ».(يوسف عامر).

[2] البخاري، ومسلم، باب استحباب الذكر بعد الصلاة.وهذا نص الحديث فــي صــحيح مسلم: (١٢٩٨) حدثنا عَاصِمُ بْنُ النَّضرِ التَّيمِيُّ. حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ. حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللّــهِ. ح

وقد حل النبي (ﷺ) بتعليمه وإرشاده المنير تلك المسألة المعقدة – التي ظلت تتواتر في الدنيا بشكل معقد ومبهم – حلا نهائيا؛ ففي ذات مرة قال النبي (ﷺ) في حديث له: «إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكم ما يُخرج اللّهُ لكم من بركاتِ الأرض؟ قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زَهرة الدنيا. فقال له رجلٌ: هل يأتي الخيرُ بالشرِّ؟ فصمتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ أنه يُنزل عليه، ثم جعلَ يَمسحُ عن جَبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدْناهُ حينَ طلعَ لذلك، قال: لا يأتي الخيرُ إلا بالخير. إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوة، وإنَّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ، إلا آكلةَ الخضرة، أكلتْ حتى إذا امتدَّت خاصرتاها استقبلَتِ الشمسَ فاجترَّت

قَالَ وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنِ ابْنِ عَجْلاَنَ. كِلاَهُمَا عَنْ سُمَيٍّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهَذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ، أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللّهِ. فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي. وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ. وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ، ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ مَرَّةً». قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ. فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا. فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ». وَزَادَ غَيْرُ قُتَيْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ اللَّيْثِ عَنِ ابْنِ عَجْلاَنَ: قَالَ سُمَيٌّ: فَحَدَّثْتُ بَعْضَ أَهْلِي هَذَا الْحَدِيثَ. فَقَالَ: وَهِمْتَ. إِنَّمَا قَالَ «تُسَبِّحُ اللّهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ وَتَحْمَدُ اللّهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ وَتُكَبِّرُ اللّهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ» فَرَجَعْتُ إِلَى أَبِي صَالِحٍ فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ. فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: اللّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللّهِ وَالْحَمْدُ للّهِ. اللّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللّهِ وَالْحَمْدُ للّهِ. حَتَّى تَبْلُغَ مِنْ جَمِيعِهِنَّ ثَلاَثَةً وَثَلاَثِينَ. قَالَ ابْنُ عَجْلاَنَ: فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ رَجَاءَ بْنَ حَيْوَةَ. فَحَدَّثَنِي بِمِثْلِهِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ .(يوسف عامر).

وَثَلَطَت وبالت، ثم عادت فأكلت. وإنّ هذا المالَ حلوةٌ: من أخذَه بحقه، ووَضعهُ في حقه، فنعمَ المعونة هوَ. وإن أخذَهُ بغيرِ حقه كان كالذي يأكل ولا يَشبَع». [١].

بيّن النبي (ﷺ) في هذا الحديث أهم نقطة في هذه القضية، وقال إن الثروة نفسها ليست خيرا ولا شرا، بل إن الوسيلة الصحيحة أو غير الصحيحة ومصرفها الجائز وغير الجائز هما الخير والشر، فلو تحصل بطريقة صحيحة، وتنفق بطريقة صحيحة، فإنها تكون أفضل طريق للخير والإحسان. أما إذا كانت طريقة تحصيلها أو إنفاقها غير صحيحة، فإنها ستكون فتنة ووبالا. فالفضائل والعيوب الأخلاقية واحدة للغني والفقير، فالغني الكريم المتواضع والفقير القانع الصابر الشاكر على درجة واحدة من الفضيلة في نظر الإسلام، وكذلك الغنى المتكبر البخيل والفقير الحريص الطماع على درجة سواء، لذا كانت هناك حاجة لإصلاح أخلاق الأغنياء والأمراء من ناحية مع إجازة الثروة، ومن ناحية أخرى إصلاح أخلاق وعادات الفقراء والمحتاجين إضافة لعونهم ومساعدتهم. والزكاة في الإسلام

---

[١] البخاري، كتاب الزكاة وكتاب الزهد والرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا.وهذا نص الحديث بسنده كما ورد في صحيح البخارى: (٦٢٨٠) حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن زيدِ بن أسلم عن عطاء بن يَسارٍ عن أبي سعيدٍ الخُدري قال: قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكم ما يُخرج اللّهُ لكم من بركاتِ الأرض؟ قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زَهرة الدنيا. فقال له رجلٌ: هل يأتي الخيرُ بالشرّ؟ فصمتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ أنه يُنزَل عليه، ثم جعلَ يَمسحُ عن جَبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمِدناهُ حينَ طلعَ لذلك، قال: لا يأتي الخيرُ إلا بالخير. إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوة، وإنَّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ، إلا آكلةَ الخضرة، أكلتْ حتى إذا امتدَّت خاصرتاها استقبلَت الشمسَ فاجترَّت وثَلَطَت وبالت، ثم عادت فأكلت. وإنَّ هذا المالَ حلوةٌ: من أخذَه بحقه، ووَضعهُ في حقه، فنعمَ المعونة هوَ. وإن أخذَهُ بغيرِ حقه كان كالذي يأكل ولا يَشبَع». (يوسف عامر).

أسم نبذ الإصلاح العظيم الثنائي الجانب، وفيما يتعلق بهذا الأمر فأول ما فعله تعليم النبي (ﷺ) أنه حرم تحريما مطلقا الطرق غير المشروعة لكسب الثروة، وكذا المكر والخداع والخيانة والسلب والميسر والربا وغير ذلك. كما لم يؤيد مبدأ الرأسمالية، وحرم الربا الذي هو أسهل طرقها، وأشهر طريقة نسب الفقراء، عدّه بمثابة الحرب مع الله ورسوله. واعتبر الأرض البور ملكاً لمن يستصلحها بكفاحه، لذا قال النبي (ﷺ):"الأَرْضُ أَرْضُ الله، وَالْعِبَادُ عِبَادُ الله. وَمَنْ أَحْيَا مَوَاتاً فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا" (طيانس ص ٢٠٤)[١] ولم يعد التركة ملكاً لواحد بعينه، بل تقسم على لكل الأقارب كل حسب أحقيته. ولم يعتبر البلاد المفتوحة ملكاً خاصاً لأمير المؤمنين وإنما كل الجماعة. وجعل هبات الطبيعة وعطاياها التي تأتي دون تعب من الإنسان، كعين الماء والعشب والمرعى والملح والمعادن وغير ذلك تحت تصرف الجماعة. عد الأراضي التي أخذت من الأعداء سلماً عدّها ملكاً خاصاً للفقراء والمحتاجين بدلاً من الأمراء والأغنياء. وبيّن سبب ذلك فقال:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر:٧).

ثم عدّ – بعد ذلك في الموضوع نفسه – البخل أكبر أمراض الأغنياء، وأسود مظاهر البشرية في الدنيا، وأكبر مستوجب لعقاب الله في الآخرة، وبشر المعافى من هذا الداء فقال:

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٣٠٧٨) حدثنا أَحْمَدُ بنُ عَبْدَةَ الآمُلِيُّ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ عُثْمَانَ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ المُبَارَكِ أَنْبأَنَا نَافِعُ بنُ عُمَرَ عن ابن أَبي مُلَيْكَةَ عنْ عُرْوَةَ، قالَ: « أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَضَى أَنَّ الأَرْضَ أَرْضُ الله، وَالْعِبَادَ عِبَادُ الله، وَمَنْ أَحْيَا مَوَاتاً فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا جَاءَنَا بِهٰذَا عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الَّذِينَ جَاؤوا بالصَّلَوَاتِ عَنْهُ». (يوسف عامر).

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

إن المبتلى بالبخل لا يبخل في الحقيقة على الآخرين، وإنما يبخل على نفسه؛ إذ إنه بسبب ذلك يحرم نفسه في الدنيا من كل عزيز وعمل طيب، بل حتى من الراحة والمتعة الجائزتين، ويحرم نفسه من ثواب الله في الآخرة لذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد:٣٨).

فقد ثبت من هذه الآية الكريمة بطريقة غير مباشرة أن تلك الثروة التي يعدها الإنسان ملكا له، هي في الحقيقة ليست ملكاً له، وإنما مالكها الحقيقي هو الله تعالى، والإنسان دائما في حاجة إليه سبحانه، ثم إن الشخص ليس مالكًا حقيقيا للمال، وإنما هو أمين عليه، فإن لم ينفق المال طبقا لأمر المالك الحقيقي، واعتقد أن هذا المال هو ماله الخاص، وتحكم في أن يعطي أو يمنع، أما يستحق هذا الشخص أن يُطلَق عليه خائن وبلا إيمان؟. والحقيقة أن هذا الاعتقاد بأن المال مالي ونسبته إلى شخصي، وأنانيتي أساس كل المعاصي والآثام في الدنيا، والآية السابقة تنقب عن هذا الأساس، وتقتلعه وترمي به.

ثم أوضح للملاك المجازيين الأمناء على هذه الثروة، أنهم سيحاسبون أمام الله عن كل مثقال ذرة من مال الله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨).

لذا عليهم أن يعوا جيدا أين وكيف ينفقوا ثروتهم. وحذر أولئك الذين يعتقدون أن مالهم سبب نجاتهم فقال تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة:١-٣).

وقال رسول الله (ﷺ): «لا حَسَدَ إلاّ في اثْنتين: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسلَّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحكمةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها» [1]. وقال الله تعالى للذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣٤).

وقد قسمت هذه الآية الكريمة الصحابة إلى فريقين: فريق كان يقول إنه يجب إخراج كل ما عندك في سبيل الله، ولا يجب ادخار شيء للغد، وإلا سيكون من لا يفعل هذا مستحقاً لعذاب الله طبقاً لهذه الآية. أما الفريق الثاني: فكان يقول إن الذي يكتنز المال بعد أن يخرج منه الحق المعلوم الذي حدده الله تعالى في ماله (أي الزكاة)، لن يكون مستحقاً لعذاب الله. لكن الراسخون في العلم من الصحابة وعلماء الأمة قد حلوا هذه العقدة تماما بقولهم وعملهم، ولم يرد في توراة سيدنا موسى أي توجيه لصدقات المال بعد الجزء المخصص للزكاة. وفي إنجيل سيدنا عيسى أعطيت مفاتيح ملكوت السماء إلى من يخرج كل ماله في سبيل الله. هذان التوجيهان صحيحان في حد ذاتهما، كما أن التوجيه الأول أقل من عزيمة بعض أصحاب الهمم العالية. كذلك التوجيه الثاني – والذي هو حتما فكر روحاني عالٍ– أكثر بكثير من عزيمة عامة الناس من الناحية العملية، لذا يمكن القول بأن ذلك أسلوب خارج عن دائرة الفطرة البشرية، لذا لا يمكن أن يعمل به إلا قلة قليلة من

---

[1] البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٧٣) حدَّثنا الحُميدي قال: حدَّثنا سُفيان قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ ــ على غير ما حدَّثناهُ الزُّهريُّ ــ قال: سَمعتُ قَيسَ بنَ أبي حازمٍ قال: سمعتُ عبدَ اللّه بنَ مَسعود قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا حَسَدَ إلاّ في اثنتين: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسلَّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحكمةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها» (يوسف عامر).

الناس. وشريعة سيدنا محمد تجمع شريعتي سيدنا موسى وسيدنا عيسى، فقد حدد الإسلام درجات الصدقات، درجة إلزامية والثانية أخلاقية تطوعية، وظل المقدار الإلزامي كما كان في شريعة سيدنا موسى، أي نصف المثقال في النقد والعشر في المحاصيل. تلك هي الصدقات التي يجب إخراجها سنويا على كل مستطيع وصاحب نصاب، ويجب على الجماعة تحصيلها وإنفاقها. أما الصدقات الأخلاقية التي انحصرت على رضا وطيب خاطر كل إنسان، فقد حددها طبقا لفكر روحاني عالٍ كما هو الحال في توجيه سيدنا عيسى، ورغب أصحاب الهمم العالية في العمل به، وكان في الصحابة صنفان من الناس: الأول كان يعتقد أن الادخار من اليوم للغد حرام، كما يرى بذلك أبو ذر ﷺ [1]. وكان منهم من كانوا يحضرون كل مالهم وقت الحاجة، وينفقونه

---

[1] البخاري، كتاب الزكاة، باب من أدى زكاته فليس بكنز. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٨٨) حدَّثنا عَيَّاشٌ حدَّثنا عبدُ الأعلى حدَّثنا الجُرَيريُّ عن أبي العلاءِ عنِ الأحنفِ بنِ قيسٍ قال «جلَسْتُ». وحدَّثني إسحاقُ بنُ منصورٍ أخبرَنا عبدُ الصمدِ قال: حدَّثني أبي حدَّثنا الجُريريُّ حدَّثنا أبو العلاءِ بنُ الشِّخِّير: أنَّ الأحنفَ بن قيسٍ حدَّثَهم قال: «جلستُ إلى مَلإٍ من قُرَيشٍ، فجاءَ رجلٌ خَشِنُ الشَّعرِ والثيابِ والهيئةِ، حتى قامَ عليهم فسلَّم ثمَّ قال: بَشِّرِ الكانزينَ برَضْفٍ يُحْمى عليهِ في نارِ جَهنَّمَ ثمَّ يُوضَعُ على حَلَمةِ ثَدْيِ أحدِهم حتى يَخرُجَ من نُغضِ كتِفِه، ويوضَعُ على نغضِ كتِفِه حتى يخرُجَ من حَلَمةِ ثَديه يتزَلزلُ. ثم ولَّى فجلسَ إلى ساريةٍ. وتبِعتُهُ وجَلستُ إليهِ وأنا لا أدري مَن هوَ، فقلتُ لهُ: لا أُرَى القومَ إلا قد كرِهوا الذي قلتَ؟ قال: إنهم لا يَعقِلونَ شيئاً» قال لي خليلي ـ قال قلتُ: مَن خليلُكَ؟ قال: النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ: «يا أبا ذَرٍّ أتُبصِرُ أُحُداً؟ قال فنظرتُ إلى الشمسِ ما بَقيَ منَ النهارِ، وأنا أُرَى أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُرسِلُني في حاجةٍ لهُ، قلتُ: نعم. قال: ما أُحبُّ أنَّ لي مثلَ أُحُدٍ ذَهباً أُنفِقُهُ كلَّهُ إلاّ ثلاثةَ دَنانيرَ. وإنَّ هؤلاءِ لا يَعقِلون، إنَّما يَجْمَعُونَ الدُّنيا. لا واللهِ، لا أَسأَلُهُمْ دُنْيَاً لا أَستَفتِيهم عن دِينٍ حتى ألقى اللهَ». (يوسف عامر).

في سبيل الإسلام كأبي بكر[1]. ومنهم من كان يخرج كل ثروته من التجارة في وقت واحد في سبيل الله كسيدنا عبد الرحمن بن عوف، ومنهم من كان يعيش (يظل) جائعاً ويطعم غيره، ويتحمل المشقة في سبيل راحة غيره، كسيدنا عليّ كرّم الله وجهه وبعض الأنصار الذين مدحهم الله تعالى فقال:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الإنسان:٨).

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩).

والمقصود هو أن تعليم النبي (ﷺ) موافق لكل الطبائع البشرية المختلفة، ومطابق للفطرة السليمة، ويفتح لكل شخص باب النجاة طبقاً لاستعداده وكفاءته، وعلمنا (النبي ﷺ) الطريقة التي يمكن بها إيصال المساعدة وأعمال الخير عمليا للمحتاجين كل وقت، وقدم إضافة لذلك دعوة وترغيبا لمستوى روحاني سامٍ لدرجة تصل لكمال أهل القلوب وأهل الاستعداد، وأوضح أيضا مميزاتها وعيوبها؛ حتى يسعى كل أفراد الأمة من ذوي العزائم للطيران بأجنحة العزيمة حتى سدرة المنتهى.

يكتب الشيخ شرف الدين يحيى منيري عليه رحمة الله في رسائله موضحًا مرتبة الكمال القصوى هذه فيقول: "هزمت هذه الطائفة روحها ومالها، ولم تشغل نفسها بما سوى الله تعالى. وقوله: "الفقير ماله مباح ودمه

---

[1] الترمذي. كتب المناقب، فضائل أبي بكر.وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٨٢٩) حَدَّثَنَا هَارُونَ بنُ عبْدِ اللَّهِ البَزَّازُ البَغْدَادِيُّ، حدثنا الفَضْلُ بنُ دُكَيْنٍ، حدثنا هِشَامُ بنُ سَعْدٍ عَن زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ أبيهِ قالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الْخطَّابِ يقُولُ «: «أَمَرَنَا رسُولُ اللّه أَنْ نَتَصَدَّقَ وَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً فَقُلْتُ اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً، قالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فقالَ رَسُولُ اللّهِ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ قُلْتُ مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فقالَ: يا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟ فقالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ والله لاَ أَسْبِقُهُ إِلى شَيْءٍ أَبَداً».

قال أبو عيسَى: هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

هدر". فإن أخذ الناس ماله، فرح، وقال الحمد لله، قد رفع الستار الذي كان بيني وبين الله. لدرجة أنه يقول: أن جمع مال الدنيا، ثم إخراج الزكاة منه ليس أمراً طيبا؛ لأن البخل أمر لا يُمدح، فلو جمع في السنة مائتي درهم، فإنهم سيظلون عنده حتى تمر عليهم سنة، ثم يخرج بعد هذه السنة خمسة دراهم فقط منهم في سبيل الله، وهذا قمة البخل.

ثم نقل بعد ذلك فتوى مولانا شبلي رحمة الله: سأل شخص سيدنا شبلي على سبيل الامتحان، وقال له: على كم تكون الزكاة ؟ فقال: أتريد الجواب على رأي الفقهاء أم على رأي الدراويش، فأجابه على الاثنين، فقال تكون الزكاة على مذهب الفقهاء خمسة دراهم على كل مائتي درهم يحول عليهم الحول، وعلى مذهب الدراويش تكون المائتي درهم كاملة، ثم بعد ذلك **يجب أن نقدم الروح بعدما نضعها على الرأس من فرحة النذر. قال الفقيه:** لقد أخذنا هذا المسلك من أئمة الدين. قال (الدرويش): لقد أخذناه عن سيدنا أبي بكر، فقد جمع كل ما كان عنده ووضعه أمام عين رسول الله (ﷺ)، ثم أعطاه شكراً لفلذة كبده (السيدة عائشة رضي الله عنها). (خطاب ٣٤ – القرن الثالث).

وقد كان الحال الشخصي لرسول الله (ﷺ) مطابقًا لهذا الفريق الثاني، فلم يبقَ عند رسول الله شيء حتى تأتي عليه نوبة الزكاة، فكلما كان يتبقى شيء كان يقسمه في نفس اليوم على المحتاجين، وإن ظل في بيته صلى الله عليه وسلم قليل من سبائك الذهب الفضة حتى الليل، لم يكن يبيت في البيت. لكنه (ﷺ) لم يجعل مسلكه هذا فرضاً على أمته، بل حدد لهم ما يتماشى مع قوة تحملهم وعزيمتهم؛ حتى يظل باب النجاة مفتوحاً لكل طبقات الفقراء والأغنياء على السواء، وحتى لا يكون الحرية وعدم الإلزام سببين لتقاعس الناس وتكاسلهم عن العمل، وحتى يظل فرض مبلغ معين على كل صاحب نصابٍ معينٍ مستمرًا، كي تستمر كفالة المعوقين وغيرهم من أفراد الجماعة.

علاج الاشتراكية

لقد ظلت الحرب بين الغني والفقير قائمة ومشتعلة دوما في الدنيا، فمن المؤكد أنه في العصر الأخير من كل حضارة تتولد صورة عدم مساواة في الثروة بين أفراد الأمة المختلفين، فتصبح بعض الطبقات غنية جدا لدرجة أن سائر خزائن الأرض تفيض بثروتهم. وعلى الجانب الآخر يوجد فقراء لا يجدون حتى لقمة عيش جافة يأكلونها، ولا شبرا واحدا من الأرض ينامون عليه، ويصل حرص الطبقات الغنية وطمعها وحرصها إلى درجة أنهم ينأون بأنفسهم عند إعطاء إخوانهم الجياع العرايا لقمة عيش أو قطعة قماش، ويعتقدون أن الثروة هذه ليست من عند الله، بل إنهم حصلوا عليها بعلمهم وفنهم وسعيهم وكفاحهم، لذا فلا نصيب لهؤلاء العاطلين الكسالى. وهذا ما قاله قارون حين أمر بإخراج الزكاة والصدقات قال تعالى:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص:٧٨). وهذا هو تصور قارون كل زمان واعتقاده فيما يتعلق بثروته.

وقد وجدت هذه الصورة في العصر اليوناني الأخير، وبرزت هذه القضية في العصر الإيراني الأخير، وهكذا أصبح الوضع الآن في أوروبا، فيهب هناك طوفان وفيضانها المشاكل الاقتصادية. فحرب الأجير والرأسمالي قائمة على أشدها، ويهب طوفان الاشتراكية والشيوعية والفوضوية والهمجية في كل مكان. لكن تلك الخرائط التي رسمها مخططو الدنيا الجدد لإقامة المساواة والعدل في الدنيا، أصبحت مخالفة لطبيعة الإنسان وتربيته، لدرجة أن نجاحها الأبدي مشكوك فيه للغاية.

ولقد شَخّص تعليم سيدنا محمد مشكلة الدنيا هذه، وسن لحلها هذا المبدأ، **وهو منع ترك الثروة والمال في أيدي أشخاص معينين، مع إجازة**

الملكية الشخصية أو الذاتية، التي هي مقتضى الفطرة البشرية، وحرم الربا، ومنع جعل التركة ملكًا لشخص واحد فقط، وعدّ أشياء المنفعة العامة ملكاً للجماعة بدلاً من الأشخاص، وأقام حكومة الجماعة بدلاً من القيصرية والملوكية، وغيّر النظام الإقطاعي العتيق الذي كان المزارع فيه كالعبد، فعدّه أجيرا وعاملاً، ولم يخالف الطبيعة البشرية، بأن جمع كل الثروة، ثم قسمها بالتساوي بين كل الناس؛ حتى لا يبقي في الدنيا جائع أو عريان، ولكنه حدد مبلغاً معينا من مال كل صاحب مال، يجمع بعد مرور السنة عليه؛ لمساعدة الفقراء؛ حتى يجبر أصحاب الأموال على إخراجه، وعدّ مساعدة المحتاجين من هذا المبلغ فرضاً وواجباً.

هذا هو المبدأ الذي – على أساسه – ظل عهد الحضارة الإسلامية محفوظاً من هذا النوع من المصائب والمشاكل الاقتصادية. ولو يعمل به اليوم في بلاد الإسلام، فلن تتولد كل هذه الفتن التي تعج على وجه الأرض في كل البقاع التي تسيطر عليها حكومة الرسول (ﷺ) الروحانية. وكان عهد سيدنا عثمان ﷺ من عهود الخلفاء الراشدين، التي كانت الثروة فيها قد بلغت ذروتها عند العرب، فأصدر سيدنا أبو ذر الغفاري طبقاً لقول الله تعالى ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ فتوى في الشام بأن جمع الثروة وكنزها حرام[1]، وعلى كل شخص يملك ما يزيد عن

---

[1] مسند ابن حنبل، ج ٥، صـ ١٧٦.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢١٠٨٧) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا أبو الأشهب حدثنا خليد العصري قال أبو جري: أين لقيت خليداً؟ قال: لا أدري عن الأحنف بن قيس قال: كنت قاعداً مع أناس من قريش، إذ جاء أبو ذر حتى كان قريباً منهم قال: ليبشر الكنازون بكي من قبل ظهورهم، يخرج من قبل بطونهم، وبكي من قبل أقفائهم يخرج من جباههم. قال: ثم تنحى فقعد قال: فقلت: من هذا؟ قال أبو ذر: قال: فقمت إليه فقلت: ما شيء سمعتك تنادي به. قال: ما قلت لهم شيئاً إلا شيئاً قد سمعوه من نبيهم صلى الله عليه

حاجته أن يخرجه في سبيل الله، وقد خالفه الأثرياء من صحابة رسول الله (ﷺ) في الشام، وقالوا نحن نُخرجُ في سبيل الله، ثم ندخر. لذا لم يُكتب لفتوى أبي ذر الانتشار، ولم تُولد فتنة بين الناس؛ لأن قانون الزكاة كان لا يزال يجري بنظام متكامل، وكان حال العرب قد وصل من الرفاهية والمتعة إلى أنه لم يكن هناك من يستحق الصدقات[1].

الفوائد الاقتصادية والتجارية

روعيت من الناحية الاقتصادية – أيضاً – جوانب الفوائد الدنيوية في الزكاة إضافة للفوائد الروحانية والأخلاقية. فقد مر سابقاً أن الزكاة تكون واجبة في تلك الأشياء التي تتصف بصفتين هما: البقاء والزيادة، المقصود بالبقاء هي تلك الأشياء التي يمكن أن تظل على حالتها فترة زمنية؛ لأن الشيء الذي يكون خلاف ذلك لا تكون في تجارته فائدة، ولا يكون مدخراً لمدة معينة لاستعمال الآخرين؛ لذا لا توجد زكاة على الخضروات والبقوليات. والمقصود بالزيادة تلك الأشياء التي تتصف بالزيادة سواء أكان بالإنتاج، أو بالتناسل أو بالمبادلة، لذا فلا زكاة على الجَواهر والأحجار الكريمة، ولا على الأرض غير المزروعة (البور)، ولا على المكان أو المنزل. ومن هذين النقطتين يتضح أن الشريعة قد وضعت نصب عينيها هذا الهدف من فرض الزكاة، وهو ألاّ تعطل الناس ثروتها، بل عليهم أن ينموها بكفاحهم وجهدهم، وإلا ستنقص الثروة سنة بعد سنة، وهذا ما لا يمكن لأي

وسلم. قال: قلت له: ما تقول في هذا العطاء؟ قال: خذه فإن فيه اليوم معونة، فإذا كان ثمناً لدينك فدعه. (يوسف عامر)

[1] فتح الباري شرح البخاري، ج ٦، صـ ٤٥١، وطبقات ابن سعد، ترجمة عمر بن عبد العزيز، صـ ٢٥٦.

شخص أنه يتحمله، وهكذا يكون الهدف غير المباشر للزكاة هو تنمية التجارة والزراعة اللتين تعدان أصل الثروة؛ لأنه حين يتحتم على كل شخص دفع مبلغ معين كل سنة بطريقة إلزامية، فإنه سيحاول قدر الإمكان أن يخرج هذا المبلغ من الربح حتى يبقى رأس المال محفوظاً، لهذا قصر الإسلام الزكاة على الأشياء التي تقبل النمو والزيادة، وحدد مدة طويلة وهي سنة كاملة لأداء الزكاة حتى يتمكن كل شخص من الاستفادة بطريقة كاملة من ماله وإقطاعه، ولقد فهم الصحابة هذا الأمر، فظلوا مشغولين دوما بالتجارة والأعمال. وقد وجه سيدنا عمر – أثناء خلافته – أولئك الناس القائمين على أموال اليتامى إلى أن يدفعوا بها في التجارة؛ حتى لا ينفق أصل رأس المال حتى بلوغهم في الزكاة.

وبعد تحقيق مضنٍ، اتضح أن سبب التدهور التجاري والحضاري لآسيا؛ هو أن جزء كبيرا من المال هناك يُكنز، ويظل معطلاً باكتنازه في الأرض. ولكن الله تعالى أوحى إلى رسوله (ﷺ) ليبيّن هذا الأمر للناس قبل ألف وثلاث مائة سنة، حين فُرضت الزكاة. يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣٤).

إن العذاب الأليم الذي سيكون لهم في الآخرة سيقع، أما العذاب الاقتصادي الأليم لهم في الدنيا، فهو أنهم يخربون ثروة البلد بدفن مالهم، وبدلاً من أن يستفيدوا من نموه وزيادته، يوقعوا البلاد في عذاب أليم من الفقر والحاجة جراء تعطيل مالهم وكنزه. وفي النهاية يبتلون هم أنفسهم بالعذاب، لذا يكمن الإصلاح الأخلاقي للأمراء وزيادة المال في أن ينفقوا أموالهم بطريقة صحيحة.

إصلاح الفقراء

الجانب الآخر هو جماعة الفقراء، ومما لا شك فيه أن كل أنبياء أديان الدنيا قد نظروا لهذه الطائفة الضعيفة بعين المواساة والرحمة، ومدت إليهم يد المساعدة والعون. لكن الحقيقة أن مثال رحمتهم ومواساتهم وحبهم كالدمل، أو الجرح الذي يصيب الإنسان، فيحافظ صديق الإنسان دائماً على الدمل، أو الجرح حتى لا يمسه، أو يخدشه، أو يشقه مبضع الجراح فيتألم، وذلك بدافع حبه لصديقه وحفاظه عليه. فهل لأي عاقل أن يقول أن عمل صديقه الجاهل هذا دليل لصداقته ؟

ولقد جاء المصلحون السابقون عامة في هذا الأمر بالإفراط والتفريط، فقد شق البعض هذا الجرح بالمبضع فقط دون أن يضعوا عليه مرهما، لهذا أُعتبر السؤال بصفة عامة في المذهب الزردشتي ممنوعاً بتاتاً، وفي الديانة البوذية أعطيت الفرصة للجرح أن يكون كله مادة فاسدة، كما ولدت جماعة دينية للبهكشون للسؤال والشحاذة. أما الإسلام فقد قام بهذين العملين كالمجرب والجراح الماهر، فأزال هذا الدمل بحكمة بالغة؛ إذ وضع المبضع في جرح هذه الطبقة الحزينة المستحقة للشفقة، ووضع على الجرح مرهما. هذا المرهم هو تدابير العطف عليهم ومواساتهم، وتبشريهم ومساعدتهم وإعانتهم بطريقة فعلية. وقد اتخذت تلك التدابير؛ لإنقاذ هذه الطبقة الوضيعة من الذل وقلة العزيمة والطمع وسؤال الآخرين ومذلة العيش على حساب الآخر، لذا منع أهل الحاجة عن السؤال والطلب من الآخرين؛ لإبعادهم عن هذه المذلة، وجعل كفالتهم مسئولية الجماعة. وبصفة عامة فإن نوعية الوعظ في الدين المسيحي، والتي تدعو لإخراج كل شيء، وإعطائه الفقراء والمساكين تعد مظهرا عاليًا حدًا لتعليم الأخلاق الفاضلة والشفقة والمحبة،

ولكن بالتمعن في الجانب الآخر للصورة، يتضح أنه ظل يرغب الأغنياء بشدة في إعطاء كل شيء للفقراء والمساكين، وهذه الشدة تجعل كثيرا من طبقات البشر معتادة على ذلة السؤال، ووضاعة العوز، ومذلة العيش على حساب الآخرين، وظل يعلم درس الأكل من غير كد والشرب من غير نصب. وبهذا ظل يحفر لهم حفرة للسؤال والوضاعة، والانحطاط والذل والمهانة، وتردى الهمم وانعدام الرجولة، وكل أنواع التردي والتدهور الأخلاقي، حيث تتجمع كل هذه النجاسات. فهل هذا رفق بالبشرية ؟ وهل هذا حب لها ؟ وهل هذه مواساة لبني البشر؟

لم تكن بعثة النبي (ﷺ) لإصلاح طبقة بعينها، فقد بعث رسول الله (ﷺ) مصلحاً ومعلما لكل طبقات البشرية، فالغني والفقير والأمير والمسكين كلهم في نظره صلى الله عليه وسلم سواء، لذا لم يتول النبي (ﷺ) إصلاح طبقة واحدة فقط، بل ساوى بين كل الطبقات، وأعطى كلا منهما جزءً متساويًا من تعاليمه وإرشاداته وإصلاحاته.

ذاك هو الصراط المستقيم لهذا الإصلاح الأخلاقي الذي لم يستطع أن يثبت عليه أي معلم أخلاق، أو مصلح روحاني غير خاتم الأنبياء وهادي الدنيا سيدنا محمد (ﷺ)؛ فلم يستطع غيره أن يساوي بين كفتي الميزان. فلو غلقت كل أبواب الصدقات والزكاة ومساعدة ومواساة الآخرين من أجل إصلاح الفقراء، لهلكت طبقة الأغنياء من كثرة مساوئها الأخلاقية ووفرتها، ولأصبحت صفر اليدين من المحاسن الأخلاقية، إضافة إلى فساد حقيقة النبل الإنساني. ولو سمح للفقراء بكل أنواع السؤال والاستجداء، لفسدت وتدهورت الحياة الأخلاقية الواسعة للإنسان، لذا قدم رسول الله (ﷺ) أمام هاتين الطبقتين من الناس تعليم الله تعالى وإرشاده، اللذين وجدت وتوافرت بهما فرصة لكل طبقة من الطبقتين لتطوير معيارها الأخلاقي كل في مكانه، وحتى يمكن

لكلتيهما تتديم جوهر نبلها وكرمها، وإزالة عيوبها ورذائلها. فقد خاطب الإسلام الأمراء والأغنياء وقال:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ (الضحى:١٠).

ومدح من ناحية أخرى الفقراء والمحتاجين المتعففين فقال:

﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ (البقرة:٢٧٣).

فقد عُدّ التسول مخالفاً للتقوى، وخاطب أولئك الذين كانوا يتسولون فى الحج، فقال تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:١٩٧).

فنصح الإسلام الأغنياء – من ناحية – بأن من حسن الخلق أنه إذا مدَّ أحد يده إليكم فلا تردوها فارغة، وتصدقوا ولو بشق تمرة. ومن ناحية أخرى قال للفقراء: إنه يجب أن تكونوا عصاميين، وذلك بألاّ تمدوا أيديكم إلى أحد لأن "اليد العليا خير من اليد السفلى"[1]. وهذا هو التعليم الذي أنعم به الإسلام على الطبقتين – الأغنياء والفقراء – ووفر لهما فرصة لإصلاح أخلاقهما.

إن الصدقة في الحقيقة هي هذا الماء الذي ينقي كل الأوساخ والأدران التي في قلوب المتصدقين ونفوسهم. ولكن حين يأخذ الماء هذه الأوساخ

---

[1] البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة. وهذا نصها في صحيح ابن حبان: (٣٣٢٦) أخبرنا زكريا بنُ يحيى السَّاجي، قال: حدَّثنا عبدُ الواحد بنُ غياث، قال: حدَّثنا عبدُ العزيزِ بنُ مسلمٍ، قال: حدَّثنا عبدُ اللَّه بنُ دينارٍ عن ابنِ عمرَ، قال: قال رسول الله: «اليدُ العُليا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى». (٣:٦٦)(يوسف عامر).

والأدران، ويخرج بها، يأخذها عطشى الحرص والطمع ويشربونها، لذا قال النبي (ﷺ): **"إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس"**[1].

فلو نظر اليوم إلى شكل وحال أولئك المتسولين الشحاذين الذين يستفيدون من هذا المال بدون حق شرعي، فسنرى أن رسول الله (ﷺ) قد أوضح حقيقة بالغة حين قال عن الصدقة بأنها أوساخ الناس [2]. أي أن

---

[1] **المرجع السابق**، باب الاستعفاف عن المسألة.وهذا نصها في صحيح ابن خزيمة: **(٢٣٤٠) وفي خبر عبد المطلب** ابن ربيعة ومصيره مع الفضل ابن عباس إلى النبي **صلى الله عليه وسلم ومسألتهما إياه استعمالهما** على الصدقة وإعلام النبي إياهما:

« أن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس ولا تحل لمحمد ولا لآل محمد، وإنما **كانت مسألتهما استعمالهما على الصدقات المفروضات فقوله صلى الله عليه وسلم في إجابته إياهما إن هذه الصدقة أي التي سألتهماني استعملكما عليها إنما هي أوساخ** الناس ولا تحل لمحمد ولا لآل محمد»(يوسف عامر).

[2] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي (ﷺ) على الصدقة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٢٤٣٤) حدثني عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ الضُّبَعِيُّ. حَدَّثَنَا جُوَيْرِيَةُ عَنْ مَالِكٍ عَنِ الزهري أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَدَّثَهُ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ حَدَّثَهُ، قَالَ: اجْتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالاَ: وَاللَّهِ لَوْ بَعَثْنَا هٰذَيْنِ الْغُلاَمَيْنِ قَالاَ لِي وَلِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ فَكَلَّمَاهُ، فَأَمَّرَهُمَا عَلَىٰ هٰذِهِ الصَّدَقَاتِ، فَأَدَّيَا مَا يُؤَدِّي النَّاسُ، وَأَصَابَا مِمَّا يُصِيبُ النَّاسُ قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمَا فِي ذَلِكَ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ. فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا. فَذَكَرَا لَهُ ذَلِكَ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لاَ تَفْعَلاَ. فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِفَاعِلٍ. فَانْتَحَاهُ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا تَصْنَعُ هٰذَا إِلاَّ نَفَاسَةً مِنْكَ عَلَيْنَا. فَوَاللَّهِ لَقَدْ نِلْتَ صِهْرَ رَسُولِ اللَّهِ فَمَا نَفِسْنَاهُ عَلَيْكَ. قَالَ عَلِيٌّ: أَرْسِلُوهُمَا. فَانْطَلَقَا. وَاضْطَجَعَ عَلِيٌّ. قَالَ: فَلَمَّا صَلَّىٰ رَسُولُ اللَّهِ الظُّهْرَ سَبَقْنَاهُ إِلَىٰ الْحُجْرَةِ. فَقُمْنَا عِنْدَهَا. حَتَّىٰ جَاءَ فَأَخَذَ بِآذَانِنَا. ثُمَّ قَالَ «أَخْرِجَا مَا تُصَرِّرَانِ» ثُمَّ دَخَلَ وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ. وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ. قَالَ: **فَتَوَاكَلْنَا الْكَلاَمَ. ثُمَّ تَكَلَّمَ أَحَدُنَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ وَأَوْصَلُ النَّاسِ. وَقَدْ بَلَغْنَا النِّكَاحَ. فَجِئْنَا لِتُؤَمِّرَنَا**

الحرص والطمع والجشع والمكر والخداع وعدم الحياء كلها أمـور أخلاقيـة ملازمة لهم، وأن أي صفة من هذه الصفات ليست وصفاً لغير المستحقين من أبناء السبيل والفقراء والمهذبين، وهذا في الحقيقة هو "الدرن" الذي يسقط من مخرجي الزكاة، ويلتصق بالفقراء والشحاذين. ولكن من يستطيع أن ينكر أن بعض الضروريات قد تحدث أحيانا، فيضطر الإنسان أبي النفس أن يـشرب ماءً قذرا نجساً كي ينقذ نفسه من الهلاك، وتقتضي الضرورة فيؤذن لأولئـك الأشخاص المضطرين بصفة شخصية أن يقبلوا الصدقات. ومن هذا المنطلق أجازت الشريعة المحمدية للناس قبول الصدقات، واتخذت تدابير مفيدة لرفـع ودرء أو تقليل مساوئ الانعكاسات التي يمكن أن تقع على أخلاق وعـادات هذه الطائفة التي تقبل الصدقات رغم أنفها، وأصدرت عـدة أمـور مناسـبة للغاية تفصيلها كالآتي:

١. التوجيه الأول للإسلام هو أن تؤدي الصدقة والزكاة خالصتين لوجـه الله تعالى حتى لا يشعر آخذها بعبء الإحسان عليه وبكونه مداناً، وألا تعطي الصدقة على الملأ؛ حتى لا يجرح آخذها ويحرج؛ لأنه إذ يظهـر بـذلك دناءة وانحطاط أخلاق المعطي من ناحية، فمن ناحيـة أخـرى ستـصدم الآخذ، وستجرح حسن غيرته الأخلاقية. وبدلاً من أن يـشكر المعطـي، ينفر منه بسبب صنعه، ثم ربما يزول شيئا فشيئا جوهر شـعور غيرتـه

عَلَىٰ بَعْضِ هٰذِهِ الصَّدَقَاتِ. فَنُؤَدِّيَ إِلَيْكَ كَمَا يُؤَدِّي النَّاسُ. وَنُصِيبَ كَمَا يُصِيبُونَ. قَالَ: فَسَكَتَ طَوِيلاً حَتَّىٰ أَرَدْنَا أَنْ نُكَلِّمَهُ. قَالَ: وَجَعَلَتْ زَيْنَبُ تُلْمِعُ عَلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ أَنْ لاَ تُكَلِّمَاهُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ. إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّـاسِ. ادْعُوَا لِي مَحْمِيَةَ وَكَانَ عَلَىٰ الْخُمُسِ وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْـدِ الْمُطَّلِـبِ». قَـالَ: فَجَاءَاهُ. فَقَالَ لِمَحْمِيَةَ: «أَنْكِحْ هٰذَا الْغُلاَمَ ابْنَتَكَ» لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ فَأَنْكَحَهُ. وَقَالَ لِنَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: «أَنْكِحْ هٰذَا الْغُلاَمَ ابْنَتَكَ» لِي فَأَنْكَحَنِي. وَقَالَ لِمَحْمِيَةَ: «أَصْدِقْ عَنْهُمَا مِنَ الْخُمُسِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَلَمْ يُسَمِّهِ لِي. (يوسف عامر).

الأخلاقي وخجله. وربما يكون من بين هؤلاء من هم أعــزاء النفــوس، فيشعرون بمهانتهم في قلوبهم، ويؤذون أنفسهم وقد وضع الإسلام كل هذه الأمور نصب العين، وعلمنا أن يكون هدف المعطي هو: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُــمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ (الإنسان:٩).

انظر لهذا التوجيه الحكيم يقول المتصدقون: إننا لا نريد منكم جزاء هــذا الإحسان، ولا نريد حتى الشكر، ثم أخبر المتصدقين كذلك صراحة أن حقيقة عملكم العظيم هذا ستبطل بذكر إحسانكم، أو بالإشارة إليه، أو بتحقير وإذلال الآخذ، ثم لا يكون لكم أي ثواب أو جزاء لهذا: قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُــوا مَنّــاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَــدَقَةٍ يَتْبَعُهَــا أَذًى وَاللَّــهُ غَنِــيٌّ حَلِــيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٢، ٢٦٣).

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بتشبيه بليغ فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِــالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّــذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْــهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٤).

وهناك سبب آخر إضافة إلى أسباب أخــرى مجملــة، وهــو أن الإسلام قد حدد طريقًا صحيحًا لإخراج الزكاة، وهو ألا يعطي المزكــون بأنفسهم أي أحد، بل يدفعون زكاتهم في بيت مال أمير الجماعة: ثم يقــوم ذاك الأمير بتقسيمها على المستحقين كل حسب حاجته؛ وذلــك حتــى لا يشعر الفقير الآخذ بوصفه مسلماً عفيف النفس بمهانتــه، وبأنــه رهــين إحسان شخص آخر. وكذلك حتى لا يجد المعطي فرصة ليمتن علــى أى شخص، وهكذا يظل المستوى الأخلاقي للأمة كلها قائمــاً علــى أفــضل

وجه. إضافة لهذا، يعافى الفقراء والمحتاجون من مذلة الوقوف على كل باب، وفضيحة الأكل واستجداء النقود عند الضرورة.

٢. لذا أخبر الإسلام أن المبدأ الثاني لإخراج الزكاة هو أن تعطي الزكاة خفية؛ إذ بإعطائها جهرا يتعود السائل على الجرأة وعدم الحياء، لأنه حين يذاع قصة مذلة أي شخص وفقره، فإن ذلك الشخص لا يخجل، ولا يستحي من فعله. لذا كان يخشى أنه لو لم يقض على هذا فإن الإعلان والإظهار سيكونان سببا لانتشار مهنة التسول والاستجداء والشحاذة وذيوعها في الدنيا، وكذلك فإن الإخفاء والكتمان أفضل؛ حتى يظل المعطي بعيدا بأخلاقه عن شوائب الشهرة والصيت، لذا قال النبي (ﷺ): "... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمُ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ..."[1].

لكن هناك بعض المناسبات التي يتطلب الأمر فيها الجهر بالصدقة والتصريح والإشادة، وذلك حين تكون النية من ذلك ترغيب وتشويق الآخرين في الإعطاء. أو أن يسأل السائل أمام الناس، أو لأي سبب نبيل آخر، لذا أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بالألفاظ التالية:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم (٢٣٣٣) حدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ. جَمِيعاً عَنْ يَحْيَى الْقَطَّانِ. قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ. أَخْبَرَنِي خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النبي قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ. وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللّهِ. وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ. وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ. وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللّهَ. وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ. وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِياً، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ». (يوسف عامر).

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧١).

وقد خص المفسرون إخفاء الصدقة في هذه الآية بعامة الصدقات، لكن فرض الزكاة يستحسن فيه الإظهار؛ حتى يذاع بذلك أحد أركان الإسلام، ويبلغ ويتولد عند الآخرين شوق ورغبة في التقليد، ويبرئ مخرج الزكاة من الاعتقاد السيئ بأنه لم يخرج زكاته.

ومفهوم الآية واضح لنا، فالطريقة الأصلية لإخراج الزكاة هي تلك التي كانت عصر النبوة، أي أنه يودع مبلغ الزكاة في بيت المال أو عند العاملين فيه، لذا ستتحقق الفائدة التي هي أصلا تكون لصالح الفقراء. لكن الإشارة في الآية الكريمة هي أنكم إن تعطوا الفقراء بأنفسكم، فالأفضل أن تخفوا الزكاة حتى لا تجرح كرامة الآخذ؛ لذا فالآية التي ورد فيها الإذن بالجهر، لم يأت فيها الأمر بإعطاء الفقراء مباشرة. وحيث ورد الإعطاء خفية صرح بإعطاء الفقراء، لذا فالفرق الأساسي للجهر والإخفاء ليس بين الزكاة وعامة الصدقات، بل في طريقة الإعطاء، فلو أديتها عن طريق بيت المال أو العاملين فيه، فإخراجها جهارا؛ إذ لا دخل للمعطي والآخذ، ولا توجد فرصة للبهتان وسوء الظن. ولكن لو اضطرت لسبب ما لإعطاء المستحقين مباشرة دون تدخل بيت المال، فيجب عليك أن تخرجها سراً؛ حتى يأمن المعطي من الرياء، ويأمن الآخذ من الإهانة، وتكون الحاجة للجهر والإظهار للترغيب حين يضعف الحس الديني للمسلمين لدرجة تستدعي هذا النوع من الحض الفقهي لأداء حقوق الإسلام، وقد كان الحماس الحقيقي للإسلام كافيا لترغيب الصحابة (ﷺ). لكن الحال أصبح اليوم أنه لو لم يكتب عمود كامل في الجرائد، فلن يعرف المذكور شيئا عن حق الله.

٣. إن كل الرقي الأخلاقي والحضاري منحصر في علو الهمة، وسمو الفكر فحسب، ويستدعي علو الهمة وصول نظر المسلمين إلى أعلى الأهداف دون توقف، وأن تبدو له كل أشياء الدنيا هينة. وعلى هذا حدد الإسلام مبدأ أن يخرج الجزء الأفضل من المال في الزكاة والصدقة؛ حتى لا يتولد من إعطاء الأشياء الرخيصة المتدنية وأخذها تدنٍ داخل المعطي؛ لأنه سيتولد داخل الآخذ طمع ولؤم متناهيان من جراء ذلك، فلا تنجو حتى الأشياء العادية الصغيرة من طمعه. وفي الجانب الآخر سيتولد في نفس المعطي بهذا النوع من الصدقات بخل وطمع ونقص بدلاً من أن يتولد عنده علو ورفعة وجود، وتتولد لديه أيضاً بدلاً من التزكية نجاسة وقذارة؛ لأن الهدف من إعطاء الغير سيكون الخلاص منها، وإبعادها بدلاً من أن يبتغي بها مساعدة الغير، ورضا الله تعالى.

وفي رواية، أن أصحاب الصفة الذين عدّوا خدمة الإسلام وعبادة الله تعالى هدفهم الوحيد لم يجدوا فرصة لكسب قوتهم، وكان الناس يعلقون التمر الرديء في المسجد حتى إذا اشتد الجوع بهؤلاء الناس أكلوا مضطرين بعضاً من هذا التمر، ولأن هذا الفعل كان غاية الخسة نزلت الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (البقرة:٢٦٧).

٤. إن أفضل طريقة لإزالة دناءة الفقراء والمساكين وحرصهم وطمعهم هي أن يُعَدُّوا أهلاً حقيقيين لزكاة الناس وصدقاتهم، إذ إنهم رغم حاجتهم وضيق حالهم لا يسألون الناس لقناعتهم وصبرهم، لذا فحينما وجه اهتمام الأمة وانتباهها ناحية هذا النوع من الناس اضطر كل شخص أن يقلد أخلاقهم، وكان أصحاب الصفة أكثر الصحابة إفلاساً وعوزاً، لكنهم كانوا

قانعين لدرجة أنه لم يكن هناك أي شيء يمكن أن يفشي سرهم سوى شكلهم، لذا عدهم الإسلام أفضل المستحقين للزكاة فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ (البقرة:٢٧٣).

أما اليوم فبعد أن ترك المسلمون العمل بهذا المبدأ هام آلاف الشرفاء على الأبواب يبيعون اسم الأمة والأسرة.

٥. لكن بالرغم من ذلك ظل التسول في الحقيقة عادة مبتذلة تماماً، لذا لم يجزه الإسلام إلا في حالة الضرورة القصوى، وسعى قدر الإمكان إلى ترغيب الناس عنه ولهذا بايع الرسول (ﷺ) بعض الناس على ألا يسألون أحدا شيئا قط، فحافظوا بشدة على بيعتهم لدرجة أن السوط كان إذا وقع من يد أحدهم في الطريق لم يكن يسأل أحداً أن يناوله إياه"[1]. ومرة قال

---

[1] أبو داود، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة.وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود: (١٦٤٣) حدثنا هِشَامُ بنُ عَمَّارٍ أخبرنا الوَلِيدُ أخبرنا سَعِيدُ بنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عن رَبِيعَةَ يَعْنِي ابنَ يَزِيدَ عن أبِي إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيِّ عن أبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلاَنِيِّ حَدَّثَنِي الْحَبِيبُ الأَمِينُ أَمَّا هُوَ إِلَيَّ فَحَبِيبٌ وَأَمَّا هُوَ عِنْدِي فَأَمِينٌ عَوْفُ بنُ مَالِك، قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم سَبْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ تِسْعَةً، فَقَالَ أَلاَ تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَة. قُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثاً وَبَسَطْنَا أَيْدِينَا فَبَايَعْنَا. فَقَالَ قَائِلٌ يَارَسُولَ الله إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَعَلاَمَ نُبَايِعُكَ؟ قال أنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَتُصَلُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا، وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيفَةً قَالَ: ولاَ تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً. قَال فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُهُ فَمَا يَسْأَلُ أَحَداً أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ». قالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدِيثُ هِشَامٍ لَمْ يَرْوِهِ إِلاَّ سَعِيدٌ. (يوسف عامر).

النبي (ﷺ):«مَنْ يكفلَ لي أنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وأَتَكَفَّلَ لَهُ بالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً» [1].

ورد عن حكيمَ بنَ حزامٍ رضيَ اللّهُ عنه أنه قال «سألتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثمَّ سألتهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: «يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ لَهُ فيه، ومن أخذَهُ باشرافِ نفسٍ لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُفلى». قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، والذي بَعثكَ بالحقِّ لا أرزأُ أحداً بعدَكَ شيئاً حتى أُفارقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ رضيَ اللّهُ عنهُ يَدعو حكيماً إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ رضيَ اللّهُ عنهُ دعاهُ ليعطيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ: إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبىُ أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدً منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم حتى تُوُفِّي». "[2].

---

[1] المرجع السابق.وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (١٦٤٤) حدثنا عُبَيْدُ الله بنُ مُعَاذٍ أخبرنا أبي أخبرنا شُعْبَةُ عن عَاصِمٍ عن أبِي العَالِيَةِ عن ثَوْبَانَ قال وكَانَ ثَوْبَانُ مَوْلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يكفلَ لي أنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً وأَتَكَفَّلَ لَهُ بالْجَنَّةِ، فَقَالَ ثَوْبَانُ أَنَا فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً شَيْئاً» .(يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة. وهذا نص الحديث كاملا: (١٤٥٤) حدَّثنا عبدانُ أخبرَنا عبدُ اللّهِ أخبرَنا يونسُ عن الزُهريِّ عن عُروةَ بنِ الزُبير و سعيدِ بنِ المسيَّبِ أنَّ حكيمَ بنَ حزامٍ رضيَ اللّهُ عنه قال «سألتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثمَّ سألتهُ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثمَّ قال: «يا حكيمُ، إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ، فمن أخذَهُ بَسخاوةِ نفسٍ بوركَ له فيه، ومن أخذَهُ باشرافِ نفسٍ لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ. اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُفلى». قال حكيمٌ: فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ، والذي بَعثكَ بالحقِّ لا أرزأُ أحداً بعدَكَ شيئاً حتى أُفارقَ الدنيا. فكان أبو بكرٍ رضيَ اللّهُ عنهُ يَدعو حكيماً إلى العطاءِ فيأبى أن يَقبلَه منه. ثمَّ إن عمرَ رضيَ اللّهُ عنهُ دعاهُ ليعطيَهُ فأبى أن يَقبلَ منهُ شيئا، فقال عمرُ:

وأمثلة ذلك كثيرة. وقد حرم هذا الأمر بشدة على كل الأصحاء من الناس؛ أي سليمي اليدين والرجلين والعينين، فقال رسول الله (ﷺ): **"لا تحل المسألة لرجل قوي ولا لذي مرة سوى" (الترمذي)**.[1] وقال صلوات الله وسلامه عليه في صحيح البخاري:

«والذي نَفسي بيدِه، لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَهُ فيحتطِبَ على ظهرِهِ خيرٌ لهُ من أنْ يأتيَ رجُلاً فيسألَه، أعطاهُ أو منعَهُ». (كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة) [2].

وقد عمل النبي (ﷺ) بهذا أيام حياته، فقد جاءه صاحبي محتاج يسأله صدقة فسأله النبي (ﷺ) عم يمتلك: قال حصير وقدح. فأمره النبي (ﷺ) أن يبيعهما ويشتري بثمنهما فأساً، ثم يذهب ويحتطب من الصحراء

إني أُشهِدُكم يا معشرَ المسلمينَ على حكيمٍ أني أعرِضُ عليهِ حقَّهُ من هذا الفَيْءِ فيأبىٰ أن يأخُذَه، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحدً منَ الناسِ بعدَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حتى تُوُفِّي». (يوسف عامر).

[1] وورد في الترمذي أيضا عنه ﷺ: (٦٤٧) حدثنا عليُّ بنُ سَعِيدٍ الكِنْديُّ حدثنا عبد الرَّحِيمِ بن سُليمانَ عن مُجَالِدٍ عن عَامِرٍ عن حُبْشِيِّ بن جُنَادَةَ السَّلُولِيِّ ،. قال: سَمِعْتُ رسولَ الله يقول في حَجَّةِ الوَدَاعِ وَهُوَ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ أَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فأَخَذَ بِطَرَفِ رِدَائِهِ فَسَأَلَهُ إِيَّاهُ فَأَعْطَاهُ وَذَهَبَ فَعِنْدَ ذلك حَرُمَتِ المسْأَلَةُ فقالَ رسولُ الله: «إنَّ المسْأَلَةَ لا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ إلاَّ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أو غُرْمٍ مُفْظِعٍ، ومَنْ سَأَلَ النَّاسَ لِيُثْرِيَ بهِ مَالَهُ كان خُمُوشاً في وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامةِ ورضفاً يأْكُلُهُ مِنْ جَهَنَّمَ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ ومَنْ شَاءَ فَلْيُكثِرْ». (يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث بسنده: (١٤٥٢) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن أبي الزنادِ عنِ الأعرجِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه أن رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال «والذي نَفسي بيدِه، لأن يأخُذَ أحدُكم حبلَهُ فيحتطِبَ على ظهرِه خيرٌ لهُ من أنْ يأتيَ رجُلاً فيسألَه، أعطاهُ أو منعَهُ».(يوسف عامر).

ثم يبيعه. ففعل الرجل. فبارك الله له حتى أنه عُفي تماماً من مذلة السؤال.[1]

٦. لكن أولئك الناس الذين لسوء حظهم لا يستطيعون كسب قوتهم، قد حرم عليهم الإلحاح وكثرة السؤال والتظاهر والإصرار في السؤال، فقال عنهم النبي (ﷺ): **«لَيْسَ المسكينُ الذي تَرُدُّهُ الأكلةُ والأكلتانِ، ولكنِ المسكينُ الذي ليس له غِنىً ويَستَحيي أو لا يَسألُ الناسَ إلحافاً»**. (البخاري كتاب الزكاة باب قول الله عز وجل لا يسألون الناس إلحافاً) [2].

ثم أوضح الرسول (ﷺ) أن السؤال أو الاستجداء الذي لا يكون في حالة الضرورة القصوى يفسد في كل حال حياء الإنسان وغيرته فقال:

«ما يَزالُ الرجلُ يسألُ الناسَ حتى يأتيَ يومَ القيامةِ ليسَ في وَجهِهِ مُزْعةُ لحمٍ». (البخاري كتاب الزكاة باب من سأل الناس تكثرا). [3]

أي أن جزاءه هو أنه غسل عن وجهه بنفسه رونق العزة والكرامة، وتسول في الدنيا.

إضافة إلى هذه الإصلاحات الضرورية، أقام الإسلام نظاماً للزكاة، وقطع جذور كل تلك العيوب ومساوئ الأخلاق التي كان يمكن أن تتولد في

---

[1] أبو داود، كتاب الزكاة.

[2] وهذا نص الحديث بسنده: (١٤٥٨) حدَّثنا حَجَّاجُ بنُ مِنْهالٍ حدَّثنا شُعبةُ أخبرَني محمدُ بنُ زيادٍ قال سمعتُ أبا هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال «لَيْسَ المسكينُ الذي تَرُدُّهُ الأكلةُ والأكلتانِ، ولكنِ المسكينُ الذي ليس له غِنىً ويَستَحيي أو لا يَسألُ الناسَ إلحافاً». (يوسف عامر).

[3] وهذا نص الحديث بسنده. (١٤٥٦) حدَّثنا يحيى بنُ بكيرٍ حدَّثنا الليثُ عن عُبيدَ اللّهِ بن أبي جعفرٍ قال سمعتُ حمزةَ بن عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ قال: سمعتُ عبدَ اللّهِ بنَ عمرَ رضيَ اللّهُ عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «ما يَزالُ الرجلُ يسألُ الناسَ حتى يأتيَ يومَ القيامةِ ليسَ في وَجهِهِ مُزْعةَ لحمٍ». (يوسف عامر).

الناس بسبب هذا الدخل المجاني، وعلم طبقتي البشرية بعد أن وضع كلاً منهما في كفة مساوية للأخرى، دروس التعاون والمشاركة والمواساة والتكافل المشترك. وبهذا وحّد كل المجتمع الإنساني، وقلل التفرقة بين الوضيع والعظيم قدر الإمكان، وعلّم الجماعة الأمن من الدمار الاقتصادي، الذي كان يفزعهم كثيرا بأشكاله المختلفة.

وقد نتج عن تعليم النبي (ﷺ) أن تولد في الصحابة فيض وسخاء جعلهم لا يكتفون حتى بإنفاق كل ثروتهم لخدمة الدين والشريعة، وتولدت في فقراء الصحابة قناعة ورضا جعلهم يعدون سؤال أحدهم لغيره عيباً ومهانة. وكان الأغنياء يأخذون زكاتهم بأنفسهم، ويذهبون بها لبيت المال، وكان الفقراء يعدون إظهار إفلاسهم وحاجتهم لغير الله منافياً للتوكل على الله. ومن جهة ثالثة حين سنحت الفرصة بعد (وفاة) الرسول (ﷺ)، وتوافر المال في بيت المال، وفاض عن كل مصارف الزكاة كان يُقرض منه للمحتاجين"[1]. وهكذا أصبح هناك نظام مالي واقتصادي فيه فرصة للأفراد للاقتراض دون فائدة وبطريقة ميسرة، فكان الأخذ والعطاء مفتوحين وميسرين بعيداً عن لعنة الربا.

---

[1] التفسير الكبير، المجلد الرابع، صفحة ٦٨١.

الصيام

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾(البقرة: ١٨٣)

مفهوم الصيام

الصوم هو ثالث أركان الإسلام، وهو لفظ عربي يعني التوقف والسكوت. وطبقا لما ورد في تفاسير بعض المفسرين، فإنه قد عُبّر عنه في القرآن الكريم بلفظ "الصبر" كذلك. والذي يعني ضبط النفس والتحمل والثبات. ويتضح من هذه المعاني مفهوم الصوم في لغة الإسلام، فالصوم اسم للسيطرة على الأهواء الداخلية والشهوات البهيمية وضبط النفس والثبات في مواطن الشهوة والهوى. وبصفة عامة فإن الرغبات الداخلية والأهواء البشرية لها ثلاثة مظاهر في الحياة اليومية، وهي الأكل والشرب والجنس. والتوقف عن هذه الأشياء الثلاثة لفترة معينة يسمى – شرعاً – صوماً لكن عند الخواص يدخل حفظ القلب واللسان عن الزلات والأهواء الداخلية إضافة إلى البعد عن الملذات الظاهرية في حقيقة الصوم.

بداية الصوم:

لا نعرف التاريخ الأول للصوم، لكن الطبيب الانجليزي الشهير "هربرت اسبنسر" يقرر في كتابه "أصول الاجتماع" بناء على تمثيل بعض القبائل البدوية واستقرارها أن بداية الصوم ربما كانت قد بدأت بالطريقة الآتية، وهي أن الناس ربما كانت تظل جائعة في القرون الأولى، وربما كانوا

يعتقدون أن جزاءهم وطعامهم يصل هكذا إلى كل من الرجل والمرأة. إلا أن هذا الاعتقاد لم يلق رواجًا عند العقلاء"[١].

وعلى كل حال سواء أكانت هناك أسباب لحقيقة الصوم وبدايته في مذاهب الشرك وأديانه أولا، فإن الإسلام لا يحتاج إلى وكالة متبعيه لتوضيح بداية الصوم وغايته، فقد أعلن الله تعالى هذا الأمر، وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣- ١٨٥)

لم توضح هذه الآيات الكريمة بعض أحكام الصوم فحسب؛ بل وضحت تاريخ شهر رمضان وحقيقته وماهيته وأجابت على الاعتراض على الصوم. وسنلقي في الصفحات الآتية الضوء على كل من هذه الأمور بالترتيب:

التاريخ الديني للصوم

صرح القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة أن الصوم ليس خاصاً بالإسلام فحسب، بل كان مفروضا في كل الأديان السابقة على الإسلام. وقد أخبر النبي الأمي ﷺ - الذي ادعى عليه مخالفوه بأنه لا علم له بالتاريخ -

---

[١] دائرة المعارف البريطانية، ج ١٠، صـ ١٩٤، الطبعة الحادية عشرة.

أن الصوم كان فريضة فى كل الأديان السابقة. ولو أن هذا القول غير مبني على الصحة – كما يذهب المخالفون – فنسوق هنا قول عالم أوروبي يصدق هذا القول. ورد عن الصوم فى دائرة المعارف البريطانية: "وكأن مفاهيم الصوم وطرقه تختلف كثيرا باختلاف المناخ والقومية والحضارة والأوضاع أو الظروف المحيطة، لكن يصعب أن نجد دينًا لم يسلم في شريعته ونظامه الديني بالصوم". ثم يكتب بعد ذلك فيقول: "وكأن الصوم موجود في كل مكان على أساس أنه معتقد ديني".

والهند التي تدعي أنها الأقدم لم تكن في حل من الصوم. فكان اليوم الحادي عشر والثاني عشر من كل شهر يوم صوم عند البراهمة. وعلى هذا كانوا يصومون أربعة وعشرين يوماً في السنة. وبعض البراهمة كان يصوم كل أيام الاثنين من الشهر السابع من السنة الهندية. وكان الهندوس أيضاً يصومون بإقلاعهم عن الأكل والشرب لمدة أربعين يوما. ومن بين كل مذاهب الهند كان المذهب الجيني يشترط شروطاً صعبة للصوم. فيكون الصوم عندهم لمدة أربعين يوما. ويصوم الجينيون في الكجرات والدكن شهورا عديدة كل سنة. ويوجد الصوم عند القدماء المصريين كذلك ضمن مناسباتهم الدينية الأخرى. وفي اليونان كانت النسوة فقط تصمن اليوم الثالث من تهموفيريا. وبالرغم من أن الصوم لم يفرض على أتباع المذهب الزرادشتي فإنه يثبت من آية كتابهم أن الصوم كان موجوداً عندهم. فكان صوم السنة الخامسة على أئمة الدين خاصة واجباً[1].

---

[1] انظر لكل هذه الاقتباسات في دائرة المعارف البريطانية، ج١٠، صـ١٩٣، الطبعة١١.

وكان الصوم مفروضاً على اليهود كذلك؛ فقد قضى سيدنا موسى أربعين يوما على جبل الطور دون أكل أو شرب (الخروج ٣٤ – ٣٨)[١] لذا كانت اليهود تعتقد أن صوم أربعين يوماً تقليدا لسيدنا موسى عليه السلام أمر طيب. ويكون صوم الأربعين يوما هذه فرضاً على من يوافق اليوم العاشر في شهرهم السابع (تشرين)، ولذا يسمونه يوم عاشوراء.

فيوم عاشوراء هذا عندهم هو اليوم الذي كرم الله تعالى فيه سيدنا موسى بعشرة أحكام للتوراة. لذا ورد في التوراة تأكيد صوم هذا اليوم[٢]. إضافة لهذا اليوم ورد في الصحف اليهودية تصريح بصيام أيام أخر[٣]. وفي الدين المسيحي أيضا نجد الصوم، إذ إن سيدنا عيسى قد صام أربعين يوماً في الغابة[٤]. وكان سيدنا يحيى الذي كان سابقا لسيدنا عيسى يصوم أيضاً.

---

[١] ورد هذا النص في سفر الخروج، الفقرة ٢٨: " وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزًا ولم يشرب ماء. فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر"(يوسف عامر).

[٢] التوراة، سفر الأخبار ١٦ – ٢٩ – ٣٤ (٢٣ – ٢٧)

[٣] سفر صمويل الأول، الإصحاح٧، الفقرة ٦. وهذا نصها: " فاجتمعوا إلى المصفاة واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب وصاموا ذلك اليوم وقالوا هناك قد أخطأنا إلى الرب. وقضى صموئيل لبنى إسرائيل في المصفاة"(يوسف عامر)، سفر إرميا (الإصحاح ٣٦، الفقرة ٦) وهذا نصها:" فادخل أنت واقرأ في الدرج الذي كتبت عن فمي كل كلام الرب في آذان الشعب في بيت الرب في يوم الصوم واقرأه أيضا في آذان كل يهوذا القادمين من مدنهم" (يوسف عامر).

[٤] إنجيل متى، الإصحاح٤، الفقرة ٢. وهذا نصها:" فبعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلةً جاع أخيرًا"(يوسف عامر)

وكانت أمته أيضاً تصوم[١]. وقد صام اليهود في أزمنة مختلفة بمناسبة ذكرى وقائع وأحداث عديدة، وغالبية صومهم كان صوم حزن. فكــانوا يظهــرون حزنهم الداخلي في صورة حزن وألم على شكلهم[٢]. وقد منع سيدنا عيــسى في زمانه هذا الصوم المفتعل للحزن. وكانت هناك مناسبة لمثل هذا الصوم، فذهب اليهود لسيدنا عيسى واعترضوا على أن أتباعه لا يصومون، فأجــابهم سيدنا عيسى قائلاً: "هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعــريس معهــم. مادام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا* ولكن ستأتي أيام حين يُرفــع العريس عنهم فحينئذٍ يصومون في تلك الأيام" (إنجيل مرقس، إصــحاح ٢، فقرة ١٨). والمقصود بالعريس فــي هــذا التلمــيح ســيدنا عيــسى نفــسه وبالمشاركين في المحفل معه أتباعه أو الحواريون. فوضح أن النبي مادام مع أمته فلا داعي للحزن. ويتضح من هذه الفقرة أن سيدنا عيسى لم يمنع الصوم المفروض المستحب في شريعة سيدنا موسى، وإنما نهى عن الصوم المبتدع

---

(١) إنجيل مرقس، الإصحاح ٢، الفقرة ١٨. وهــذا نــصها: " وكــان تلاميــذ يوحنــا والفريسيين يصومون. فجاءوا وقالوا له لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريــسيين وأمــا تلاميذك فلا يصومون" (يوسف عامر).

(٢) سفر القضاة، الإصحاح ٢٠، الفقرة ٢٦. وهذا نصها": فصعد جميع بنــي إســرائيل وكل الشعب وجاءوا إلى بيت إيل وبكوا وجلسوا هناك أمام الرب وصاموا ذلك اليوم إلى المساء وأصعدوا محرقات وذبائح سلامة أمام الــرب"(يوســف عــامر)، ســفر صموئيل الأول الإصحاح ٧، الفقرة ٦. وهذا نصها:" فاجتمعوا إلى المصفاة واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب وصاموا ذلك اليوم وقالوا هناك قد أخطأنا إلى الرب. وقضى صموئيل لبنى إسرائيل في المصفاة"(يوسف عامر)،والإصحاح ٣١، الفقرة ١٣. وهذا نصها:" وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة في يابيش وصاموا سبعة أيام" فاجتمعوا إلى المصفاة واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب وصاموا ذلك اليوم وقــالوا هنــاك قــد أخطأنا إلى الرب. وقضى صموئيل لبنى إسرائيل في المصفاة"(يوسف عامر)، إنجيل لوقا، الإصحاح ٦، الفقرة ١٦. وغيره.

للحزن. فنصح أتباعه بأن يصوموا صوما خالصاً لوجه الله. لذا يقول للحواريين:

"ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين. فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم* وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك* لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية " (إنجيل متى، الإصحاح ٦، الفقرتان ١٦،١٧، ١٨).

وفي مكان آخر يجيب سيدنا عيسى أتباعه حين سألوه عن طريقة طرد الأرواح الخبيثة فيقول:

"وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم" (إنجيل متى، إصحاح ١٧، فقرة ٢١)

وتقريباً، كانت العرب قبل الإسلام تعرف الصوم. فكانت قريش تصوم يوم عاشوراء زمن الجاهلية؛ لأن الكعبة كانت تكسي في هذا اليوم[1]. وفي

---

[1] مسند ابن حنبل، المجلد السادس، صـ ٢٤٤. وورد في صحيح البخاري، باب صوم يوم عاشوراء، كتاب الصوم: (١٩٧٨) حدثنا عبدُ اللهِ بنُ مَسلَمةَ عن مالكٍ عن هِشامِ بنِ عُروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: «كان يوم عاشوراءَ تصومُه قُريشٌ في الجاهلية. وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَصومُه في الجاهليةِ، فلما قَدِمَ المدينةَ صامَهُ وأمَرَ بصيامِهِ، فلما فُرِضَ رمضانُ تَرَكَ يومَ عاشُوراءَ، فَمنْ شاءَ صامَهُ ومَن شاءَ ترَكه». (يوسف عامر). كما ورد في البخاري أيضا: (٤٣٩٠) حدَّثني محمدُ بن المثنّى: حدَّثنا يحيى: حدَّثنا هشام قال: أخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: كانَ يومُ عاشوراء تصُومُهُ قريْشٌ في الجاهليَّة، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يصومُهُ، فلمَّا قدِمَ المدينة صامَهُ وأمَرَ بصيامِهِ، فلمَّا نزل رمضانُ كان رمضانُ الفريضة وتُرِك عاشوراءُ، فكان مَنْ شاءَ صامَهُ ومَنْ شاءَ لَمْ يَصُمْهُ» (يوسف عامر).

المدينة كان اليهود يحتفلون بيوم عاشوراء لسبب آخر[1]؛ فكانوا يصومون هذا اليوم لأنه اليوم العاشر من أيام شهرهم السابع. ويثبت من هذه التوضيحات أن الآية الكريمة ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة: ١٨٣) قائمة ومبنية على أساس تاريخي صادق.

حقيقة الصوم

لو استعرضنا أسباب كل أنواع الشقاء والتردي الروحاني للإنسان وعللهما. فستكون النتيجة النهائية لهذا هي أن الإنسان يحتاج لكثير من الضروريات في الحياة، وأنه خاضع لعدة أغراض. فلا تخلو أية دقة من دقات قلبه، ولا أية حركة لأعضائه من الضرورة والحاجة. ولو استعرضنا الأخلاق التي ترتبط إلى حد كبير بالروحانيات، سنجد أنها مبنية هي الأخرى بصفة عامة على أى ضرورة أو هدف روحاني. لذا فكل أنواع شقائنا وتردينا ما هي إلا نتيجة لعلة واحدة. فإذا استغنى الإنسان عن الحاجة والغاية فلن يكون الإنسان إنساناً. بل سيكون ملاكاً.

أما الأمر الذي يستحق التأمل فهو مدى حقيقة السلسلة غير المتناهية لاحتياجات الإنسان وأهدافه وغاياته المتعددة؛ ففي قلوبنا أمنيات عديدة ورغبات متنوعة واحتياجات شتى مزيفة. لكن هل نستطيع أن نعيش بدون

---

[1] البخاري، باب صوم يوم عاشوراء، كتاب الصوم، صـ ٥٦٢. وهذا نصه: (١٩٨٠) حدَّثنا أبو مَعْمَرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ عن أيُّوبَ عن عبدِ اللهِ بن سعيد بن جُبَيرٍ عن أبيه عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قال: «قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ فرأىٰ اليهودَ تَصومُ يومَ عاشوراءَ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يومٌ نَجَّى اللهُ بني إسرائيلَ مِن عدُوِّهِم فصامَهُ موسى، قال؛ فأنا أحقُّ بموسىٰ منكم، فصامَهُ، وأمَرَ بصيامِه». (يوسف عامر).

ملابس فاخرة وعمارات شاهقة وأطعمة شهية ووسائل نقل سريعة ؟ وهل ستنتهي حياتنا إذا خلت بيوتنا من العيال والمال والخدم والحشم ؟ لقد عاش الملوك حياة الزهاد، ومع ذلك ظلوا على قيد الحياة ولم يموتوا. فقد روي أن إبراهيم بن أدهم أصبح زاهدا بعد أن كان ملكاً، وأمضى حياة غاية في السعادة والهناء المعنوي.

وربما نختصر الدائرة الواسعة لاحتياجات الإنسان الأساسية بعد ترك ورد الاحتياجات الثانوية في كلمتين هما أساس القوة، وهما الأكل والشرب اللذان لا يستطيع الإنسان العيش بدونهما فبقاء الروح في البدن متوقف على سد الرمق. والحقيقة أن سد الرمق يتحقق ببضع لقيمات وجرعات ماء. وأن سبب كل الضرورات الإنسانية ومنشأها بعد ذلك يكون نتيجة للتفنن والإفراط في هذه اللقيمات وجرعات المياه. وعلى هذا لو فرقنا بين اثنين أحدهما من عالم الإنس هو الإنسان والثاني من عالم الملكوت وهو الملاك، فسيضم هذا التفريق كل الفروق والامتيازات. ولو عددنا فهرساً لكل جرائم الإنسان ومعاصيه وبحثنا عن أسباب طمعه وحرصه وتقاتله ودمويته، فستكون مغالاته في هذين الشيئين هي آخر حلقة من حلقات هذه السلسلة.

وبناء على هذا، فأول شيء وضع في كل أديان العالم للبعد والتخلي عن المغالاة في الماديات هو البعد والتقليل من الأكل والشرب. والهدف الحقيقي من هذا هو أن يقلل الإنسان دائرة احتياجاته، ويسعى سعيا دءوبا للتخلي عن طلب القوت والغذاء عن طمعه فيهما. إذ إن سبب كل معاصي الإنسان وجرائمه هو هذا الأمر. فلو انتهى هذا الطلب وهذه الضرورة لأخذ بريق نور عالم الملكوت يظهر للإنسان فجأة.

ولكن مادام الإنسان إنساناً، فلن يمكنه التخلي مطلقاً عن الغذاء. لهذا حددت كل الأديان مدة معينة للبعد والتخلي عن الطعام. وأثناء هذه المدة يجب أن يدخل الإنسان ضمن عالم المخلوقات المقدسة، ويترك تلك الأشياء – التي

يمكن أن يتركها – لمدة معينة. ومعلوم أن طاعة الله تعالى وعبادته هي الهدف من وراء هذه المخلوقات، لذا يصبح هذا الهدف هدفا لحياة الإنسان خلال تلك الفترة.

وقد كشف القرآن الكريم النقاب عن كل هذه الحقائق والرموز بلفظ واحد هو "التقوى"، ولأن حقيقة الصوم واحدة في كل الأديان، فقد أشرك القرآن الكريم كل الأديان الأخرى في هذه الحقيقة، وذلك بطريق الإشارة فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣)

فهدف الصوم وغايته هي التقوى؛ أي السيطرة والتحكم في شهواتنا وإنقاذ أنفسنا من تلاطم المشاعر. وقد اتضح من هذا أن الصوم مفروض علينا بوصفه أحد أنواع العلاج الروحاني، لكن القرآن الكريم يوضح بعد ذلك حقيقتين أخريين للصوم في الإسلام فيقول:

﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

ولتوضيح هذا المفهوم يتحتم علينا الرجوع إلى شهر رمضان المبارك.

حقيقة رمضان

كما أن هذا العالم المادي خاضع لنظام وقانون ماديين. كذلك أقام الله تعالى سلسلة لنظام قانون آخر وأسباب وعلل لعالم الروحانيات. فكما نستطيع أن ندعي بكل يقين وثقة أن السم قاتل للإنسان، يستطيع الطبيب الروحاني أن يقول بنفس الثقة أن الذنب يقتل الإنسان. فكيف يخلق النبي المرسل داخل نفسه استعدادا لقبول النبوة ؟ ومتى يبعث في الدنيا وفي أي أوقات تظهر منه المعجزات ؟ وكيف يقدم دعوته ؟ وكيف يهاجر إلى الله عند الإنكار والتصدي له ؟ ثم كيف يخسر ويفشل منكروه ويفوز ويفلح مؤيدوه ؟ فيظهر

كل شيء منه بالترتيب طبقا لقواعد مرتبة منظمة. وقد ورد قول الله تعالى "سنة الله" في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة غالبيتها تشير إلى هذا النظام والترتيب الروحانيين.

وكما أن فلسفة التاريخ تشكل قانونا تاريخيا عاما بوصولها إلى الأصول والنتائج من خلال إعادة وتكرار الحوادث والأحداث السياسية، فإن حياة الأنبياء عليهم السلام وتواريخهم ترتب مبادئ قانون خصائص النبوة من خلال إعادة وقائعها.

ومن أصول التاريخ النبوي وقوانينه أن النبي (ﷺ) حين يصل لأعلى مراتب إنسانيته ينتظر تلقي النبوة ويستعد لها. فينعزل عن عالم البشرية، ويظهر في الخصائص الملكوتية. ويتموج في قلبه وعقله منذ ذلك الوقت منبع الوحي الإلهي، فحين ذهب نبي الطور (سيدنا موسى عليه السلام) لأخذ التوراة ظل أربعين ليلة جائعاً عطشاناً"[1]. وكذلك نبي جبل السعير (سيدنا عيسى عليه السلام) الذي كان الإنجيل وكأنه على لسانه، ظل صائما أربعين يوما وليلة[2].وكذلك نبي جبل فاران (سيدنا محمد) ظل مشغولاً بكل أنواع العبادات لمدة شهر كامل في غار حراء بمكة قبل نزول القرآن. ثم ظهر له بعد ذلك خلال تلك الفترة سيدنا جبريل عليه السلام. [3] في أي شهر حدثت هذه الواقعة؟ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ

---

(1) الخروج ٣٤ – ٢٨. وهذا نصه كما ورد فى سفر الخروج، الإصحاح ٣٤، فقرة ٢٨: "وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء. فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر". (يوسف عامر).

(2) إنجيل متى، إصحاح ٤، فقرة ٢. وهذا نصها: "فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا". (يوسف عامر).

(3) صحيح البخاري، حديث بدء الوحي. بيان الشهر الواحد في صحيح مسلم كتاب الإيمان باب نزول الوحي وفي سيرة ابن هشام في بدء البعثة. وهذا نصه في البخاري: (٣) حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن

للَّذي أُنزلَ فيه القُرآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥) وفي أي ليلة كانت هـذه الحادثـة ؟ ﴿إنَّا أنزلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣) وبأي اسم تعرف هـذه الليلـة ؟ ﴿إنَّا أنزلْنَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ﴾ (القدر: ١)

يثبت من هذه الآيات أن رمضان هو ذلك الشهر المقدس للذي نزل فيه القرآن الكريم لأول مرة إلى الدنيا. ونزلت فيه على النبي (ﷺ) أول صـفحة

عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صـلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلُو بغارِ حراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التَّعَبُّدُ ـ الليالي ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِه ويتزوَّدُ لذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءَهُ الحَقّ وهوَ في غارِ حراءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقال: اقْرَأْ. قالَ: مـا أنـا بقارىءٍ. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقْرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: مـا أنا بقارىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأْ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ منْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفْـسي. فقالت خَديجةُ: كلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْـسبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحَقّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتتْ بـه ورقَةَ بنَ نوفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى ـ ابنَ عَمِّ خديجة ـ وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ فـي الجاهليَّةِ، وكانَ يكْتُبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعِبْرانيَّـةِ ماشـاءَ اللهُ أن يَكتُبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: ياابنَ عَمِّ، اسْمعْ من ابنِ أخيـكَ. فقال لهُ ورَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تَرَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسـلم خبـرَ ما رأى. فقال له ورقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتني فيهـا جَـذَعٌ، ليْتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ماجئتَ به إلاَّ عُـودِي، وإنْ يُـدْرِكْني يَوْمُـكَ أنْصُرْكَ نَصراً مُؤَزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ. (يوسف عامر).

من الـدستور الإلهي لهداية العالم وإنقاذ البشرية. حين كـان حامـل القـرآن ومهبط الوحي سيدنا محمد (ﷺ) معتكفاً جائعا عطشانا (صـائماً) فـي غـار حراء[1]. وعلى هذا كان الصوم في هذا الشهر المقدس والاعتكاف فـي أي دار عبادة والتهجد وعبادة الله تعالى ليلة نزول الوحي (ليلـة القـدر) أمـرًا ضروريًا لكل أتباع محمد (ﷺ)؛ لأنه:

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)

فيتضح من هذا حقيقة الصوم والاعتكاف وليلة القدر فـي الإسـلام. وعلى أي أساس خصص الصوم في الإسلام برمضان، لذا يجب التكيف قدر الإمكان مع هذه الحالات والمشاعر في شهر رمضان المبارك، كما كان حال حامل القرآن سيدنا محمد(ﷺ)؛ حتى يكون هدايـة للـدنيا، وتاريخـاً خالـدا للتوجيه. هذه المشاعر والحالات التي نغلبها علينا أسوة بمبلغ القرآن سـيدنا محمد (ﷺ) هي شكر لله، وتقديس له على هدايتنا.

الفرصة المناسبة لفريضة الصوم سنة ٢ هجرية:

لو أن قالب عبادات الإسلام خالياً من الروح، وكان المقـصود منـه رياضة البدن فحسب لفرض الصيام قبل الصلاة؛ فالصوم في العرف العـام اسم للجوع. وكانت العرب تحصل على هذه السعادة بسبب الحالة الاقتصادية

---

[1] مع أنه لم يصرح في الروايات أن رسول الله كان يصوم في غار حراء، لكن يفهـم من القرائن والإشارات أن رسول الله (ﷺ) كان يصوم في غار حراء، إضـافة إلـى عبادات أخرى كما هو في البخاري (بدء الوحي) وفي سيرة ابن هشام أن رسول الله (ﷺ) كان يتحنث ويعتكف في تلك الفترة، وكان الصوم أحد هذه العبادات. وقد فهـم بعض علماء اليوم أيضاً بالقرائن أن رسول الله (ﷺ) كان يصوم في تلك الفترة. انظر التشريع الإسلامي للخضري ص ٣، ٤.

للبلد. وكان من الابتلاءات التي ابتلى بها الكفار المسلمين بعد ظهور الإسلام هي أنهم – كعادة العرب – ضيقوا عليهم من الناحية المعيشية. كما أن كل القبائل قد قطعت علاقاتها المدنية مع أولئك الذين كانوا قد ناصروا رسول الله (ﷺ)؛ فكان الصوم وحده في هذه الحالة هو الفريضة المناسبة لحياة المسلمين آنذاك ولحالة العرب عامة. ولم يكن في هذا الفرض خطر التعرض للمسلمين كما في الصلاة والحج؛ إذ إنه طريقة صامتة للعبادة يمكن أن تمارس دون قيد، لكن الإسلام عدّ العبادات دواءً للأمراض القلبية، يمكن استعماله حين تتولد تلك الأمراض، أو حين يبدأ وقت نموها وولادتها. فالأمراض القلبية كانت يمكن أن تتولد نتيجة للقوى الشهوانية، وحب زخارف الحياة، والتوغل والانهماك في الملذات الحسية. وقد كانت كل هذه الأسباب غير موجودة في مكة، إذ كان ظلم الكفار وطغيانهم قد استأصل تلك الأحاسيس. لذا لم تكن هناك حاجة لهذا العلاج الروحاني. وحين هاجر النبي (ﷺ) إلى المدينة المنورة توقفت مظالم الكفار. وأغنى الإيثار النفسي للأنصار المسلمين بالكفاف، وبدأت الفتوحات الإسلامية أيضاً. واتسعت رقعة الإسلام حينذاك، واقترب الوقت الذي ظهرت فيه الدنيا على حقيقتها أمام المسلمين وأخذت تفتنهم. لذا كان هذا في الحقيقة فصل التداخل، وكانت هناك حاجة للبعد عن الأمراض المتولدة فيهم. وكان البعد هو ذاك الصوم الذي فرض سنة ٢هـ[1]. وبهذا يزول الشك الذي اعترى بعض الجهلة، وهو أن الصوم كان قد فرض على المسلمين لأنهم كانوا في بداية الإسلام يعانون كثيرا من الفاقة، على الرغم من أن حاجة الشبعى للصوم أشد من حاجة الجوعى له. يقول العلامة ابن القيم في كتاب "زاد المعاد" إن ترك الشهوات كان صعبا للغاية،

---

[1] تاريخ ابن جرير الطبري، الواقعات، سنة ٢ هـ، ومواهب الزرقاني، ج١، ص ٤٧٠، مصر، وزاد الميعاد لابن القيم، ج ١، ص ١٦٠، مصر.

لذا فرض الصوم في وسط الإسلام، بعد أن اعتاد الناس التوحيد والصلاة والأحكام القرآنية. لذا كانت إضافة هذا الركن مناسبة لتلك الفترة.

تحديد أيام الصوم

الصوم أحد أنواع الأدوية، لذا وجب أن يكون كالأدوية (في الكم). فإن قضيت السنة كلها في هذا الدواء، فإنه سيكون دواء غير طبيعي. ويقضي على المقدرة البدنية للمسلمين، ويزيل رقة طبعهم الذي يتأثر بالعبادات. ولو حدد هذا الدواء بمدة زمنية قصيرة كيوم أو يومين، لكانت هذه الفترة قصيرة جدا، فلا تظهر فيها فائدة الدواء. لذا حدد الإسلام شهرا واحدا للصوم من بين اثني عشر شهرًا. وكانت هناك حاجة لتخصيص هذا الشهر؛ لتحقيق توحيد الأمة كلها في أدائها لهذا الفرض، ليظهر نظام وحدة الإسلام. وكانت الفترة التي نزل فيها القرآن الكريم – أي شهر رمضان – مناسبة – حقًا – لهذا الأمر، لذا قضى النبي (ﷺ) وكل صحابته شهر رمضان بعد ذلك صائمين. وحتى اليوم تعدّ الأمة المحمدية كلها هذا الشهر شهر الصيام ويصومونه كاملاً. ولأن الصوم مشقة حددت أيام صيام رمضان، وفرضت في القرآن الكريم بصفة تدريجية، ببلاغة متناهية؛ حتى تتأهل النفس البشرية شيئا فشيئا لقبول هذه المسئولية، فقال أولاً قبل تخصيص الزمان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣)

ثم طمأنهم بعد ذلك بأنه لم يفرض عليكم أنتم فحسب بل: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣) ولم يبين المدة حتى ذلك الوقت، لكنه قال فقط: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٤) وبالرغم من أنه هنا لم يحدد مدة الصوم، فإنه ذكر بأسلوب بليغ قلة مدة الصوم؛ حتى لا يشق على السامع،

فقال: أياما معدودات. ثم ذكر بعد ذلك رخص الصوم الإسلامي؛ حتى تظل النفس متنبهة فقال:

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)

لقد وضح من هذا الأسلوب أن أيام الصيام ستفرض في زمن خاص. ولو لم يكن هذا لكان قوله: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(البقرة: ١٨٤) لا معنى له. وقد وضح – أيضاً – بطريق الإشارة أن الأيام التي ستكون للصوم أيام معدودات. وإلا لما قيل معدودات وعدة من أيام آخر وبعد ذلك لتكملوا العدة. ثم بنيت الرخصة الثانية بعد ذلك فقيل:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)

ثم قيل في نفس الآية ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤) تأمل هذه الآيات، لقد عدّ الصوم أفضل رغم إباحة القضاء والكفاءة. وأوضح معية الصوم. ثم حددت بعد هذا التمهيد الأيام المعدودات بأنها ذاك الشهر، الذي عبر عنه بأيام معدودات للتخفيف، وأوضح أن صوم ٢٩ أو ٣٠ يوما من بين ٣٦٠ يوما في السنة أياما معدودات حقاً[1]. المهم أنه أوضح أهمية هذا الشهر وعظمته قبل أن يعدّه شهر الصيام فقال:

---

[1] لو قال غير واقف باللغة العربية أن "أيام" جمع قلة وهو ما لا يطلق على أكثر من عشرة، لوجب أن يقصر "أيام العرب" التي يبلغ تعدادها آلاف الأيام على عشرة حروب على الأكثر. ولوجب عليه أيضاً أن يقصر آلاف الانقلابات والتغييرات التي حدثت في الدنيا والتي عبر الله تعالى عنها بأيام الله (سورة إبراهيم) وجب عليه أن يقصرها على تسعة تغييرات فحسب. والطريق الأخضر الذي يصل الشام واليمن كان يقطع في شهور، عبر عنها الله تعالى ببضع ليال وأيام فقال ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ ١٨). وأن تكون الأيام الخالية التي أطلقها القرآن الكريم على عمر الإنسان بأكمله (وتلك الأيام نداولها بين الناس) على السنين والقرون يجب أن لا

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥)

حينذاك سنحت الفرصة ليقول إن صيام هذه الأيام قد فرض عليكم في هذا الشهر الذي فضل بكذا، فقال:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥)

فأوضح في ذاك الوقت تعيين صيام شهر رمضان، وشرح قوله "أياما معدودات". وهناك قاعدة في اللغة العربية تقول إن ظرف الزمان[١] حين يكون في التركيب النحوي مفعولا فيه لمفعوله، فإن ذلك الفعل يحوي ظرف الزمان هذا. فلو قيل إنه صام شهرا كاملا، لقلنا صام شهرا ولا يعني هذا أنه صام بضع أيام من الشهر، بل سيفهم أنه صام الشهر كله، ولو قيل إنه صام سنة كاملة، فسنقول في اللغة العربية: صام سنة. وقد ثبت من هذا أن صيام رمضان في هذه الآية الكريمة يعني صيام رمضان كله؛ لأنه عبر عنه بالشهر، لذا ستكون بداية الصوم مع بداية الشهر وينتهي الصوم مع نهاية الشهر، والشهر القمري الذي كان رائجاً عند العرب غالبا ما كان ٢٩ يوما أو ٣٠ كما هي العادة. وهذا ما يكون أيضاً في شهر الصيام، كما ثبت ووضح بالعمل والتواتر عن رسول الله (ﷺ) وكل صحابته والخلفاء الراشدين وكل الفرق الإسلامية وصرح به في الأحاديث الصحيحة.

تزيد عن تسعة أيام فقاعدة. فجموع القلة والكثرة ليست كلية بل عمومية لتلك الألفاظ التي يستعمل لها جمع قلة وجمع كثرة. ولفظ الأيام لا يدخل ضمنها: إذ ليس لهـا إلا جمع واحد، وهو "ايوام" الذي ينطق أيام بعد التعليل. للتحقيق ارجع إلى شرح الكافية المجلد الثاني بحث جمع مكثر. وإلى لسان العرب لفظ يوم.

[١] للمزيد انظر رضي الجزء الأول، المفعول فيه، وظرف الزمان صـ ١٦٢ طبعة نولكشور ١٨٦٨. كما ثبت هذا أيضا من الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٩)

أمر جدير بالذكر

أمر الله تعالى فى القرآن الكريم بصيام شهر رمضان فقال:
﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥)

والمعنى اللغوي للفظ "شهد" أي حضر ووجد في أي مكان وزمان. واشتق منه "شهادة" و"شاهد". وقد اتضح من هذا أن الصوم فرض على من يكون موجودا وحاضرا في شهر رمضان. وعدم الوجود في هذا الشهر له صورتان هما: الأولى أن يأتي شهر رمضان ولا يكون الشخص موجوداً، أي يكون قد توفي، والصورة الثانية أن يكون الشخص موجوداً في مكانه، ولكن لم يأت عليه شهر الصيام، ويكون هذا في الأماكن التي لا تتحد أو تتفق في نظام الليل والنهار. فمثلاً لا يُسألُ عن رمضان في تلك الأماكن التي يكون فيها النهار والليل ممتدين لبضعة شهور. فإن أراد المسلمون هناك الصوم، فعليهم أن يعتدوا بتقويم بقية البلدان الأخرى المتحضرة، ويصوموا ويفطروا معهم (كما ثبت من حديث الدجال الذي ورد في الصحاح).

لكن حيث يكون النهار ١٨ أو ١٩ ساعة، تكون قدرة الله البارعة أن جعل الجو هناك بارداً حتى تقل مشقة الصوم من كثرة عدد ساعات النهار. وقد تصادف وصمت أنا شخصياً وكثير من المسلمين في انجلترا، ولم نشعر بالمشقة إطلاقاً[١].

---

[١] كُتب خطأً فى الطبعة الأولى والثانية من هذا الكتاب فى هذا المقام جواز الكفارة بدلا من الصوم فى أيام مثل هذه الفترة، لذا فأنا أتوب عن هذا القول. (سيد سليمان الندوي).

العاجزون

وضع الله سبحانه وتعالى رخصاً لأولئك الناس (الأفراد) الذين يعجزون عن صيام هذا الشهر. لذا قال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)

ثم رخص بعد هذا التمهيد الجوهري للمسافر والمريض أن يفطرا رمضان أو بعض أيامه إذ لم يستطيعا أن يصوما بسبب عذر السفر أو المرض، ثم يقضيا بعد زوال العذر ما أفطراه.

والمريض هنا له معنيان؛ الأول: إما أن يكون مريضا حقيقة، وإما أن يقول طبيب مسلم تقي أن هذا الشخص سيمرض إذا صام، أو أن يغلب الشخص نفسه الظن من كثرة تجاربه بأنه لو صام سيمرض. فالأفضل له أن يفطر في رمضان مدة وجود العذر، ثم يقضي بعد ذلك في الوقت المناسب. قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤)

وهناك آية أخرى في هذا الشأن هي الآية التي اختلف في تفسيرها وتأويلها منذ عهد الصحابة، تلك الآية هي

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)

١. يتضح من روايات بعض الصحابة أنه في البداية قد فرض صوم بعض الأيام قبل رمضان، وكانت هناك رخصة فيما يتعلق بهذه الأيام، فمن شاء صام ومن لم يشأ أطعم مسكينا عن كل يوم من الصوم. لكن بعد فرض الصيام نسخت هذه الرخصة.
٢. الرواية الثانية هي أن الضمير في يطيقونه راجع إلى الإطعام لا إلى الصوم وفي هذه الحالة يكون معنى الآية أن الناس الذين يستطيعون

الفدية عليهم أن يطعموا مسكينا إضافة للصوم، ثم نسخ هذا الحكم فيما بعد. وقد عدّ الشيخ شاه ولي الله رحمة الله عليه المقصود "بفدية طعام مسكين" زكاة الفطر التي تؤدى قبل انتهاء رمضان عن كل صائم وعن أولاده القصر (الفوز الكبير باب الناسخ والمنسوخ).

٣. الرواية الثالثة هي أن هذا الحكم ليس منسوخا، وأن هذه الرخصة لأولئك الذين لا يقدرون على الصوم، كالشيخ الهرم والحامل.

والحقيقة أنه لم يُبحث في المعنى اللغوي للفظ "يطيقون"، وعُدّ أن لفظ "إطاقة" أو الاستطاعة يعني "وسع"، ويُترجم لفظ "يطيقون" هكذا: "إن من يستطيع الصوم هو من يطعم مسكينا". وطبقا لهذه الترجمة إما أن نضطر للتسليم بالنسخ، وإما أن نضطر أن نقول كما يقول بعض متحرري الفكر اليوم: إن الذي يستطيع أن يصوم هو يستطيع أن يتخلص من الصوم بالفدية بدلاً منه. مع أن هذا خطأ واضح؛ إذ سيكون المعنى أن الفقراء يصومون والأغنياء يستثنون من الصوم بالفدية، والإسلام برئ تماما من التفريق والتمييز، وعمل الإسلام المتواتر يتنافى مع هذا تمامًا، هذا فضلاً عن أن هذا يتعارض تماما مع الآية التالية:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة:١٨٥)

والإطاقة تعني المقدرة على القيام بالعمل بمشقة. لذا ستكون ترجمة يطيقونه هي: أن من يستطيع أن يصوم بمشقة هو من يفدي بإطعام مسكين بدلاً من الصوم[1].

---

[1] إطاقة مصدر طاقة، ولا يأتي منها مصدر ثلاثي. ولتكوين فعل تستعمل باب أفعال. وقد كتب معنى طاقة في لسان العرب وتاج العروس كذلك: **والطوق الطاقة أي أقصى غايته وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقة منه.** وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى للطاقة فقال: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقد ثبت من القرآن الكريم أن الله تعالى لم يأمر عباده بما لا يستطيعون فقال: ﴿ لا يكلف الله نفساً

الآن أصبح للعاجزين عن الصوم صورتان الأولى: هي أن يكون هذا العذر عارضاً طارئاً كالمرض أو الخوف من المرض أو السفر. فتكون هذه الآية موجهة إليهم:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(البقرة: ١٨٤)

أي لا يصومون وقت العذر، ثم يقضوا ما أفطروه بعد ذلك في الوقت المناسب. وتدخل في هذا المرأة الحامل والمرضعة. فإن خافت الحامل أو المرضعة على نفسها أو على طفلها من المرض فلا تصم ظينة وجود العذر. وعليها أن تقضي بعد زوال العذر.

إلا وسعها ﴾ (البقرة: ٤٠). لذا وضح أن الدعاء وهو ربنا ولا تحملنا ما لا نقدر على حمله بل سيكون معناه لا تحملنا ما لا نقدر على حمله إلا بمشقة. كذلك قول جنود طالوت: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩) لا يعني أنهم لن يستطيعوا المقابلة، بل معناه أنهم سيستطيعون المقابلة ولكن بصعوبة. ويتضح هذا من الأحاديث أيضاً ففي أبي داود: **عن ابن جبير عن ابن عباس وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين قال كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام" أن يفطرا أو يطعما مكان كل يوم مسكيناً"**. فوضح من هذا الحديث أن يطيقان الصيام لا يعني الذين يستطيعون أن يصوموا، لأن الإجازة لا تأتي مع الاستطاعة، فسيكون المعنى أن الذين يستطيعون ولكن بصعوبة.

لم أكن قد وجدت تأييدا للعلماء الآخرين عند كتابة الطبعة الأولى. أما الآن فالحمد لله قد وجدت التأييد والثبوت في شارح عون المعبود وشرح أبي أبي داود. وقد غطيته بتعب ومشقة. وكذلك أكد تلامذة عديدة لشيخ الحديث مولانا أنور شاه الذي هو أوسع النظر من بين كل محدثي الحنفية أكد تلامذته أن هذا أيضاً كان نتيجة تحقيقه. فالحمد لله. لكل هذه الأسباب لن تكون ترجمة قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ الذين يستطيعون الصوم بل ستكون الترجمة كالتالي. الذين يستطيعون الصوم ولكن بمشقة وصعوبة.

الصورة الثانية: هي أن يكون ذلك العذر مستديما، وغير قابل للزوال، كأن يكون مرض الشخص دائما، أو يكون الشخص ضعيفا للغاية، وهرما لا يصوم إلا بصعوبة. فإنهم يقضون الصوم، ويطعمون عن كل يـــوم مـــسكيناً. ويكون الخطاب في هذه الآية:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقـــرة: ٢٣) موجهـــاً إلـــيهم. وواضح أنه إذا كانت الفدية مباحة للذي يستطيع أن يصوم بمشقة، فمن بـــاب أولى أن تكون مباحة لمن لا يقدر تمامـــا عليـــه، إذ لا يكلـــف الله نفـــساً إلا وسعها.

الاعتراض على الصوم والإجابة على ذلك

يعد بعض مدعي العلم والمعرفة بالطبيعة الغرض أو الغاية من عامة العبادات والطاعات هو كما يعتقد المتخلفون أن الله تعالى يسعد مـــن إتعابنـــا البدني، فهم يعتقدون أن حقيقة الصوم ما هي إلا تعـــب بـــدني لإســـعاد الله. وتوجد في الأديان الأخرى. دواع لسوء الفهم هذا. فتشير المدة غير القليلـــة للصوم وصعوباته عند رهبان الهنادكة والجينيين إلى هذا الأمر. ويستخدم في اصطلاح اليهود مصطلح تعذيب النفس بالصوم. فقد استعملت أكثر من فقرة من هذا القبيل للصوم في التوراة. ففي سفر الأخبار، الإصـــحاح ١٦، فقـــرة ٢٩ "سيكون هذا قانونا أبدياً لكم بأن يعذب كل واحد منكم نفسه سواء أكـــان منكم أو ساكناً معكم يوم العاشر من الشهر السابع".

وفي التوراة سفر العدد، إصحاح٢٩، فقرة ٧: "وفي عاشر هذا الشهر السابع يكون لكم محفل مقدس وتذللون أنفسكم. عملا ما لا تعملون".

وقد ذكر هذا الأمر في مواضع أخرى من التوراة. أما اللفـــظ الـــذي استعمله القرآن الكريم لهذه العبادة فهو الصوم، والمعنى اللغوي للصوم هـــو

الابتعاد والاجتناب والسكوت. فتتضح تماما من ذلك الحقيقة التي يشير إليها صوم الإسلام. فحيث أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالصوم في القرآن الكريم أضاف هذه الكلمات أيضا:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) فالقاعدة العامة للإسلام هي: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقد وصف القرآن الكريم مبلغه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧)

المقصود من هذا الكلام أن عبادات الإسلام وأحكامه ليس فيها شيء قد وضع لأجل تعذيب الإنسان وتكليفه بما لا يطيق. والصوم أيضاً ليس ببعيد عن هذا الكلام. لهذا قلل الإسلام بالتدريج صعوبات الصوم ومشقاته تلك التي زادها الناس.

اصلاحات في الصوم

المشقات التي قللها الإسلام نسبيا من الصوم، والتسهيلات التي ولدها فيه هي كالآتي:

١. أول شيء هو أن الأديان التي كانت قبل الإسلام سواء أكانت سماوية أو غير سماوية لم يكن الصوم فيها مفروضا في الغالب إلا على جماعة معينة من أتباع الدين، فمثلاً لم يكن الصوم واجباً على غير البراهمة عند الهنود. وكذلك كان الصوم قاصرا على الأئمة والقادة عند المجوس. وعند اليونان يقتصر الصوم على النسوة فحسب. لكن السؤال هو لو أن الصوم شيئاً طيبا لِمَ لم يُوجب على كل أتباع الدين جميعا؟

أما الإسلام فليس فيه تخصيص للإمام دون غيره أو للرجل أو للمرأة. فالأمر فيه أمر شامل عام لكل أتباع الإسلام، ولم يخصص فيه أحد: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥)

٢. غالبا ما تكون السنة الشمسية هي السنة المعتمدة في كل الأديان عدا الإسلام. وتواريخ الصوم في السنة الشمسية تحدد في فصول معينة لا يمكن تغييرها أو تعديلها. وعلى هذا يكون الصوم في الصيف أو في الشتاء، وكذلك في أيام طويلة أو قصيرة. وسيكون الصوم شاقًا للغاية في بعض البلدان للأبد، وفي البعض الآخر هيناً للأبد. أما تواريخ الصوم في الإسلام، فتكون بالأشهر القمرية التي تتغير مع كل الفصول وتطول وتقصر. وعلى هذا يأتي شهر الصوم الإسلامي في كل بلد في كل الفصول. وعلى ذلك تتغير شدة الصوم أو يتغير هوانه باستمرار.

٣. بقدر ما تيسر من مطالعة الكتب السماوية للأديان الأخرى لم نلمح تخصيصًا أو استثناءً لأي حالة بشرية فيما يتعلق تأكيد الصوم والأمر به. ومؤكد أن هذا لم يذكر في التوراة. حتى إن الذي لم يصم لسبب ما إما أن يُقطع أو يُقتل. كما أن الصوم فرض على الأجنبي غير اليهودي إذا كان يعيش بين اليهود أو معهم[١]. أما القرآن الكريم فقد استثنى من الصوم كل المعاقين والعاجزين. فالأطفال يستثنون وكذلك النساء في مدة الحمل والرضاع وفي أيام أخرى معينة. ويستثنى كذلك العجائز والمرضى والمسافرين والضعفاء الذين لا يقدرون ولا يقوون على الصوم.

فيقضي المريض والمسافر والمعذور الصوم بعد انقضاء المرض والسفر والعذر. أما المعذور الدائم فإنه يطعم مسكيناً بدلاً من الصوم.

---

[١] سفر الأخبار، الإصحاح ١٦، فقرة ٢٩.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤).

وفي الترمذي **عن أنس قال النبي (ﷺ): إن الله وضع عن الحامل والمرضع الصوم"**

أي لو كان هناك خطر على روح ابنها من الصوم في رمضان، فإنها تفطر ثم تقضي بعد ذهاب العذر.

٤. كانت أيام الصوم في الأديان الأخرى غير عادلة تماما. فكان الصوم إما صوماً كاملاً لمدة أربعين يوما وإما صوماً فيه تصريح بأكل الفاكهة، إضافة للحبوب واللحم. أما الإسلام فقد اختيرت فيه الوسطية في هذا أيضا، أي أنه منع أكل كل أنواع المأكولات والمشروبات وقت الصوم. لكن حددت مدة الصوم بشهر واحد، ويكون منذ طلوع الشمس حتى غروبها.

٥. كان الجينيون يصومون يوما فى الأسبوع. وكان الرهبان من نصارى العرب يصومون أياماً عدة. أما اليهود فكانوا يصومون لمدة أربع وعشرين ساعة. أما الإسلام فقد حدد الصوم من الفجر إلى المساء.

٦. كان الصوم عند اليهود كالآتي: إن من يأكل مرة وقت الفطر لن يستطيع أن يأكل ثانية، أي يبدأ صوم اليوم الثاني بعد أن يفرغ من الأكل مباشرة. وكان العرف عند العرب أن من يأكل قبل النوم لا يجوز له أن يأكل ثانية بعد أن يستيقظ من النوم. وكان هذا رائجاً في بداية الإسلام. ففي ذات مرة كان شهر رمضان، ولم يكن طعام العشاء قد جهز في بيت أحد الصحابة؛ إذ كانت زوجه ما تزال تطهي الطعام، وظل ينتظر حتى نام، فلما أُعد الطعام أحضرته له زوجه، ولكن لأنه كان قد نام، لم يستطع أن يأكل، وكان اليوم التالي يوم صوم أيضا، فأغشي عليه فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧)

٧. كان العرف في الجاهلية أن لا يقرب الرجل زوجته في أيام الصيام. ولكن لأن هذه المدة كانت غير طبيعية كان أكثر الناس يرتكبون الخيانة النفسية في الصوم مضطرين. لذلك لم يمنع الإسلام ذلك إلا وقت الصوم، وأباحه بالليل فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧)

٨. يعافى الخطأ والنسيان في الإسلام. وعلى هذا لو نسي الصائم وأكل أو شرب شيئاً أو فعل فعلاً يخالف الصوم وهو ناس، فإن صومه لا يبطل: **فعن أبي هريرة: من أكل أو شرب ناسياً فلا يفطر فإنما هو رزق الله" (الترمذي).**[1]

٩. هكذا لا يبطل الصوم من تلك الأفعال التي تخالف الصوم إن حدثت أو وقعت سهوا: **قال النبي (ﷺ) "ألا لا يفطر من قاء [2] ولا من احتلم" (أبو داود).** [3]

---

[1] وهذا نصه: (٧١٥) حدثنا أبو سَعيدٍ الأشجُّ حدثنا أبو خالدٍ الأحمرُ عن حَجَّاجٍ عن قَتَادَةَ عن ابنِ سيرينَ عن أبي هريرةَ، قال: قال رسولُ الله «مَنْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ نَاسِياً فلا يُفْطِرْ فإنَّمَا هُو رِزْقٌ رَزَقَهُ الله». (يوسف عامر).

[2] للقيء في فقه الأحناف صور عدة بعضها يبطل الصوم وبعضها لا يبطل.

[3] ورد في صحيح ابن خزيمة: (١٩٧٢) وروى هذا الخبر سفيان ابن سعيد الثوري وهو ممن لا يدانيه في الحفظ في زمانه كثير أحد عن زيد ابن أسلم عن صاحب له عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

١٠. لأن الصوم – في الغالب – عند اليهود كان علامة للحزن، وذكـرى للمصائب، فإنه لم يكونوا يأخذون زينتهم في حالة الصوم، ويظلون علـى حالة الغم والحزن، فقد قال سيدنا عيسى: "ومتـى صـمتم فـلا تكونـوا عابسين كالمرائين. فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صـائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم* وأما أنت فمتى صـمت فـادهن رأسك واغسل وجهك* لكي لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الـذي فـي الخفاء. فأبوك الذي يرى فى الخفاء يجازيك علانيـة " (إنجيـل متـى، الإصحاح ٦، الفقرتان ١٦، ١٧، ١٨). وهذه هـي ميـزة الـصوم فـي الإسلام أيضاً، فوضع الزيت على الشعر والتكحل والتطيب لا يتنافى مع الصوم في الإسلام. وهناك تأكيد لغسل الوجه، واستخدام السواك أيـضاً. والهدف من هذا إضافة إلى الطهارة والنظافة، هو ألا يقع الـصائم فـي الرياء، بظهوره في وضع غير طبيعي قذر، وحتى لا يبدو أنـه يتحمـل التعب والمشقة والأذى في أدائه هذا الفرض، وفي امتثاله لأمر الله، بـل يظهر فرحه ورضاه وسعادته.

١١. واضح أن الصوم إذا ما قارناه بالعبادات الأخرى فيه مشقة وتعب إلـى حد ما، لذا كان من الضروري أن يمنع كل أفراد الأمة من الغلو والتمادي فيه. فكثيرًا ما كان رسول الله (ﷺ) يصوم. فكانت هناك أيام معينـة فـي الشهر، وأيام محددة في الأسبوع لصومه (ﷺ). وأحيانا كان (ﷺ) يواصل الصوم ليلاً، لكنه جعل صوم الأيام الأخرى مستحباً فقط. ونهى مطلقا عن

« لا يفطر من قاء ولا من احتلم ولا من احتجم.»

.. حدثنا أبو موسى، نا عبد الرحمن ابن مهدي، نا سفيان، عن زيد ابن أسـلم. قال أبو بكر: فلو كان هذا الخبر عن عطاء ابن يسار، عن أبي سعيد الخدري، لبـاح الثوري بذكرهما، ولم يسكت عن اسميهما، يقول عن صاحب له، عن رجل، وإنمـا يقال في الأخبار عن صاحب له، وعن رجل إذا كان غير مشهور.» (يوسف عامر).

الوصال في الصوم. ولما سأله الصحابة عن سبب ذلك قال: «**وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**». [1]

فلما أصر الناس بدأ النبي (ﷺ) يواصل الصوم لأيام عدة حتى انتهى الشهر. ثم قال ﷺ لهم على سبيل الزجر: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلاَلُ لَزِدْتُكُمْ».

غايات الصوم

بعد هذا التفصيل علينا أن نتمعن مقاصد الصوم في الإسلام. وبالرغم من أنها قد وضحت إلى حد ما من السطور السابقة، فإنه يجب أن نوضحها بالتفصيل.

لم يكن أي تعليم رباني للنبي (ﷺ) مجرد أمر فحسب، بل كان مبنيا من أوله إلى آخره على الحكمة والمنفعة. فأساس الفرائض مبني على أعمدة أربع من الفوائد والمنافع الروحانية والأخلاقية والاجتماعية والمادية، وقد أوضح كتاب النبي (ﷺ) المنزل أساس هذه المصالح والمنافع وحقيقتها. لذا أوضح وبَيَّن مقاصد الصوم وغاياته كما قيل في ثلاث فقرات مختصرة هي:

١. ﴿**لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ**﴾ (البقرة: ١٨٥)
٢. ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٥)
٣. ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٣)

---

[1] وهذا نصه كما ورد في البخاري: (٢٥١٩) حدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَىٰ رَسُولُ اللَّهِ عَنِ الْوِصَالِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ تُوَاصِلُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْماً ثُمَّ يَوْماً. ثُمَّ رَأَوُا الْهِلاَلَ. فَقَالَ: لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلاَلُ لَزِدْتُكُمْ» كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا. (يوسف عامر).

مر آنفا أنه يتضح من حالات أصحاب الشرائع من الرسل أن كل واحد منهم قد عاش فترة في عالم الملكوت قبل نزول الشريعة عليه، وتجرد قدر الإمكان من الاحتياجات البشرية للأكل والشرب. وجعل نفسه صالحة ومؤهلة للاتصال بالعالم العلوي حتى فاز بمخاطبة الله ونزول الرسالة الربانية عليه فقد أمضى سيدنا موسى أربعين يوما في هذه الحالة حتى أخذ ألواح التوراة. وقضى سيدنا عيسى أربعين يوما كهذه أيضا حتى فاض لسانه وقلبه بالحكمة. وقضى رسول الله (ﷺ) شهرا كاملاً أي ثلاثين يوما في غار حراء مشغولا بعبادة ربه حتى فاض نور الله تعالى من فوهة الغار. [1]

اتباع النبي محمد (ﷺ)

وضح من هذا أن أول هدف من فريضة الصوم هو اتباع تلك الأيام المباركة للأنبياء عليهم السلام وتقليدها. وكان اليهود أيضا يعتقدون بصوم أربعين يوما، وبفرضية صوم اليوم الأربعين فقط تقليدا لسيدنا موسى. وكان على النصارى أيضا أن يفعلوا ذلك تقليدا لسيدنا عيسى. لكنهم لم يقلدوه إلا في موضوع الشعر، كما أنهم لم يتبعوا سننه وأوامره الأخرى. لذا لم يفعلوا ذلك أيضاً. وقد أمر المسلمون كذلك أن يصوموا عدة أيام؛ اتباعا لرسولهم (ﷺ). لذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٣) وأكبر دليل على تتمة دين الله تعالى وختم النبوة وكمال تعليم سيدنا محمد (ﷺ) هو أن الأمم السابقة نسيت في أيام معدودات درس تقليد واتباع رسلهم وأنبيائهم. ولكن الملايين من أمة النبي محمد (ﷺ) مازالت تتبع

[1] البخاري، المجلد الأول، صـ ٢٦٢.

سننه ﷺ حتى اليوم، ويقضون حياة ملكوتية بعيدين عن الطعــام والــشراب والملذات الأخرى لمدة شهر؛ تقليدا لنبيهم محمد (ﷺ) وأسوة به.

الشكر

ليس الصوم مجرد تقليد واتباع للأنبياء عليهم السلام فحسب، بل شكر لله تعالى على جزيل إحسانه الذي أفاضه علينا بواسطة رسله والاعتراف به؛ فقد أنعم الله على عباده بذلك الكتاب الإلهي والتعليم الرباني والهدايات القلبية التي جعلت من الشياطين ملائكة، ومن الضلالة نورا، وأخرجتهم من طيــات الذل والمهانة، ورفعتهم إلى قمة المجد، وبدلت بدويتهم إلى مدنية وجهلهم إلى علم ومعرفة، وسخفهم إلى حكمة، وظلامهم إلى نور وهداية. فغيّر إحسان الله قسمتهم وعمّر بيوتهم بخزائن الخير والثروة والفضل والبركة، وجعــل مــن ذرات تراب لا قيمة لها قيمة تضاهي القمر. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ (البقرة: ٢٣)

ودليل شكر الله تعالى على هدايته الربانية وعلى كتابه المنزل هــو أن نقرأ ونسمع كل آيات هذا الكتاب في ليالي هذا الشهر وقت الصلاة (صـــلاة التراويح) وأن نذهب لأداء صلاة العيد مكبرين بعد نهاية هــذا الــشهر، وأن نشكر الله بصلاة ركعتي العيد بالتهليل فرحاً وسعادة.

التقوى

إن أكبر غاية معنوية للصوم هي التقوى وطهارة القلب ونقاؤه. فقـــال لنا عن طريق نبينا محمد (ﷺ)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)

١. التقوى اسم لحالة قلبية حين تتحقق يأخذ القلب في الندم على المعاصي، ويحن للصالحات وهدف الصوم هو خلق هذه الحالة داخل الإنسان. فالقضية هي أن أكثر مشاعر المعاصي تتولد داخل الإنسان من إفراط القوة البهيمية. والصوم يحد من قوة هذه المشاعر. لذا قال النبي (ﷺ) لأولئك الشباب الذين لا يقدرون على النكاح بسبب قلة المال، ولا يستطيعون أن يتحكموا في أنفسهم: «ومنَ لم يَستَطِعْ فعلَيهِ بالصَّوْمِ، فإنهُ لَهُ وِجاءٌ». [1]

٢. يتضح من التمعن في أحكام الإسلام المختلفة أن الأمر الخاص في مشروعية الصوم فيه إشارة خاصة لهذا الأمر، وهو أن على كل مسلم أن يقضي شهرا واحدا من بين اثني عشر شهر يأكل فيه طعام وقت واحد، وأن يطعم إخوانه المحتاجين والفقراء إن أمكنه ذلك. وبالنظر إلى كل الأحكام المتعلقة بالفدية والكفارة يتضح أن إطعام المساكين قد عُدّ بديلاً عن الصوم في كل المواضع. ويتضح من هذا أن كلاً من الصوم وإطعام المساكين يقوم مقام الآخر؛ إذ إن أولئك الناس من الضعفاء ودائمي المرض والمسنين الذين لا يستطيعون أن يصوموا إلا بمشقة يكون بديل صومهم:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)

---

[1] وهذا نصه كما جاء في البخاري، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، كتاب الصوم: (١٨٨٤) حدثنا عَبْدانُ عن أبي حَمزةَ عنِ الأعمشِ عن إبراهيمَ عن علقمةَ قال: «بَينا أنا أمشي معَ عبدِ اللّهِ رضيَ اللّهُ عنه فقال: كنّا معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: مَنِ استطاعَ الباءَةَ فلْيَتزَوَّجْ، فإنَّه أغضُّ للبَصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ. ومنَ لم يَستَطِعْ فعلَيهِ بالصَّوْمِ، فإنهُ لَهُ وِجاءٌ». (يوسف عامر).

وإذا اضطر شخص لحلق رأسه في الحج قبل الإحرام:
﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦) وتجب الفدية على من تمتع بالعمرة إلى الحج. وتقسم الفدية على الفقراء.

فإذ لم يمكنه الفدو فـ ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ (البقرة: ١٩٦) ويمنع صيد الحيوان في الحج، فإذا فعل شخص ما هذا متعمدا فعليه فدية مثل ما قتل من النعم. فيأخذه ويفدي به في منى، فإذ لم يستطع فـ: ﴿كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ (المائدة: ٩٥) وإن حنث شخص في يمينه متعمدا وجب عليه إطعام عشرة مساكين أو تحرير رقبة، فإن لم يستطع: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ (المائدة: ٨٩) وإن ظاهر شخص زوجته، ثم عاد لما قال وجب عليه تحرير رقبة، فإن لم يستطع:
﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ (المجادلة: ٤) وإن لم يمكن هذا أيضاً:
﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ (المجادلة: ٤)

فيبدو جلياً من هذه الأحكام أن الصوم يقوم في الحقيقة مقام الصدقات وإطعام المساكين وعتق رقاب العبيد.

٣. يُنبئ الصوم الأغنياء وممتلئ البطون عندما يشعرون بالمشقة والجوع والعطش الذي يكونون فيه بمعاناة إخوانهم المتعبين من الفقر والفاقة. ويتضح أن إزالة معاناتهم ببضع لقيمات ثواب كبير للغاية؛ إذ كيف يشعر من لم يجع ولم يعطش بمعاناة الجائع والعطشان. إنه كما قال الحافظ ابن القيم: يجب أن تجرب حرقة القلب؛ حتى تحس بها، والصوم يحيي هذا الإحساس، ويوقظ مشاعر الإيثار والتراحم والمواساة. هكذا كان حال النبي (ﷺ). فيقول بعض الصحابة: إن جود النبي وكرمه في

رمضان كان كالهواء الجاري[1]. وأثر هذا أن الفقراء والمساكين يساعدون ويسد جوعهم عند المسلمين في هذا الشهر.

٤. ربما يكون الإنسان قد تربى في النعيم والرفاهية، ويمتلك كثيرا من المال والثروة، ولكن تغير الزمان وصراعه يجبراه على أن يعود بدنه على المشكلات وتحمل المشاق. ويحتاج أيضا أن يعد نفسه لكل ميدان متوقع للجهاد، وذلك بأن يعود نفسه على الصبر وتحمل الجوع والعطش. لذا فالمسلم المجاهد يتحمل في ميدان المعركة الجوع والعطش بكل رضا وسعادة كما لم يتحمل شخص آخر، فكأن الصوم نوع من الرياضة العسكرية الإلزامية التي تفرض على كل مسلم شهراً واحدًا في السنة؛ حتى يستعد دوما لتحمل كل أنواع المشاق. ويستطيع أن يقابل بكل ثقة وشجاعة صراع الحياة وقسوتها وكبدها. لأجل هذا عبر القرآن الكريم عن الصوم بلفظ الصبر في بعض المواضع؛ حتى تتضح بذلك حقيقة الصوم هذه.

٥. إذا كان الفاقة والجوع يؤثران في جسم الإنسان بإضعافه، فإن الأكل الزائد يؤثر فيه أكثر من ذلك بكثير، فيجعله هدفا للأمراض والأوبئة المختلفة. أي أن التجارب والملاحظات الطبية تثبت أن الجوع ضروري لصحة الإنسان في كثير من الأحيان، وأنه علاج فعال لأمراض عدة.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي. وهذا نصه: (٦) حدَّثنا عَبْدانُ قال: أخبرَنا عبدُ الله قالَ: أخبرَنا يونُسُ عن الزُّهْرِيِّ. وحدثنا بِشْرُ بنُ محمدٍ قال: أخبرَنا عبدُ اللَّهِ قالَ: أخبرَنا يونُسُ و مَعْمَرٌ عنِ الزُّهْريِّ نحوَه قالَ: أخبرني عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عبدِ اللَّهِ عن ابنِ عباسٍ قال: كان رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أَجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ حينَ يلْقاهُ جبريلُ، وكانَ يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فَيُدارِسُه القُرْآنَ. فلَرَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بالخَيْرِ منَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ. (يوسف عامر).

فالنصيحة الطبية هي أن يترك طعام وقت ما مرة كل أسبوع على الأقل. والإسلام كذلك فيه أيام أسبوعية يسن ويستحب صومها. إضافة لذلك يكون الصوم غاية في النفع إذا فرض مرة واحدة في السنة لتخفيف فضلات الجسم. والمسلمون الذين يصومون رمضان عندهم دراية بكمية الأمراض التي يبعدها صوم الشهر، شريطة ألا يكونوا قد غالوا في الأكل والشرب والإفطار والسحور. لهذا فالصوم أحد أنواع العلاج السنوي الإلزامي للبدن.

٦. لو يستعرض الإنسان مشاغل يومه وليلته ومهامهما، سيعرف أن جزءً كبيرا منها يضيع في الأكل والشرب والتحضير لهما فقط. فإذا ما ترك الإنسان وجبة واحدة، أنقذ جزء كبيرا من وقته. ويمكن أن يقضي هذا الجزء في عبادة الله وخدمة خلقه. ويمكن الحصول على هذا الشرف، إن لم يكن طوال العام فيكون مرة واحدة على الأقل في السنة، وذلك بترك هذه الضرورة غير الملحة.

٧. إن الجوع هو أنسب علاج للهدوء والاستجمام العقلي والنفسي للإنسان؛ لأنه بذلك تتوقف المعدة عن الهضم، ويتخلص المخ والقلب من أبخرة المعدة. لأن تجربة العظماء تدل على صدق هذه الحقيقة.

٨. يحفظ الصوم الإنسان ويعصمه من كثير من الذنوب والآثام؛ فالصوم كفارة لكثير من الذنوب؛ لأنه حين ذكر تساوي الصوم والصدقات وقيام أحدهما مقام الآخر فيما سبق وضح أيضا أنه كفارة للذنوب والمعاصي. بل قيل عنه في التوراة أيضاً أنه كفارة خاصة[1]. وقيل عنه في الإسلام في أماكن عديدة أنه كفارة؛ لأن الشخص إذا أقسم ثم أذنب بنقض القسم فإن كفارة هذا الذنب هي إطعام عشرة مساكين فإن لم يستطع:

---

[1] سفر الأخبار، إصحاح ١٦، فقرة ٣٠- ٣٤، وإصحاح ٢٣، فقرة ٢٧.

﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة:٨٩) وكذلك إذا لم يستطع الإنسان أن يفدي لقتله الصيد وهو حرم ولم يستطع أن يطعم مسكيناً فعليه أن: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ (المائدة: ٩٥) وأيضاً إذا قتل مؤمن ذميا خطأ فعليه دية، أي يجب عليه أن يعتق رقبة مؤمنة، فإن لم يستطع: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ (النساء: ٩٢) فيتضح من هذا أن الصوم كفارة لكثير من الذنوب.

٩. بالنظر إلى هذه الحقيقة من زاوية أخرى تظهر ميزة خاصة للصوم، وهي أن الصوم يطفئ قوانا الهائجة والمشتعلة لبعض الوقت. فنتحرر من مشغلة الأكل والشرب. ونبتعد في الوقت ذاته عن بعض الأعمال الشاقة الأخرى. ويتخلص القلب والدماغ من اضطراب الغازات الفاسدة للمعدة الممتلئة. ويتولد نوع من الهدوء والسكينة في مشاعرنا وأحاسيسنا الداخلية. فالصوم يكون ساعات للراحة، وكيفية لاعتدال القوى، ونجاة للقلب والدماغ، وهدوء للمشاعر والأحاسيس.

كما أن الصوم فرصة مناسبة تماما لفكرنا واحتساب أعمالنا، والنظر إلى نتائج أفعالنا، والندم على معاصينا وذنوبنا، والخشية من الله. كما أنه يخلق جوا مناسبا للإحساس بالندم والتوبة عن الذنوب، ويحث وجداننا على الخير وعلى فعله. كما أن وقت رمضان وقت القيام بكل العبادات والصالحات؛ ففيه صلاة التراويح والاعتكاف، ويستحب فيه إخراج الزكاة، وتفضل الصدقة فيه عن غيره. يقول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما كان

رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أَجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ فلَرَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ. [1].

١٠. بوضع كل هذه الأمور نصب العين يمكن أن يفهم بسهولة أن الصوم ليس اسماً للجوع والعطش الظاهرين فحسب، بل إنه في الحقيقة اسم لجوع وعطش الروح؛ فقد عدّ الله سبحانه وتعالى التقوى هي غاية الصوم، فلو لم يتحقق هذا الغرض وهذه الغاية من الصوم لأمكن القول بأن الشخص لم يصم. أو قل إن شئت إن البدن وحده قد صام، أما الروح فلم تصم. وقد شرح النبي (ﷺ) هذا بنفسه فقال: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشَرابَه».[2]. وقال في حديث آخر: " «الصِّيامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ. وإنِ امرُؤٌ قاتَلَهُ

---

[1] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي. وهذا نصه: (٦) حدَّثنا عَبْدانُ قال: أخبرَنا عبدُ اللهِ قالَ: أخبرَنا يونُسُ عن الزُّهْريِّ. وحدَّثنا بِشْرُ بنُ محمدٍ قال: أخبرَنا عبدُ اللّهِ قالَ: أخبرَنا يونُسُ و مَعْمَرٌ عنِ الزُّهْريِّ نحوَه قالَ: أخبرني عُبَيْدُ اللّهِ بنُ عبدِ اللّهِ عن ابنِ عباسٍ قال: كان رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناسِ، وكانَ أَجودَ ما يكونُ في رَمَضانَ حينَ يلْقاهُ جبريلُ، وكانَ يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ مِنْ رَمضانَ فيُدارِسُه القُرْآنَ. فلَرَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ. (يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الصوم، ج ١، صـ ٢٥٥، والترمذي، باب الصوم، صـ ٦٤، وأبي داود، باب الصوم، صـ ٢٣٦، وابن ماجة، صـ ١٢٢. وهذا نصه في البخاري، باب من لم يدع قول الزور: (١٨٨٢) حدثنا آدَمُ بنُ أبي إياس حدَّثَنا ابنُ أبي ذئب حدَّثَنا سعيدٌ المَقْبُرِيُّ عن أبيهِ عن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ بهِ فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشَرابَه». (يوسف عامر).

أو شاتَمَهُ فلْيَقُلْ: إني صائمٌ "[1]. وفي بعض الأحاديث أن رسول الله (ﷺ) قال: «الصومُ جنةٌ ما لم يخرقْهَا» [2]. فسال الصحابة وبماذا يثقب الصوم يا رسول الله ؟ أخبرهم (ﷺ) "بالغيبة والنميمة"[3]. لذا يرى بعض العلماء أن الصوم يبطل بالمعصية كما يبطل بالأكل والشرب[4].

١١. لقد عُدّ الصوم من بين كل العبادات أساس التقوى؛ لأنه عبادة سرية لا رياء فيها. ولا يعرف بها الآخرون ما لم يصرح الشخص بنفسه. وهذا الشيء هو أصل كل العبادات وأساس الأخلاق.

---

[1] البخاري، ج ١، صـ ٢٥٢، وصحيح مسلم، ج ١، صـ ٤٢٧، مصر، وموطأ مالك، باب الصوم، صـ ٩٧، والنسائي، ٣٥٥. وهذا نصه في البخاري، باب فضل الصوم: (١٨٧٣) حدثنا عبدُ اللهِ بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن أبي الزنادِ عنِ الأعرجِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصِّيامُ جُنَّة، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ. وإنِ امرُؤٌ قاتَلَهُ أو شاتَمَهُ فلْيَقُلْ: إني صائمٌ ــ مرَّتين ــ والذي نفسي بيدِه لَخُلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المِسك، يَترُكُ طَعامَهُ وشَرابَهُ وشَهْوَتَهُ مِن أجْلي، الصِّيامُ لي وأنا أجْزي به، والحسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها». (يوسف عامر).

[2] سنن الدارمي، صـ ٢٨ وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الدارمي، كتاب الصوم، باب الصائم يغتاب فيخرق صومه: (١٧٣٦) أخبرنا عمرو بنُ عونٍ ثَنَا خالدُ بنُ عبد اللَّهِ، عنْ واصلٍ مولى أبي عيينةَ، عن بشارِ بنِ أبي سيفٍ، عنِ الوليدِ بنِ عبد الرحمنِ، عن عياضِ بنِ غطيفٍ، عنْ أبي عبيدةَ بنِ الجراحِ، قالَ: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: «الصومُ جنةٌ ما لم يخرقْهَا» قالَ أبو محمدٍ: يعني بالغيبةِ.(يوسف عامر)، ومجمع الفوائد أخذاً عن النسائي.

[3] مجمع الفوائد نقلاً عن الطبراني في الأوسط، صـ ١٥٢، ميرنهـ .

[4] فتح الباري، ج ٤، صـ ٨٨.

١٢. نتيجة لهذا الإخلاص وعدم الرياء، قال تعالى: إن الصائم يترك طعامه وشرابه وملذاته لأجلي " الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ "[١].

فعلى الرغم من أنه تعالى يجزي عن كل عمل، فإنه نسب جزاء الصوم هنا لنفسه؛ ليظهر عظمته وأهميته. وتوجد الإشارة لذلك كما يرى بعض العلماء في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)

وقد وضح أيضاً أن تحمل مشقة الصوم نوع من الصبر، لذا سيكون الصائم مستحقا للأجر العظيم بعد أن دخل في زمرة الصابرين.

١٣. لأن الصوم ضرب من الصبر أو قل إن شئت إنه أفضل وأيسر صورة للتعود على الصبر والمشقة والتحمل. دعا الله عز وجل إلى الاستعانة بالصبر والدعاء لحل المشاكل والصعاب فقال:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥). والاستعانة بالدعاء ممكنة في كل حين؛ لأنه شيء اختياري للإنسان. أما تعود الصبر فليس اختياريا؛ لأن وقوع المصائب والمشكلات ليس في اختيار الإنسان. لذا فرضت الشريعة

---

[١] صحيح البخاري، والموطأ وغيرهما، كتاب الصوم. وهذا نصه في مسلم، باب فضل شهر رمضان: (٢٦٥٩) وحدثني مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ. أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ عَنْ أَبِي صَالِحٍ الزَّيَّاتِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَسْخَبْ. فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا. إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ. وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ.

الصوم لتُعَود الصبر وتُدرِّب عليه، لذا قيل في تفسير الآية السابقة إن الصوم جاء هنا بمعنى الصبر[١].

١٤. إن الصوم من الأعمال الصالحة التي وعد الله سبحانه وتعالى عباده بمغفرة ذنوبهم والجنة جزاء له، فقال:

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٣٥)

فوضح من هذا أن الصوم كما أنه كفارة لبعض خطايانا المادية المحسوسة، فهو كفارة لبعض خطايانا الروحانية.

---

[١] تفسير ابن جرير الطبري، تفسير **الآية المذكورة، صـ ١٩٩، مصر.**

الحج

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ ﴾(آل عمران: ٩٧)

الحج هو رابع أركان الإسلام، وأول وأقدم طريقة لعبادة الإنسان. والحج فى اللغة يعني القصد والإرادة، أي قصد السفر لأي مكان مقدس بقصد وإرادة دينية خاصة. أما في الإسلام فهو الذهاب إلى مكة، والطواف بالبيت الذي بناه سيدنا إبراهيم ﷺ هناك، والوجود في أماكن مقدسة متعددة في مكة؛ لأداء بعض الشعائر والأعمال والأركان.

ومعلوم لقراء التاريخ الأول للحضارة البشرية أن الشكل البدائي للجماعة البشرية كان يتمثل في العائلة والأسرة، ثم تطور هذا الشكل قليلا، وأصبح يتمثل في سكان عدد من الخيام والعشش أو الكهوف، ثم تطور هذا الشكل حتى ظهر في صورة الشعب الواحد والبلد الواحد وذلك من خلال الانتقال والهجرة إلى المدن. ثم سيطرت هذه الحالة والصورة على العالم كله.

ومكة المكرمة هي تاريخ مرتب لكل مراحل ومراتب الرقي البشري؛ فكانت في عهد سيدنا إبراهيم ﷺ مقراً تبليغياً لأسرة بعينها. ثم ظهرت في عهد إسماعيل ﷺ في شكل عدة خيم وعشش. ثم احتلت بعد ذلك شيئا فشيئا مكانة مدنية دينية عند العرب. وعُدّتْ بعد مبعث النبي محمد (ﷺ) مركزا دينيا للعالم الإسلامي كله.

وكان العرف في زمن الإعمار الأول للدنيا أن يبنى في مكان معين مبنيان عظيمان في كل مستوطنة، الأول يكون قلعة أو قصرا لملك المستوطنة والبناء الثاني يكون معبداً للمستوطنين. وعامة، كانت كل

مستوطنة تنسب إلى أي ملك أو نجم تحتمي به وتستظل بظله. وكانوا يعبدون هذا الملك أو النجم في ذاك المعبد الذي شُيّد للعبادة. ويكون صحن هذا المعبد داراً للأمن، فتُجمع فيه كل المبالغ والمحاصيل المتبرع بها. وكلما كان حكم وملك المستوطنة يتسع، كانت رقعة حكومة ذاك الملك تتسع هي الأخرى.[1]

كانت العراق موطن آباء سيدنا إبراهيم ﷺ. فكانت مستقراً ومكاناً لحكومة الكلدانيين، وكانت النجوم تعبد هناك. وكان سيدنا إبراهيم ﷺ هو أول من رفع صوته؛ مخالفة لعبادة النجوم ودعا إلى عبادة الله تعالى وحده، لذا آذاه أهله وقومه حتى اضطر في النهاية لترك موطن آبائه والهجرة إلى الشام ومصر وبلاد العرب. فكانت هذه هي كل الأماكن التي انتشرت فيها ذرية سام، وقامت لهم حكومات بأسماء عدة. فيثبت من آثار الشعوب *واللسانيات والقرائن التاريخية الأخرى أن بلاد العرب كانت أول مسكن* ومستقر للشعوب السامية، ثم خرجوا منها ووصلوا إلى العراق عن طريق اليمن وسواحل خليج فارس، ثم ذهبوا إلى الشام وفلسطين، والبدو في مصر، وكانوا حكاما بأسماء ملوك.[2]

اتجه سيدنا إبراهيم ﷺ بعد سفره لمدن عدة إلى بلاد العرب والشام، وأسكن ابن أخيه سيدنا لوط ﷺ الأردن عند البحر الميت، وأسكن ابنه إسحاق كنعان (فلسطين) وأعطى بقية أبنائه مدين وغيرها من المناطق المجاورة للحجاز، الواقعة على ساحل البحر الأحمر، والتي يطلق عليها حتى اليوم مدين؛ نسبة لهم. ثم تقدم للأمام وأسكن سيدنا إسماعيل ﷺ وادي فاران. وكانت كل هذه الأماكن معبرا رئيسيا تمر عليه القوافل والتجار القادمون من

---

[1] توجد شواهد هذا الكلام في التوراة وفي التواريخ والآثار القديمة لبابل وكلدن واليونان وغيرهم. كما أن هذه الاقتباسات مذكورة في كتابي "أرض القرآن".(سيد سليمان).

[2] يضم كتابي" أرض القرآن"بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع.

مصر والشام ناحية اليمن والحجاز أو القادمون من اليمن والحجاز صوب مصر والشام.

كان لسيدنا إبراهيم ﷺ هدفان من إسكان أولاده هذه المنطقة. الأول هو ألا يجدوا صعوبة في الحصول على الحبوب والأسباب الضرورية الأخرى؛ لأن هذه المنطقة كانت معبرا للقوافل التجارية، وحتى يستطيعوا أن يمارسوا التجارة بسهولة أيضاً. والهدف الثاني أن هذه المنطقة كانت أفضل مركز للدعوة إلى التوحيد؛ لأنها ممر للشعوب والأقوام. فكانوا يستطيعون بذلك البعد عن شعوب العراق والشام الظالمة، التي كانت تعبد الأصنام والنجوم، ويتمكنون كذلك من نشر الدين الحق بين الناس.

بيت الله:

وكانت عادة سيدنا إبراهيم ﷺ أن يبني بيتا لله في المكان الذي يرى فيه تهديداً للروحانيات. وقد ورد في التوراة سفر التكوين وقائع ثلاثة لبنائه ﷺ ثلاثة بيوت لله هي:

"وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أُعطي هذه الأرض. فبنى هناك مذبحًا للرب الذي ظهر له* ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي من المشرق. فبنى هناك مذبحًا للرب ودعا باسم الرب" (إصحاح ١٢، الفقرتان ٧، ٨) وبعد ذلك:

"وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل. إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت إيل وعاي* إلى مكان المذبح الذي عمله هناك أولاً. ودعا هناك أبرام باسم الرب" (إصحاح ١٣، الفقرتان ٣، ٤).

ووصل إلى مكان آخر حيث جاءه وحي الله ورسالة البركة وأمر أن: "قم امش في الأرض طولها وعرضها. لأني لك أُعطيها* فنقل أبرام خيامه

وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون. بني هناك مذبحا للرب" (إصحاح ١٣، الفقرتان ١٧، ١٨)

وقد بنى هذا النوع من بيوت الله كل من سيدنا إسحاق ﷺ وسيدنا يعقوب ﷺ وسيدنا موسى ﷺ وفي النهاية بنى سيدنا داود ﷺ وسيدنا سليمان ﷺ بيت المقدس. الذي كان كعبة وقبلة لبني إسرائيل – وقد ورد في شأن سيدنا إسحاق ﷺ حين نزل عليه الوحي وجاءته بشارته العهد:

"فبني هناك مذبحا ودعا باسم الرب. ونصب هناك خيمته وحفر هناك عبيد إسحاق بئرا" (سفر التكوين، إصحاح ٢٦، فقرة ٢٥). وحين جاءت الرؤيا المقدسة سيدنا يعقوب ﷺ: "وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودًا وصبَّ زيتًا على رأسه* ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل. ولكن اسم المدينة أولاً كان لُوزَ* ونذر يعقوب نذرًا قائلاً إن كان الله معي وحفظني في الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزًا لآكل وثيابًا لألبس* ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلها* وهذا الحجر الذي أقمته عمودًا يكون بيت الله وكل ما تعطينى فإني أُعشره لك " (إصحاح ٢٨، من الفقرة ١٨ وحتى الفقرة ٢٢) ويأمر سيدنا موسى ﷺ أن: "وإن صنعت لي مذبحًا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تُدنسها* ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه" (سفر الخروج، إصحاح ٢٠، الفقرتان ٢٥، ٢٦).

وبموجب أمر الله تعالى بني سيدنا موسى ﷺ «... مذبح في أسفل الجبل واثني عشر عمودا لأسباط إسرائيل الاثني عشر* وأرسل فتيان بني إسرائيل فَأَصْعَدُوا مُحْرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران* فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس. ونصف الدم رشه على المذبح" (سفر الخروج، إصحاح ٢٤، الفقرات ٤،٥، ٦).

ذُكر في الاقتباسات السابقة أن اسم هذا النوع من المباني أو الأماكن هو مذبح أو مكان التقرب، والاسم الثاني هو بيت ايل أي بيت الله. ويثبت من هذا أن بناء هذا النوع من المذابح أو أماكن القرابين كان أمرا عاديا عند سيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته. وأحد هذه المباني ذاك المبنى الذي في مكة والمعروف حتى اليوم باسم الكعبة والمسجد الحرام والمسجد الإبراهيمي، وقد قال الإسلام عنه أنه أول بيت وضع للناس في الدنيا.[١]

أضحية سيدنا إسماعيل عليه السلام وشروطها:

مر في الجزء الأول من هذا الكتاب أن الولد الصالح الوحيد الذي كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رأى أنه يذبحه في المنام طبقا لما ورد في القرآن الكريم. والذي كان قد أمر بذبحه طبقا لما ورد في التوراة كان سيدنا إسماعيل عليه السلام. وقد مر أيضا ذكر أن المقصود بالذبح في لغة التوراة وعرفها أن ينذر شيء لخدمة بيت الله، فيضع يده على الحيوانات المنذورة، وتذبح هذه الحيوانات من جانبه. والناس الذين كانوا يقدمون النذور لخدمة بيت الله كانوا لا يحلقون رءوسهم إلا بعد اكتمال أيام النذر. والذبيحة التي كانت تقدم كانت تحرك أو تدار على مكان النذر أولاً، ثم تذبح أو تحرق.

الأضحية هي حقيقة الملة الإبراهيمية:

ثبت من التوراة والقرآن الكريم معاً أن الأضحية كانت الأساس الحقيقي للملة الإبراهيمية. وأن هذه الأضحية كانت هي الخاصية النبوية والروحانية الأصلية لحياة سيدنا إبراهيم عليه السلام. وقد حصل سيدنا إبراهيم عليه السلام

---

(١) هنا إشارة إلى قول الله تعالى﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦) (يوسف عامر).

وذريته من بعده على كل أنواع النعم والخيرات؛ بسبب نجاحه الكامل في هذا الامتحان والابتلاء. فقد ورد في التوراة سفر التكوين (إصحاح ٢٢، الفقرات ١٦،١٧، ١٨):

"وقال بذاتي أقسمت يقول الرب. أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك* أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرًا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه* ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي" وورد في القرآن:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾(البقرة ١٢٤).

وقوله تعالى:**﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة ١٣٠، ١٣١).**

وقوله سبحانه:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٤، ١٠٥).

هذه هي البركة التي يذكرها المسلمون أمام ربهم كل يوم خمس مرات بقولهم: **"اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم".**

لكن لماذا كانت هذه الأضحية ؟ إن هذه الأضحية لم تكن مجرد دم ولحم، بل كانت تضحية بالروح والقلب، كانت تضحية بما سوى الله بحب الغير في سبيل الله. كانت نذر تقديم أعز شيء لله تعالى. كانت منظراً منقطع النظير لطاعة الله وعبوديته والخضوع له. فكانت هي ذاك الامتحان للتسليم والرضا والصبر والشكر الذي لا يمكن أن تنال بغيره قيادة الدنيا وحسنة الآخرة. فلم تكن هذه الأضحية مجرد تلطيخ أب للأرض بدماء ابنه الوحيد. بل كانت تضحية بكل المشاعر والرغبات والأمنيات والشهوات في سبيل الله

تعالى. ومحض أي إرادة أو رضا أمام حكم الله. فكانت التضحية الظاهرية بالحيوان صورة وشكلاً ظاهريا لهذه الحالة الداخلية وكانت ظلاً مجازيا لقمر هذه الحقيقة.

الإسلام يعني التضحية:

المعنى اللغوي للإسلام هو تسليم النفس للغير، وانحناء الرأس للطاعة والعبادة. وتلك هي الحقيقة التي تظهر من إيثار سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتضحيتهما، ولهذا السبب عبر عن شعور الطاعة والامتثال هذا لهذا الأب وابنه بلفظ الإسلام:

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (الصافات ١٠٣).

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ١٣٠، ١٣١).

المقصود أن الإسلام هو حقيقة الملة الإبراهيمية؛ لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أسلم نفسه لله، وأحنى رأسه أمامه. فهذه هي حقيقة الإسلام، وهذه هي الملة الإبراهيمية. وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو ربه – من أجل أداء هذه الأمانة – أن يظل من نسله من يقوم بتحمل هذه المسئولية في كل زمان حتى ولد في النهاية من نسله هذا الأمين الذي أخذ على عاتقه هذه الأمانة ونشرها في العالم كله. لذا حينما دعا قال:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة ١٢٨، ١٢٩).

فكان هذا الرسول هو سيدنا محمد (ﷺ) وهذا الكتاب هو القرآن الكريم، وهذه الحكمة هي الثروة العلمية والعملية لسنة النبي (ﷺ). وكانت أركان مناسك الإسلام هذه هي الحج.

أين تمت هذه الأضحية:

أين ضحى سيدنا إبراهيم عليه السلام بولده الوحيد؟ ورد في التوراة أن اسم المكان الذي ضحى فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام هو موره أو موريه. وقد ترجم بعض المترجمين غير المتمكنين هذا الاسم بمعنى أسراب البلوط أو الأرض المرتفعة. إلا أن المترجمين المهرة قد أبقوا على الاسم العبري؛ لأن الترجمة العربية للتوراة الحالية قد طبعت في ١٨٩٠ بمطبعة جامعة أكسفورد مقارنة بالتوراة المكتوبة بالعبرية والكلدانية واليونانية. وهذه الترجمة العربية مكتوب فيها أن اسم ذاك المكان هو "ميريا"، والترجمة الفارسية التي طبعت في لندن عام ١٨٨٥ من قبل جمعية الكتاب المقدس بلندن كتب فيها "موريا"، والحقيقة أن هذا اللفظ هو "مروة"، وهو يطلق على أحد الجبال القريبة من الكعبة. وهذه ترجمة العبارة الفارسية:

«وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم. فقال هاأنذا* فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المُرِيّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك* فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله* وفى اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد* فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما هاهنا مع الحمار. وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما» (سفر التكوين،إصحاح ٢٢، الفقرات ١ :٥).

في هذه العبارة تحريف وإضافة من اليهود لاسم إسحاق. وقد أثبت المتكلمون المسلمون هذا التحريف وهذه الإضافة بالأدلة القطعية. وقد مر بحث مختصر حول هذا الموضوع في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب. كما قام الشيخ حميد الدين رحمه الله بكتابة كتاب في العربية عنوانه "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" حول هذه القضية. لذا لا مجال هنا للبحث. على كل حال المكان الذي قيل إنه مكان فداء سيدنا إبراهيم ﷺ بسيدنا إسماعيل ﷺ هو المروة. وهو مكان يبعد بضع أيام عن محل إقامته. وقد كان ضروريًا في شريعة سيدنا إبراهيم ﷺوسيدنا موسى ﷺ أن يكون مكان التضحية في أي مذبح أو بيت لله، خاصة أن سيدنا إبراهيم ﷺ قد عبد الله هناك وسجد له. ويشترط أيضا أن يكون المذبح أو بيت الله معروفًا ومشهورًا؛ حتى يتسنى له أن يقول للخدام: "إنني سأذهب للعبادة هناك ثم أعود". ولا توجد هذه الخصوصيات في أي مكان آخر غير الكعبة. ولم يمكنهم إثبات أي مكان آخر لليهود والنصارى. ولم تكن هناك أية إشارة لهذه الحادثة العظيمة في نسل سيدنا إسحاق ﷺ (بني إسرائيل) ولا توجد الآن أيضا. ولم تكن هناك أية صلة لهذا الأثر الخالد لهذه الواقعة ببيت المقدس أو بمكان ولادة المسيح. ولا توجد الآن أيضا.

على العكس من ذلك ظلت ذكرى هذه الأضحية بكل خصائصها محفوظة منذ آلاف السنين في بني إسماعيل أي "العرب أبناء إسماعيل". ولكنه بامتداد الزمان وتغيراته أو بسبب الضلالات اللاحقة حدث فيها خلط لبعض العادات المشتركة. فقد كان في العرب عباد أصنام وعباد نجوم أيضاً. وكان منهم أيضاً الكفار المشركون، بل والنصارى واليهود كذلك. لكن ثبت من الأشعار القديمة للعرب أن الجميع كانوا يعترفون على السواء بالكعبة وبمناسك الحج، لدرجة أن المسيحيين العرب كانوا يقيمون بها. وغالباً – لهذا

السبب – كانت توجد في الكعبة صور سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام والسيدة مريم مع صفوف أصنام المشركين. [١]

مكة والكعبة:

الكعبة هي ذاك المكان الذي يقابل ظل عرش الرحمن كما يعتقد أولياء المسلمين. وكانت منذ القدم معبد الله في الدنيا ومركز عبادته. وقد زارها أكابر الأنبياء والرسل عليهم السلام. واعتبرت قبلة للعبادة قبل المسجد الأقصى لأنها:﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ٩٦). ولكن الحياة كانت قد طمست معالمها قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام، وحين أضاء الله سبحانه وتعالى مصباح التوحيد في هذه الكلمات بمجيء سيدنا إبراهيم عليه السلام. أمر أن ترفع قواعدها، وأن ترفع قواعد التوحيد من جديد في الدنيا. لذا كانت الكعبة زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام هي البيت العتيق، طبقا لما ورد في القرآن الكريم في سورة الحج آية (٢٩ – ٣٣) ثم اجتمع سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، وبحثا عن الأسس العتيقة للبيت، وأقاما عليها أربعة جدران. لذا قال القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ (البقرة:١٢٧)

فوضح من هذا أن الأساس كان قد وضع قبل ذلك. لكن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام قد رفعاه. وقد اختار سيدنا إبراهيم عليه السلام هذا المكان المجهول الذي يقع في الصحراء وتحده الجبال من كل جانب بعد أن طاف العراق والشام ومصر وغيرها؛ لأن هذا المكان يبتعد عن حدود الأمم والشعوب الجبارة، وعن عبدة الأصنام والنجوم. لذا قال القرآن الكريم:
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ (الحج ٢٦).

---

[١] أخبار مكة، أزرقي، وفتح الباري، ذكر هدم أصنام الكعبة، وسيرة ابن هشام.

يتضح من هذا أن مكان البيت كان محددا قبل ذلـك، إلا أن جدرانـه كانت غير واضحة فأخبرنا إبراهيم بمكانه وجعله ملجأ وملاذًا له؛ حتى يأمن شرور عبدة الأصنام وفتنهم ويبلغ دين الحق، ويتضح من التوراة أيـضا أن هذا المعبد كان موجودا قبل سيدنا إبراهيم ﷺ؛ لأنه طبقا للدستور الـسامي كان من الضروري أن يكون المكان الذي تكون عليه أضحية الله أو نذوره أو عبادته معبدا أو مكانا مخصصاً لذلك. فكان هذا هو المكان الذي أحضر إليه سيدنا إبراهيم ﷺ ولده ليذبحه. والذي قال لخدامه عنه إنني سأذهب للعبـادة هناك ثم أعود. فمن الضروري أن يكون هذا معبداً. لذا لم ينـسب القـرآن الكريم اكتشاف هذا البيت لسيدنا إبراهيم ﷺ، وإنمـا نـسب لـه التطهيـر فحسب "وطهر بيتـي". وحتى ذلك الحين لم يكن لفظ العرب قد استعمل لهـذه المنطقة من الأرض؛ إذ إن هذا اللفظ يوجد في مجموعة التوراة منـذ زمـن سيدنا سليمان ﷺ. أما قبل ذلك فكانت تسمى بلاد الشرق أو الجنوب؛ لأنهـا كانت تقع في الجانب الجنوبي الشرقي للشام. وأحيانا كان يطلق عليها اسـم الصحراء أو القفر. ثم اشتهرت في النهاية باسم العرب. والمعنـى الأصـلي للفظ العرب أو عرب هو القفر أو الصحراء.[1] لذا قال سيدنا إبـراهيم ﷺ آنذاك:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ (إبراهيم ٣٧).

فكان خلو الأرض من الزرع في الحقيقة هو الوصف المميـز لهـذه المنطقة في ذلك الحين. وفي النهاية أصبح هذا الوصف هو الاسم المخصص لهذا البلد. لذا دعا سيدنا إبراهيم ﷺ بهذا الدعاء وهو يسكن ابنه إسـماعيل هناك: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة ١٢٦).

---

[1] أخبار مكة للأزرقي، وفتح الباري لابن حجر، ذكر هدم أصنام الكعبة، وسيرة ابـن هشام.

يرى بعض محققي اللغات القديمة أن لفظ مكة لفظ بابلي أو كلداني يعني البيت.[١] وتظهر من هذا حقيقتان الأولى هي أن هذه المستعمرة قد أقيمت منذ كانت قوافل بابل وكلدان تمر من هناك. وهذا دليل لغوي آخر على كونها إبراهيمية. والحقيقة الثانية هي أن إسكان هذه المدينة قد تحقق بالانتماء إلى هذا البيت. وهذا دليل قاطع على صحة قدم الكعبة وقدسيتها، وعلى تقاليد العرب. ويظهر اسم بكة أول ما يظهر في زبور سيدنا داود ﷺ. وقد مرت الإشارة إلى ذلك في المجلد الأول من الكتاب، لكننا نضيف هنا فقط أن لفظ بكة في اللغات الشامية القديمة يعني المستعمرة أو المدينة. كما تسمى اليوم أيضا واحدة من أقدم مدن الشام بعلبك، أي مدينة البعل (والبعل اسم أحد العظماء) وهذا هو الدليل اللغوي الثاني على قدم هذه المدينة. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم وقت التعمير الأول للكعبة فقيل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ (آل عمران ٩٦).

والمعنى اللغوي للكعبة هو المكعب؛ لأن الكعبة كانت قد بنيت مكعبة. وما زالت على هذه الحالة حتى الآن، لذا اشتهرت بالكعبة.[٢]

ويوجد ذكر للكعبة في التاريخ اليوناني أيضاً؛ فيقول المؤرخ اليوناني الشهير ديودورس الذي جاء قبل سيدنا عيسى ﷺ بقرن من الزمان: "وبين أهل ثمود وسبأ معبد مشهور تقدسه كل العرب.[٣] وكان موطن ثمود يقع بين حدود الشام والحجاز. وموطن سبأ في اليمن، ومعلوم أن الحجاز هي التي تقع بين البلدين. وأن المعبد المشهور هناك الذي تقدسه كل العرب هو

---

[١] هناك بحث مفصل حول هذا الموضوع في كتابي أرض القرآن، الجزء الأول، ص ٥٧.

[٢] تاريخ العرب قبل الإسلام. جرجي زيدان صـ ٢٢٤ مصر.

[٣] تاريخ عروج وزوال الروم، كبن،باب ٥٠.

الكعبة. ويوجد ذكر للكعبة في تاريخ الروم أيضاً؛ فيكتب المؤرخ بروكـوبس أنه في عام ٥٤١ ميلادية عقدت قيادة الجيش، جلسة تـشاور لكـل ضـباط الجيش فوقف فيها ضابطان شاميان وقالا إنهما لن يتمكنا من المشاركة فـي المعركة القادمة؛ لأنهما لو تحركا من مكانيهما فإن ملك العـرب منذرسـوم سيهجم فورا. فرد عليه القائد قائلاً: "إن مخاوفكم هذه ليـست صـحيحة لأن الشهرين اللذَيْن تخصصهما العرب لعبادتها قادمان قريبا. وإنهم سيضعون كل أنواع السلاح في هذين الشهرين".[١] وواضح أن هذه إشارة واضحة للحج.

ويتضح من هذه الأدلة أن العرب أو بني إسماعيل كانوا يؤدون هـذه الشعائر الموروثة على الدوام، وأنهم كانوا قد حـافظوا تمامـاً علـى كـل خصوصيتها. ويوجد في شعر العرب ذكر للحـج وأركانـه [٢] لدرجـة أن النصارى من شعراء العرب أيضاً كانوا يذكرونه بكل احترام وتقدير. وكـان لموسم الحج دور كبير في إقامة الأسواق والمحافل عند العـرب.[٣] وبـسببه أيضا نجحت دعوة النبي (ﷺ) في الوصول للمناطق العربية البعيدة، كـاليمن والبحرين قبل هجرته (ﷺ)؛ لأن كل القبائل العربية كانت تتجمع في موسـم الحج في مكة؛ لأداء هذه الشعيرة الموروثة.

---

[١] نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام – محمود باشا ملكى. المطبعة الأميريـة بولاق مصر صـ ٣٥.

[٢] وقد جمع مولانا حميد الدين هذا النوع من الأشعار في كتابه الإمعـان فـي أقـسام القرآن.

[٣] كتاب الأمكنة والأزمنة للأمام المرزوقي – طبعة حيدر آباد – المجلد الثاني ص١٦١ باب ٤٠.

الحج الإبراهيمي خالد:

حين رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام رؤية فى المنام أنه عليه السلام يذبح ولده، لبى الأمر، وذهب لذلك المكان البعيد لتنفيذه، وأخذ السكين، وهمّ بذبح ولده تقربا لله. ولبى الابن أيضا أمر الله بكل طاعة حينذاك جاء هذا النداء الإلهي:

﴿أن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٥) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات ١٠٤: ١٠٦).

حينذاك اتضح لإبراهيم عليه السلام أن تنفيذ هذه الرؤيا سيكون تخصيص ولده إسماعيل لخدمة بيت الله والدعوة للتوحيد، ولجعل هذا البيت مركزاً لعبادة الله تعالى في الأرض:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ١٢٥ – ١٣١).

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج ٢٦: ٣٠).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم: ٣٥– ٣٨)

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾
(آل عمران ٩٥: ٩٧).

هذه هي الآيات التي تتعلق بهذا الموضوع، والتي أخبر فيها بصراحة تامة أن الله تعالى قد أبعد إبراهيم عن بلاد عبادة الأصنام والنجوم التي كان تائهاً شاردا فيها، يبحث عن مكان آمن يبني فيه بيتاً لله يعبده فيه، فبوأ الله له

هذا المكان الذي اختاره لهذا العمل منذ الأزل؛ حتى يرفع إبــراهيم أعمدتــه المهدّمة، ويجعله مركزاً للتوحيد ومسكناً للعابدين.

وكان هذا المكان خرباً غير ذي زرع، لذا دعا ســيدنا إبــراهيم عليه السلام، وقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عنــد بيتــك المحــرم فارزقهم من الثمرات واجعل أفئدة من الناس تأوي إليهم. فإني أسكنتهم هنــا ليبتعدوا عن عبدة الأصنام المحيطين بهم ويعبدونك وحدك ربنا فمن تبعنــي فإنه مني، ومن عصاني فإنه عبدك، وأنت رحمن رحيم، ربنا وابعــث مــن ذريتي رسولاً يعلمهم الكتاب والحكمة.

وقد قال القرآن الكريم إن لسيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا البيت كثير مــن الآيات البينات؛ فهو مكان قيامه وصلواته وأضحيته، لذا يجب على الناس أن يأتوا إليه من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم، ويطوفــوا بالبيــت العتيــق، ويطعموا بأضاحيهم الفقراء؛ تذكرًا لسيدنا إسماعيل عليه السلام. وأن يوفوا نــذورهم، وأن يصبحوا نموذجا حقيقيا للأمن والسلام، فلا يرفعون سلاحاً على أحد، ولا يقتلون حتى نملة، ويتجردون من الزينة والمتاع والتكلف الظــاهري ومــن الحياة المصطنعة المزيفة، وأن يقيموا هناك بضعة أيام، يذكرون فيها اسم الله ويعبدونه على الطريقة الإبراهيمية.

ورد سابقا في اقتباسات التوراة أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وأولاده كــانوا معتادين على رؤية أي معجزة إلهية حيثما كانوا، ففي العهــد الأول للمدنيــة كانوا يبنون بحجارة غير منحوتة بيتاً لله يتقربون فيه لله ويعبدونه. ومن كان ينذر شيئا لم يكن يحلق رأسه أيام النذر، بل كان يحلق بعد أن يــوفي نــذره. وورد في التوراة أن "ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كــيلا تتكــشف عورتــك عليه"[1] يتضح من هذا أنهم كانوا يلبسون ثياباً غير مخيطة في تلك الفتــرة،

---

[1] (سفر الخروج، إصحاح ٢٠، الفقرة ٢٦).

ويشدون وسطهم برباط. والاقتباس الذي نقل في الترجمة الفارسية ذكر فيه أن الله تعالى حين نادى سيدنا إبراهيم عليه السلام ليضحي بولده إسماعيل عليه السلام، أجابه سيدنا إبراهيم عليه السلام وقال: "لبيك"، فأصبح هذا الجواب: "لبيك الله لبيك" يقال في الحج قياما وقعودا.

ذكرنا سابقًا أنهم كانوا يطوفون بما يضحون به حول الجوانب الأربع للمكان المضحى فيه، وهذا ما يطلق عليه في الحج الطواف. فالمقصود هو أن كل هذه العادات الإبراهيمية يطلق عليها مسمى الحج.

حقيقة الحج:

وضح بعد كل هذه التفاصيل والشروح أن حقيقة الحج هي الحضور في مورد خاص لرحمات وبركات ربانية، وأنه تلبية لنداء الله تعالى، كما لبى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنه إحياء لسنة هذه الأضحية العظيمة. أى أن العبد يحني رأسه تسليما ورضا لأمر الله تعالى، وطاعة له، وتقليداً لهذين العبدين الصالحين (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام)، وأن يظهر العبدُ عبادته لربه بتلك الطريقة التي كان يُعبدُ الله تعالى بها منذ آلاف السنين؛ حتى يحصل على رحمة الله ومغفرته وبركاته. وهذه هي الملة الإبراهيمية، وهذا هو الإسلام الحقيقي، وهذه هي الروح والإحساس الداخلي والشعور الذي يظهره الحجاج بتجسيدهم لأعمالهم وأوضاعهم في الحج الذي هو عبارة عن أعمال مقدسة وعادات عتيقة لهذين العظيمين. فتلبس الحجاج أيام الحج ثيابا غير مخيطة كتلك التي كانت في بداية المدنية، ويذهبون مضحين بأنفسهم في حضرة ربهم كسيدنا إسماعيل عليه السلام فلا يحلقون رؤوسهم، ولا يقلمون أظافرهم خلال تلك الفترة. ويجتنبون ملذات الحياة ودنيا التكلف، فلا يتطيبون، ولا يلبسون ثيابا ملونة، ولا يسترون رءوسهم، ويأتون البيت

بطريقة روحانية، مهرولين ساعين متربين من أثر سفر ثلاثة أيـــام كـــسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وكما أجاب سيدنا إبراهيم عليه السلام نداء ربـــه بقوله لبيك، يبقى هذا النداء الذي ظل منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة على ألسنتهم أيضا: وهذا النداء هو: **«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ. إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ. وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ» (صحيح مسلم)**.[1]

فنداء الرضا وصوت التوحيد هذا يُرفع ويمـــلأ كـــل هـــذه الأمـــاكن والحدود التي وطأتها أقدام هذين العظيمين. ولأنهما كانا قد ذهبا لمكان الفدو للتضحية بنفسيهما، لذا طافا بجوانب بيت الله الأربع سبع مرات، ثـــم ســـعى سيدنا إبراهيم عليه السلام بين الصفا والمروة، وبعد أن وصل للمروة حيث سيضحي بولده، نسعى نحن أيضاً في نفس المكان، وندعو ونطلب مغفـــرة الـــذنوب، وندعو الله أن يغفر ويكفر كل ذنوبنا وخطايانا بعد أن نتجمع في أكبر ساحات عرفات، فنتضرع إلى الله ونتوسل إليه ونسأله المغفرة، ونجـــدد عهـــدنا بـــه لعبادته وطاعته في حياتنا الباقية. وهذا في الحقيقـــة هـــو الـــركن الأصـــلي

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، باب التلبية وصفتها ووقتهـــا، كتـــاب الحج: (٢٧٦٧) وحدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: فَإِنَّ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ. أَخْبَرَنِي عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، قَـــالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يُهِلُّ مُلَبِّداً يَقُولُ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَـــكَ لَبَّيْـــكَ. أَنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ. وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ» لاَ يَزِيدُ عَلَىٰ هَـــؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ. وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا كَانَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ: يَرْكَعُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ النَّاقَةُ قَائِمَةً عِنْدَ مَسْجِدِ الْحُلَيْفَةِ، أَهَلَّ بِهَـــؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّـــهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يُهِلُّ بِـــإِهْلاَلِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ هٰؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ. وَيَقُولُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. وَالْخَيْرُ فِـــي يَدَيْكَ. لَبَّيْكَ وَالرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ وَالْعَمَلُ. (يوسف عامر)

للحج.[1] فهذه السـ حة التاريخية التي هي تذكرة لذاك العهد التاريخي، وأثـر أقدام أولئك العظماء ومكان دعائهم ومشاهد التجليات الربانية وفرص الحضور إليها لا تتيسر للغالبية إلا مرة واحدة في العمر بعد سفر طويل، وتحمل شتى أنواع المشقة والتعب، وتجمع الآلاف في ثياب ذات لون واحد، وهيئة واحدة، وإحساس واحد في ساحة مقفرة خالية من الزرع، واقعة بين جبال حارقة، ويطلبون المغفرة ويندمون على الذنوب والمعاصي السالفة، ويدركون أن هذا هو المكان الذي تجمع فيه كثير من الأنبياء منذ سيدنا إبراهيم ﷺ وحتى سيدنا محمد ﷺ بنفس هذه الحالة والهيئة، ومن ثم يخلق فيهم هذا المشهد الروحاني طربا وتأثيرا لا يمكن نسيانهما إطلاقا طيلة الحياة، ثم بعد أن يوفوا أيام نذورهم يقلدون سيدنا إبراهيم ﷺ ويضحون تشبيها لهذه الأضحية الروحانية، لكن بطريقة فعلية فيذبحون أنعاما، ثم يقرون بلسانهم فى نفس الوقت وبنفس الطاعة وبنفس النداء وبنفس التضحية التي أظهرها أول داعٍ للتوحيد في الدنيا بعمله في هذه الساحة وهذا الموقع وبهذه الحالة وهذا الشكل. فتمتلئ قلوب الجميع في هذا الوقت بمشاعر واحدة،

---

[1] الترمذي، كتاب الحج، باب ما جاء من إدراك الإمام ويجمع فقد أدرك الحج. وهذا نصه: (٨٨٤) حدثنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ حدثنا يَحْيَى بنُ سَعيدٍ وعَبْدُ الرحمٰنِ بنُ مَهْدِي قالا حدثنا سُفْيَانُ عن بُكَيْرٍ بنِ عَطَاءٍ عن عبد الرحمٰنِ بنِ يَعْمَرَ، «أنَّ نَاساً مِنْ أهْلِ نَجْدٍ أتَوْا رسولَ الله وهُوَ بعَرَفَةَ فسَألُوهُ فَأمَرَ مُنَادِياً فَنَادَى: الحَجُّ عَرَفَةُ. مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ فَقَدْ أدْرَكَ الحَجَّ، أيامُ مِنًى ثَلاَثَةٌ فمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ ومَنْ تَأخَّرَ فَلاَ إثْمَ عَلَيْهِ. قالَ محمدٌ وزَادَ يَحْيَى: (وأرْدَفَ رَجُلاً فَنَادَى)»(يوسف عامر).

وتنطق ألسنتهم كلماتٍ واحدة، وهي كلمات سيدنا إبراهيم ﷺ. (صحيح مسلم كتاب الحج).[1]

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الحج: (٢٩٠٣) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. وَإِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. جَمِيعاً عَنْ حَاتِمٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَدَنِيُّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيه، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ. فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيَّ. فَقُلْتُ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ. فَأَهْوَىٰ بِيَدِهِ إِلَىٰ رَأْسِي فَنَزَعَ زِرِّي الأَعْلَىٰ. ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الأَسْفَلَ. ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلاَمٌ شَابٌّ.فَقَالَ: مَرْحَباً بِكَ. يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ. فَسَأَلْتُهُ. وَهُوَ أَعْمَىٰ. وَحَضَرَ وَقْتُ الصَّلاَةِ. فَقَامَ فِي نِسَاجَةٍ مُلْتَحِفاً بِهَا. كُلَّما وَضَعَهَا عَلَىٰ مَنْكِبِهِ رَجَعَ طَرَفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِغَرِهَا. وَرِدَاؤُهُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، عَلَىٰ الْمِشْجَبِ. فَصَلَّىٰ بِنَا. فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَ بِيَدِهِ. فَعَقَدَ تِسْعاً. فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللّهِ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ. ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ حَاجٌّ. فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ. كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللّهِ. وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ. فَخَرَجْنَا مَعَهُ. حَتَّىٰ أَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ. فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ. فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. كَيْفَ أَصْنَعُ؟ قَالَ: «اغْتَسِلِي. وَاسْتَثْفِرِي بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي» فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللّهِ فِي الْمَسْجِدِ. ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ. حَتَّىٰ إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ. نَظَرْتُ إِلَىٰ مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ. مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ. وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ. وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ. وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ. وَرَسُولُ اللّهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ. وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ. وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ. فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: «لَبَّيْكَ اللّهُمَّ لَبَّيْكَ. لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ. إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ. وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ». وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهٰذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ. فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللّهِ عَلَيْهِمْ شَيْئاً مِنْهُ. وَلَزِمَ رَسُولُ اللّهِ تَلْبِيَتَهُ. قَالَ جَابِرٌ رضيَ اللّهُ عَنْهُ: لَسْنَا نَنْوِي إِلاَّ الْحَجَّ. لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ. حَتَّىٰ إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ، اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلاَثاً وَمَشَىٰ أَرْبَعاً. ثُمَّ نَفَذَ إِلَىٰ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَقَرَأَ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} (٢البقرة الآية: ١٢٥) فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. فَكَانَ أَبِي يَقُولُ (وَلاَ أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلاَّ عَنِ النَّبِيِّ): كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ: {قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ} وَ{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ. ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَىٰ الصَّفَا. فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ {إِنَّ

الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} (٢البقرة الآية: ١٥٨) «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللّـهُ بِــهِ» فَبَـدَأَ بِالصَّفَا. فَرَقِيَ عَلَيْهِ. حَتَّىٰ رَأَىٰ الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ. فَوَحَّدَ اللَّهَ، وَكَبَّرَهُ. وَقَالَ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لاَ إِلَــهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ. أَنْجَزَ وَعْدَهُ. وَنَصَرَ عَبْدَهُ. وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ. قَـالَ مِثْلَ هَـذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ نَزَلَ إِلَىٰ الْمَرْوَةِ. حَتَّىٰ إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ فِي بَطْنِ الْـوَادِي سَعَىٰ. حَتَّىٰ إِذَا صَعِدَتَا مَشَىٰ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمَرْوَةَ. فَفَعَلَ عَلَىٰ الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَـلَ عَلَـىٰ الصَّفَا. حَتَّىٰ إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَىٰ الْمَرْوَةِ فَقَالَ: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَـا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ. وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَـهُ هَـدْيٌ فَلْيَحِـلَّ. وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً». فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِعَامِنَا هَـذَا أَمْ لأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الأُخْرَىٰ. وَقَالَ: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَـجِّ» مَرَّتَيْنِ «لاَ بَلْ لأَبَدِ أَبَدٍ» وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ بِبُدْنِ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّنْ حَلَّ. وَلَبِسَتْ ثِيَاباً صَبِيغاً. وَاكْتَحَلَتْ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ، عَلَيْهَا. فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِـي أَمَرَنِـي بِهَذَا. قَالَ: فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ، بِالْعِرَاقِ: فَذَهَبْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ مُحَرِّشاً عَلَـىٰ فَاطِمَـةَ. لِلَّذِي صَنَعَتْ. مُسْتَفْتِياً لِرَسُولِ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرَتْ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَـا. فَقَالَ: «صَدَقَتْ صَدَقَتْ. مَاذَا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الْحَجَّ؟» قَالَ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَـا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ. قَالَ: «فَإِنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ فَلاَ تَحِلُّ» قَالَ: فَكَانَ جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الَّذِي قَـدِمَ بِهِ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ وَالَّذِي أَتَىٰ بِهِ النَّبِيُّ مِائَةً. قَالَ: فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّرُوا. إِلاَّ النَّبِيَّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَىٰ مِنًى. فَـأَهَلُّوا بِـالْحَجِّ يَـوْمَ التَّرْوِيَةِ. وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ فَصَلَّىٰ بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ. ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلاً حَتَّىٰ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ. فَسَارَ رَسُـولُ اللَّهِ وَلاَ تَشُكُّ قُرَيْشٌ إِلاَّ أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ. كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَـصْنَعُ فِـي الْجَاهِلِيَّةِ. فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَرَفَةَ. فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ. فَنَـزَلَ بِهَا. حَتَّىٰ إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ. فَرُحِلَتْ لَهُ. فَأَتَىٰ بَطْنَ الْوَادِي. فَخَطَـبَ النَّاسَ وَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّـةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ،كَانَ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْـنِ

عَبْدِ الْمُطَّلِب. فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ. فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ. فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ. وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابُ اللَّهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي. فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ. اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ أَذَّنَ. ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّىٰ الظُّهْرَ. ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّىٰ الْعَصْرَ. وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئاً. ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمَوْقِفَ. فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَىٰ الصَّخَرَاتِ. وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ. فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفاً حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ. وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلاً حَتَّىٰ غَابَ الْقُرْصُ. وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ. وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ. حَتَّىٰ إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ. وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ: «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ» كُلَّمَا أَتَىٰ حَبْلاً مِنَ الْحِبَالِ أَرْخَىٰ لَهَا قَلِيلاً. حَتَّىٰ تَصْعَدَ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمُزْدَلِفَةَ. فَصَلَّىٰ بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ. وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئاً. ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ. وَصَلَّىٰ الْفَجْرَ، حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ، بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ. ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ. فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ. فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ. فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفاً حَتَّىٰ أَسْفَرَ جِدّاً. فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ. وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ. وَكَانَ رَجُلاً حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيماً. فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ مَرَّتْ بِهِ ظُعُنٌ يَجْرِينَ. فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ. فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْفَضْلِ. فَحَوَّلَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَىٰ الشِّقِّ الآخَرِ يَنْظُرُ. فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ عَلَىٰ وَجْهِ الْفَضْلِ. يَصْرِفُ وَجْهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ يَنْظُرُ. حَتَّىٰ أَتَىٰ بَطْنَ مُحَسِّرٍ. فَحَرَّكَ قَلِيلاً. ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَىٰ الَّتِي تَخْرُجُ عَلَىٰ الْجَمْرَةِ الْكُبْرَىٰ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الْجَمْرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ. فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ. يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا. مِثْلِ حَصَىٰ الْخَذْفِ. رَمَىٰ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَىٰ الْمَنْحَرِ. فَنَحَرَ ثَلاَثاً وَسِتِّينَ بِيَدِهِ. ثُمَّ أَعْطَىٰ عَلِيّاً. فَنَحَرَ مَا غَبَرَ. وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ. ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ. فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ. فَطُبِخَتْ. فَأَكَلاَ مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا. ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّه فَأَفَاضَ إِلَىٰ الْبَيْتِ. فَصَلَّىٰ بِمَكَّةَ الظُّهْرَ. فَأَتَىٰ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَسْقُونَ عَلَىٰ زَمْزَمَ. فَقَالَ: «انْزِعُوا. بَنِي

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأنعام:٧٩).

﴿إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ٦٢، ٦٣).

هذه هي حقيقة الحج، وهذه هي مناسكه، وهذه هي أركان هذه العبادة وهذا الفرض العظيم.

إصلاحات الحج:

كان فرض الحج مختلفًا تماما عن بقية العبادات، فلم يكن عامة العرب على دراية بأوقات الصلاة وأركانها وخصائصها، لذا علّمها لهم النبي (ﷺ). والزكاة لم تكن موجودةً أصلاً، لذا تحتم التدرج بداية من الصدقات حتى فرضت الزكاة. كما غيّر الصوم أيضًا الشكل العام له من يوم عاشوراء وحتى فرض صوم رمضان. ولكن الحج كان أحد طقوس العرب، وكانت له أركانه وقواعده المعروفة من ذي قبل. ولم يتغير فيه غير مكانه وطريقة أدائه. وقد كانت بعض العادات المشركة قد دخلته. فأصلح الإسلام كل هذه المفاسد، وأعلن فرضية الحج في آن واحد. وإصلاحات الحج هي:

١. إن الهدف الحقيقي من كل عبادة هو ذكر الله تعالى، وطلب المغفرة، وإعلاء كلمته عز وجل. لـن العرب كانوا قد جعلوا الحج وسيلة لإبراز الذات والنسب؛ فكان العرب حين ينتهون من أداء مناسك الحج تجتمع كل قبائلهم في منى، ويشتغلون بالفخر والمباهاة. ولم يكن هناك مكان أنسب لهذا التجمع غير هذا المكان، لذا كانت كل قبيلة بدلاً من

عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَوْلاَ أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَىْ سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ» فَنَاوَلُوهُ دَلْواً فَشَرِبَ مِنْهُ.(يوسف عامر).

أن تذكر اسم الله تعالى تذكر مفاخر آبائها وأجدادها ومحاسنهم، لذا نزلت الآية الكريمة:

﴿اذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ (البقرة ٢٠٠).

٢. **كانوا يضحون ويلطخون بدماء الأضحية جدران الكعبة تقربا إلى الله تعالى. وكان العرف عند اليهود أن يلطخوا بدماء الأضحية مكان التضحية، ثم يحرقون لحم الأضحية. وقد نهى سيدنا محمد (ﷺ) عن هذين الأمرين، ونزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج ٣٧).**

وبيّن بعد ذلك أن الهدف من الأضحية هو إطعام الفقراء وإشباعهم بهذه المناسبة الإبراهيمية.

٣. **كان من عُرْفِ أهل اليمن عند قصد السفر للحج ألا يتزودون، وكانوا يقولون: نحن متوكلون على الله، فكان ينتج عن هذا أنهم كانوا يتسولون بعد وصولهم مكة، فنزلت الآية الكريمة:[1]**

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة ١٩٧).

٤. **كانت لقريش امتيازات مقارنة ببقية القبائل العربية الأخرى، وعليه كانت كل القبائل تطوف بالكعبة عرايا عدا قريش. وكانت توضع لهذا الغرض خشبة في الكعبة يخلع الناس ملابسهم، ويضعونها عليها.** [2]

---

[1] البخاري جـ١، ص٢٠٦ كتاب الحج. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، كتاب الحج: (١٥٠٥) حدَّثنا يحيى بنُ بِشرٍ حدَّثنا شَبابة عن وَرْقاءَ عن عمرو بن دينار عن عكرمةَ عن ابنِ عبَّاس رضيَ اللَّهُ عنهما قال: كان أهلُ اليَمنِ يَحُجُّونَ ولا يَتزوَّدونَ، ويقولون: نحنُ المتوكلون، فإذا قدموا مكةَ سألوا الناسَ. فأنزلَ اللَّهُ تعالى {وتزوَّدوا فانَّ خيرَ الزادِ التَّقوى} رواهُ ابنُ عُيَينةَ عن عمرٍو عن عِكرمةَ مرسلاً.(يوسف عامر)

[2] البخاري جـ١، ص٢٠٦.

ولم يكن أحد يستطيع أن يستر عري هؤلاء الناس سوى جود قريش؛ إذ أنها هي التي كانت توزع الملابس. فيعطي الرجل الرجال والمرأةُ النساء ثيابا يطوفون فيها. ومن يُحرم من هذا الجـود كـان يطـوف عاريا.[1] ولقد قضى الإسلام تماما على هذا العمل الفاضح، فنزلـت الآية الكريمة: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف ٣١).

وفي موسم حج السنة التاسعة للهجرة أرسل رسول الله (ﷺ) سيدنا أبا بكر ﷺ ليعلن في الناس أنه لا طواف بعد الآن لعريان، فانتشر الخبر، وانتهت هذه العادة منذ ذلك الوقت.[2]

٥. كان من بين امتيازات قريش أن ما عداها من القبائل كانت تقيم فـي عرفات، أما أهل قريش فكانوا يعتبرون أن خروجهم خـارج حـدود

---

[1] البخاري جـ١ ص٢٢٦ كتاب الحج. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب الوقوف بعرفة، كتاب الحج: (١٦٤٦) حدَّثنا فروةُ بنُ أبي المَغْراء حدَّثنا علـيُّ بـنُ مُسْهِرٍ عن هشامِ بنِ عُروةَ قال عروةُ «كان الناسُ يَطوفونَ في الجاهليـة عُـراةً إلا الحُمْسَ ــ والحُمْسُ قُرَيشٌ وما وَلَدتْ ــ وكانت الحُمسُ يَحتَسِبونَ على الناس، يُعطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثيابَ يَطوفُ فيها، وتُعطِي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تَطوفُ فيها، فمن لـم يُعطِه الحُمسُ طافَ بالبيتِ عُرياناً. وكان يُفيضُ جَماعةُ الناسِ من عَرفاتٍ ويُفـيضُ الحُمْسُ من جَمعٍ. قال: وأخبرَني أبي عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها: أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الحُمسِ {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ} (البقرة: ١٩٩) قال: كانوا يُفيضونَ من جَمعٍ فدُفِعوا إلى عَرفاتٍ». (يوسف عامر).

[2] البخاري كتاب الحج باب لا يطوف عريان. وهذا نص الحـديث: (١٦٠٢) حـدَّثنا يحيى بنُ بُكيرٍ حدَّثَنا الليثُ قال يونسُ قال ابنُ شهابٍ حدَّثَني حُمَيدُ بنُ عبد الرحمنِ أنَّ أبا هريرةَ أخبَرَهُ «أنَّ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ الله عنهُ بعثهُ في الحجَّةِ التي أمَّرَهُ عليها رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ حَجة الوَداعِ يومَ النَّحرِ في رَهطٍ يُؤَذِّنُ في الناسِ: ألا، لايَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبيتِ عُريانٌ». (يوسف عامر).

الحرم ينافي مكانتهم الدينية؛ لذا كانوا ينزلون بالمزدلفة. وقد أنهى الإسلام خاصية قريش هذه، فنزلت الآية الكريمة.[1]

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة ١٩٩).

٦. كانوا يسعون بين الصفا والمروة من الوادي حتى عُدّ هذا الأمر سنة. لكن الإسلام لم يعدها سنة. أي لم يعطها أية أهمية.[2]

٧. بالرغم من أن الحج كانت له مكانة دينية أيام الجاهلية فإنه في الحقيقة كان قد اختار شكل تجمع وتظاهر كبيرين، يتجمع فيه أناس كثيرون.

---

[1] البخاري كتاب الحج جـ١ ص٢٢٦. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس»: (٤٤٠٤) حدَّثنا عليُّ بنُ عبدِ الله حدثنا محمدُ بن حازمٍ حدثنا هشامٌ عن أبيه عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «كانت قريش ومَن دانَ دِينَها يَقِفونَ بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّونَ الحُمسَ، وكان سائرُ العرب يَقِفونَ بعرفات. فلما جاء الإسلامُ أمر اللَّهُ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يأتيَ عرفاتٍ ثم يقفُ بها ثم يُفيضُ منها، فذلك قوله تعالى: {ثمَّ أفيضوا من حيث أفاضَ الناس} (البقرة: ١٩٩) »(يوسف عامر).

[2] البخاري، جـ١، ص ٥٤٣. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب « إن الصفا والمروة من شعائر الله»، كتاب التفسير: (٤٣٨١) حدَّثنا عبدُ الله بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن هشام بن عروةَ عن أبيهِ أنه قال: «قلتُ لعائشةَ زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ــ وأنا يومئذٍ حديثُ السنِّ ــ: أرأيتِ قولَ الله تباركَ وتعالى: {إنَّ الصفا والمروةَ مِن شعائر الله، فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّفَ بهما} (البقرة: ١٥٨) فما أُرَى على أحدٍ شيئاً أن لا يَطوَّفَ بهما، فقالت عائشة: كلاّ، لو كانت كما تقول كانت فلا جُناحَ عليه أن لا يَطوَّفَ بهما، إنما أُنزِلَت هذه الآية في الأنصار: كانوا يُهِلُّونَ لمَناةَ، وكانت مَناةُ حَذْوَ قُدَيد، وكانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بين الصَّفا والمروة، فلما جاءَ الإسلامُ سألوا رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزلَ اللَّهُ {إن الصَّفا والمروةَ من شَعائرِ الله، فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّفَ بهما}» (البقرة: ١٥٨).(يوسف عامر).

وكان يحدث فيه كل ما يحدث في التجمعات من ضجيج وصخب وفساد ولهو بالنساء، أي كان يحدث فيه كل أنواع الفتن والفحش والفجور، فلما جاء الإسلام قضى على كل هذه الأمور تماما، وجعل من الحج نموذجا للتقديس والورع والخير وذكر الله، وجاء الأمر من الله:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (البقرة ١٩٧).

٨. كان للناس الذين يريدون العودة بعد أداء مناسك الحج مختلفين في أمرهم؛ فكانت هناك طائفتان طائفة تقول إن الناس الذين يريدون العودة أيام التشريق مذنبون. والطائفة الثانية كانت تتهم أولئك الناس العائدين بأنهم متأخرون. ولأنه لم يكن من الطائفتين مذنب أجاز القرآن الكريم الأمرين وقال:

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ (البقرة ٢٠٣).

٩. كانوا قد ابتكروا نوعاً من الحج يطلق عليه الحج الصامت، فكانوا حين يحرمون للحج يلتزمون الصمت. لذا حينما رأى سيدنا أبو بكر ﷺ امرأة صامتة سألها عن السبب. فلما عرف أنها أحرمت للحج الصامت منعها، وقال: إن هذا من عمل الجاهلية.[1]

---

[1] البخاري جـ١ ص٥٤١. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب أيام الجاهلية، كتاب مناقب الأنصار: (٣٧٤٧) حدَّثنا أبو النعمانِ حدَّثنا أبو عَوانةَ عن بيانٍ أبي بِشرٍ عن قيس بن أبي حازمٍ قال: «دخلَ أبو بكرٍ على امرأةٍ من أحمسَ يقال لها زينبُ، فرآها لا تكلَّمُ، فقال: مالها لا تَكلَّمُ؟ قالوا: حَجَّتْ مُصمتةً. قال لها: تَكلَّمي، فإنَّ هذا لا يحلُّ، هذا من عَمَلِ الجاهلية. فتكلمتْ فقالت: مَن أنتَ؟ قال: امرؤ منَ المهاجرين، قالت: أيُّ المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت: من أيِّ قريشٍ أنت؟ قال:

١٠. كانوا ينذرون الذهاب للكعبة مرتجلين، ويعتقدون أن في هـذا ثوابًـا عظيمًا. وقد رأى رسول الله (ﷺ) رجلاً يذهب للحج مرتجلا يساعده ولداه، فلما سأله عن السبب عرف أنه قد نذر أن يمشي فقال له: «إِنَّ الله عز وجل لَغَنِيٌّ عن تَعْذِيبِ هذا نَفْسَهُ، قال: فَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ».[1] وأيضا، كانت النسوة تنذر الذهاب للكعبة مكشوفات الرأس، حافيات الأقـدام، فلما رأى النبي (ﷺ) إحدى هذه النساء قال لها: «إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عن مَشْيِهَا، مُرُوهَا فَلْتَرْكَبْ» [2]، لذا كانوا يحضرون الحيوانات مـن البيـت بنيـة

إنك لَسَؤول، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء اللهُ به بعدَ الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامَت بكم أئمتُكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كـان لقومك رؤوسٌ وأشرافٌ يأمرونهم فيُطيعونهم؟ قالت: بلىٰ. قال: فهـم أولئـك علـى الناس».(يوسف عامر).

[1] الترمذي كتاب النذور والإيمان باب في من يحلف بأن يمشي ولا يستطيع. وهذا نص الحديث: (١٥٤٠) حدثنا أبو موسى محمدُ بن المثنَّى حدثنا خالدُ بن الحـارثِ حـدثنا حميْدٌ عن ثابتٍ عن أنسٍ، قال: «مَرَّ رسول الله بشيْخٍ كبيرٍ يُهَادَى بينَ ابْنَيْه، فقال: ما بَالُ هذا؟ قالوا: نَذَرَ يَا رسولَ الله أَنْ يَمْشِي، قالَ: إِنَّ الله عز وجل لَغَنِيٌّ عن تَعْـذِيبِ هذا نَفْسَهُ، قال: فَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ» .

حدثنا محمدُ بن المثنَّى حدثنا ابنُ أَبي عَدِيٍّ عن حُمَيْدٍ عن أنسٍ أَنَّ رسـولَ الله رأى رجلاً فَذَكَرَ نحوَه.

هذا حديث صحيح والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وقـالوا: إذا نـذرت المرأة أن تمشي فلتركب ولتهد شاةً.(يوسف عامر)

[2] الترمذي كتاب النذور والإيمان. وهذا نص الحديث: (١٥٣٩) حدثنا عبدُ القُدُّوسِ بنُ محمدٍ العطَّارُ البصريُّ حدثنا عَمْرُو بن عَاصِمٍ عن عمرانَ القطانِ عن حُمَيْـدٍ عـن أنسٍ، قال: نَذَرَتِ امْرَأَةٌ أَنْ تَمْشِيَ إلى بَيْتِ الله، فَسُئِلَ نبيُّ الله عن ذلكَ، فقالَ: «إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عن مَشْيِهَا، مُرُوهَا فَلْتَرْكَبْ» .

قال وفي البابِ عن أَبي هُرَيْرَةَ وعُقْبَةَ بن عامرٍ وابن عباسٍ.

الأضحية لا بقصد الركوب عليها. فحينما رأى رسول الله (ﷺ) رجلاً يقود ناقته، قال له: اركبها. فأجابه: إنَّها بدَنة.. فأكد النبي ﷺ عليه القول ثلاث مرات أن يركبها.(١)

١١. كان الأنصار حين يعودون من الحج لا يدخلون البيوت من أبوابها، بل كانوا يأتونها من ظهورها اعتقادا منهم أن في هذا العمل ثواب عظيم؛ لذا حين حج رجل منهم وعاد دخل البيت خلاف العادة من الباب، فلعنه الناس وزجروه كثيرا؛ نزلت هذه الآية الكريمة.
﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة ١٨٩).

١٢. كان بعض الناس حين يطوف بالبيت يظهر أنه مذنب بطريقة غير مناسبة تماما. فكان البعض يضع في أنفه خطم يشده منه أحدهم ويطوف به. وقد أمر رسول الله (ﷺ) حين رأى رجلاً يطوف بهذه الطريقة أن يقطع خطمه.(٢) ومرة رأى رسول الله رجلاً جعل آخر

قال أبو عيسى حديثُ أنسٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وقالوا إذا نذرت امرأة أن تمشي فتركب ولتهد شاةً. (يوسف عامر).

(١) البخاري جـ١ ص٢٢٩ كتاب الحج. وهذا نص الحديث: (١٦٦٩) حدَّثنا عبدُاللَّهِ بنُ يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن أبي الزِّنادِ عنِ الأعْرَجِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللَّهُ عنه «انَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يَسُوقُ بَدَنَةً فقال: اركبْها. فقال: إنَّها بدَنة. فقال: اركبْها. قال: إنها بدَنة. قال: اركبْها ويْلَكَ، في الثالثةِ أو في الثانية». (يوسف عامر).

(٢) النسائي كتاب الحج ص٤٦١ باب الكلام في الطواف. وهذا نص الحديث: (٢٩٢٢) أَخْبَرَنَا يُوسُفُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ الأَحْوَلُ أَنَّ طَاوُسًا أَخْبَرَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مَرَّ وَهُوَ يَطُوفُ

يربط يده ويطوف به فقطع رسول (ﷺ) الحبل وقـال للآخـر: «قُـدْهُ بِيَدِه».[1] ومرة رأى رجلين مغلولين في حبل واحد فـسأل (ﷺ) عـن السبب فأجابه الاثنان أننا نذرنا أن نطوف هكذا. فأمر النبي (ﷺ) بفك هذا الحبل، وأخبرهما بأن النذر هو ما يبتغى به وجه الله.[2]

١٣. كان العرب لا يعتمرون أيام الحج، وكانوا يقولـون أنـه لا تجـوز العمرة حتى ترجع مطايا الحج وتلتئم جروح بطونها. لكن النبي (ﷺ) اعتمر أيام الحج وأنهى بطريقة عملية هذه العادة والفكر الخاطئ.[3]

١٤.كان بعض الناس حين يقصدون الحج في زمن الجاهلية لا يتـاجرون طيلة أيام الحج، إذ كانوا يعتقدون أن هذا الأمر يتنافى مع الحج. لـذا كان غالبية الناس الذين يأتون لا يشتركون في الحج، بل كانوا يـأتون

بِالْكَعْبَةِ بِإِنْسَانٍ يَقُودُهُ إِنْسَانٌ بِخِزَامَةٍ فِي أَنْفِهِ فَقَطَعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقُودَهُ بِيَدِه.(يوسف عامر).

[1] البخاري كتاب الحج باب الكلام في الطواف.وهذا نص الحـديث: (١٦٠٠) حـدَّثنا إبراهيمُ بن مُوسى: حدثَنا هشامٌ: أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قال: أَخْبَرَنِي سُلَيْمانُ الأَحْوَلُ: أَنَّ طَاوُساً أَخْبَرَهُ، عن ابْنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسـلم مَرَّ وَهُوَ يَطُوفُ بالكَعْبَةِ بِإِنْسانٍ، ربط يدهُ إلى إنْسانٍ، بسيرٍ أَوْ بِخَيْطٍ أَوْ بِشَيْءٍ غَيْـر ذلك، فَقَطعَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «قُدْهُ بِيَدِه»(يوسف عامر).

[2] فتح الباري جـ٣ ص ٣٨٦.

[3] صحيح البخاري، باب أيام الجاهلية. وهذا نص الحديث: (١٥٤٥) حدَّثنا موسى بـنُ إسماعيل حدَّثنا وُهَيبٌ حدَّثنا ابنُ طاوُسٍ عن أبيهِ عن ابنِ عبَّاس رضيَ اللهُ عنهما قال «كانوا يَرَونَ أنَّ العُمرةَ في أشهُرِ الحجِّ من أفجَرِ الفُجـورِ فـي الأرض، ويجعلـونَ المحرَّمَ صَفَراً، ويقولون: إذا بَرَأَ الدَّبَر، وعفا الأثَر، وانسَلَخَ صفر، حلتِ العُمرةُ لمن اعتمر. قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابهُ صبيحةَ رابعةٍ مُهلِّينَ بالحَجِّ، فأمرَهم أن يَجعلوها عُمرةً، فتعاظَمَ ذلكَ عندَهم فقالوا: يا رسولَ الله، أيُّ الحِـلِّ؟ قـال: حِـلٌّ كلُّه».(يوسف عامر).

لوجود التجمع فقط، دون مبالاة بالحج. فيجتمعون في أسواق عكاظ وذي المجاز وغيرهما من الأسواق؛ بهدف التجارة فحسب. فكانت كل فرقة من الفرقتين أي التجار والحجيج منفصلة عن الأخرى. وكان النقص في ذلك أن الحجيج كانوا يحرمون من منافع التجارة. وغير الحجيج كانوا يأتون لأجل التجمعات والزحام فقط. فكانت كل أنواع الفواحش ترتكب ممن يأتون بقصد التجارة. وقد أزال الإسلام هذا التفريق وقال إن التجارة لا تتنافى مع حرمة وقدسية الحج؛ إذ يمكن تأدية الأمرين معاً فقال.[1]

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة ١٩٨).

فكانت نتيجة هذا أن كل شخص كان يتجمع في هذه المناسبة كان يتجمع بقصد الحج لذا انتهت كل المفاسد الاجتماعية التي كانت زمن الجاهلية. ونمت مع ذلك الأعمال التجارية المباحة.

١٥. فيما يتعلق بالطواف بالصفا والمروة كانت هناك طائفتين في البداية فكان الأنصار يُحْرِمُون من منى ولا يطوفون أما باقي العرب فكانوا يطوفون بالصفا والمروة. ولما كان الله سبحانه وتعالى قد أمر في البداية بالطواف بالكعبة ولم تنزل أي آية تتعلق بالصفا والمروة سألت

---

[1] اختلفت الروايات في شأن نزول هذه الآية. فيتضح من بعض الروايات أن العرب كانوا يتاجرون في هذه الأيام فلما جاء الإسلام عرفت الصحابة أن الحج صار لله وحده. لذا لا يتناسب أن تكون فيه تجارة لذا نزلت الآية الكريمة هذه لإنكار هذا الاعتقاد. لكن من جمع كل الروايات تتضح الحقيقة التي كتبت في المتن وتصدقها جميع الروايات. (أنظر تفسير الطبري، وأسباب النزول تفسير الآية المذكورة).

الطائفة الثانية رسول الله (ﷺ) وقالت هل هذا العمل غير جائز؟ واستفسر الأنصار أيضا عن هذا. فنزلت الآية الكريمة.[1]

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة ١٥٨).

أركان الحج:

والآن بعد هذا الإصلاح والترميم والإضافة، فسنعرض أركان الحج، وتفصيلها، وحكم مشروعيتها بالترتيب:

الإحرام:

بالرغم من أن كل الأعمال تبنى على النية، فإن النية لا يمكن أن تظهر بدون عمل، فالتكبير في الصلاة مثلاً هو إظهار لهذه النية. والإحرام أيضا هو تكبير الحج؛ إذ بالإحرام يخرج الإنسان من حياته الطبيعية، ويصبح

---

[1] صحيح البخاري كتاب الحج المجلد الأول ص٢٢٣. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب « إن الصفا والمروة من شعائر الله»، كتاب التفسير: (٤٣٨١) حدَّثنا عبدُ الله بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن هشام بن عروةَ عن أبيه أنه قال: «قلتُ لعائشةَ زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا يومَئذٍ حديثُ السنّ ـ: أرأيتِ قولَ الله تباركَ وتعالى: {إنَّ الصفا والمروةَ من شعائر الله، فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّفَ بهما} (البقرة: ١٥٨) فما أُرَى على أحدٍ شيئاً أن لا يَطوَّفَ بهما، فقالت عائشة: كلاَّ، لو كانت كما تقول كانت فلا جُناحَ عليه أن لا يَطوَّفَ بهما، إنما أنزلَت هذه الآية في الأنصار: كانوا يُهلُّونَ لمَناةَ، وكانت مَناةُ حَذْوَ قُدَيد، وكانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بين الصفّا والمروة، فلما جاءَ الإسلامُ سألوا رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزلَ اللّهُ {إن الصفّا والمروةَ من شَعائرِ الله، فمن حجَّ البيتَ أو اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّفَ بهما}» (البقرة: ١٥٨).(يوسف عامر).

في حالة خاصة. لذا تحرم عليه كل هذه الأشياء التي كانت وسيلة للرفاهيــة والمتعة والزينة الدنيوية. فلا يستطيع أن يصيد؛ لأن قتل أي حيوان لمجــرد اللذة والمتعة يعد أنانية، كذلك لا يستطيع أن يتمتع بزوجته؛ لأن هذه المناسبة هي مناسبة البعد عن اللذات والشهوات النفسية، وكذلك لا يستطيع أن يلــبس ملابس مخيطة؛ لأنها وسيلة لإظهار الجاه والرفعة، لذا كانت العرب تطــوف عارية، ولأن هذا كان سوء أدب في حضرة رب الأرباب حرمــه الإســلام، وأمر أن يخلع كل من الأمير والفقير ثيابه عند الإحرام، ويلبس الملابس غير المخيطة التي كانت في بداية الخلقة. فيربط رداءً من المنتصف، ويفتح رداءً ثانٍ من فوق ويلبسه من المنتصف، ويفتح الثاني من فوق ويلبسه من الرقبة، بحيث تظل يده اليمنى بالخارج للقيام بالأعمال الضرورية. وفي هــذا تــشبه بثياب العهد الإبراهيمي التي راجت في ذاك الوقت؛ وذلك لكي تظهــر بهــذا الشكل، وهذه الصورة الظاهرية حالة ذاك العهد المبارك، لذا كان هــذا هــو الزي الرسمي للحضور في بلاط ملك الملوك، والذي تحدد أن يكــون خاليــا تماماً من التكلف والزينة والبهرجة.

الطواف:

أي الدوران حول جدران الكعبة والدعاء كما كان يفعل في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ إذ كان يُطاف بالأضحية حول مكان التضحية؛ وذلك حتى يعود الحاج نفسه على مكان التضحية. لذا فهو يطوف حــول جوانبــه الأربعــة، ويطلب أثناء الطواف المغفرة التي يجب أن تكون آخر فقرة فــي دعائهــا: ﴿رَبَّنَــا آتِنَــا فِــي الــدُّنْيَا حَــسَنَةً وَفِــي الآخِــرَةِ حَــسَنَةً وَقِنَــا عَــذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:٢٠١)

والطواف في الحقيقة نوع من الصلاة الإبراهيمية التي كانت في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام. لذا قال النبي (ﷺ)«الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلاَةٌ فَأَقِلُّوا مِنَ الْكَلاَمِ».[1] وقد أمر الله تعالى بطواف البيت، فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ **(الحج ٢٩)**.

استلام الحجر الأسود:

الحجر الأسود هو حجر معلق في أحد أركان الكعبة. ومعلوم أن الكعبة قد هدمت مرارا ثم بنيت. فأحياناً غرقت في الطوفان، وأحياناً حرقت بالنيران. ولم يبق فيها أي حجر من الأحجار التي رفع بها سيدنا إبراهيم عليه السلام قواعدها غير ذلك الحجر الأسود الذي حافظت عليه العرب بشدة أيام الجاهلية. وظل منصوبا كما هو بعد الإسلام منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة. (إلا أن الباطنية كانوا قد أخرجوه لبضعة أيام ثم أعادوه في عام ٣١٧هـ). وقد علق هذا الحجر في تلك الزاوية من الكعبة التي تكون مواجهة لبيت المقدس إذا وقفت تجاهها، لذا سميت هذه الزاوية أو هذا الركن المواجه للحجر الأسود بالركن الشامي. وتمكن الإشارة إلى بيت المقدس بتخصيص هذا الركن. والمقصود من تعلق الحجر في هذا الركن هو أن يكون علامة البداية ونهاية الطواف بالبيت. ويمكن تقبيل الحجر بعد انتهاء كل طواف، ويمكن معانقته ولمسه باليد أو بخشبة أو بأي شيء آخر، ثم يقبل

---

[1] الترمذي والنسائي والدارمي ومستدرك الحاكم. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن النسائي: (٢٩٢٤) أَخْبَرَنَا يُوسُفُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْحَسَنُ بْنُ مُسْلِمٍ. وَ الْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ قِرَاءَةً عَلَيْهِ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَاوُسٍ عَنْ رَجُلٍ، أَدْرَكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلاَةٌ فَأَقِلُّوا مِنَ الْكَلاَمِ» اللَّفْظُ لِيُوسُفَ خَالَفَهُ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ. (يوسف عامر).

من هذا الشيء الملامس له. وقد يُكتفى بالإشارة إليه وقد يظهر هذا الحجر من لفظه بأنه حجرٌ عادي ولكنه في نظر المشتاق للزيارة شيء يذكره بأن الدنيا كلها قد تغيرت، وتغير كل ما فيها، وتغيرت كل حجارة الكعبة إلا هذا الحجر الذي وضعت عليه كل الشفاه المقدسة والأيدي المباركة منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام وحتى سيدنا محمد (ﷺ). ولمسته أيادي كل الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام والأئمة وكبار رجال الدين والحكماء. واليوم تمسه شفاهنا وأيدينا المذنبة فتتولد في قلوبنا وأعيننا تأثير ونشوة عجيبة. ومع كل هذا نعتقد نحن المسلمين أن هذا حجر لا خاصية له أو كما قال أحد الموحدين [١] بعد أن قبله: "إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَأَنَّكَ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ" [٢] المقصود أن هذه القبلة ليست للتعظيم وإنما هي ثمرة لحب سيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته، وإن لم يقبله أو يمسه أو يشير إليه أي شخص (حاج) فإن حجه سيكون من المؤكد ناقصًا.

السعي بين الصفا والمروة:

الصفا والمروة جبلان قرب مكة. وهما الآن مجرد اسمين بقيت منهما بعض علاماتهما والصفا هو الجبل الذي ترك عنده سيدنا إبراهيم عليه السلام حماره

---

[١] يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[٢] مسلم والترمذي ومستدرك الحاكم وغيرهم باب الاستلام. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، كتاب الحج: (٣٠٢٢) حدثنا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ وَ الْمُقَدَّمِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. كُلُّهُمْ عَنْ حَمَّادٍ. قَالَ خَلَفٌ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَاصِمٍ الأَحْوَلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ، قَالَ: رَأَيْتُ الأَصْلَعَ (يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ) يُقَبِّلُ الْحَجَرَ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأُقَبِّلُكَ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَأَنَّكَ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ. وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ. وَفِي رِوَايَةِ الْمُقَدَّمِيِّ وَأَبِي كَامِلٍ: رَأَيْتُ الأُصَيْلِعَ. (يوسف عامر)

وخدامه وواصل هو وسيدنا إسماعيل عليه السلام السير وحدهما. والمروة هو ذاك الجبل الذي أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يذبح عليه ولده إسماعيل عليه السلام. لكنه توقف في النهاية بعد ما جاءه صوت من السماء أن اذبح كبشاً بدلا من ولدك إسماعيل. وقد ورد في بعض الروايات أن السيدة هاجر كانت قد أخذت ولدها إسماعيل، وجاءت به إلى هناك. وحين اشتد عليها العطش سعت بين الصفا والمروة بحثا عن الماء حتى رأت في النهاية بئر زمزم. والسعي بين الصفا والمروة تذكرة لذاك السعي المضطرب. ومع كل فإننا في الحج نصعد في البداية على الصفا ثم على المروة، ونتجه صوب الكعبة، ونحمد الله وندعوه، ثم ننزل داعين متجهين للمروة، وندعو هناك أيضاً؛ لأن هذين هما المكانان اللذان تراءت لسيدنا إبراهيم عليه السلام وللسيدة هاجر عليهما المعجزات الربانية. يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البقرة ١٥٨).

الوقوف بعرفة:

يجب على كل الحجيج يوم التاسع من ذي الحجة الوقوف بعرفة، والدعاء وحمد الله تعالى من بعد زوال الشمس وحتى غروبها. والوقوف بعرفة هو الركن الأساسي للحج، لذا يقف عليه حتى مد البصر سكان كل البلاد بطريقة واحدة ولباس واحد، متضرعين طالبين داعين الله تعالى أن يغفر ذنوبهم، مقرين وموفين بعهدهم مع الله. وبعد أن يقفوا عند جبل الرحمة يخطب أمير الإسلام في كل حجيج الدنيا ويعرفهم واجباتهم. ويكون في الوقوف بعرفات منظر عظيم لعظمة الإسلام وهيبته من ناحية. ومن ناحية أخرى يُذكِّر هذا الاجتماع العظيم بيوم الحشر، ولهذا السبب تبدأ سورة الحج

ببيان الحشر. فيولد هذا الاجتماع ومنظره المؤثر للغاية في القلوب حماسة جارفة وشوق لطلب مغفرة الله ورحمته؛ إذ حين يرى الإنسان هذا المنظر عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه حتى مسافة غير متناهية فإنه يغرق في تأثير لا تزول لذته طيلة الحياة.

القيام بالمزدلفة:

يكون وقت الحج وقت زحام وسعي. فكانت العرب تغادر عرفات بعد المغرب (الغروب). لأنهم كانوا يتعبون من صعوبة الذهاب مباشرة إلى منى. لذا كانوا يُعدّون المزدلفة مكانا وسطاً يأخذون فيه قسطا من الراحة. وقد أبقي الإسلام على هذا الأمر؛ لأن هناك مسجدًا يُقال له أو يطلق عليه المشعر الحرام، وهو مكان مخصص للعبادة. فكان المكوث عنده ليلة كاملة بعد العودة مساءً من عرفات، والانتظار والتعبد هناك قليلا بعد صلاة الفجر أمراً ضروريا.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة ١٩٨).

القيام بمنى:

عرفنا أن المكان الحقيقي للأضحية هو جبل المروة، حيث كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد قدم أضحيته. لذا قال النبي (ﷺ):«هَذَا الْمَنْحَرُ يَعْنِي الْمَرْوَةَ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ وَطُرُقِهَا مَنْحَرٌ» [1] وحينما اتسعت دائرة الحج من كثرة المسلمين

---

[1] موطأ الإمام مالك باب ما جاء في النحر في الحج. وهذا نص الحديث: ٨٩٥) حدَّثني يَحْيَى، عَنْ مَالِك، أَنَّهُ بَلَغَهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بِمِنًى: «هَذَا الْمَنْحَرُ وَكُلُّ مِنًى

وازديادهم شيئا فشيئا، ولم يبق حد للأضحية تغيرت المروة وكل ساحات مكة إلى مدن وعمران، لذا اختيرت ساحة لذلك على بعد عدة أميال من البلد يطلق عليها منى. يمكث فيها الحجيج يومين أو ثلاثة يلتقون فيها ببعضهم، ويتعارف كل منهم بالآخر. ويضحون هناك، ويدعون بعضهم، وتقام الأسواق، ويتم البيع والشراء.

وفي الجاهلية كانت العرب تجتمع هناك، وتتفاخر بأحسابها وأنسابها، وغالباً ما كان هذا الأمر ينقلب إلى شجار وعراك. وكانت أفضل طريقة لإيقاف هذه العادة السيئة والقضاء عليها أن يُؤمر بحمد الله وعبادته، وأن يُعَدّ هذا المكان مكانا لتعارف المسلمين ومحبتهم ومساواتهم واتحادهم بدلاً من أن يكون مكاناً للتباهي والفخر بين القبائل والعائلات.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة ٢٠٣).

الأضحية:

الأضحية تذكار لذبح سيدنا إسماعيل ﷺ وتمثيل لتضحيتنا الروحية. وفائدتها أنها تصبح بمثابة دعوة للعيد القومي في أيام منى الثلاثة (أيام التشريق). فيدعو إليها الناس بعضهم بعضا وكذلك الأصدقاء والأحباء والفقراء.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحج ٢٨).

وإن لم نستطع أن نضحي في بعض الحالات، فيمكن لنا أن نصوم عشرة أيام؛ لأن هذا أيضاً تمثيل للإيثار الشخصي

مَنْحَرٌ». وقَالَ فِي العُمْرَةِ: «هٰذَا المَنْحَرُ يَعْنِي المَرْوَةَ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ وَطُرُقِهَا مَنْحَرٌ».(يوسف عامر).

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِـدْ فَـصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ (البقرة ١٩٦).

حلق الرأس:

يحلق الحجيج رءوسهم أو يقصرون في منى بعد الأضحية. في هـذا موافقة لهذه العادة القديمة؛ إذ كان الناذر يحلق رأسه بعد أن يـوفي بنـذره. وهناك إشارة أخرى لأمر قديم يكمن في هذه العادة، وهي أن العـرف فـي الفترة الأولى للمدنية كان يقتضى أن يحلق العبد شعره عندما يحرر، فكانـت هذه علامة للرق. ولأن الحج إقرار واعتراف بالرق الدائم والعبودية لله لـذا ظلت هذه العادة القديمة وبقيت:

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ (الفتح ٢٧).

﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ (البقرة ١٩٦).

رمي الجمرات:

هناك أعمدة ثلاثة من الحجارة منصوبة في ساحة منى. يقال إن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ذهب ليذبح ولده إسماعيل عليه السلام أخذ الشيطان يوسوس إليـه في هذه الأماكن الثلاثة، فرجمه سيدنا إبراهيم عليه السلام. أي رمـاه بالحـصوات. فكانت هذه هي طريقة إظهار اللعنة في الزمن الأول. لذا يقال على الشيطان: الشيطان الرجيم. ويرى صاحب نظام القرآن أن جيش أبرهة حين تقدم إلـى مكة قاده بعض الخائنين من العرب، فتصدى بقية العـرب لـذلك الهجـوم المفاجئ بطريقة الحجارة البدائية. وهي الطريقة التي ذكرت في سورة الفيـل قوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾(الفيل:٤)

وقد أباد الله تعالى بهذه الطريقة ذاك الجيش. وهلك أيضا أولئك الغدارون الخائنون. فرمي الجمرات أحياء لهذه الواقعة. فنرمي الجمرات على تلك الأعمدة الثلاثة بعد ذكر الله وحمده. وندعو الله أن يحفظنا من وساوس الشيطان. ولأن رمي الجمرات يبدو – ظاهريًا – عملاً لا جدوى منه، فقد صرح النبي (ﷺ) به، وأخبر ﷺ بأنه لا هدف من رمي الجمرات بهذه الطريقة إلا إقامة ذكر الله. [1] وقد أشار القرآن الكريم أيضا إلى هذه الحقيقة وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ **(البقرة ٢٠٠)**.

وتنتهي أركان الحج برمي الجمرات هذه.

الهدف من هذه الأركان:

يتضح من التفصيلات السابقة أن كل أركان الحج ما هي إلا آثار لطريقة العبادة في ذاك العهد القديم الذي يتحتم بقاؤه؛ حتى يظل العهد الأول لمرحلة رقي الروح البشرية قائمًا على الدوام أمام أعيننا، وحتى تظل أحداث ما قبل ذكر التاريخ تحرك على الدوام مشاعرنا وأحاسيسنا، ويوفر لنا ذكر الله وتكفير الذنوب والعزم على قضاء حياة لاحقة خيرة الفرص لفتح باب جديد من التغيير والإصلاح بعد ربط حياتنا السابقة للحج بحياتنا اللاحقة له. لهذا كله قال النبي (ﷺ) بصراحة تامة: «إنما جُعِلَ الطوافُ بالبيتِ ورميُ الجمارِ

[1] المشكاة باب رمي الجمار نقلا عن الدارمي والترمذي، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

والسعيُ بينَ الصفا والمروةِ لإقامةِ ذكرِ اللَّهِ». [1] وأشار القرآن الكريم إلـــى هـــذا أيضا فقال:

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج ٢٨).

وأماكن الحج هي أماكن تجليات العظمة النبوية والآيـــات الربانيـــة، فتذكر بعد الوصول إليها ورؤيتها أحداث الرحمة والبركة الربانية، لذا أطلـــق عليها في القرآن الكريم شعائر الله وحرمات الله. فأركان الحج اسم لـــشعائر الله وحرماته، قال تعالى في سورة الحج بعد بيان أركان الحج:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (الحج ٣٠).

ويقول عن الصفا والمروة:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٥٨).

وقال في سورة الحج:

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج ٣٢).

وضح من هذه الآيات أن الهدف الأسمى للحج هو احترام هذه الأماكن المقدسة وتقديسها؛ حتى يظل ذكر الروايات المقدسة المرتبطة بهذه الأمـــاكن باقيًا، ويظل يولد في القلوب تأثيرا.

---

[1] الترمذي والنسائي والدارمي والمستدرك كتاب الحج. وهذا نص الحديث كما ورد في الترمذي: (٨٩٧) حدثنا نَصْرُ بنُ عليٍّ الجَهْضَمِيُّ و عليُّ بنُ خَشْرَمٍ قالا حدثنا عيسى بنُ يُونُسَ عن عُبَيْدِ الله بن أَبي زيادٍ عن القَاسِمِ بنِ مُحَمَّدٍ عن عائشةَ، عن النبيِّ قال: «إنّما جُعِلَ رَمْيُ الجِمَارِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ لإقامَةِ ذِكْرِ الله» .قال أبو عيسى: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهذا نصه في سنن الدارمي: (١٨٥٧) أخبرنا أبو عاصمٍ، عن عبيدِاللَّهِ بنِ أبي زيادٍ عن القاسمِ، عن عائشةَ، قالت: إنما جُعِلَ الطـــوافُ بالبيـــتِ ورميُ الجمارِ والسعيُ بينَ الصفا والمروةِ لإقامةِ ذكرِ اللَّهِ، قال أبـــو عاصـــم: كـــان يرفَعُهُ.(يوسف عامر).

آداب الحج:

ويجب فى الحج أن يكون كل حاج صورة كاملة للإصــلاح والتقــى والأمن والسلام، فلا يرفث ولا يفسق، ولا يؤذي أحدا، ولا يقتل حتى نملــة. كما لا يجوز الصيد؛ لأنه يكون في ذلك الوقت آمن مطمئن سالم.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (البقرة ١٩٧).

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ (المائدة ١).

كذلك لا يجوز تماما مضايقة الناس الذين يخرجون بنية الحج بــصفة خاصة، ولا يجوز سلب أموالهم وأمتعتهم؛ لأن هذا يخالف الأدب قرب بيــت الله؛ وحتى لا تتوقف القوافل في بلد غير آمن كــالجزيرة العربيــة بــسبب اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين.

﴿وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ (المائدة ٢).

فلو صدر من أي حاج أن قتل عمداً أي حيوان، لوجب عليه أن يفدي بمثل ما قتل. وهذا ما يطلق عليه كفارة. أي يذبح أي حيــوان محلــل مثــل الحيوان المقتول أو يطعم بعض المساكين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَــهُ مِــنكُم مُّتَعَمِّــداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَــالِغَ الكَعْبَــةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ (المائدة ٩٥).

ثبت من هذا أن الحج هو كل الأمن والأمان والسلم. فإن صدرت من الحاج حركة تخالف هذا الأمر لوجبت عليه كفارة.

فوائد الحج ومنافعه:

إن أكبر سمات الشريعة التي جاء بها سيدنا محمدﷺ أنها جامعة للدنيا والدين معًا، وكل حرف فيها معمور بدفاتر المصالح والحكم. كما لا تحتاج لأي عون أو مساعدة من غيرها لتوضيح فوائد أحكامها وعباداتها ومنافعها وغاياتها؛إذ أزاحت هي بنفسها الستار عن وجه هذه الأسرار والغموض. وكالصلاة والزكاة والصيام ذكرت أهداف الحج وفوائده أيضاً في الكتاب السماوي للإسلام (القرآن).

والدعاء الذي دعا به القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم ؑ عند ذكر إعمار الكعبة وذبح سيدنا إسماعيل ؑ وقيامهما بمكة، يشتمل على كل هذه الفوائد والأهداف. تعالوا بنا نلقي نظرة على هذه الآيات:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة ١٢٥، ١٢٦).

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة ١٢٨، ١٢٩).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ

اللَّه فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحج: ٢٨).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٥- ٣٧).

فقد صرح في هذه الآيات بالأمور الآتية:

١. إن الكعبة مركز ومرجع للموحدين، وموطن ومسكن للملة الإبراهيمية.

٢. إن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد أسكن ذريته هناك؛ لخدمة الله الواحد وعبادته، وحتى يظلوا بعيدين عن ظلم عبدة الأصنام وبطشهم، وحتى لا يظل هذا البيت كما كان بلا علامات. وفي النهاية ليبعث فيهم رسول تكون صفاته كذا وكذا.

٣. إن هؤلاء الناس قد سكنوا بواد غير ذي زرع لهدف واحد هو إعمار بيتك يا الله، فارزقهم من الثمرات واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم.

٤. أمر أن يؤذن في الناس بحج البيت، وسيأتيه رجال من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات.

٥. اللهم اغفر لمن يأتي إلى هذا البيت بنية الحج والعبادة، فإنك أنت الغفور الرحيم.

٦. اللهم إن ذريتي هي من تسير على دربي، لذا فإن كان هناك من يتبع الملة الإبراهيمية فهو من آل إبراهيم ومستحق للأدعية وبركات سيدنا إبراهيم عليه السلام

المقصود أن هذه هي منافع الحج وغاياته التي تحوي كل واحدة منها فوائد وغايات متعددة.

المركزية:

الكعبة هي ظل عرش الرحمن، ومركز رحماته وبركاته في هذه الحياة الدنيا، وهي المرآة التي تعكس فيها صفة الرحمة والغفران لله ثم تضيء كل الكرة الأرضية بأشعتها. وهي المنبع الذي تفجر منه ينبوع الحق ثم روي الدنيا. وهي مطلع العلم والمعرفة القلبية التي أضاءت أشعتها كل حيات الأرض وذراتها. وهي نقطة الوسط الجغرافي التي يرتبط فيها كل أفراد الملة الإسلامية الذين يعيشون في بلاد وقبائل متفرقة، ويتكلمون لغات عديدة، ويلبسون زياً متفاوتا، ويعيشون في مدن مختلفة. لكنهم جميعا رغم اختلافاتهم الفطرية وامتيازاتهم الجبلية يطوفون حول كعبة واحدة، ويستقبلون قبلة واحدة، تاركين كل الفوارق من وطنية وقومية ومدنية وحضارة ولون وجنس بتسليمهم أن مكة هي أم القرى، فيتحدون في وطن واحد وقومية (القومية الإبراهيمية) واحدة، ومدنية واحدة، وحضارة واحدة، ولغة واحدة (العربية). فتلك هي الأخوة التي يدخل فيها كل سكان البلاد والأجناس المختلفة المقيدون بقيود الوطنية والقومية. فتزول بذلك كل القيود والحدود البشرية المصطنعة. فتقف كل الشعوب في أيام الحج المعدودات في بلد واحد ولباس واحد وهيئة واحدة كل بجانب الآخر. داعين الله تعالى بلغة واحدة. هذا هو لون الوحدة الذي يذيب كل هذه الامتيازات المادية التي هي سبب الحروب والعراك والفتن والفساد البشري. لهذا ليس هذا الحرم الرباني بيتا للأمن لأنه لا يخلو من القتل والظلم والجور فحسب، بل لأنه بيت للأمن

والسلام تقوم فيه أخوة كل شعوب الدنيا فتحمي كل امتيازاتهم الظاهرية التي هي سبب فساد العالم.

والناس اليوم تحلم أن تخرج من مآزق القومية والوطنية وتدخل في النطاق الواسع للأخوة البشرية. لكن الدعوة الأولية للملة الإبراهيمية والنداء التجديدي للملة المحمدية قد رأى هذا الحلم قبل آلاف السنين، بل وحققه أمام الدنيا كلها. والعالم اليوم مشغول بمحاولة إيجاد لغة واحدة للعالم كله. رغم أن حكم مركزية الكعبة قد حل هذه القضية لآل إبراهيم منذ فترة بعيدة، والناس اليوم تحاول عقد مؤتمرات دولية لخلق اتحاد بين شعوب العالم. أما المسلمون فقد أقيم لهم هذا المؤتمر في الدنيا منذ ألف وثلاث مائة وخمسين سنة، ودعا إلى وحدة علم ومدنية ودين وأخلاق الإسلام. وأقوام العالم اليوم تضع أساس محكمة مشتركة لشعوب العالم في هولندا، إلا أن قراراتها لا يمكن أن يسلم بها بقوة ما، لكنه قد أقيمت لمسلمي شعوب العالم محكمة دائمة مشتركة حاكمها الحقيقي هو أحكم الحاكمين الذي لا يمكن أن يعدل عن أمره أي أحد.

وحين ظل المسلمون تحت نظام حكمه أو تحت خلافة واحدة لمدة مائة خمسين سنة ظل موسم الحج أكبر عنصر لإدارتهم السياسية والإدارية. وقد كانت هذه هي الفترة التي كانت تقضي وتقرر فيها كل ما هو مهم في قضايا أمور الخلافة. فكان يجتمع كل حكام وولاة البلاد المختلفة من أسبانيا وحتى السند يناقشون القضايا أمام الخليفة، ويتوصلون لنظام عمل، وتأتي رعايا البلاد المختلفة وتقدم شكواها أمام الخليفة إن كان عندهم أية شكوى من ولاتهم وحكامهم.

وغالبا هذا هو السبب في أن الله تعالى قد ذم الفساد والتخريب في البلد بعد قضاء الحج مباشرة، فقال:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٤، ٢٠٥).

ثم قال بعد آيتين:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(البقرة:٢٠٨).

وقد أمكن نشر أحكام الإسلام وقضاياه في أماكن وبلدان وأقاليم بعيدة في وقت واحد حين كانت قضية الانتقال والسفر صعبة. وقد كان هذا الاجتماع السنوي هو السبب الحقيقي في هذا. وقد عمل رسول الله (ﷺ) على هذا المبدأ في آخر حجة له، والتي يطلق عليها حجة الوداع، ذلك الإنسان الذي عاش في مكة لمدة ثلاث عشرة سنة وحيدا قد سنحت له الفرصة بعد ثلاث وعشرين سنة حين خطب فيما يقرب في مائة ألف شخص في آن واحد، وقال له الجميع سمعا وطاعة. وقد قام الخلفاء الراشدون والتابعون والصحابة وأعلام الأمة بعد رسول الله بتلقين أحكام الإسلام وتبليغها عن هذا الطريق في اجتماع كل سنة. فكانت نتيجة هذا أن ظلت أحكام الإسلام وفتاويه التي تتعلق بالوقائع والقضايا تصل إلى كل ركن من أركان العالم.

وكان أثر هذه المركزية أن أكابر الصحابة والعلماء والمحدثين والمفسرين والفقهاء الذين كانوا قد انتشروا في الدنيا كلها بسبب الفتوحات والبلدان الإسلامية الجديدة، كانوا يأتون من كل بقاع الدنيا، ويتجمعون في الحرم الإبراهيمي، يلتقون مع بعضهم، ويجمعون هذا العلم الذي كان ما يزال حتى ذاك الوقت متفرقا مبعثرا في الدنيا، يجمعونه ويدونونه في دفتر واحد. فكانوا يجتمعون ويستفيد ساكن نجارا من سكان أسبانيا والمغرب، ويستفيد الشامي والعراقي والمصري من الحجازي، والبصري من الكوفي، والكوفي من البصري، والترمذي من النيسابوري، والأندلسي من الهندي، والرومي

من اليمني. فكان يصل علم السند إلى أسبانيا، وتصل دراسات أسبانيا إلى السند، وتصل مؤلفات مصر إلى تركستان، وحكم تركستان إلى مصر والشام. ويستفيد وينهل تلامذة ابن مسعود من تلامذة ابن عمر، وعائشة وتلامذة ابن عباس من تلامذة أبي هريرة وتلامذة أنس من تلامذة علي. فكان هذا التعارف هو الوسيلة الحقيقية التي على أساسها تجمعت كل حالات الرسول (ﷺ) ووقائعه وغزواته، وأحكامه، وأوامره، ووصاياه المنتشرة في الدنيا بسبب انتشار الصحابة وتلامذتهم والمستفيدين منهم، تجمعت جميعها في كتاب واحد. فترتبت سير الرسول (ﷺ) وغزواته وأحاديثه وتعليماته وجاءت أمام كل مسلم. وألفت كتب عديدة للحديث كالموطأ وصحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي. وأمكن للأئمة المجتهدين الفصل في القضايا والمسائل الاجتماعية بعد أن استفادوا من أفكار الأئمة الآخرين ومعلوماتهم فيما يتعلق بالمسائل. وإن كانت هناك كتب قد دونت قبل ذلك وذاعت واستطاع علماء كل بلد وقرية الوقوف على أفكار علماء البلدان والمدن الأخرى وآرائهم ومعلوماتهم؛ فإن هذه السلسلة ما تزال متواصلة حتى اليوم بسبب أوضاع وظروف الزمن.

ونتيجة هذه المركزية – أيضاً– أن عامة المسلمين الذين هم مشغولون بأحوالهم يطوون مسافات بعيدة، ويتحملون كل أنواع المصائب، ويعبرون أنهارا وجبالا وغابات ومدن وصحار ويجتمعون هناك فيلتقي كل واحد منهم بالآخر، ويتعرف كل منهم على حزن الآخر وألمه وعلى أوضاعه، فتتولد بذلك روح الاتحاد والتعاون بينهم، فيذهبون إلى هناك ويلتقي الصيني بالمغربي والتونسي بالهندي والتاتاري بالحبشي والعربي بالزنجي والعجمي بالعربي واليمني بالنجدي والتركي بالأفغاني والمصري بالتركستاني والروسي بالجزائري والأفريقي بالأوربي والجاوي بالبلغاري، يلتقون هؤلاء

جميعا مع بعضهم، ويظهرون وكأنهم قوم واحد ونسل واحد وأفراد أسرة واحدة.

وكان لهذا أثر آخر وهو أن المسلم العادي يخرج من بلده ليرى العالم الخارجي، فيفهم لون الزمن ومشاكل السياسات. ويستمتع بالأمور الدولية ويكّون دراية بأطراف الدنيا التي يرفع فيها نداء الحق. ويكون أثر هذا أيضا أن يُرى كل مسلم في الدنيا قلقًا من أجل حالات البلدان الإسلامية وأوضاعها فينتج عن هذا وجود عدد من المسلمين لا بأس به، تكون عندهم خلفية وتجربة بالسفر، ودراية باليابس والأخضر. فقد ساعد الحج كثيرا على تطور المعلومات الجغرافية للدنيا وزيادتها؛ إذ خرج كثير من الجغرافيين من المسلمين للسفر بنية الحج لكنهم في النهاية ساحوا في الأرض، وقد عدّ ياقوت الرومي في مقدمة جغرافية تقويم البلدان السفر للحج أكبر وسيلة لتنمية المعلومات الجغرافية في المسلمين.

رزق الثمرات:

كان ضروريا لإقامة هذا المركز وتعميره أن تكون هناك أية وسيلة رزق لساكني هذا القفر. لذا دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام وقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات. وقد استجاب الله تعالى لهذا الدعاء. وكان من الممكن أن تكون إحدى هذه الصور أن يخصص مبلغ معين من الزكاة والصدقات لسكان هذه المنطقة. لكن هذا سيكون سبباً للتدني الأخلاقي ووضيعة هؤلاء الناس. إذ يجعلهم أذلاء صاغرين في نظر الآخرين، وهذا لا يتناسب مع عزتهم وشرفهم، لذا دبر الله سبحانه وتعالى هذا الأمر بأن خلق في قلوبهم حب التجارة، وجعلها وسيلة لرزقهم، فحيث يُرى وجود لأبناء

سيدنا إسماعيل ﷺ في التواريخ القديمة نُرى التجارة. فنرى في عهد سيدنا يعقوب ﷺ الذي كان ابن أخ سيدنا إسماعيل ﷺ وابن سيدنا إسحاق ﷺ أن القافلة التجارية لأبناء سيدنا إسماعيل ﷺ كانت تمر من الجزيرة العربية إلى مصر. (إصحاح التكوين ٣٧، من الفقرة ٢٨ إلى الفقرة ٣٦)[١] ونجد في التوراة في أماكن عديدة ذكر خاص للتجار العرب. وقد كان القرشيون أنفسهم أكبر تجار زمانهم. وهذا ما ذكر في سورة قريش. فكانوا يذهبون مرة إلى اليمن والحبشة ومرة إلى الشام ومصر والروم. [٢]

ولكن لأن هذه التجارة لم تكن كافية لسد رمق كل كبير وصغير في مكة المكرمة، لذا كانت هناك حاجة لجعل أرض مكة نفسها وجعل أماكن الحج أسواقا تجارية. لذا كان موسم الحج أيضا معرضاً كبيرا للعرب قبل الإسلام. حيث كان سوق عكاظ يقام. وقد أبقى الإسلام عليه، فكان هذا تصديقا للدعاء الإبراهيمي، ووسيلة لعيش سكان هذه الأرض القفر. وبعد

---

[١] وهذا نصه في التوراة، إصحاح ٣٧، من الفقرة ٢٨ وحتى الفقرة ٣٦" واجتاز رجال مِدْيَانِيُّون تجار. فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر* ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر. فمزق ثيابه* ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجودًا. وأنا إلى أين أذهب* فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص في الدم* وأرسلوا القميص الملون إلى أبيهم. وقالوا وجدنا هذا. حقق أقميص ابنك هو أم لا* فتحققه وقال قميص ابني. وحش رديء أكله. افترس يوسف افتراسا* فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة* فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه. فأبى أن يتعزى وقال إني أنزل إلى ابني نائحا إلى الهاوية. وبكى عليه أبوه* وأما المَدْيَانِيُّون فباعوه في مصر لفُوطِيفَارَ خصي فرعون رئيس الشرط"(يوسف عامر).

[٢] للمزيد والاقتباسات انظر كتابي أرض القرآن، الجزء الثاني، باب تجارات العرب قبل الإسلام.

الإسلام أخذ المسلمون يفدون إليها من كل بقاع الأرض. لذا يكسب السكان هناك في الشهرين أو الثلاثة هذه ما يكفيهم لطعام سنة كاملة وشرابها. وحين تذهب القافلة من مكة إلى المدينة يحضر البدو الذين على الطرق والبيوت ثمارهم ومحاصيلهم، ويحصلون على مؤنة حياتهم عن طريق البيع والشراء، ويحصل الحجيج جميعهم على الطعام والشراب والمكان والراحلة والضروريات الأخرى من هذا البلد (مكة) والمناطق المجاورة له. ويدفعون ثمن ذلك. وهكذا تكون هذه المقايضة وسيلة دائمة لقوت أهل مكة.

القيمة الاقتصادية للأضاحي:

إن كانت هناك بركة في الإنتاج الطبيعي لهذا البلد فإنها ستكون في إنتاج الحيوانات، وعلى هذا هيأت فريضة الأضحية سبل خلق التكسب من هذه الحيوانات لأولئك العرب والبدو. ففي كل سنة يضحي مائة ألف حاج تقريبا، ويضحي بعضهم أحيانا أكثر من مرة. وعلى هذا لا تقل الأضحية عن مائتي ألف حيوان. وتكون قيمة الكبش الواحد عامة ثماني روبيات. [1] وقيمة الماعز أربع، وعلى هذا يحصل البدو على مليون أو مليون ومائتي ألف

---

(1) لقد قمت بهذا التخمين بناء على تجربة سفر حجي الأول الذي كان في عام ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م لكن حيث تيسرت لي الفرصة مرة ثانية سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م للسفر للحج، وجدت أن تغيرات الزمن قد غيرت التخمين الأول تماما، فقد تضاعفت قيمة كل شيء وقتها حتى قيمة الحيوانات، فكان ثمن الماعز الواحد ١٦ أو ١٧ روبية على الأقل، وثمن البقر من ٨٠ حتى ١٠٠ والجمل من ١٥٠ حتى٢٠٠. والآن بناء على هذا التخمين تضاعف ثمن كل شيء. (سيد سليمان الندوي). ٢٠ محرم سنة ١٣٧١ هـ. إذا كان هذا سنة ١٣٧١هـ فما بالك بأسعار اليوم ونحن في عام ١٤٠٤هـ .(الناشر).

روبية تقريباً كل سنة من بيع ماشيتهم. وهذه أكبر مساعدة وعون لسكان هذا البلد القفر غير ذي الزرع.

قبول الدعاء الإبراهيمي:

لقد ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام الثمرات بصفة خاصة في دعائه فقال : ﴿**وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾ (البقرة: ١٢٦).

فكان أثر هذا الدعاء أن تجد أن كل الثمار والفواكه والخضروات الطازجة موجودة في أسواق مكة دوماً، وتظهر بركة الدعاء الإبراهيمي في أن تجد طعم الإيمان مع طعم المذاق.

التجارة:

يكون المقصود من طلب ذكر الله تعالى في محاورات القرآن الكريم التجارة وتحصيل الرزق. وقد عدّ الله تعالى التجارة وتحصيل الرزق أيضا من المقاصد الواضحة للحج، لذا قال في سورة المائدة:

﴿**وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً**﴾ **(المائدة ٢).**

أي لا يجوز سلب مالهم ومتاعهم؛ حتى لا يفوت بعدم الطمأنينة هذه الهدف الأكبر للحج. والتجارة وتحصيل الرزق يظهران عملين دنيويين في الظاهر. لذا عدّ بعض الصحابة وجود التجارة أو أي مقصد دنيوي آخر في هذا السفر الديني أمراً عير طيب. فنزلت الآية الكريمة التي تقول إن الحج من سؤال الناس ليس أمراً جيدا؛ لأنه يخالف التقوى فالأفضل أن يذهبوا متاجرين يقول:

﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ **(البقرة ١٩٧، ١٩٨).**

فكان الخوف من أن هذا العمل دنيوي، ولا يجوز أن يكون في سفر الحج ليس صحيحا؛ لأن طلب الرزق في حد ذاته أولا عبادة وعمل محمودان في كل حال. وثانيا أنه من أحد أهداف الحج بناءً على ما دعا به سيدنا إبراهيم ﷺ ولا يمكن رقي الدنيا وبقاؤها بدونه، أي أن أحد أهداف الحج هو أن يظل عمران ورونق هذا البلد قائمين لحفظ الكعبة وخدمتها. والتجارة هي أكبر وسيلة لذلك. فكأن هذا المكان هو المركز التجاري العالمي للمسلمين والمعرض السنوي لمصنوعات البلاد الإسلامية. فمن هو ذاك البلد الإسلامي الذي لا يمكن أن تعرض مصنوعاته للمشاهدين، لكن للأسف نسى المسلمون اليوم أهمية هذا الأمر قليلا. ثم امتلأت مكة بمصنوعات غير المسلمين. وأصبح هذا المركز الذي كان سوقا مركزيا للبلدان الإسلامية أصبح اليوم مركزًا للمنتجات الأوروبية. وتردت الأحوال أكثر من ذلك بعد الحرب العالمية.

الروحانية:

المقصود من الروحانية تلك التأثيرات والأحاسيس التي تتولد في القلب والروح من زيارة تلك الأماكن، ومن أداء شعائر الحج فأهميتها الأولى وطنية، والثانية تاريخية، والثالثة روحانية صرفة. فالفائدة أو الأهمية الوطنية تعني أن المسلمين رغم أنهم يعيشون في كل بلاد الدنيا ويتكلمون كل اللغات ويلبسون كل الملبوسات فإن داخلهم إحساسًا بأنهم أبدان حيث كانوا، أما من الناحية الروحانية فمسكنهم هو أرض الجزيرة العربية التي هي مكان الملة الإبراهيمية ومكان مولد الإسلام ومهبط الوحي. لذا حين يصلون إليها بعد قطع مسافات بعيدة يفيض نبع حبهم بعد رؤية هذه الصحراء والجبال، وتتولد في قلوبهم نشوة خاصة من رؤية موطن الإسلام وأرض القرآن، فالمسلم

حيث كان لا يظهر له الإسلام كما هو في موطنه الأصلي؛ فإنه يرى – حيث كان – أقوامًا أخرى مع قومه وأديانًا أخرى مع دينه، وثقافات أخرى مع ثقافته. أما الإسلام في هذه الأرض، فيظهر إسلاما خالصا، ويظهر في كل اتجاه، من أسفل وأعلى، ويمين وشمال، وفي كل زاوية واتجاه وناحية، في هذا الوقت تكون أرض العرب للإنسان من حيث الارتباط بها كالوطن الأم، رغم أنه يعيش في بلدان أخرى، مثله في ذلك مثل سكان المستعمرات الجديدة، فالإنجليز اليوم[1] يسكنون الهند والعراق ومصر وفلسطين وسيبريا وجبل طارق ونيوزلندا وسنغافوره واستراليا وأوغندا وترنسوال وزنجبار وأفريقيا وكندا. ولكن الجزيرة الصغيرة- انجلترا- في أعينهم هي مركز هذه الإمبراطورية العظيمة التي لا تغيب عنها الشمس؛ لأنها موطنهم الأم ومسكن آبائهم. لذا فهم يقلدونها في المدنية والحياة والأخلاق والتعليم والثقافة وكل شيء آخر. وحين تتشرف أعينهم برؤيتها تضئ أعينهم من سعادة وسرور رؤية موطن حضارتهم وأخلاقهم ومدنيتهم الأصلية، وينظر لكل شيء فيها بعين التعظيم والاحترام، وتتولد في قلوبهم آنذاك تلك الأحاسيس والمشاعر التي توقظ فكر عملهم وقوته القديمة الخافتة، بسبب عيشهم في بلاد أخرى ومع شعوب وحضارات أخرى. فهم حين يذهبون إليها يعودون شبابا من جديد بعد أن يغتسلوا في النبع الصافي لحياة مدنيتهم وحضارتهم الخالصة. وبغض النظر عن التشبيه فهذه هي حالة ولذة المسلمين الذين يعدون الجزيرة العربية أو العرب مولدهم ومسكنهم، ومولد ومسكن دينهم وقوميتهم وحضارتهم وفنونهم وعلومهم. وحين تسنح الفرصة لواحد منهم لزيارة هذا البلد وهذه المدينة، فإن كل حبة فيها تعانق قلبه، ويهب قائلاً كما يقول الشاعر

[1] صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٢٠م، لذا كتب المؤلف لفظ اليوم؛ إذ كانت البلاد آنذاك تئن تحت وطأة الاستعمار الإنجليزي.(يوسف عامر).

حيثما أنظر من الرأس حتى القدم ينبسط دلال ثوب القلب حتى يكون مكانه هنا.

وهذه فلسفة وصية الرسول (ﷺ)، وهي أنه لا يجب ألا يبقي في هذا البلد دين غير الإسلام، ولا قبلة له غير الكعبة، ولا كتاب له غير القرآن. وأمر القرآن الكريم ألا يقرب الكفار والمشركون المسجد الحرام؛ حتى يظل منبع الإسلام طاهر نظيفا محفوظا من كل نجاسات الكفر والشرك. وحتى يتمكن كل مسلم من تجديد إيمانه من كل صوب وجهة. وقد قال القرآن الكريم عن مكة المعظمة أنها أم القرى. فإن لم تكن مكة المكرمة أصلاً لكل قرى العالم، فمؤكد أنها أم ومأوى ومرجع لكل قرى العالم الإسلامي.

تاريخية الحج:

كل حرف من حروف التاريخ الأول للإسلام قد ترتب من ذرات هذه الجزيرة العربية وهذا الحرم الشريف؛ فكل ما حدث منذ سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا إبراهيم عليه السلام ومن سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ يرتبط كله بجبال أماكن الحرم وصحاريها. فهناك استوطن سيدنا آدم عليه السلام وبنى بيتا لله في ظل عرش الرحمن، وهناك التقت به حواء، وهناك رست سفينة نوح وإلى هناك لجأ سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما السلام، وهناك ولد سيدنا محمد ﷺ، وهناك يقع ذلك الجبل (الصفا) الذي ترك عنده سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حماريهما ونزلا، وهناك الجبل الثاني (المروة) الذي أراد الأب أن يذبح ولده عليه. وهناك العين التي تراءت للسيدة هاجر وقت العطش. وهناك الكعبة التي رفع سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعدها، وهناك أيضا المكان الذي وقفا فيه ولبيا الله. تجاوره منى والمشعر الحرام وعرفات التي هي شعائر الله. وهناك تقع تلك الأرض التي كانت وديانها وطرقها ممرا لأمين السماء جبريل. وهناك غار حراء الذي سطع فيه

أول ضوء للقرآن الكريم، وهناك صحن الحرم الذي عاش فيه رسول الله (ﷺ) ثلاثا وخمسين سنة. وهناك المكان الذي وطأته أقدام البراق، وهناك البيوت التي تُعدّ كل طوبة فيها صفحة من صفحات تاريخ الإسلام، فهل القرآن الكريم لم يشر إلى هذه المناظر والمشاهد حين قال:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

فحين تطأ أقدام أي زائر هذه الأماكن والمناظر يغض ببصره أدباً، وتنحني رأس عقيدته ويثور دم إيمانه، ويتلاطم بحر مشاعره، وتلامس جبهته الأرض حيث كان، وتضطرب روح المحبة في عروقه وأوداجه، ويفرح قلبه حيث يلتفت، وتفيض عيناه بالدموع، وينشغل لسانه بالتسبيح والتهليل. هذه هي المتعة واللذة اللتين تجدد الإيمان، وتقوي العقيدة، وتولد حب شعائر الله:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (الحج: ٣٠).

الروحانية الخالصة:

مر في "حقيقة الحج" أن الحج في الحقيقة ليس اسماً لهذه الأضحية التقليدية، ولا لهذا السعي والتعب. فما هذا كله إلا شكل جسدي مادي فقط لروحانية الحج. وأركان الحج ما هي إلا مظاهر وانعكاسات لأحاسيسنا ومشاعرنا وتأثراتنا الداخلية، لذا لم يسم سيد الخلق محمد الحج الحقيقي الصحيح بالحج فقط، بل قال عنه إنه الحج المبرور. هذا الحج هو كل هذه البركات والرحمات الخاصة بدعاة عرفات. فروحانية الحج في الحقيقة هي اسم للتوبة والإنابة ولميثاق تدارك العمر الضائع، وللأقدار والاعتراف

بالطاعة في العمر اللاحق. والإشارة إلى هذا مذكورة في الدعاء الإبراهيمي نفسه:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨).

وقد استجيب دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام هذا كبقية أدعيته الأخرى. ثبت من هذا أن الحج في الحقيقة هو الحضور أمام الله سبحانه وتعالى في تلك الأرض، التي حضر إليه فيها كثير من الأنبياء والرسل والصالحين، واعترفوا بالطاعة والامتثال، والخضوع له، والوقوف على تلك الأماكن المقدسة، والسير في حضرة الله، والتوبة إليه سبحانه، وإرضائه تعالى، حتى يتقبل توبتنا ورجوعنا إليه؛ لأنه بحر اللطف والرحمة والكرم والغاية. لهذا السبب قال شفيع الدارين سيدنا محمد ﷺ: "إن الحج والعمرة يغسلان الذنوب كما تغسل النار درن ووسخ الذهب والفضة. والمؤمن الذي يمضي يوم عرفات محرما فإن شمس عرفات تأخذ معها ذنوبه وتغرب".[1]

---

[1] النسائي والترمذي والبزار والطبري الكبير نقلا عن الفوائد كتاب الحج جـ ١ ص١٢٣ ميرت. وهذا نص رواية النسائي: (٢٦٣٢) أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَيَّانَ أَبُو خَالِدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ شَقِيقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجِّ الْمَبْرُورِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ».(يوسف عامر). وهذا نص رواية الترمذي، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، كتاب الحج: (٨٠٤) حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سَعِيدٍ و أبو سَعِيدٍ الأشَجُّ قالا: أخبرنا أبو خَالِدٍ الأحْمَرُ عنْ عَمْرِو بن قَيْسٍ عنْ عَاصِمٍ عنْ شَقِيقٍ عنْ عبد الله، قالَ: قالَ رسولُ الله: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ فإنهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ والذنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيْرُ خَبَثَ الحَدِيدِ والذهَبِ والفِضةِ ولَيْسَ للحَجَّةِ المبرُورَةِ ثَوَابٌ إلاَّ الجَنَّةَ» .

وفي البابِ عنْ عُمَرَ وعامِرِ بن رَبِيعَةَ وأبي هُرَيْرَةَ وعبدِ الله بنِ حُبْشِيٍّ وأمِّ سَلَمَةَ وجَابِرٍ.

ورد في صحيح مسلم والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي (ﷺ) بشر وقال«مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْداً مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلائِكَةَ. فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ؟» [1]. وفي موطأ الإمام مالك أن رسول الله (ﷺ) بشر أن الشيطان لا يكون أذل ولا أحقر ولا أكثر غضبا في يوم آخر كعرفات، لأنه يرى في هذا اليوم أن رحمة الله تفيض وكثير من الذنوب تغفر[2]. وتوجد أمثلة كثيرة كهذه أسمعت فيها بشرى رحمة الله ومغفرته للحجيج المخلصين من عباد الله. كل هذه الأحاديث ما هي في الحقيقة إلا تفسير لهذا الدعاء الإبراهيمي:

قال أبو عيسى: حديثُ ابنِ مَسْعُودٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِنْ حديثِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه.(يوسف عامر).

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٣٢٤٢) حدثنا هَارُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ وَ أَحْمَدُ بْنُ عِيسَىٰ. قَالاَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْب. أَخْبَرَنِي مَخْرَمَةُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ يُوسُفَ يَقُولُ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ. قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْداً مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلاَئِكَةَ. فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ؟». (يوسف عامر).

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن ابن ماجه، باب الدعاء بعرفة، كتاب المناسك: (٣٠٨٦) حدثنا أَيُّوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَاشِمِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ السَّرِيِّ السُّلَمِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كِنَانَةَ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ دَعَا لِأُمَّتِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِالْمَغْفِرَةِ. فَأُجِيبَ: إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، مَا خَلاَ الظَّالِمَ. فَإِنِّي آخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ. قَالَ: «أَيْ رَبِّ إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَ الْمَظْلُومَ مِنَ الْجَنَّةِ. وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ» فَلَمْ يُجَبْ عَشِيَّتَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالْمُزْدَلِفَةِ أَعَادَ الدُّعَاءَ. فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ قَالَ: تَبَسَّمَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إِنَّ هٰذِهِ لَسَاعَةٌ مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا. فَمَا الَّذِي أَضْحَكَكَ؟ أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ قَالَ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَدِ اسْتَجَابَ دُعَائِي، وَغَفَرَ لِأُمَّتِي، أَخَذَ التُّرَابَ فَجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ. فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ».(يوسف عامر).

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ١٢٨)

فيثبت من هذه الإشارات أن الحج في الحقيقة هو توبة وإنابة، لذا فإن هتاف لبيك اللهم لبيك يخرج من لسان الإنسان مع الإحرام. والأدعيـة التـي تدعي في الطواف والسعي وعلى جبل الصفا وجبل المروة وفـي عرفـات والمزدلفة ومنى يكون الجزء الأكبر منها توبة واستغفار. ولما كان «التَّائِـبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ» [1] فإن كل الذنوب لأصحاب الحج المبرور تُكفر وكأن كل الذنوب يمكن أن تغفر بالتوبة دون تخصيص للكعبة أو لعرفـات، لكن مشاعر الحج وأماكنه وأركانه – بسبب تأثيراتها المتنوعة – تخلق فرصا عظيمة لصدق التوبة، إضافة إلى فوائد وبركات أخرى لا توجد فـي غيـر الحج. فللقدسية والعظمة اللتين لهذه الأماكن أثرها النفسي العميق فـي قلـب الإنسان؛ فتلك هي الأماكن التي نزلت فيها البركـات والرحمـات والأنـوار الإلهية على الأنبياء عليهم السلام. فتلك البيئة وذاك الجو وهذا المكان الـذي يتجمع فيه كل المذنبين ثم يقومون بالدعاء والتضرع والبكاء. وتلك المنـاظر والمشاهد الربانية التي تقع في كل خطوة حيث مرت وقائع عديدة لله ولحاجة عباده الصالحين. كل هذه فرصة عظيمة للدعاء ولتأثيره وقبوله. فهناك دعـا سيدنا آدم ﷺ وزوجه حواء أن يغفر الله لهما ذنبهما، وهنـاك دعـا سـيدنا إبراهيم ﷺ لزوجه وذريته، وهناك بحث سيدنا هود وسيدنا صالح عليهمـا السلام عن مأوى لهما بعد أن دعيا على قومهما بالهلاك، وهناك دعا الأنبياء الآخرون، وهناك وقف سيدنا محمد ﷺ ودعا لنفسه ولأمته. هذه الأماكن وهذه المشاهد وأركان الأدعية كم هي مناسبة وملائمة لدعاء مغفرتنا نحن معاشـر

---

[1] سنن ابن ماجة باب ذكر التوبة.وهذا نص الحديث: (٤٣٤٢) حدثنا أَحْمَدُ بْنُ سَـعِيدٍ الدَّارِمِيُّ. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِيُّ. حَدَّثَنَا وُهَيْبُ بْنُ خَالِد. حَدَّثَنَا مَعْمَرُ عَـنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «التَّائِبُ مِـنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ».(يوسف عامر).

العصاة. إن أقسى القلوب تكون مستعدة لأن تصبح لينة للغاية بسبب هذه الحالات والمشاهدات. ويرتوي الإنسان من هطول سحب المطر التي تظل تمطر بين الحين والآخر من العرش الإلهي على هذه الأرض المباركة.

ونفسية الإنسان وتجربته اليومية شاهدتين على أنه يبحث دائما عن أي منعطف أو حد فاصل في حياته؛ ليقوم بتغيير كبير ومهم في حياته؛ إذ تنقسم حياته إلى نصفين فاصلين، أحدهما سابق والآخر لاحق. لذا تنتظر الناس البرد أو الحر أو المطر للتغير. وكثير من الناس يتغير بعد الزواج أو بعد أن يرزق بأولاد أو بعد الانتهاء من التعليم، أو بعد الالتحاق بوظيفة ما، أو بعد أي نجاح ساحق، أو بعد أي رسالة أو سفرة معينة، أو بعد تقليد شيخ معين. أو على الأقل يصبحون قادرين على تغيير أنفسهم؛ لأن هذه الأحداث والقضايا المهمة تضع حدا فاصلا بين حياتهم السابقة واللاحقة، إذ يمكن التغيير والتحول هنا أو هناك. والحج في الحقيقة يقوم برسم حد فاصل بين حياة الإنسان السابقة واللاحقة. وييسر له الفرصة كي ينحني بحياته صوب الإصلاح والتغيير. فبالحج ينهي الإنسان حياته السابقة ويبدأ حياة جديدة؛ فندم الإنسان على معاصي حياته السابقة، واعترافه بذنوبه وإقراره بالطاعة والإنابة في المستقبل بعد مجيئه لهذه الأماكن المقدسة، والوقوف حيث وقف الأنبياء والصالحون، ووقوفه أمام البيت الحرام ومواجهته للكعبة التي هي قبلة صلواته وعقيدته ومناجاته، كل هذا يخلق أثراً يبدل حياته من الشر إلى الخير، ومن الخير إلى الأخير. فيُقفَل باب حياته السالفة ويُفتَح باب حياته اللاحقة. بل يجب القول إنه يولد من جديد للأعمال الجديدة، لذا قال أفضل المخلوقات سيدنا محمد ﷺ: «من حجَّ للّه فلمَ يَرفُثْ ولم يَفسُقْ رَجَع كيومِ

ولدَتْهُ أمُّه».[1] أي يبدأ حياة جديدة وعهدا جديدا تكون فيهما سعادة الدين والدنيا، ونجاح الدارين والفوز بهما هذه الفلسفة هي خلاصة تلك الآيات القرآنية التي وردت في شأن الحج، والتي ختمت بدعاء الطواف:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ (البقرة: ١٩٩ - ٢٠٢).

للحج فوائد أخلاقية أخرى مثل:

١. يستطيع الإنسان عن طريق الحج أن يشعر بكل مسئولياته؛ فالحج يفرض حين يتبقى مبلغ لنفقة الأهل والعيال. فالإنسان يخرج للحج حين يوفر لأهله وعياله احتياجاتهم. لذا يشعر تلقائياً بمسئولية نفقات العيال. والقرض يكون عبئًا على الإنسان، لذا يستطيع أن يحج ذاك الشخص غير المقترض أي الذي ليس عليه دين. ولهذا فإن الحج يؤثر تأثيرا قويا فى السلوكيات وشتى الأمور.

---

[1] يوجد هذا الحديث في كل كتب الصحاح إضافة لسنن أبي داوود كتاب الحج. (متفق عليه).وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور: (١٥٠٣) حدَّثنا آدَمُ حدَّثنا شعبةُ حدَّثنا سَيَّارٌ أبو الحَكمِ قال سمعتُ أبا حازمٍ قال سمعتُ أبا هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول «من حجَّ للّهِ فلمَ يَرفُثْ ولم يَفسُقْ رَجَع كيوم ولدَتْهُ أمُّه».(يوسف عامر).

يُخلق الإنسان وله أعداء كثيرون في الحياة، لكنه حين ينوي الذهاب إلى الحج فإنه يريد أن يبرئ ذمته، لذا يصفي قلبه من كل أنواع البغض والحسد حين يرحل، ويطلب من الناس العفو والسماح، ويؤدي دين المدينين. ومن هذا المنطلق نقول أن الحج وسيلة للإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والروحاني.

٢. الإسلام اليوم منتشر في كل بلد. لذا تعد لغة كل بلد لغة له. إلا أن له لغة شائعة وهي لغة هذا البلد الذي يفد ويذهب إليه مسلمو كل بلاد الدنيا. فيضطرون أحيانا للتكلم بها وتعلمها أثناء هذا السفر (سفر الحج) فيكون أثر هذا أن كل مسلم – أيا كانت لغته- يتعرف على بعض ألفاظ هذا البلد إن لم يكن يعرف اللغة بأكملها. وهذه حلقة وصل قوية للأخوة العالمية للإسلام.

٣. المساواة هي أساس الإسلام. وبالرغم من أن الصلاة تقيم هذه المساواة بطريقة محدودة. فإن هذه المساواة تظهر بنطاق أوسع وقت الحج؛ حين يقف الجميع من غنى وفقير وجاهل وعالم ومالك ومملوك في لباس واحد وشكل واحد وساحة واحدة أمام الله تعالى. فلا يوجد هناك تخصيص مكان لأحد، ولا قيد على أحد فى التقدم أو التأخر.

٤. الكسب الحلال هو أساس كثير من المميزات الأخلاقية. ولأن كل شخص يسعى لينفق مالاً حلالا في مصارف الحج؛ فإنه يتحتم عليه أن يفرق بين الحلال والحرام. والأثر الذي يمكن أن يكون لهذا الأمر فى الحالة الروحانية للإنسان واضح وبيِّن.

خلاصة القول هي أن الحج ليس ركناً من أركان الإسلام فحسب، بل إنه يضم جوانب أخلاقية واجتماعية واقتصادية وسياسية، أي يضم كل جوانب الحياة القومية والدينية وزواياهما، وهو أعلى منارة للمكانة العالمية لكل مسلم.

الجهاد

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ (الحج: ٧٨)

لا يأتي الجهاد بصفة عامة ضمن كتابات الفقهاء عن عبادات الإسلام بالرغم من أن فرضيته وأهميته في القرآن والسنة أكبر بكثير من العبادات والأحكام الفقهية الأخرى. لذا يجب أن يعطى لهذا الفرض مكانته، ويرفع نقاب الجهل الذي أُلقيَ على حقيقته.

ويُعْتَقدُ – عامة – أن الجهاد يعني الحرب والقتال، ولكن قصره على هذا المعني خطأً تماماً؛ فلفظ "الجهاد" مشتق من الفعل "جاهد"، الذي مصدره "جهاد" و"مجاهدة" اللذان على وزن فُعال ومفاعلة. والجهاد في اللغة يعني التعب والسعي. ومعناه الاصطلاحي قريب من هذا؛ إذ يعني إعلاء كلمة الحق، والنضال بكل ما يستطاع من قوة لنشره وحفظه، والتضحية والإيثار، وبذل كل القوى البدنية والمادية التي أعطاها الله لعباده في سبيل ذلك، حتى وإن ضحى الإنسان بنفسه وأهله وعياله وأسرته وقومه في سبيل هذا الفرض. وإحباط محاولات وجهودهم أعداء الحق. وإفساد مؤامراتهم والتصدي لحملاتهم والاستعداد التام لقتالهم إن اقتضت الضرورة ذلك. هذا هو الجهاد الذي هو أحد أركان الإسلام، وهو عبادة عظيمة للغاية.

وقد قصر المعارضون – للأسف – هذا المفهوم (المهم والضروري والواسع والذي لم تزدهر ولن تزدهر أية حركة في الدنيا بدونه) على قتال أعداء الدين فقط. وقد قيل مرارا إن الشريعة التي جاء بها سيدنا محمد (ﷺ) ليست نظرية أو فلسفة محضة، بل إنها عملٌ جاد. وليست النجاة في شريعته (ﷺ) موقوفة على العزلة والرهبانية والمشاهدة النظرية والتمعن والفكر

الفلسفي للإلهيات، بل إن النجاة فيها تتوقف على توحيد الله والإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والبعث والحشر، ثم عمل الخير والتسابق في الخيرات، لذا استعمل القرآن الكريم لفظ القعود ليقابل الجهاد. ويقصد بالقعود التكاسل والتغافل وترك عمل الواجب فقال تعالى في سورة النساء:

﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء ٩٥).

فبمقابلة الجهاد للقعود يتضح أن حقيقة الجهاد تنافي تماماً القعود والتكاسل والبحث عن الراحة. وهنا يجب إزالة سوء فهم، وهو اعتقاد أكثر الناس أن الجهاد والقتال بمعنى واحد، بالرغم من أن الأمر ليس كذلك؛ فقد استخدم اللفظان في القرآن الكريم مختلفين في المعنى. لذا فالجهاد في سبيل الله والقتال في سبيله لا يعنيان معنى واحد، بل في الاثنين إضافة عام وخاص. بمعنى أنه ليس كل الجهاد قتالا؛ إذ إن القتال ومحاربة الأعداء أحد أنواع الجهاد. ولهذا راعى القرآن الكريم دائما الفرق في استعمال اللفظين. وقد صرح في الآية السابقة من سورة النساء وفي آيات أخرى أن للجهاد نوعين واضحين أولهما جهاد بالنفس، والثاني جهاد بالمال. والجهاد بالنفس يعني تحمل كل أنواع المشقة البدنية من أجل حماية الحق، لدرجة أن يظل الإنسان مستعدا دوما لأن يلقي بنفسه في التهلكة أو لأن يحرق في النار، أو يعلق على مشنقة، أو يرمي بسهم أو رمح، أو يقتل بسيف. والجهاد بالمال هو الاستعداد للتضحية بالمال والثروة والأطيان من أجل نصرة الحق وإعلائه. فالحب الزائف للنفس والمال يكون عائقا في سبيل سعادة الفرد والأمة ورقيهما. فلو أزيح هذان الشيئان من أمامنا لأصبحنا موحدين توحيداً

كاملاً. ثم لن تستطيع أية قوة في الدنيا أن تعوق تقدمنا. هـذا هـو الأسـاس الحقيقي لكل رقي جسماني وروحاني ولا شيء سوى هذا.

ولم يُكشف سر الرقي والسعادة هذا إلا على رسولنا (ﷺ) فقط. ثم علّم النبي (ﷺ) هذا لأمته، فغُرست فيها عاطفة الجهاد، وتمنت بشغف نيل ثوابـه، وعليه واجه المسلمون كل أنواع المشاق في مكة لمدة ١٣ عاما، ولم تستطع حرارة الصحراء ولا ثقل الأحجار، ولا صعوبة السلاسل والأغلال، ولا شدة الجوع وقسوة العطش، ولا سن الرمح، ولا حـد السـيف، ولا البعـد عـن الأولاد، وترك المال والجاه، ولا الطرد مـن البيـت، ولا أي شـيء آخـر يزحزح قدم عزيمتهم، ثم اتضح للدنيا بالطريقة التي أمضوا بها عشر سـنين في المدينة المنورة تحت ظلال السيوف أن:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات ١٥).

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَـاتَلُوا وَقُتِلُـوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ﴾(آل عمران ١٩٥).

أنواع الجهاد:

١- الجهاد بالنفس:

حين يعني الجهاد السعي والتعب والكفاح، فيمكن أن يدخل ضمنه كل **عمل صالح. فأكبر الجهاد** عند علماء الروح هو جهاد النفس. ويـسمى هـذا **النوع من الجهاد** عندهم الجهاد الأكبر. فقد روي الخطيب في التـاريخ عـن **سيدنا جابر أن** النبي (ﷺ) بارك لأصحابه عودتهم من القتال، وأخبرهم بأنهم **رجعوا من** الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. أي جهـاد الـنفس. وتوجـد

روايات أخرى لهذا الحديث في كتب الحديث الأخرى.[1] فقد روي ابن بخار عن سيدنا أبي ذر أن النبي (ﷺ) أخبر بأن أفضل الجهاد أن يجاهد الإنسان نفسه وأهواءه.

وتوجد هذه الرواية في الديلمي بألفاظ تدل على أن أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وشهواتك لله.

وبالرغم أن هؤلاء الرواة الثلاثة ليسوا ثقة فإن هذه الأحاديث تؤيد بعض الأحاديث الصحيحة وكذلك الآية الكريمة: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت ٦٩).**

فقد حث الله سبحانه وتعالى المسلمين في كل هذه السورة على الثبات والشجاعة عند المصائب والشدائد لأجل الحق. وذكر مفاخر الأنبياء السابقين، وكيفية صبرهم على مصائبهم حتى قدر الله لهم النصر، ولأعدائهم الهلاك. فيقول في بداية السورة:

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾) العنكبوت ٦)

وقال تعالى في نهاية السورة **"والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا".** فهذا الجهاد هو سلمة النجاح ووسيلة الرقي الروحاني. وقال تعالى في سورة الحج: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الحج ٧٨).**

فالجهاد في الله هو الجهاد الأكبر الذي أسست وأقيمت عليه الملة الإبراهيمية، أي التضحية بالرفاهية والراحة والأهل والعيال والروح والمال

---

[1] نقلاً عن كنز العمال كتاب الجهاد جـ ٢، ص٢٨٥ حيدر آباد الدكن.

في سبيل الحق. ففي الترمذي والطبراني والحاكم وصحيح ابن حبان [1] أن رسول الله (ﷺ) قال لصحابته: «**المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ**» [2]

ورد في صحيح مسلم أن رسول الله (ﷺ) سأل أصحابه ذات مرة وقال:

«فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟». قالوا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. فقال النبي (ﷺ): «لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [3]

---

[1] المرجع السابق، كتاب الإيمان، جـ١، ص٣٩.

[2] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، باب ما جاء في فضل من مات مرابطًا، كتاب فضائل الجهاد: (١٦٢٣) حدثنا أحمدُ بنُ محمد أخبرنا عبدُ الله بنُ المبارَكِ أخبرنا حَيْوَةَ بنُ شُرَيْحٍ، قال أخبرني أبو هَانِيءٍ الْخَوْلاَنِيُّ أنَّ عَمْرو بنَ مَالك الْجَنْبِي أخْبَرَهُ أنَّهُ سَمِعَ فَضَالَةَ بنَ عُبَيْدٍ، يُحَدِّثُ عن رسولِ الله أنَّهُ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عَمَلِه إلاَّ الَّذي مَاتَ مُرَابِطاً في سبيلِ الله فإنَّهُ يُنْمي لَهُ عَمَلَهُ إلى يَوْمِ القيامَةِ ويَأْمَنُ من فِتْنَةِ الْقَبْرِ» وسَمِعْتُ رسولَ الله يقول: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ».

قال أبو عيسى وفي البابِ عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ وَجَابِرٍ.

حديثُ فَضَالَةَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

[3] صحيح مسلم باب من يملك نفسه عند الغضب جـ٢ ص٣٩٦ مصر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، كتاب البر والصلة والآداب: (٦٥٩٣) حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَاللَّفْظُ لِقُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ الأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟» قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لاَ يُولَدُ لَهُ. قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ. وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئاً» قَالَ: «فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟» قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. قَالَ «لَيْسَ بِذَلِكَ. وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».(يوسف عامر).

٢- الجهاد بالعلم:

الجهاد بالعلم هو أحد أنواع الجهاد. فكل شرور الحياة وفتنها ومفاسدها ما هي إلا نتيجة للجهل. ويجب على كل طالب للحق إبعادها. فإن كان عند الإنسان نور العقل والمعرفة والعلم والحكمة وجب عليه أن يفيد به غيره من أصحاب القلوب المظلمة. فالسكينة التي تتولد في قلوب الناس من قوة الدليل والبرهان لا يمكن أن تتولد من قوة السلاح لذا قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل ١٢٥).

فتبليغ الدين والدعوة إليه بطريقة عملية نوع من أنواع الجهاد كذلك. وتسمى طريقة الدعوة هذه "الجهاد بالقرآن"؛ فالقرآن نفسه دليل لنفسه وموعظة لنفسه ومناظرة لنفسه. لذا لا يحتاج العالم الحقيقي بالقرآن شيئا آخر خارج القرآن ليدلل على صدق القرآن. فقد أعطى رسول الله (ﷺ) سيف القرآن في يده؛ ليجاهد به جهادا روحانيا، أي ليقهر به جيوش الأمراض الروحانية، وأمر أن يدحض به شكوك الكفار والمنافقين وشبهاتهم **فقال تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كبيرا﴾ (الفرقان ٥٢).**

أي جاهدهم بالقرآن. وقد عدّ الله سبحانه وتعالى هذا الجهاد القرآني جهادا كبيرا وشديدا. ويفهم من هذا مدى أهمية الجهاد بالعلم في نظر القرآن. ولقد أحس العلماء أيضا بأهمية هذا النوع من الجهاد وعدوه أهم أنواع الجهاد. وقد بحث الإمام أبو بكر الرازي حول هذا الموضوع في كتابه أحكام القرآن فكتب: "أن الجهاد بالعلم أفضل بكثير من الجهاد بالنفس والجهاد بالمال"[1] فيجب على كل مسلم أن يعقل ويفهم ويتعلم ويتبصر؛ لحماية الحق ونصرة

---

[1] أحكام القرآن للرازي، قسطنطينية ج ٣ ص١١٩.

دين الله. وينفق ما تعلمه في هذا الطريق. ويتعلم كل العلوم التـــي يمكـــن أن تفيد في هذا المجال؛ حتى يؤدي بها فرض نشر الحق والدفاع عن الدين. هذا هو الجهاد بالعلم الذي يجب على العلماء.

٣- الجهاد بالمال:

المال والثروة اللذان أعطاهما الله سبحانه وتعالى الإنسان يـــستلزمان من الإنسان أن ينفقهما أيضاً لراحة نفسه وأهله، فكل عمل في الدنيا يحتـــاج إلى المال. لذا فحماية الحق ونصرته أيضا موقوفة في الغالب علـــى المـــال. لذلك لا تقلّ أهمية الجهاد بالمال أيضاً. فكبقية الحركات الاجتماعية الأخـــرى يحتاج الإسلام إلى المال والثروة في كل حركاته وأعماله. فتوفير هذا المـــال وهذه الثروة وإيثار المسلمين فيه على النفس هو جهاد بالمال. الجهاد بالمـــال هو ما قام به الصحابة الكرام في لحظات شدة الإسلام رغم فقرهم وعوزهم، ببركة صحبة الرسول (ﷺ) وتعليمه، وهذا في حقيقة الأمر عمل مضيء فـــي تاريخ الإسلام. فبمائهم أخضر وترعرع بستان الدين الحق على يد النبوة، لذا فلهؤلاء العظماء مكانة عظيمة جدا في الإسلام. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِـــي سَـــبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأنفال٧٢).

وتوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تنبه على الجهاد بالمال وتؤكده، بل يصعب ألا تجد ذكرًا للجهاد بالمال عند ذكر الجهاد. والأمر الملاحظ هو أن الجهاد بالمال مقدم في كل المواضع على الجهاد بـــالنفس، فمـــثلاً يقـــول تعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة ٤١).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات ١٥).

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (النساء ٩٥).

ولهذا التقديم أسباب وحكم عديدة هي:

إن الاشتراك الشخصي والجسماني في ساحة القتال ليس أمراً ميسرا لكل شخص أما المشاركة المادية فممكنه وميسرة.

لا يوجد هناك داعٍ للجهاد الجسدي، أي القتال في كل وقت، أما الحاجة للجهاد المادي فتكون كل وقت وحين.

إن حب المال يتغلب أحياناً على حب الإنسان لنفسه؛ وذلك بسبب الضعف الإنساني. يقول الشاعر: لو تطلب الروح فليس هناك مانع، ولوتطلب الذهب، فإن الكلام يكمن في هذا.

لذا فطن الإنسان لضعفه هذا بعد أن قدم المال على النفس.

٤ - إضافة إلى هذه الأنواع من الجهاد، فإن بذل الروح والمال وقوة العقل أيضاً في كل عمل خير وفي أداء كل فرض، يسمى جهادًا في الإسلام. وقد ذهبت (مجموعة من) النساء إلى رسول الله (ﷺ) (وقلن:) "يا رسول الله ائذن لنا بالمشاركة في جهاد الغزوات. فقال (ﷺ) " جهادكُنَّ الحجُّ"[(١)]

فتحمل مشاق السفر أثناء هذه السفرة المباركة جهاد لهذا الجنس الرقيق الضعيف، وأيضا جاء رجل من اليمن إلى رسول الله (ﷺ) وقال:

[(١)] صحيح البخاري كتاب الجهاد. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب جهاد النساء، كتاب الجهاد والسير: (٢٨١٠) حدَّثَنا محمدُ بن كثيرٍ أخبرَنا سفيانُ عن معاويةَ بنِ إسحاقَ عن عائشةَ بنتِ طلحةَ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها قالت: «استأْذَنْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في الجهادِ فقال: جهادكُنَّ الحجُّ».

وقال عبدُ اللهِ بنُ الوليدِ: حدَّثَنا سفيانُ عن معاويةَ بهذا.(يوسف عامر).

"يا رسول الله جئت لأشترك في أي غزوة فسأله رسـول الله (ﷺ) " ألَـكَ أبوَان؟" قال نعم قال صلى الله عليه وسلم " **فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ** "[١]

أي أن خدمة الأب والأم هي أيضا جهاد. كذلك الجرأة الجسارة في إظهار الحق وقت الخطر جهاد فقد قال النبي (ﷺ): «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَـةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(الترمذي أبواب الفتن).[٢]

٥ – ظهر من هذا أن الجهاد بالنفس يشمل كل هذه الأنواع التي تبذل فيهـا أي قوة بدنية من الإنسان. وأقصاها أن يضحي الإنسان بحياته في سـبيل الله غير مبال بالمخاطر. أيضاً لو تحتمت مواجهة أعداء الدين عنـد إصـرارهم على مخالفة الدين فإن التصدي لهم وقتالهم أو التضحية بالروح ستكون قمـة الجهاد بالنفس. ويكون جزاء أولئك الفدائيين الشجعان الذين ضحوا بأعز مـا عندهم في سبيل الله أن يظلوا أحياء عند ربهم يرزقون، فتبدل حياتهم الفانيـة إلى حياة أبدية خالدة. يقول تعالى:

---

[١] أبو داود والترمذي كتاب الجهاد. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبو داود،باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان، كتاب الجهاد: (٢٥٣٠) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ أَنْبأَنَـا سُفْيَانُ عن حَبِيبِ بن أبي ثَابتٍ عن أبي الْعَبَّاسِ عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو، قال: « جَـاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارَسُولَ الله أُجَاهِدُ؟ قال: أَلَكَ أَبَوَانِ؟ قال: نَعَمْ، قال: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: أَبُو العَبَّاسِ هٰذَا الشَّاعِرُ اسْمُهُ الـسَّائِبُ بـنُ فَرُّوخٍ.(يوسف عامر).

[٢] وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، باب أفضل الجهاد كلمة عـدل عنـد سلطان جائر، كتاب الفتن: (٢٢٠١) حَدَّثنا الْقَاسِمُ بنُ دِينَارٍ الْكُـوفِيُّ، أخبرنـا عبـدُ الرحمن بنُ مُصْعَبٍ أبو يَزِيدَ، أخبرنا إسرائيلُ عن محمدِ بنِ جُحَادَةَ عن عَطِيَّةَ عـن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ، أنَّ النبيَّ قال: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَـدْلٍ عِنْـدَ سُـلْطَانٍ جَائِرٍ».

قال أبو عيسَى: وفي البابِ عن أبي أُمَامَةَ.

وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الْوَجْهِ.(يوسف عامر).

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة ١٥٤).

وقد ذُكر جزاء أولئك الفدائيين في سورة آل عمران في قوله تعالى: «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» (آل عمران ١٦٩، ١٧٠).

ويطلق على هؤلاء الفدائيين في اصطلاح الشريعة شهداء. يقول الشاعر: لن يمت من يحيا قلبه بالعشق، فبه دوامنا ثابت على صحيفة العالم.

فشهداء طريق العشق والمحبة أحياء عند ربهم مخلدون، يبعثون يوم القيامة في ثيابهم المخضبة بالدماء [1] آخذين من تلك الحياة جزاء شهادتهم التي استشهدوها في الدنيا في سبيل الحق يقول الله تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (آل عمران ١٤٠).

ويكون معهم أيضا أولئك الفدائيون الذين نزلوا ساحة القتال واضعين رءوسهم على أكفهم. إلا أنه لم تقدر لهم الشهادة وقتها؛ لأن بطولة حياتهم الدنيا لم تكن قد انتهت. هؤلاء أيضا سيجدون رضا ربهم؛ جزاء نيتهم الحسنة. ولهذا يذكرهم عامة المسلمين بلقب "غزاة"؛ تكريما وتعظيما لهم. (يقول الله سبحانه):

﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾(النساء ٧٤).

«فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» (آل عمران ١٩٥).

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الجهاد.

وما قاله رسول الله (ﷺ) في شرح هذه الآيات وتفسيرها موجود في الأحاديث التي ذكر فيها بالتفصيل فضائل الشهداء ونعيمهم الأخروي. فلقد وثَّقت عقيدة الشهادة والجهاد روح التصدي للمشاكل وعدم الخوف من الأعداء. فهي العاطفة التي تُرغِّب المسلمين سريعا في التضحية بالنفس لأجل الدين. فيدنو كل مسلم متلهفا للبحث عن هذه الحياة الخالدة، وتلك هي المنزلة التي تمناها النبي (ﷺ) نفسه فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَى».[1] فتأمل قليلاً هذه الفقرات، لم يقل النبي (ﷺ) تمنيت أن أقتل الآخرين، وإنما قال تمنيت أن أُقتل في سبيل الله، ثم تُرد إليَّ الحياةُ فأُقتل ثانية، ثم ترد إليَّ الحياةُ فأستشهد ثالثة. يقول الشاعر:

فعلى خنجر التسليم فى كل زمان من غيب روح أخرى (حبيب آخر).

الجهاد الدائم:

ما سبق ذكره هو الجهاد الذي لا ييسر لكل مسلم، وإن تيسر له فلن يحدث إلا مرات قليلة جداً في العمر. أما الجهاد الدائم في سبيل الله فإنه يُيسر لكل مسلم في كل حين، لذا أمر النبي (ﷺ) بأنه يجب على كل فرد من أمته ﷺ أن يحمي الدين، ويرفع رايته، وينصر الحق ويساعد الفقراء والمحتاجين، ويهدي العاصين، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم العدل ويرد الظلم، وينشغل بتنفيذ أوامر الله، حتى تصبح كل حركة وسكنة من حياته

[1] صحيح مسلم كتاب الجهاد. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، كتاب الإمارة: (٤٨٢٠) وحدثنا ابْنُ أَبِي عُمَرَ. حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ» بِمِثْلِ حَدِيثِهِمْ. وَبِهَـذَا الإِسْنَادِ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ. ثُمَّ أُحْيَى» بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.(يوسف عامر)

جهاداً. وتبدو حياته كلها (حياةً) غير متناهية في الجهاد. فالآية الأخيرة مــن سورة آل عمران، والتي وردت فيها أحكام متوالية للجهاد، يقول فيها المولى عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ٢٠٠).**

هذا هو الجهاد الإسلامي الذي هو مفتاح نجاح المــسلمين وفــوزهم، وعلامة نصرهم وظفرهم.

العبادات القلبية

كان هذا هو بيان عبادات الإسلام التي يقال عنها إنها عبادات جسدية ومالية. وبالرغم من أن إخلاص القلب أيضا يشملها فإن للإسلام عبادات أخرى تتعلق في مجملها بالأحوال القلبية وبحالات النفس الداخلية. وقد علمنا أن كل عمل صالح عبادة، لهذا تدخل كل أمور الخير سواء أكانت بدنية أو مالية أو قلبية في زمرة العبادات. وقد اقتصر الفقهاء على العبادات الجسدية والمالية فقط. أما المتصوفون فقد جمعوا العبادات القلبية أيضاً مع العبادات الجسدية والمالية. والحقيقة أن الفقهاء قد حددوا وقصروا مسئوليتهم على الفرائض الجسدية والمالية. أما المتصوفة فقد شملوا كل هذه الفرائض التي أصبح الإسلام بها قلب الإنسان وروحه. والكتاب الذي أمامك الآن ليس كتاب فقه ولا كتاب تصوف، وإنما هدفه توضيح تلك الفرائض التي أكدها القرآن الكريم وبيّنها مرارا. فتتضح لنا أهميتها في الإسلام من خلال التأكيد والوصف.

بعض فرائض هذا النوع. والتي تظهر أهميتها ومكانتها في القرآن الكريم بعد العبادات الخمس. هي التقوى والإخلاص والتوكل والصبر والشكر. تلك هي الفرائض التي تتعلق بقلب الإنسان، لذا يمكن تسميتها بالعبادات القلبية التي هي روح الإسلام والجوهر الحقيقي لأعمالنا، والتي بتركها تصبح العبادات أو الأركان الخمس التي أكدها الإسلام كثيرا جسدا بلا روح. وبالرغم من أن هذا الأمر ليس محل ذكر هنا فإنه يمكن أن يذكر، فقد تم انفصال بين الفقه والتصوف كلٌ عن الآخر، مما جعل العبادات جافة بلا روح من ناحية، ومن ناحية أخرى جعل أعمال التصوف مطلقة بلا قيد.

ومن أجل القيام بكل عمل حسن، يجب اجتناب كل عمل سيئ، ويجب أن يتيقظ الضمير ويكون في القلب نبض لتمييز الخير من الشر، وهذه هي التقوى. ثم يجب أن يُنَقَّى هذا العمل من كل غرض وغاية عدا رضا الله. وهذا هو الإخلاص. ثم يظل هناك اعتماد على الله وحده عند القيام بالعمل وهذا هو التوكل. ولو اعترى هذا العمل صعوبات وموانع أو لم تكن النتيجة فيه غير المرجوة فانضبط القلب، ولم ينقطع الأمل بالله، ولم تكن الإشارة هناك إساءة إلى من أراد الضر بنا. فهذا هو الصبر. ولو حلت النعمة وعدّها الإنسان من فضل الله وكرمه بدلا من الاغترار بها، وتقرب جراء ذلك بالجسم والروح واللسان إلى الله، وانشغل بالقيام بهذا النوع من الأعمال، فهذا هو الشكر. ويرد في السطور الآتية تفصيل هذا الإجمال.

التقوى

التقوى هي هدف كل الأوامر الإسلامية:

لو أردنا أن نلخص كل تعليمات النبي (ﷺ) في لفظ واحد، للخصناه في لفظ "التقوى"، لأن هدف كل تعاليم الإسلام هو خلق روح هذه التقوى في قالب كل أعماله. فقد أعلن القرآن الكريم في ثاني سورة أنه يمكن أن يستفيد المتقون من تعليمه يقول الله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة ٢).

فتحصيل هذه التقوى هو هدف كل العبادات في الإسلام. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة ٢١).

وهي أيضاً هدف الحج. فيقول سبحانه:

﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (الحج ٣٢).

وتكون الأضحية أيضا لهذا الهدف. يقول تعالى:

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ (الحج ٣٧).

والمكان الذي يسجد الإنسان فيه يجب أن يؤسس على التقوى أيـــضاً. يقول الله تعالى :

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ (التوبة ١٠٩).

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ (التوبة ١٠٨).

إن التقوى هي أفضل زاد في سفر الحج، وفي الحياة، وهي أحسن من المال والثروة والمتاع. يقول تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة ١٩٧).

والتقوى هي أفضل لباس لنا (وَلِبَاسُ التَّقْــوَى ذَلِــكَ خَيْــرٌ) التكــافؤ الأخلاقي للإسلام يقوم بأكمله على أساس هذه التقوى أيضاً:

﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (البقرة ٢٣٧).

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة ٨).

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران ١٨٦).

﴿وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (البقرة ٢٢٤).

﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء ١٢٨).

أهل التقوى أهل لكل النعم الأخروية:

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (الدخان ٥١).

﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ (الطور ١٧).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الذاريات ٤٥).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (القمر ٥٤).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (المرسلات ٤١).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (ن ٣٤).
﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ (النبأ ٣١).
﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص ٤٩).

الفوز للمتقين:

إن المتقين قد تعرضوا في الظاهر لكثير من المصائب والشدائد، وحرموا من كثير من الأشياء المحرمة والمشبوهة التي في ظاهرها أشياء شيقة بهيجة، واضطروا إلى الابتعاد عن كثير من المحاولات المحرمة والطرق غير المشروعة للنجاح الظاهري، ويعتقد من هذا أنهم ظلوا محرومين من المال والثروة والعزة والشهرة والجاه والسلطان، لكن قصار النظر في الدنيا يعدون النجاح الفوري والعاجل نجاحا. ويعتقدون أنه يجب الحكم بحسن نتائج الأعمال أو سوئها على أساس النتائج الظاهرية لهذه الدنيا، رغم أن الكيس بعيد النظر لا يركز على النتيجة الفورية لعمله بقدر ما يركز على النتيجة الأخروية. فبعيدو النظر والبصيرون بالعواقب هم الذين يصدرون الحكم بحسن العمل أو سوئه على أساس الفائدة الخالدة والدائمة في الآخرة، وليس على أساس الفائدة الفورية المحدودة في الدنيا. وحين يرتكز نظرهم على فوائد الآخرة فإنهم يملكون الدنيا أيضا. وييسر لهم الفوز في الدارين. لذا قال تعالى:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف ١٢٨).
﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩).
﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف ٣٥).
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه ١٣٢).

المتقون هم أحباء الله:

أولئك المتقون هم أحباء الله وأولياؤه. فحين يبتغون من العمل مرضاة الله ومحبته ولا يريدون من أي إنسان جزاء ولا شكورا نتيجة ما قدموه، فإن الله تعالى يجزيهم عن ذلك جزاء من عنده. ويكون أثر هذا أن تتولد في العباد محبتهم والثقة فيهم وعزتهم. يقول الله تعالى:

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ (الأنفال ٣٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٤).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران ٧٦).

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الجاثية ١٩).

المتقون مُشرّفون بمعية الله:

يتميز هؤلاء الناس بحصولهم على شرف معية الله ويسعدون بنصره لهم. ومن كان الله معه فمن ذا الذي يخذله. يقول الله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٣٦).**

يتقبل الله من المتقين:

يمكن أن يُبْذل العمل لكثير من الأهداف والمقاصد. لكن الله تعالى يتقبل من بين كل هذه الأعمال أعمال المتقين، لذا يقول سبحانه: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** (المائدة ٢٧).

لهذا السبب ييسر لأعمال المتقين البقاء والدوام والعزة في الدنيا والآخرة.

من هم المتقون ؟

بعد أن عرفنا أن التقوى هي الهدف الحقيقي لتعليم الإســلام، وأنهــا روح كل التعاليم الإسلامية، وأن نعم الله في الدارين تكون للمتقين، علينــا أن نعرف من هم المتقون. وقد أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال. فقد وردت الإجابة المختصرة على هذا السؤال في سورة الزمر في الآية الآتية، إذ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَــشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر ٣٣،٣٤).

فالمتقي هو الذي جاء بالصدق في كل نواحي حياته وأعمالها. وبعــد أن صدق بهذا الصدق الأبدي لا يبتغي من وراء أي عمل الفائدة الظاهريــة ولا الثمرة الفورية ولا المال ولا الجاه ولا الثروة بل يركز على كل جوانــب الصدق، حتى وإن أصابه ضرر ظاهري فإنه لا يحيد ولا يتخلى عن الصدق والحق. أما الوصف الكامل للمتقين فقد ورد في سورة البقرة في قوله تعالى: « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَــى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ الــسَّبِيلِ وَالــسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَــاةَ وَالْمُوفُــونَ بِعَهْــدِهِمْ إِذَا عَاهَــدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِــكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » (البقرة ١٧٧).

لم تُبيّن هذه الآيات الوصف العام للمتقين فحسب، بــل أبــرزت كــل الخصائص واحدة تلو الأخرى. ثم قيل أن هؤلاء هم الصادقون والمتقون عند الله تعالى.

ما هي حقيقة التقوى:

التقوى أصلها وقوى وتعني في اللغة العربية من حيث اللغة الاجتناب والبعد والمراعاة، لكنها تعني في اصطلاح الوحي المحمــدي كيفيــة القلــب

وحالته اللتين تولدان اليقين بأن الله تعالى موجود ومطلع دائما. وتولد في القلب حاسة تمييز الخير من الشر وحب الخير وبغض الشر. ويمكن أن نقول بعبارة أخرى أن التقوى اسم لإحساس الضمير الذي على أساسه تتولد عند كل عمل الرغبة الشديدة في القيام به طبقًا لأوامر الله. والنفور الشديد من مخالفة أمر الله تعالى فيه. والقول بأن التقوى في الحقيقة هي اسم لحالة القلب قد وضح من هذه الآية الكريمة التي جاءت في بيان أركان الحج، والتي يقول فيها المولى سبحانه:

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج ٣٢).

فقد وضح من هذه الآية أن التقوى تتعلق – أصلاً – بالقلب. وأنها تحوي بداخلها حالة إيجابية بدلا من السلبية. وتولد في القلب دعوة لأمور الخير، وتعمره بتعظيم شعائر الله. ويقول تعالى في آية أخرى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات ٣).**

ففي هذه الآية أيضا عُدّ القلب مركزاً للتقوى؛ لأن الله سبحانه بيّن أن الإحساس بتعظيم رسول الله يتولد من التقوى. وأشار سبحانه تعالى في آية أخرى إلى كون التقوى إلهامًا فطريًا فقال سبحانه: **﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس ٨).**

وواضح أن الفجور هو أساس الذنب والمعصية، وأن التقوى هي أصل كل الصالحات. وأن الاثنين قد أودعا في الإنسان. والإنسان بعمله يختار واحدة، ويترك الأخرى وعلى كل حال فإن كلا من التقوى والفجور إلهام رباني. ومعلوم للجميع أن القلب هو مركز الإلهام الرباني. وعلى هذا يكون القلب محل التقوى.

وكما أن لفظ التقوى يطلق على هذه الحالة القلبية، فإنه يطلق أيضا على أثر هذه الحالة ونتيجتها أيضا. فقد سلم الصحابة رضوان الله عليهم

بصلح الحديبية رغم مقدرتهم الكاملة على تهييج الكفار واستثارتهم والنيل منهم لذا عدّ الله سبحانه وتعالى عملهم الطيب هذا تقوى، فقال سبحانه: « **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** » **(الفتح ٢٦)**.

فقد عبر بالتقوى هنا عن البعد عن الحرب والقتال، واحترام آداب الكعبة، والتغاضي عن العصبية الجاهلية لكفار قريش. وفي آية كريمة أخرى أطلق على الموفين بالعهد مع الأعداء والمتجنبين الحرب بقدر الإمكان، مُسمى "المتقين"، كما أعلن الله تعالى حبه لهم. يقول الله تعالى: ﴿**فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (التوبة ٤).

وكما يزيد فجور الإنسان وفحشه وصحبته السيئة وأعماله السيئة بالتكرار، ينمو- أيضًا- حب عمل الخير بتكرار أعمال الخير والتشوق إليها، ثم يكثر هذا الحب في القلب وينمو. يقول تعالى:

﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ **(محمد ١٧)**.

وضح من هذا أن التقوى حالة إيجابية وصالحة يودعها الله سبحانه وتعالى في العبد، فيكون أثرها أن تزيده هداية على هداه، وتقوى على تقواه.

وحقيقة أن التقوى اسم لحالة قلبية خاصة تتضح من حديث صحيح قال فيه رسول الله (ﷺ) في جمع من أصحابه: "**التقوى ها هنا**"[١] مشيرا إلى قلبه. (صحيح مسلم).

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم: (٦٤٩٣) حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب. حَدَّثَنَا دَاوُدُ يَعْنِي ابْنَ قَيْسٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ. «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا، عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ.

فيتضح من هذا تماما وبلا أدنى شك أن التقوى اسم لأطيــر حــالات القلب وأسمناها، وهى محرك كل الصالحات وقوة الدين وروح **الإيمان أيضاً**. لذا عُدّت هدف إرشاد القرآن الكريم وتوجيهه، ومقصد **كل العبادات الربانية، ونتيجة كل التعاليم الأخلاقية**.

معيار المفاضلة في الإسلام:

إن أثر الأهمية التي تحققت للتقوى في الإســلام هــو، **أن التوجيــه** المحمدي قد محى النسل واللون والوطن والعائلة والحسب والنسب، **أى أنه قد** محي كل مراتب المفاضلة، وعُدّ شيئا واحدًا فقط معيار المفاضلة وأساســها ذلك الشيء هو التقوى، التي هي روح كل الصالحات، **لذا استحقت أن تكون معيار للمفاضلة، ولذا أعلن القرآن الكريم بصوت عال هذا الأمر، حيث يقول** الله سبحانه وتعالى: ﴿**جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنــدَ اللَّــهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ **(الحجرات ١٣)**.

وقد اختصر رسول الله هذا الإعلان في كلمتين هما **"الكرم التقــوى"**، وقال على الملأ في حجة الوداع إنه: "لا فضل لعربــي علــى أعجمــي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى" (١)

التَّقْوَىٰ هٰهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». **(يوسف عامر)**.

(١) وهذا نص الحديث كما ورد في مسند أحمد: (٢٣١٠٥) حدثنا عبد الله حــدَّثني أبــي حدثنا إسماعيل حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة حدَّثني من سمع خطبة رســول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها النــاس، ألا إن ربكــم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّــغ رســول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أيُّ شهر هــذا؟

الإخلاص

«مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (الأعراف: ٢٩)

من أكبر سمات الدين أنه يخاطب قلب الإنسان. وترتبط كل أعماله بمضغة اللحم هذه. ويظل نظره مركزًا على هذه المرآة في كل جوانب أعماله البشرية، سواء أكانت عقائد أو عبادات أو أخلاق أو معاملات. وقد أوضح النبي (ﷺ) هذه الحقيقة في الحديث الشهير الذي قال فيه: **«ألا وإنَّ في الجَسَد مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كله، ألا وهِيَ القَلْبُ»** (١)

فالقلب هو أساس أعمال الإنسان الصالحة والطالحة، لذا يقوم كل أساس الدين على هذا الأساس. ومن تعاليم الإسلام أن العمل الصالح الذي يُبذل يجب ألا يكون الهدف أو الغرض منه دنيوي. وألا يكون الرياء

قالوا: شهر حرام، قال: ثم قال: أيُّ بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم، ـ قال: ولا أدري قال: أو أعراضكم أم لا ـ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب». (يوسف عامر).

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه، وصحيح مسلم باب أخذ الحلال وترك الشبهات. وهذا نصه فى البخاري: (٥٢) حدَّثنا أبو نُعَيم حدَّثنا زَكريَّاءُ عن عامرٍ قال: سمعتُ النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقىٰ المُشَبَّهاتِ استَبْرَأ لدِينِه وعِرْضِه، ومَنْ وقَعَ في الشُّبُهاتِ: كراعٍ يَرْعَى حَولَ الحِمىٰ يُوشِكُ أنْ يُواقِعَه. ألا وإنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمى، ألا إنَّ حِمَى اللهِ في أرضِه مَحارِمُه. ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كله. ألا وهِيَ القَلْبُ» (يوسف عامر).

السمعة هما المقصودان منه، ولا جلب منفعة أو طلب شهرة أو طلب عوض عنه، بل يجب أن يكون المقصود منه تلبية أمر الله وتنفيذه. وهذا ما سمي بالإخلاص. الذي أُمر به رسول الله (ﷺ) في قوله تعالى: **﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ *أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر ٢، ٣)**.

المقصود ألا يشرك مع الله تعالى شيئا آخر غير الطاعة، سواء أكان هذا الشيء حجرا أو صنما أو أي مخلوق أرضي أو سماوي، أو أي هوى قلبي، لهذا عد القرآن الكريم الهدف والغاية النفسية للأعمال البشرية وثنية فقال تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾** (الفرقان ٤٣). لذا فأهم تعليم للإسلام هو أن عمل الإنسان يجب أن يخلو من أية وثنية ظاهرة أو باطنة، وهذا ما يأمر به رسول الله (ﷺ) ويقول: « **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** » (الزمر ١١، ١٥).

وقد ورد قول الله تعالى**﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** سبع مرات في القرآن الكريم، فوضح أن أول ركن لكل عبادة وعمل هو أن يكون العمل والعبادة خالصين لله تعالى. أي أن يكون مجردا تماما من أية وثنية ظاهرة أو باطنة، ومجردا أيضا من الهوى البشري: **﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ (الليل ٢٠)**. أي لا يقصد به غير ابتغاء وجه الله، وقد أعلن الأنبياء عليهم السلام دوما في دعوتهم وتبليغهم أن ما يفعلونه لا يريدون عليه أي أجر، ولا يبغون من ورائه أي هدف دنيوي: **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠)**. فهذا ما قاله سيدنا نوح: **﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ (هود ٢٩)**.

وأمر الله تعالى رسولنا محمد (ﷺ) أيضا أن يقول "لا أسألكم عليه أجرا" وإن أسألكم فسأسألكم من أجلكم أنتم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ ٤٧). أي لا أبغي من سعيي غير الله. وقال في آية أخرى: **﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى ٢٣)**. أي أن رسول الله (ﷺ) لا يريد أي منفعة دنيوية جزاء الفوائد الدينية والدنيوية التي أفادها أمته بسعيه الخالص لوجه الله. وإن أراد شيئاً من سعيه فسيكون ذلك الشيء هو المودة في القربى والحب المتبادل. وقد أوضح هذا الأمر في آية أخرى هي: **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان ٥٧)**. أي أن أجر سعيي هو أن يقبل بعضكم الحق.

والإخلاص هو أساس النجاح في الدنيا أيضا. فإن قام شخص بعمل صالح للغاية في الظاهر، ثم بان أن هدفه منه كان شخصيا أو لرياء أو سمعة، فإن قمية هذا العمل ستقل فوراً في الأنظار. كما أن العمل الذي عُمل لآخر مع الله لا يُقبَل عند الله، ولا تكون له أية قيمة. والمقصود من هذا هو أنه يجب أن يكون كل عمل صالح أسمى من طلب أي فائدة دنيوية، أو أجر أو شكرٍ أو شهرة. فإن أُدي عوض الشكر أو الشهرة، فإن الأمر سيكون مختلفا. كما أن الدنيا أيضا تعطي أولئك المتيقنين لأنهم أدوا عملهم متمسكين بهذه الضوابط، وبهذا الإخلاص.

أما الأعمال التي نقوم بها فيكون لها شكلان، الأول مادي وهو الذي يصدر من نبض الأعضاء الجسدية الظاهرة. والثاني معنوي وهو الذي يترتب على نيتنا وإرادتنا وهدفنا وقصدنا الداخلي من العمل. ويتوقف بقاء العمل وبركته في الدين والدنيا على أساس قوة أو ضعف وحسن أوسوء الإرادة. وكل تاريخ الأعمال البشرية يؤيد صدق هذه الدعوى. لذا فإنه لا عبادة في الإسلام بدون الإخلاص. ولا تصل الأخلاق والمعاملات لدرجة

العبادة بدونه أيضا. لذا يجب علينا عند بداية القيام بكل عمل أن نرفع أنفسنا عن أي هدف أو غرض يخلو من الإخلاص، وأن نتخلص من أي هدف أو جزاء دنيوي. وقد وردت قصة ولديّ آدم قابيل وهابيل في التوراة والقرآن الكريم، فقد قدم الاثنان قربانا لله تعالى، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. فأظهر الآخر سبب هذا وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة ٢٧)**.

فيكون حال المتقين الذين يعملون العمل بإخلاص ابتغاء وجه الله أن تكون أعمالهم خالصة ويكتب لهم الفوز والفلاح في الدين والدنيا، ويفوزون بحب الله، ويجدون كل تقدير في الحياة، وتقدر لأعمالهم الشهرة، ويكتب لها الدوام. فيكونون ذوي فضل على الجماعات والشعوب. ويستفيد الناس جيلاً بعد الآخر من أعمالهم فيدعون لهم بالمغفرة. ولم يكن هناك أي فارق بين النبي والساحر في عهد سيدنا موسى؛ فقد شاهد الناس من الاثنين العجائب والغرائب. فقال الله تعالى إنه لا فرق ظاهريًا بين عجائب الاثنين وغرائبهما، بل إن الفرق باطني؛ لأن هدف أحدهما مجرد التظاهر واللعب، وهدف الثاني القيام بثورة في الحياة الأخلاقية والروحانية للأمة كلها. لذا كان الحكم أنه: **﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾**

لذا وكما رأت الدنيا، أصبحت أعجوبة سحرة مصر مجرد قصة فقط أما عجائب سيدنا موسى أو معجزاته فقد خلقت أمة جديدة وشريعة جديدة وحياة جديدة وسلطنة جديدة ظلت قائمة في الدنيا حتى أمد بعيد.

المقصود من هذا أن الشكل الحقيقي للعمل يجب أن يعد في مصنع القلب. لذا يجب أن تستعرض نية القلب قبل أي عمل. فبعد فهم هذه القضية جيدا يتضح لنا تلقائيا أن الإسلام قد اعتبر الإرادة والنية شيئين ضروريين لكي تصبح كل العبادات صحيحة.

التوكل

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

التوكل هو أهم لفظ في لغة القرآن الكريم. ويعتقد عامة الناس أن معناه التواكل وعدم السعي أو التقاعد بل والجلوس مكتوفي الأيدي في أي صومعة أو حجرة. ويعتقدون أن الله سيفعل ما عليهم أن يفعلوه هم، أي ما قدر سيكون، لذا لا حاجة للأسباب أو التدابير. لكن هذا كله وهم. وفلسفة ترضي أهواء الكسالى من أهل الدين، الذين لا يمتون إلى الإسلام بصلة.

والمعنى اللفظي للتوكل هو الاعتماد، والمعنى الاصطلاحي هو التوكل على الله. لكن في أي أمر يكون الاعتماد؟ وفي القيام بأي عمل أم في تركه؟. لقد سمى الكذابون من المتصوفة ترك العمل والتخلي عن الوسائل والتدابير والتقاعس والاعتماد على الغير توكلا. رغم أن التوكل يعني القيام بالعمل بكل إرادة وعزم وتدبير وسعي، مع اليقين: أنه لو كان في هذا العمل خير فمؤكد أن الله تعالى سيوفقه فيه. ولو كان ترك التدبير والسعي والكفاح توكلاً لما أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لتفهيم الناس، ولما أكد لهم السعي والاجتهاد في تبليغ رسالاتهم. ولا أمر بالتضحية بالروح والمال في هذا السبيل، ولما كانت هناك حاجة للخيالة ولا للرماة ولا للدروع ولا للمبارزة في بدر وأحد والخندق وحنين، ولا احتاج الرسول (ﷺ) للذهاب لكل قبيلة لإبلاغها دعوة الحق. إذن فالتوكل هو أهم سر لنجاح المسلمين. لذا أمر الله تعالى في القرآن الكريم بالشورى، إذ يقول جل شأنه: « **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** » (آل عمران: ١٥٩). ثم بعد المشاورة والاستقرار على أمر محدد اعزم على القيام به. وبعد العزم ابدأ العمل بكل استعداد وقوة وتوكل على الله؛ لأنه سيجعل نتيجة عملك على

قدر سعيك. فإن لم تكن النتيجة كما ينبغي فـافهم أن هـذه هـي حكمـة الله ومشيئته فلا تيأس. وحين تكون النتيجة هي النتيجة المرجوة فلا تغتـر بـأن هذه النتيجة هي ثمرة تدبيرك وسعيك، بل افهم أن هـذا فـضل الله وكرمـه عليك، وأنه هو الذي وفقك لهذا. يقول تعـالى فـي سـورة آل عمـران: « **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه إِنَّ اللَّهَ يُحِـبُّ المُتَـوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ» (آل عمران ١٥٩، ١٦٠).**

لقد أوضحت هذه الآيات الحقيقة والأهمية الكاملتين للتوكـل، وعليـه فالتوكل لا يعني التواكل أو ترك العمل، بل إن التوكل هو القيام بالعمل بكـل عزم وإرادة واستعداد، ثم ترك النتيجة على الله. ووعي بأن الله تعالى ناصر لنا ولن يستطيع أحد أن يخذلنا. أما إذا خذلنا الله فمن ذا الذي ينـصرنا مـن بعده. لذا يجب على كل مؤمن أن يتوكل على الله في عمله.

ولما كان المنافقون يتآمرون ويكيدون للإسلام والمـسلمين أمرنـا الله تعالى أن نعرض عنهم ونتوكل عليه، وهو سيقوم بأعمالنـا. يقـول تعـالى: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء ٨١).**

وفي بداية الإسلام حين أمر الله تعالى النبي (ﷺ) بالجهر بالدعوة بعـد أن ظلت الدعوة خفية سرية لمدة ثلاث عشرة سنة، علَّم النبي (ﷺ) أيضا عدم الخوف من كثرة المخالفين وبأس الأعداء فقيل له لا تبال بتلك المـصاعب، وتوكل على الله وابدأ العمل. « **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْـرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِـضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَـرِيءٌ مِّمَّـا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِـينَ تَقُـومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ » (الشعراء ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩).**

وكان النبي (ﷺ) – رغم أنه وسط الأعـداء – يتـيقظ لـيلا ويتفقـد المسلمين العابدين. فكانت هذه الجرأة وهذه الجسارة نتيجة لتوكله (ﷺ). وقـد

علم المسلمون أيضا التوكل والاعتماد على الله في المصائب. وحين أمر النبي (ﷺ) بعدم المبالاة بالمساعي العدائية للمنافقين والكفار في الأحزاب، والاستمرار في العمل أُمر أيضا بهذا التوكل فقيل له: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** » **(الأحزاب ١، ٣)**.

ويقول بعد التعرض لحربٍ وقتالٍ دائمين مع الكفار: إن جنح هؤلاء الناس للسلم فاجنح لها وصالحهم، ولا تعتقد أن هؤلاء الخائنين سيخدعونك. وتوكل على الله فإنه سيحبط كيدهم: «**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** » **(الأنفال ٦١، ٦٢)**.

ويأمرهم أيضاً بعدم الخوف من اليهود الذين كانوا يغترون بثروتهم وعلمهم، ويأمرهم كذلك وبالتوكل على الله والوقوف بجانب المسلمين ويقول: « **إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ** » **(النمل ٧٦، ٧٩)**.

ويأمر أيضا بالاعتماد والتوكل على الله في مشاكل الدعوة وتبليغ الإسلام، لأنه القوة التي لا تنفد وهو الحياة التي لا تفنى فقال:

« **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ** ». **(الفرقان ٥٦، ٥٧، ٥٨)**.

ويقول للرسول (ﷺ) استمر في عملك، ولا تبال بالأعداء، وتوكل على الله الذي ليس لسواه أي اختيار: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ (التوبة ١٢٩)**.

لذا يجب أن يكون الحكم في أي اختلاف بينكم لله رب العـــالمين، وأن تتوكلوا عليه وقت الاختلاف أيضاً. ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَـى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (**الشورى ١٠**).

ويأمر الرسول (ﷺ) أن يتلو على قومه الجهلاء آيات الله، ثم يطمئنــه ويقول له: لا تبال بكفرهم وعصيانهم وتوكل على الله الذي سيوفقك: « **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُـمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْـتُ وَإِلَيْـهِ مَتَـابِ** » (**الرعد ٣٠**).

فيجب على المسلم أن يتوكل دائما على رحمة الله وكرمه. ولا يبـالي بمضايقات الضالين بعد أن يؤدي فرض إرشادهم، ويجب على الكفار سـماع هذه الآية: ﴿**قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُـوَ فِـي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ (**الملك ٢٩**).

وكما أُمر رسولنا (ﷺ) خاصة والمسلمون عامة بالتوكل على الله فـي كل المصائب والمكايد والشدائد، أمر الأنبياء السابقين بذلك. بـل إن أولـي العزم من الرسل قد ظلوا يحضون على ذلك بلسانهم وبفعلهم؛ فـسيدنا نـوح ظل سنينا طوالا بمفرده بين الكفار، وقال لهم بكل عزيمة وتوكـل: « **وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَـامِي وَتَـذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُـمَّ لاَ يَكُـنْ أَمْـرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ**» (**يونس ٧١**).

فتأمل كيف يظهر سيدنا نوح – بعظمة النبـوة – لأعدائــه اعتمــاده وتوكله على الله بكل قوة وعزيمة في مقابلته كل مكرهم وتآمرهم وقتالهم.

ويقول سيدنا هود عليه السلام مجيباً قومه حين كانوا يخيفونه من قهر آلهتهم وبطشها: «.... **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّـا تُـشْرِكُونَ**

(٥٤) من دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّـهِ رَبِّي وَرَبِّكُم...» (هود ٥٤، ٥٥، ٥٦).

ويقول سيدنا شعيب عليه السلام لقومه: إني لا أبالي بعداوتكم لي إن عليّ إلا الإصلاح واتكالي على الله:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود ٨٨).

وبعد قص واقعات قوة هؤلاء الأنبياء وصبرهم وتوكلهم يُطمئن الله تعالى رسوله، ويأمره بالتوكل عليه سبحانه فيما يواجهه من مشاكل، كما توكل عليه عز وجل كل الأنبياء من قبل: « وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (هود ١٢١ -١٢٣).

ويقدم للمسلمين مثل سيدنا إبراهيم وأتباعه في توكلهم على الله وحده، وتركهم كل أحبائهم وأقاربهم، وعدم مبالاتهم بصداقة أي أحد أو حبه في سبيل الله فيقول تعالى: « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ من شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» (الممتحنة ٤).

ويرسل سيدنا يعقوب عليه السلام أبناءه الأعزاء عليه إلى مصر، ويخشى عليهم من فرط محبته لهم أن تصيبهم مصيبة كما أصابت يوسف عليه السلام، فيقول لهم: يا بني لا تدخلوا من باب واحد للمدينة، بل ادخلوا من أبواب متفرقة. لكن يخطر بباله بعد هذا التدبير الظاهري أن الله وحده هو المدبر. وإن هذه التدابير لا تمنع أمر الله. لذا يقول لهم: توكلوا على الله لا

على التدابير: « وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (يوسف ٦٧).

فقد وضح من عمل سيدنا يعقوب عليه السلام أن التدبير الظاهري لا يتنافي مع حقيقة التوكل.

ويحاول قوم سيدنا شعيب عليه السلام أن يجبروه على أن يعود في ملتهم حين دعاهم. وقالوا له إنهم سيطردونه من بيته إن لم يفعل ذلك. لكنه يجيبهم بكل ثبات قائلاً: « قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» (الأعراف ٨٩).

وعلم سيدنا موسى بني إسرائيل التوكل على الله في مقابلة جيوش فرعون الجرارة وقوتهم الجبارة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس ٨٤).

فأجابه قومه بجرأة إيمانية كاملة قائلين:

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس ٨٥).

والتوفيق الذي وهبه الله تعالى لكل تدابير بني إسرائيل بعد ذلك والعزة التي خصهم بها لا تخفى على أحد. وقد كان هذا كله نتيجة توكلهم على الله، لذا أوضح الله سبحانه وتعالى هذا المبدأ في القرآن الكريم وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق ٣).

هذه الآية الكريمة نزلت في شأن القضايا الاجتماعية والعائلية. فلو استحالت العشرة بين الرجل وزوجه، وتحتم الطلاق، فلا يجب على المرأة أن تخشى الرزق. يقول الشاعر:

فالله قائد أرباب التوكل

فقد اطلعنا على كل الآيات القرآنية المتعلقة بالتوكل، لو تمعناها آيـة آية لوجدنا أن معنى كل آية منها هو عدم الخوف من كثرة المـشاكل ومـن زيادة العوائق والمكايد. وأن ننشغل في أعمالنا بعزم وقوة وثبات طالبين من الله تعالى العون، متيقنين تمام اليقين أن النتيجة تكون مطابقة للعمل.

وورد في الأحاديث أن أعرابياً ركب ناقته وجاء إلى النبي (ﷺ) وسأله قائلاً يَا رَسولَ الله: أَعقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قالَ أعقلها وَتَوَكَلْ» [1]

وقد أدى مولانا جلال الدين الرومي نفس المعنى في مـصرعه هـذا "اربط الناقة وتوكل". [2] وبالرغم من أن هذه الرواية ليست قوية من حيـث سندها. فإن مفهومها – في ضوء الحقيقة – يطابق تمامًا مبدأ القرآن.

وهناك من الناس من يعتقد أن التعاويذ والرقى غير الشرعي والسحر والشعوذة توكلا، ويعتقدون أن تحقيق الوسائل والتدابير المادية عـن طريـق هذه الأشياء يعد توكلا. وهكذا كان يعتقد المتوهمون في الجاهليـة أيـضاً.[3]

---

[1] ورد هذا الحديث بلفظ "أعقلها وتوكل" في الترمذي(آخر أبواب القيامة ص٤١٤) وبلفظ "قيده وتوكل" في البيهقي شعب الإيمان، وبلفظ "قيدها وتوكل" في الخطيب رواية مالك وابن عساكر كنز الإيمان، ج٢ ص٢٣ حيدر آباد". وهذا نصه في سنن الترمذي: (٢٥٦٧) حَدَّثَنا أَبُو حَفْصٍ عَمْرُو بنُ عَلِي، حدثنَا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، أَخْبَرَنَا المُغِيرَةُ بنُ أَبِي قُرَّةَ السَّدُوسِيُّ، قَالَ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالك يَقُولُ «قال رَجُلٌ: يَا رَسولَ الله: أَعقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ اعقلْهَا وَتَوَكَّلْ» قَال عَمْرُو بنُ عَلِي، قال يَحْيَى وهَذَا عِنْدِي حَدِيثٌ مُنْكَرٌ.

قال أبو عيسَى: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ لاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بنْ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ عن النبيِّ نَحْو هَذَا. (يوسف عامر).

[2] بر توكل زانوے اشتر به بند.

[3] الكلمات الشرعية هي في الحقيقة أدعية إلى الله تعالى. ويُتبرك بكلامه سبحانه. أما كتابة الآيات والأدعية وتعليقها في البدن أو خلطها بالماء وشربها أو كتابتها بطريقة معينة فغير وارد.

لكن النبي (ﷺ) أنكر عليهم هذا، وبشرهم بأن الله تعالى وعده بأن يدخل الجنة سبعون ألفا من أمته ﷺ بغير حساب، وهم الذين لا يكتوون ولا يسترقون بـل يتوكلون على خالقهم.[١]

وقال في حديث آخر: «من اكْتَوَى أو اسْتَرْقَى فقد بَرِىءَ مِنَ التَّوَكُّلِ»[٢]

---

[١] صحيح البخاري كتاب الطب باب من لم يرق وكتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان، وقد كان أكثر المرضى من الجاهلية يتعالجون بالكي. وهذا نصه فى البخاري: (٥٦٢٠) حدثنا مُسدَّدٌ حدَّثنا حُصَينُ بن نُمير عن حُصَين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جُبَير «عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما قال: خَرَج علينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: عُرِضت عليَّ الأممُ، فجعل يَمرُّ النبيُّ معه الرَّجُلُ والنبيُّ معه الرَّجلان، والنبي معهُ الرَّهطُ، والنبي ليسَ معهُ أحد. ورأيتُ سواداً كثيراً سدَّ الأفق، فرَجوتُ أن تكونَ أُمتي، فقيل: هذا موسى وقومُه. ثم قيل لي: انظرْ، فرأيتُ سواداً كثيراً سَدَّ الأفق، فقيل لي: انظرْ هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاءَ أُمَّتك، ومعَ هؤلاء سبعُون ألفاً يدخلونَ الجنة بغير حساب. فتفرقَ الناسُ ولم يُبيِّنْ لهم. فتذاكرَ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: أما نحن فوُلدْنا في الشرك، ولكنّا آمنّا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا. فبلغَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: همُ الذينَ لا يَتَطيرون، ولا يكتوون ولا يَسترقون، وعلى ربهم يَتوكلون. فقام عكاشة بن محْصَن فقال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. فقام آخرُ فقال: أمنهم أنا؟ فقال: سبقكَ بها عُكاشة». (يوسف عامر).

[٢] جامع الترمذي باب ما جاء في كراهية الرقية. وهذا نصه: (٢٠٧٠) حَدَّثنا بُنْدَارٌ، حدثنا عَبْدُ الرحمنِ بنُ مَهْدِيٍّ، حدثنا سفيانُ عن مَنْصُورٍ عن مُجَاهِدٍ عن عَقَّارِ بنِ المُغيرَةِ بنِ شُعْبَةَ عن أبيه قال، : قالَ رَسُولُ الله: «من اكْتَوَى أو اسْتَرْقَى فقد بَرِىءَ مِنَ التَّوَكُّلِ».

قال أبو عِيسَى: وفي البابِ عن ابنِ مَسْعُودٍ وابنِ عَبَّاسٍ وعِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ.
قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

وليس المقصود من هذا إنكار الوسيلة، بل طمس الأوهام الجاهلية ومحوها. فقد قال النبي (ﷺ) في حديث آخر: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً» (١)

وليس المقصود من هذا الحديث ترك العمل والتدابير؛ لأن الرزق لا يصل إلى بطون الطير وهي جالسة في أوكارها، بل عليها أن تطير وتبحث عن الرزق في الحقول والبساتين. فالمقصود إذن هو أن الأناس المحرومين من التوكل والاعتماد على الله يكونون ضجرين قلقي الخاطر من أجل الرزق، ويرتكبون كل أنواع المحرمات والمعاصي للحصول عليه، ولو تيقنوا معنى قوله عز وجل: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود ٦)**. فلن يرتكبوا جريمة السرقة والنصب والخيانة وغير ذلك. ولن تضجر قلوبهم أو تضيق. بل سيسعون بطريقة سوية لكسب رزقهم. وهذا هو مفهوم الحديث، وهو نفسه أيضاً مفهوم الآية الكريمة: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق ٢، ٣)**.

وضح من الشرح السابق أن التوكل اسم ليقين قلبي، ويشابه لفظ العصامية الذي يستخدم في أخلاقيات اليوم. ويقال إن الأفراد الناجحون هم من وجد فيهم هذا الشيء. الغرور والتكبر يقتربان كثيرا من العصامية هذه،

---

(١) جامع الترمذي أبواب الزهد ص٣٨٨ والحاكم. وهذا نصه في الترمذي: (٢٣٨٢) حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ سَعِيدٍ الكِنْدِيُّ، حدثنا ابنُ المُبَارك، عَنْ حَيْوَةَ بن شُرَيْحٍ، عَنْ بَكْرِ بنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ الله بنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ أَبِي تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيِّ، عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً».

قال أبو عِيسَى: هذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ لاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ. وَأَبُو تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيُّ اسْمُهُ عَبْدُ الله بنُ مَالِكٍ. (يوسف عامر).

فقد قدم الإسلام بدلاً من نظرية العصامية - أي الاعتماد على النفس - نظرية الاعتماد على الله التي هي بمأمن عن كل هذه المخاطر.

الصبر

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف ٣٥).

لقد غطى سوء فهم العوام على حقيقة الصبر؛ فالصبر عندهم هو العجز والهوان ومعناه عدم الانتقام من الأعداء بسبب عجز ما. لكن هل الأمر هكذا ؟

المعنى اللغوي للصبر:

المعنى اللغوي للصبر هو المنع والتحمل، أي أن أمنع نفسي عن الهلع والفزع وأثبتها مكانها. وهذه هي الحقيقة المعنوية أيضاً للصبر. فلا يعني الصبر السكوت وعدم الانتقام عنوة بل يعني القوة والتحكم والصلابة والثبات. وقد ورد هذا اللفظ في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر ثلاث مرات في آية واحدة، وقصدت به كل هذه المعاني في كل مرة من المرات الثلاث يقول سيدنا الخضر:

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ (الكهف ٦٧، ٦٨).

ويقول سيدنا موسى مجيباً عليه:

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾ (الكهف ٦٩).

فالمقصود من هذا الصبر هو ثبات القلب وعدم اضطرابه عند حالة الجهل وإذا واجهتكم بعض الابتلاءات.

وقد ظل الكفار رغم دعوة أنبيائهم لهم بعبادة الله تعالى وحده، قــائمين على الوثنية بكل قوة وعزيمة، وذكر القرآن الكريم قصتهم على لسانهم فقال:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (الفرقان ٤٢).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ (الحجرات ٥).

فلفظ الصبر في القرآن الكريم مستعمل بهذا المعنى. وقد تولــد فــرق طفيف في معناه في بعض الأحيان بتغير الحالات. لكن بالرغم من هذا ترجع كل هذه المعاني إلى الثبات والصلابة. والمفــاهيم المختلفــة للــصبر التــي استخدمها القرآن الكريم هي كالآتي:

التّريّث واختيار الوقت المناسب:

المعنى الأول هو تحمل كل أنواع المــشقة والثبــات علــى الهــدف، وانتظار وقت الظفر. فحين قام النبي (ﷺ) بالدعوة إلى التوحيد وتبليغ الإسلام جهراً للناس في بداية الأمر، انتفضت كل العرب مخالفة له، وبدت مظــاهر العداوة والبغضاء في كل جانب، وأخذت العراقيل والحواجز تعترضه من كل اتجاه وفي كل لحظة. ولطبيعته البشرية اضــطرب الرســول (ﷺ) حينــذاك وتراءى له مكان النجاح بعيدا. لكن رسالة الطمأنينة قد جاءته حينــذاك بــألا تضطرب ولا تخف، وأمض في عملك بخفاء؛ فــالله يرعــاك، لأن أمــر الله تعالى سيأتي في وقته. فقيل:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور ٤٨).

﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ (الأعراف ٨٧).

﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ (يونس ١٠٩).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩).

وفي حالة صراع هذا الانتظار حين تزلزل أقدام الحق الضعيفة المضطربة من ناحية، ويصعب من ناحية أخرى الصياح والضجيج الوقتي للباطل قوة القلوب. في هذا الوقت يجب الثبات على الحق والثقة الكاملة في النجاح. يقول تعالى: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الروم ٦٠)**. وإن حدث وتأخر وعد الله قليلا، فلا تضطرب من المشاكل وتترك الحق وتطيع جماعة الباطل: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ (الإنسان ٢٤)**.

وقد قص الله تعالى على الرسول (ﷺ) قصة سيدنا يونس عليه السلام، الذي كان قد ولى مدبرا؛ لأن العذاب كان قد تأخر على قومه العاصين. ولأن قومه كانوا قد أسلموا من داخلهم، لذا صرف عنهم العذاب. فقيل لرسول الله (ﷺ) اصبر أيها النبي: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (ن ٤٨)**.

التسلي:

المفهوم الثاني للصبر هو عدم الاضطراب والفزع عند المصائب والمشاكل، بل تحملها بفرح وسعادة بوصفها أمر الله تعالى وإرادته، والتيقن من أنه حين يحين الوقت سيعيدها المولى عز وجل برحمته. وقد أثنى الله تعالى على مثل هذا النوع من الناس فقال: **﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ (الحج ٣٥)**.

ويقول سيدنا يعقوب عليه السلام حين سمع من أبنائه الخبر الكاذب بأن الذئب قد أكل سيدنا يوسف: **﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف ١٨)**.

ويقول بعد أن سمع خبر إيقاف ابنه الثاني واحتجازه في مصر: **﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ (يوسف ٨٣)**.

وقد أثنى الله تعالى على سيدنا أيوب عليه السلام الذي تحمل كل أنواع الابتلاءات البدنية والمالية بكل ثبات فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ٤٤).

ويقول سيدنا إسماعيل عليه السلام واضعاً رقبته تحت سكين أبيه العطوف: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات ١٠٢).

عدم المبالاة بالصعاب:

المفهوم الثالث للصبر هو عدم المبالاة بالمشاكل والمخاطر التي تعترض وتواجه الإنسان في سبيل تحقيق الهدف وعدم المبالاة بإيذاء الأعداء وطعن المخالفين وسخريتهم. وألا يتولد من جراء ذلك فساد القلب أو ثبط العزيمة بل يتولد استقلال وصمود. فقد اعترض العظماء مثل هذه الأنواع من الصعاب، لكنهم قابلوها بكل عزم وشموخ حتى تحقق لهم النصر. لذا حينما أمر رسول الله (ﷺ) بالتبليغ والدعوة في المرة الثانية من الوحي، أخبر في ذلك الوقت أيضاً بهذه الحقيقة: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر ١، ٧).

وقد اعترض أكثر الأنبياء عليهم السلام مثل هذا النوع من الأشياء، لذا أمر رسول الله (ﷺ) أن يقلدهم في ذلك فقيل له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف ٣٥).

وقد أمر سيدنا لقمان ابنه أن يبلغ الحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصبر على ما أصابه،فقال له: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ (لقمان ١٧).

وقد تحدى المشركون رسول الله (ﷺ) بسخريتهم واستهزائهم من تأخير مجيء نصر الله لهم ومن الضعف الظاهري للحق، فأُمِر رسول الله (ﷺ) ألا يبالي بسخريتهم واستهزائهم، وألا يحزن وأن يمضي في أمره، وأن ينظر إلى ما صنعه غيره من الأنبياء، فقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ (ص ١٧).

وطريقة تحصيل قوة الصبر هي الثقة بالله والاعتماد عليه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ (طه ١٣٠، ق ٣٩).

ولم يؤمر رسول الله (ﷺ) ألا يبالي بسخرية واستهزاء المشركين فحسب، بل أُمر أيضاً بأن يتحلى معهم باللين والمروءة فقيل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (المزمل ١٠).

العفو:

المفهوم الرابع للصبر هو العفو عن المسيئين والمذنبين، أي إظهار المسحة الأخلاقية. وقد استعمل الصبر في آيات عديدة من القرآن الكريم في هذا المعنى. يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(النحل ١٢٦، ١٢٧).

هذا النوع من الصبر هو – من الناحية الأخلاقية– شجاعة بالغة أُمر بها المسلمون مرات عديدة وقيل إن هذا الصبر يجب ألا يكون بسبب ضعف منكم أو خوف من العدو أو لأي سبب آخر بل لله سبحانه وتعالى وحده، إذ يقول جل شأنه:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد ٢٢).

وإن الملائكة ستهنئهم وتقول: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ **(الرعد ٢٤)**.

هناك أمر خاص في هذه الآية يحتاج إلى تمعن، فقد ذكرت في بدايتها عدة صالحات: الصبر والصلاة والإنفاق ودرء السيئة بالحسنة؛ لكن بالرغم من ذلك تدعو لهم الملائكة لوجود صفة معينة فيهم وهي الصبر؛ لأن هذه الصفة هي الأصل، فمن ستوجد لديه هذه الصفة سيتحمل صعاب العبادة ومشاق المصائب ويقابل السيئة بالحسنة، لذا قيل في آية أخرى إن صفتي العفو ومقابلة السيئة بالحسنة ستكونان فيمن عنده صبر: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٥) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ **(فصلت ٣٥،٣٤)**.

وسيكون عذاب الله تعالى لمن يظلمون الناس، ويمشون في الأرض فسادا، لذا يجب على المسلم صاحب العزم إذا ظلمه أحد أن يصبر ويعفو، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٣) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ **(الشورى ٤٣،٤٢)**.

الثبات:

المفهوم الخامس والأهم للصبر هو الثبات والرسوخ في ساحة القتال وقت الحرب. فقد استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ بهذا المفهوم مرات عديدة، ووصف الناس المتصفين بهذا الوصف بالصدق والتقوى؛ لأنهم أوفوا عهدهم

الذي عاهدوا الله عليه قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٧).

وعند القتال توجد أربعة شروط للفوز هي ذكر الله وطاعة الإمام، والاتحاد وعدم الاختلاف، والصبر والثبات، في ساحة القتال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال ٤٥، ٤٦).

وتتلاشى قلة العدد الظاهرية لأنصار الحق بالقوة الروحانية لهذا الصبر والثبات. وقد مرت في التاريخ وقائع عديدة هزم فيها قلة من الشجعان الثابتين جيوشا جرارة. وقد علّم الإسلام هذا الأمر لأتباعه حين كان عددهم قليل وعدد عدوهم كثير. يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال ٦٥، ٦٦).

وقد أُمر المسلمون في ميدان المعركة بألاّ يبالوا بقلة عددهم، وأن يقاتلوا بصبر وثبات، وأن يثقوا في أن الله تعالى ينصر الصابرين الثابتين. وقد وضح هذا الأمر عند بيان قصة طالوت وجالوت في قوله سبحانه:

﴿ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٤٩، ٢٥٠).

وقد اشترط الله سبحانه وتعالى شرطا لنجاح المسلمين الضعفاء القليلين وفوزهم فقال الله للذين صبروا وثبتوا وواجهوا الصعاب معتمدين على الله:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ (النحل ١١٠).

ويجب خلق جوهر الصبر والاستقامة للحصول على سلطان الدنيا وحكومتها أيضاً. فكان أول درس علمه سيدنا موسى لبني إسرائيل حين واجهوا الكفار بعد خروجهم من تحت عبودية فرعون: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف ١٢٨).

وبالرغم من أن بني إسرائيل كانوا أقل عددا من الأقوام عبدة الأصنام التي تعيش حول مصر والشام وكنعان فإنهم حين أظهروا العزيمة، وواجهوا بشجاعة وقوة وصبر وثبات، حلت كل مشاكلهم واستولوا على سلطنة مستقلة، وظلوا يحكمون الأقوام الأخرى لفترة رغم أنهم كانوا في قبضة أعداء كثيرين. وقد أوضح الله سبحانه وتعالى سر نجاح بني إسرائيل في لفظ واحد هو الصبر، فقال:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

فوضح أن قومًا ضعفاء كبني إسرائيل قد انتصروا على قوة كقوة فرعون؛ لأنهم تحلوا بالصبر والثبات. فكانت نتيجة هذا أن أورثهم الله تعالى حكم أرض الشام المباركة، وقد صرح الله تعالى بهذا في مكان آخر فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(السجدة: ٢٤).

أوضحت الآية السابقة سببين للسيادة التي كانت قد تحققت لبني إسرائيل هما: التيقن بأحكام الله، والثاني الصبر والثبات في تنفيذ هذه الأحكام أو الأوامر. هذان هما الأمران اللذان يعدان حجر أساس رقي كل شعوب

الدنيا. الأول: اليقين –بشدة– بصحة مبادئها، ثم تحمل كل أنواع الصعاب والمشاق في سبيل تنفيذ هذه المبادئ وإنقاذها.

وفي غزوة أحد لم ينتصر المسلمون بل قدّم سبعون منهم أرواحهم فداء لله، فيحزن من ذلك بعض المسلمين. لكن الله تعالى يسمعهم ويقص عليهم سير حياة الأنبياء السابقين؛ حتى يذهب عنهم الحزن والملل فيقول: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٦، ١٤٧).**

لقد أزاحت هذه الآية الكريمة حجب سوء الفهم التي أسدلت على وجه حقيقة الصبر، وقالت إن الصبر لا يكون نتيجة لضعف القلب أو لسكوت العجز أو الاضطرار. بل إن الصبر اسم لصلابة القلب، وعلو الهمة، واستقامة العزيمة، والتوكل على الله في المصائب والشدائد، وعمل الصابر هو ألا يحزن عند مجيء الحوادث، ولا ينهزم وأن يثبت على هدفه ويدعو الله أن يغفر زلاته التي وقعت منه، نتيجة لتقصير أو إسراف، وأن يثبت أقدامه وينصره على مخالفي الحق وأعدائه، لذا أكد الله سبحانه وتعالى أمرين يتحقق بهما الفوز للمسلمين هما: الاعتماد على الله والصبر وتحمل الصعاب.

إضافة إلى فلاح الدنيا، يُسّر فلاح الآخرة – أي الجنة – لأولئك الذين اتسموا بالرجولة والضبط والثبات على الحق. وأحد فوائد اعتراض المشكلات طريق الحق هو أنه يتميز بها الطيب من الخبيث، ويظهران كل على حده. لذا قال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٢).**

ضبط النفس:

إن أكثر وقت حساس في حياة الأفراد والشعوب هو حين الاضطراب لنجاح ساحق أو هزيمة منكرة. في ذلك الوقت يكـون الـتحكم فـي الـنفس وضبطها أمرًا صعبًا لكن هذا هو وقت ذلك الأمر وحينئذ يتولد فى الـشعوب والأفراد وقار وقوة وجدية وقوة الشخصية.

إن الحزن والفرح أو التعب والراحة في هذه الحياة متلازمان، ففيهما تستدعي الضرورة أن يتحكم الإنسان في نفسه ويضبطها. يتحكم فيها حتى لا يغتر بنشوة الفرح، ولا ييأس ويقنط من الهزيمة والألم، فعلاج الأمرين معـاً هو الصبر والثبات، يقول خالق الكون سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ(٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ(١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(هود ٩، ١٠، ١١).

تحمل المشاق وأداء الواجب

ذلك الصبر الذي يكون على الأحداث المفاجئة والمشكلات الطارئـة، يظهر في أداء واجب معين طيلة الحياة بصفة دائمة غير منقطعة، لـذا فـإن أداء الفرائض والأحكام الدينية، التي تكون ثقيلة على الإنسان باستمرار، يُعد صبرا؛ لأن إطاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، وعبادته في كل وقت وحـال، أكبر امتحان لثبات النفس البشرية، لذا أمر الله تعالى فى الآية الكريمة بعبادته **والصبر عليها:**

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ (مريم: ٦٥).

وقال في آية أُخرى في شأن المداومة على الصلاة وأمر الأهل بها:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢).

وقد ورد الصبر في الآيات اللاحقة في هذا المفهوم. فيبشر الله سبحانه وتعالى أولئك الذين كانوا يخشونه ويقول سبحانه:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (الإنسان ١١، ١٢).

والذين يتوبون إلى ربهم ويؤمنون به ويعملون صالحا، ولا يشتركون في الآثام والمعاصي، وإذا مروا باللغو مروا كراما، وإذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا، ويقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، هؤلاء الناس يبشرهم ربهم بفضله وكرمه ويقول: **﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الفرقان ٧٥).**

مفهوم الصبر في الآيتين هو أن نظل طيلة العمر نعمل الصالحات رغم ثقلها ومخالفتها للطبع ومشقتها وصعوبتها، وأن نبتعد عن الطالحات رغم ما فيها من سعادة وراحة ظاهرية، إضافة إلى القيام ليلاً من المضاجع والسجود لله تعالى وأداء ركعتين له سبحانه وقت السحر، والحرمان من ملذات النعم المختلفة، والالتزام بالصوم، والتمسك بالصدق والتحلي به رغم صعوبته حتى في أخطر وأصعب الظروف، وتحمل الشدائد براحة وسكون في سبيل قبول الحق، والبعد عن أموال المرابين، وعدم التمتع بالحسن والجمال المحرمين، وتنفيذ أوامر وأحكام الشرع والحفاظ عليها طيلة العمر. ولأن الصبر صعب وثقيل، لذا كان جزاء الصابرين عند ربهم عظيم وثقيل.

وفي شرح هذه الآيات يخطر بالذهن حديث رسول الله (ﷺ) الذي قال فيه: «**حُجِبَت (حُفت) النارُ بالشهوات، وحُجِبَتِ (حُفت) الجنَّةُ بالمكاره». (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، وصحيح مسلم، كتاب الجنة)**.[1]

أي إن عمل هذه الصالحات التي جزاؤها الجنة يكون صعبا وشاقا على النفس في الدنيا. واقتراف السيئات التي يكون عقابها النار يكون هينا سهلاً في الدنيا. وإتباع أوامر الله تعالى دون مبالاة باللذة أو عدم اللذة غير الدائمة والعارضة، هو صبر وتحمل عظيم. وإذا لم يسل لعاب شخص حين يرى وفرة مال وكثرته وثروة الرجل الغني. ولم يطمع في المال الحرام، ورضي بكل سعادة بالقليل من المال الحلال، فإن هذا أيضاً عمل عظيم، وقوة خارقة لا تعطى إلا للصابرين.

وقد طمع كثير من الطماعين زمن سيدنا موسى عليه السلام حين رأوا مال قارون وثروته. أما من كان يتحلى بالصبر منهم، فقد كان بصيرا، ويرى أن هذه الثروة شيء فان، أما الثروة التي يعطيها الله تعالى عباده الصالحين في الجنة فهي باقية غير فانية.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ (القصص ٧٩، ٨٠)

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق: (٦٣٤٠) حدثنا إسماعيلُ قال: حدثني مالكٌ عن أبي الزِّنادِ عن الأعرج عن أبي هريرةَ أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «حُجِبَتِ النارُ بالشهوات، وحُجِبَتِ الجنَّةُ بالمكاره». (يوسف عامر) وهذا نصه كما ورد في صحيح مسلم: حدثنا **عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ وَ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». (يوسف عامر).**

وسيكون الأجر والجزاء عظيمين لأنهما سيكونان من هـذه الخزانـة التي لا تنفذ ولا تفنى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْـزِيَنَّ الَّـذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل ٩٦)

وقال في موضع آخر: وأقيموا الصلاة لأن الحسنات يذهبن الـسيئات. وأكد نصيحة أخرى لمن قبل النصيحة الأولى فقال: ﴿وَاصْـبِرْ فَـإِنَّ اللَّـهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود ١١٥)

فضائل الصبر وجزاؤه

ماذا سيكون هذا الجزاء ؟ سيكون الجزاء والأجر بغيـر حـساب أو حصر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر ١٠)

وقد عُد الصبر من أعلى المميزات ومحامد الصفات وأعلى الأخـلاق في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُـسْلِمَاتِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَـاتِ وَالـصَّادِقِينَ وَالـصَّادِقَاتِ وَالـصَّابِرِينَ وَالـصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالـصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب ٣٥)

بان من هذه الآية الكريمة أن مكانة الصبر مساوية لأعظم وأرفعهـا الحسنات والصالحات. فبه تمحى وتغفر الذنوب السالفة للإنسان، ويجـد بـه الجزاء والأجر العظيمين في الدنيا والآخرة. وهذا ما بُشر به في آية أخـرى فقيل: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِـينَ وَالْمُـسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْـحَارِ﴾(آل عمران ١٦، ١٧)

في هذه الآية أمر عجيب، وهو أن أوصاف هذه الطائفة أو الجماعة السعيدة قد بدأت بدعاء وانتهت بدعاء أيضاً. فذكرت هذه الأوصاف الأربعة بين الدعائيين. أول هذه الأوصاف هو الصبر، أي تحمل الشدائد والصعاب، وإظهار الرجولة، والصفة الثانية هي الصدق، والثالثة عبودية الله وإطاعته أما الرابعة فهي الإنفاق في سبيل الله.

الصبر والدعاء هما مفتاح التغلب على المشكلات

ولقد ذكرت هذه الأوصاف مجتمعة في بعض آيات القرآن الكريم في لفظين فقط هما الدعاء والصبر، وقيل إن هذين الشيئين هما مفتاح حل المشكلات. ولقد كان لرفض اليهود رسالة رسول الله (ﷺ) سببان هما أن قلوبهم كانت قد قست، والثاني أنهم لم يكونوا يطيقون تحمل الصعاب المالية والبدنية: لأنهم كانوا قد ألفوا الراحة والترف. لذا اقترح عليهم الطب الروحاني لرسول الله محمد (ﷺ) هذا الدواء لمرضهم وهو: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ (البقرة ١٥٣).

فبالدعاء سيتولد في قلوبهم أثر، وفي طبيعتهم حرقة وتأثر. وستبعد بعادة الصبر مشاكل قبول طريق الحق وصعابه. وبعد الهجرة حين استلت قريش سيوفها ضد المسلمين، وجاء وقت اختبار إخلاص إيمان المسلمين وصدقه نزلت هذه الآيات: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ (البقرة ١٥٣ – ١٥٧)

أوضحت هذه الآيات الكيفية التي يجب على المسلمين أن يعيشوا بها، وهي أنه حين يبتلون بمصيبة في النفس أو في المال يجب عليهم أن يتحملوها بصبر وثبات وقوة، ويتأكدون أنهم عبيد الله، وأن مرجعهم إليه، لذا يجب عليهم ألا يحزنوا من الموت ومن نقص المال والثمرات. حتى وإن ماتوا في سبيل الله فإن هذا الموت سيكون بشارة لتلك الحياة الخالدة.

الشكر

﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف ١٤٤)

المعنى الأصلي للشكر في اللغة هو أن يكتمل نمو الحيوان بقليل من العلف وأن يعطي لبناً وفيراً. وتولد من استعمال اللفظ في المحاورات الإنسانية هذا المعنى، وهو أن يصنع شخص عملاً ضئيلا فيقدره آخر حق تقديره. ويمكن أن يكون هذا التقدير على ضروب ثلاثة بالقلب وباللسان وبالجوارح، بالقلب أي أن يكون في القلب الإحساس بقدره أو تقديره، وباللسان أي أن يقر اللسان أعماله، وبالجوارح أي تصدر منه أفعال تظهر عظمة من قام بالفعل.

وكما أن الشكر ينسب إلى العباد، نسبه الله تعالى في القرآن الكريم إلى نفسه أيضاً. والمقصود بذلك أن الله تعالى يقدر تماما الأعمال الصالحة القليلة لعباده ويعطيهم أجرها. والكفر نقيض الشكر. ومعنى الكفر في اللغة الإنكار، وفي الاصطلاح إنكار عمل أو إحسان أي أحد وعدم إقراره باللسان والقلب، وعدم إظهاره بالعمل. ونحن نستعمل لهذا الأمر مصطلح كفران النعمة.

لفظ الكفر هو اللفظ الذي لا يوجد أسوأ منه في لغة الإسلام وقاموسه فنسيان إحسان الله تعالى ونعمه وعدم الامتنان له بالقلب وعدم إقرار ذلك باللسان وعدم إظهاره بالعمل كفر ويسمى مرتكبه كافرًا.

ومن هذا تظهر هذه النتيجة، وهي كما أن الكفر هو أسوأ خصلة في نظر الإسلام، كذلك يكون نقيضه - أي الشكر - أعظم وأسمى صفة في نظر الإسلام. وقد استعمل اللفظان في القرآن الكريم متناقضين فقيل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ (الإنسان ٣) ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ (إبراهيم ٧)

وضح من هذا التضاد أن الكفر إذا كان اسم لإنكار إحسانات الله تعالى ونعمه، فإن حقيقة الشكر تكون معرفة إحسانات الله تعالى ونعمه، وإطاعة أوامره وعبادته بالقلب.

وقد شهد الله تعالى في حق نبيه إبراهيم فقال: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (النحل ١٢٠، ١٢١)

وضح من هذه الآية الكريمة أن شكر نعم الله تعالى وإحساناته يكون باختيار طريق دينه واتباع أوامره والبعد عن شركائه. عند ذلك ستكون النتيجة أن الله تعالى سيقبلنا وسيهدينا الطريق المستقيم في كل علم وعمل.

بان من هذا التفصيل أن الشكر هو جذر الإيمان وأصل الدين وأساس طاعة الله سبحانه. فالشكر هو الإحساس الذي يجب أن يتولد على أساسه في قلب العبد قدر الله وعظمته ومحبته. أي أن الشكر هو اسم لإظهار هذا التقدير والتعظيم والحب القولي والعملي. لذا قال الله تعالى: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً**﴾ (النساء: ١٤٧)

أي أن الله تعالى يريد من عباده شيئين فقط: أولهما **الشكر**. وثانيهما **الإيمان**. وحقيقة الإيمان معروفة. أما الشكر، فكل ما في الشريعة يدخل في

دائرة الشكر، فسائر العبادات شكر، وحسن الخلق مع العباد شكر، وتصدق الأغنياء بجزء من أموالهم في سبيل الله شكر على المال، وإفادة العالم الناس بعلمه شكر على العلم، ومساعدة القوي الضعفاء شكر على نعمة القوة. فالمراد هو أن أكثر أمور الشريعة شرح وتفصيل لهذا الشكر. لذا قال الشيطان لله تعالى: إنني سأضل أكثر عبادك:[1]

﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف ١٧)

وقال المولى سبحانه وتعالى وهو يجزي عباده الصالحين:

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٥)

ويأمر الله سبحانه وتعالى بالشريعة كلها:

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر ٦٦)

ونحن نؤدي هذا الشكر باللسان أحيانا، وأحيانا أخرى بالجوارح. وأحيانا نؤدي ثمنه فنسقط هذا الفرض. وأداء هذا الفرض باللسان يسمى في اصطلاح القرآن الكريم الحمد، ويمتلئ القرآن الكريم بالمطالبة به. لهذا السبب يذكر في الحمد الإلهي تلك الصفات الكاملة التي هي المحرك الأول والأساسي لتلك الإحسانات والنعم. لذا يجب القول إن سورة الفاتحة كما أنها خلاصة القرآن وجوهره، فإن الحمد هو خلاصة سورة الفاتحة وجوهرها. وعلى هذا بدئ القرآن الكريم بسورة الفاتحة، وبدئت سوره الفاتحة بالحمد.

﴿الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١)

إن رعاية وحياة وبقاء كل ما في الكون من مخلوقات عديدة وعجائب متنوعة، عمل ذلك الواحد الأحد. فهي تحيى تحت رعايته وكنفه. لذا فالحمد لهذا الواحد؛ فهو صاحب القدرة العجيبة في الدنيا. وحين تفنى الحياة الدنيا

---

[1] قال الله عز وجل فى كتابه العزيز على لسان إبليس لعنه الله ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٧)

و"تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ" فإن كل شخص سيجد في حياته الأخرى جزاء أعمال حياته الأولى، أي أن المحسن سيجد صلة إحسانه، وسيجد المسيء نتيجة إساءته، وسيدخل أهل الجنة الجنة وسيدخل أهل النار النار. سيكون ذلك حين تكمل هذه الحياة الدنيا دورتها التي خلقها الله سبحانه وتعالى لأجلها. حينذاك سينادى من كل أطراف الكون:

﴿وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (الزمر ٧٥)

ونداء الحمد مرفوع وعالٍ من قبل كل ما في الحياة الدنيا:

﴿لَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الروم ١٨)

والملائكة أيضاً مشغولة بحمده تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (غافر ٧)

بل إن كل من في الكون مشغول بحمد الله تعالى وتسبيحه:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء ٤٤)

هذا هو حمد الشكر وتسبيحه الذي أمر به العباد:

﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ (الحجر ٩٨، طه ١٣٠، غافر ٥٥، ق ٣٩، الطور ٤٨، النصر ٣، الفرقان ٥٨)

وردت أدعية كثيرة لرسول الله (ﷺ) لكل مناسبة ووقت، كأدعية الطعام ولبس الثوب الجديد ودعاء النوم واليقظة. ودعاء أكل الفاكهة الجديدة، والذهاب للمسجد والخروج من بيت الخلاء وغير ذلك الكثير والكثير. وكان الهدف والقصد من كل هذه الأدعية حمد الله تعالى وشكره باللسان على نعمه. لكن يجب أن يكون الشكر باللسان بياناً وترجمة لحال القلب وكيفيته الداخلية.

ويكون شكر الله تعالى على نعمه البدنية التي وهبنا إياها بأن نشغل جوارحنا بتنفيذ أوامر الله تعالى وخدمة أولئك الذين حرموا من تلك النعمة البدنية كالأعرج والمعوق والمريض وغيرهم ممن حرموا نعمة جسدية أو حرموا حركة عضو معين من أعضاء البدن. ويكون شكر النعم المالية

بإعطاء المحرومين من هذه النعمة، وإطعام الجوعى، وسقي العطشى، وكساء العرايا، وإعطاء المحتاجين.

وقد أمر الله تعالى بشكره في آيات قرآنية عديدة بعد ذكر نعم عديدة، لذا سيكون شكره كل نعمة مطابقا لنوعية النعمة الواردة في الآية. فمثلاً يقول تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (الفرقان ٦١، ٦٢)

فقد حث الله تعالى إلى الشكر بعد ذكر نعمه. ويمكن أن يؤدى هذا الشكر بأن نسلم بقدرة هذا القادر، وأن نؤدي في ضوء النهار ونور القمر وسكون الليل هذا الفرض الذي من أجله خلقت لنا هذه الأشياء. ويقول تعالى في سورة أخرى:

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة ٦-٩)

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ٧٨)

في هذه الآيات بيان لنعمة الخلق الجسمانية، ودعوة للشكر عليها، أي أن نعترف بالقلب بإحسانات الله تعالى، ونسلم بربوبيته وكبريائه وتفرده، ونؤمن بأن الذي خلق الحياة وخلقنا فيها قادر على أن يحيينا مرة أخرى بعد الموت وأن يتكرم علينا أيضاً، ثم نؤدي بعد ذلك بجوارحنا الحق الجسماني لتلك الإحسانات والنعم. وورد في آيات أخرى:

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الحج ٣٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾(البقرة١٧٢)

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل ١١٤)

كان هذا هو بيان النعمة المالية والتي يكون شكر الله عليها بواسطة المال.

النوع الثالث للشكر هو أن نحسن إلى من أحسن إلينا. وواضح أن هذا النوع من الشكر لا يمكن أن يكون مع ذات الله تعالى الصمد. بل يكون بالإحسان إلى عباد الله تعالى صاحب الإحسان علينا. وقد قال الله تعالى هذا الأمر لقوم موسى بتلك الألفاظ:

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص ٧٧)

ويسمى هذا قرض الله أو إقراضه. وواضح أن الله تعالى غير محتاج لأن يقرضه أحد لكن هذا القرض يكون بمساعدة عباد الله تعالى المحتاجين، أو بالإنفاق في الأعمال الضرورية. يقول تعالى:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (البقرة ٢٤٥، الحديد ١١)

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (الحديد ١٨، المزمل ٢٠)

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (التغابن ١٧)

ويجب أن يقرأ هذا الحديث الشريف في ضوء تفسير القرض الحسن لله تعالى سالف الذكر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ

استَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي». [1].

وضح من هذا التفصيل كيف يمكن لنا أن نشكر الله تعالى على نعمه البدنية والمالية، وكيف يتسنى لنا سداد قرضه.

وقد طالب المولى سبحانه وتعالى مراراً بشكر نعمه؛ حتى لا نعتقد أننا كنا بأنفسنا دون فضل الله وكرمه أهلا لهذه النعم. فليس لنا حق أسرى ولا حتى حق شخصي أو علمي أو عملي فيها، فكل النعم من فضله تعالى وكرمه، وكل ما سنحصل عليه أيضاً هو كرم الله وعطاؤه. فحين يرى الإنسان كل يوم النعم المنتشرة من الأرض حتى السماء، ويتعود عليها يعتقد أن الله تعالى لم يهبنا شيئا، بل إنها هبة الطبيعة ولا داعي لشكرها. لكن يجب الفهم جيدا أن هذا هو البذر الذي يخرج من فسيلات الكفر والإلحاد. لذا عد

---

[1] صحيح مسلم، باب فضل عيادة المريض. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٦٥٠٨) حدثني مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمِ بْنِ مَيْمُونٍ. حَدَّثَنَا بَهْزٌ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَناً مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي».(يوسف عامر).

المولى سبحانه وتعالى في القرآن الكريم نعمه نعمة نعمة، وأكد شكرها؛ حتى يشبع يقين الربوبية لله بذور إيمان العبد.

إن الإنسان يعتقد بعد أن يحصل على المال والثروة أنه أفضل من غيره، وأن ما حصل عليه كان حقا خاصًا به أو نتيجة لعلم وفن شخصيين له كما فعل وقال قارون قبل ذلك. وهذا هو الغرور الذي يختار شكل البخل والظلم بعد أن يرقى، وهذا ما منعه الله تعالى فقال:

﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الحديد ٢٣، ٢٤)

فالله تعالى غني بذاته عن مال عباده، ومستغنٍ عن شكرهم، فهو الحميد.

والمقصود من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، وبهباته التي وهبها لهم، هي أن يعرف الإنسان قدر المحسن إليه هذا، ويعرف مكانته ويعترف بحقه، ويشكر بروحه وماله وقلبه نعمه وعطاياه سبحانه:

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال ٢٦)

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل ١٤)

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الحج ٣٦)

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص ٧٣)

إضافة لهذا وردت آيات أخرى عديدة أوضح فيها المولى سبحانه أن سبب كل نعمه هو أن يعرف العبد سيده، وأن يعترف بقلبه له بالإحسان. لكن ماذا يكون حال العصاة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ (يونس ٦٠)
﴿لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف ١٠)

وقد أظهر الله سبحانه وتعالى في آية ما غضبه الشديد على عدم شكر الإنسان فقال:

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٧)

وهناك اعتقاد خاطئ في باب الشكر، وهو أن الناس تعتقد أنها بقولها الحمد لله قد أدت شكر النعمة. رغم أن هذا ليس صحيحًا لأن الشكر في الأساس اسم لهذا الإحساس القلبي اللطيف، والذي بسببه نحب المحسن إلينا، ونعترف في كل مناسبة بإحسانه، ونشكره دوما ونسعى جاهدين لأن نرضيه ونقيم أوامره. فحين نؤدي الشكر باللسان فقط، والقلب خال تماما من أثر الامتنان والاعتراف بالإحسان، ولا تكون أعمالنا مطابقة لهذا الأثر، فإننا إذن كذابين فى إظهار اليقين، والاعتراف بإحسان هذا المحسن، ومن ثم لا يقبل الله تعالى هذا الشكر. قال الله تعالى لسيدنا داود وسليمان عليهما السلام، وهو سبحانه يعد عليهما نعمه عز وجل:

﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ (سبأ:١٣)

ثبت من هذه الآية الكريمة أن أثر الشكر لا ينحصر على اللسان فقط، بل يجب أن يظهر من العمل أيضا. ومن ثم يدعو سيدنا سليمان عليه السلام الله تعالى:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩)

فى هذا الدعاء إشارة إلى أنه يجب أن يكون فى الشكر رغبة قلبية للشكر وأن يطابقها عمل الخير أيضا.

يرد فى القلب أن الله تعالى وعد عباده الشاكرين بأنه سبحانه يزيد فى نعمه عليهم كلما شكروه. وتفسير هذا هو أنه كلما ينشط العبد فى عمله شكرا لله تعالى، يزيده الله تعالى نعما على كل عمل يقوم به شكرا لله تعالى. يقـول الله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(إبراهيم:٧).

ويقول سبحانه فى سورة القمر:

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ (القمر: ٣٥).

ويقول سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (الآية ١٤٥).

والحقيقة أنه حين توجد رغبة الشكر فى قلب الإنسان، فلن تكون هناك حاجة إذن إلى تنبيهه إلى الخير فى الدنيا والآخرة، وسوف يعترف بـنعم الله تعالى ويؤمن بها، وينفذ أحكام الله تعالى ويسير عليها، وسيعمل الخيـر مـع عباد الله سبحانه شكرا له تعالى، ويعمل الخير كله إجابـة لإحـسان العبـاد وفضلهم. وقد حث الرسول ﷺ المسلمين على أن يشكر الإنسان أخاه الإنسان على إحسانه وفضله. إذ يقول ﷺ:

"«مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ الله» " [1] (الترمذي، كتاب البر والصلة، باب الشكر لمن أحسن).

يتضح من هذا الحديث أن من لا يشكر الناس على فضلهم وإحـسانهم لا يقبل الله تعالى منه الشكر على إحسان الله وفضله ونعمه عليه.

---

[1] (١٩٥٩) حَدَّثنا أحمدُ بنُ محمد، أخبرنا عَبْدُ الله بنُ المُبَارَك، حدثنا الرَّبِيْعُ بنُ مُسْلِم، حدثنا محمدُ بنُ زِيادٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله: «مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ الله».

قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر)

الخاتمة

انتهى المجلد الخامس من الكتاب، والذي اشتمل على مباحث العبادات. وكان هذا المجلد بياناً لتعليمات النبي (ﷺ) التي قالها (ﷺ) في باب العبادات. تأمل وتمعن كل حرف من هذه التعليمات، فقد أزالت كثيرا من الأوهام والأخطاء، وأوضحت حقيقة العبادات التي هي أهم جزء في الدين. وطرق العبادات التي علمها الله تعالى نبيه محمداً، وعلمها النبي (ﷺ) للناس قد اكتملت وبانت وفصلت بأعمال النبي (ﷺ)وأقواله واشتملت على فوائد الدنيا والدين ومصالحهما. وعالج بها النبي (ﷺ) ضعف القلوب البشرية وأمراضها.

وليس هناك حد للامتيازات النبوية لسيدنا محمد (ﷺ)، وأحد هذه الامتيازات هو أن كل تعاليم النبي (ﷺ) - والتي تدخلها العبادة أيضاً - واضحة وبينة ومعينة بطريقة عملية. ومبرأة من التأويلات والقياسات البشرية اللاحقة. وقد كان هذا ضروريا: لأن نهاية التعليم النبوي لبني البشر قد انتهى به، لذا كان ضروريا أن تكون كل جوانبها واضحة، لا تحتاج إلى توضيح أو شرح أو مجيء أي نبي آخر. وقد أدى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ) هذا الفرض على التمام، وبصورة منقطعة النظير.

صلوات الله عليه وبركاته

١٢ جمادى الثانية ١٣٥٤ هـ

طالب المغفرة **سيد سليمان ندوي**

تمت ترجمة الجزء الخامس وتحقيقه

فى شعبان ١٣٢٦ هـ / ٢٠٠٥م

يوسف عامر

فهرس